

قضايا ونظرات

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

تقرير ربع سنوي

العدد العشرون - يناير ٢٠٢١



قضايا ونظرات

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

تقرير ربع سنوي

يصدر عن مركز الحضارة للدراسات والبحوث

العدد العشرون - يناير ٢٠٢١

الموقع الإلكتروني: www.hadaracenter.com

المراسلات: alhadara1997@gmail.com

محتويات العدد



رؤية معرفية



عن سيولة النظام الدولي: ازدواجية المعايير والصدع بين الشعوب والنظم

أ.د. نادية مصطفى(*)

تتوالى مفردات مثل: سيولة، نهاية، ما بعد... تعبيرًا عن عدم اكتمال عملية تغير أو تحول. ويعد النظام الدولي المستوى التحليلي الأكثر وصفًا له بهذه المفردات. فمنذ ثلاثة عقود مازال التساؤل قائمًا عن: ماذا بعد نهاية الحرب الباردة وانهيار القطبية الثنائية وسقوط الشيوعية في الكتلة الشرقية ١٩٩١؟ وبالطبع تتركز الإجابات على "حالة الكبار" (في الشمال والشرق)، ولا يتم استدعاء حالة "الصغار" في الجنوب إلا على سبيل الاستثناء حين يبرز وضعهم مفعولا بهم في لعبة الكبار: عسكريًا أو اقتصاديًا أو ثقافيًا. وللأسف كانت الحرب الأمريكية العالمية على ما يسمى بالإرهاب هي المظلة التي قفزت بهذا الجنوب –وفي قلبه العالم الإسلامي– إلى سطح التفاعلات الدولية، ولقد أضحى لهذه الحرب الأولوية على أجندات الكبار والصغار وإن اختلفت الدوافع والأهداف بالطبع.

وتدور خطابات السيولة والمابعديات عادة حول عدة محاور تقليدية: هيكل النظام الدولي، العمليات الدولية، الفواعل ومستويات التحليل ومنظومة القيم وأجندة القضايا العالمية، ولم يتم طيلة الثلاثة عقود الأخيرة حسمُ هذه الحالة أو فصل الخطاب في النقاش الأكاديمي والفكري حول مآل السيولة في كل محور من هذه المحاور.

وتتعدد النماذج عبر كل عقد من العقود الثلاثة الماضية، إلا أن العقد الثاني من الألفية –وخاصة عامه الأخير (٢٠٢٠) –كان زاخرًا بالنماذج ذات الطبيعة الخاصة؛ أي النماذج المتصلة بالشعوب وبالصدع بين هذه الشعوب والنظم التي تحكمها. ولم تلق هذه النماذج اهتمامًا جامعًا ناظمًا لها يبرز حجمها وتنويعاتها وتأثيراتها النظمية الكلية على "مآلات التغيير العالمي"، "ومآلات سيولة النظام الدولي". والمقصود بهذه النماذج تلك التي تتصل بمنظومات القيم والخصوصيات التي تتواجه الشعوب مع النظم حولها؛ سواء شرقًا أو غربًا، شمالاً أو جنوبًا؛ سعيًا من هذه الشعوب نحو تحقيق أهداف العدالة والكرامة الإنسانية.

فبالرغم من اختلاف سياقات وأوضاع هذه الشعوب المنتشرة عبر أرجاء العالم، إلا أن العدالة والكرامة الإنسانية تظلان على رأس أهداف مشتركة جوهرية في مواجهة أوضاع متعددة ومتنوعة من الظلم والفساد والهيمنة، فالعدالة والكرامة الإنسانية في قلب القضايا القيمية الأخلاقية التي تتعدد مسائلها من مكان لآخر.

وتقدم الورقة رؤية ترصد وتشرح خريطة التباينات بين هذه النماذج على النحو الذي يحاول اختبار المقولة التالية: إن التغيير العالمي الذي تنشده الشعوب، أيًا كان موضعها الجغرافي السياسي، هو التغيير الذي يجب أن يحسم سيولة النظام الدولي الراهنة نحو حالة أكثر عدالة وإنسانية؛ سواء سياسيًا أو اقتصاديًا أو ثقافيًا، للمجتمعات والنظم المكونة لهذا النظام الدولي، إلا أن هذه الشعوب تظل تصطدم بالقوى الداخلية والعالمية التي تحاول الحفاظ على أوضاع هيمنتها الراهنة؛ سواء للقوة العسكرية أو الاقتصادية أو هيمنة عرق أو ثقافة أو حضارة.

(*) أستاذ العلاقات الدولية المتفرغ، بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية/ جامعة القاهرة، ومدير مركز الحضارة للدراسات والبحوث.

ولقد زخرت الساحة العالمية خلال ٢٠٢٠ بالعديد من النماذج الشارحة لهذه الحالة العامة. ولقد كان لتداعيات وباء كورونا على تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بل والنفسية، أثره الكبير على صعود النماذج "الاحتجاجية الشعبية المدنية" المتعددة والمتنوعة.

ولكن هذه النماذج أبرزت أمرين آخرين: الأمر الأول- هو أن أولويات المسائل لدى الشعوب في الغرب الموصوف بالمتقدم الديمقراطي تختلف عن نظائرها لدى شعوب "الجنوب" الموصوف بالمتخلف غير الديمقراطي، كما تختلف أنماط الصدع بين الشعوب وبين النظم في كل مجموعة. والأمر الثاني- هو أن نضالات الشعوب على الجانبين شمالاً وجنوبًا لا تتحاضن ولا تتكاتف بصورة كاملة وفعالة عبر الحدود وعبر الفضاءات رغم ما قد يبدو من خلاف ذلك في بعض الأحيان. فمتطلبات الأطر الداخلية الوطنية تحتل الأولوية رغم أن النجاحات على صعيدها قد تتطلب التحاضن عبر الحدود وعالميًا لخدمة القضيتين الأساسيتين؛ أي العدالة والكرامة الإنسانية، مهما اختلفت سياقاتهما من مكان لآخر.

ويبدو أن هذه المقولة المركبة، كما سيتضح من النماذج الشارحة، تطرح السؤال التالي: من أين يأتي حسم السيولة في النظام العالمي الراهن حول هذا المجال "القيمي–الحقوقي الإنساني": من الداخل؟ ولكن من أين في هذا الداخل؟ وما هي القوة القاطرة؟ وكيف يتحاضن الداخلي مع الخارجي في الفضاء العالمي المتعدد؟

(١)

لقد شهدت الولايات المتحدة ودول أوروبية -وخاصة فرنسا وبريطانيا وألمانيا- خلال ٢٠٢٠ نماذج احتجاجية رفضًا للعنصرية والشعبوية، ودفاعًا عن الديمقراطية والتعددية الثقافية؛ وهي نماذج متصلة بأزمة الديمقراطية السياسية والتماسك المجتمعي في هذه الدول وما لها من امتدادات خارجية.

وكانت حملة الانتخابات الرئاسية الأمريكية وعملية الانتخابات وعملية انتقال السلطة، اختبارًا مهمًا لديمقراطية المؤسسات الأمريكية ولثقافة المجتمع الأمريكي التعددي في مواجهة أحادية وعنصرية وشعبوية التيار اليميني المحافظ الأصولي الصاعد بالتدريج منذ إدارة الرئيس رونالد ريجان وحتى اتخذ مظاهر فجة غير مسبوقة مع إدارة دونالد ترامب. ومن ثم أضحت الشهور الأخيرة من ٢٠٢٠ مفصلاً انتقاليًا في تكييف السياسات الأمريكية الداخلية: هل ستنجح في استعادة قوة ومصداقية نموذج إناء المزج/ بوتقة الصهر melting pot؟ أم ستطيح بها العنصرية والشعبوية وعلى نحو تمتد آثارة إلى أرجاء العالم؟

وإذا كانت المظاهرات الأمريكية ضد العنصرية قد امتدت إلى بريطانيا وفرنسا ودول أوروبية أخرى، فإن من الواضح أنها لم تمتد إلى أشكال العنصرية الأخرى في العالم؛ مثل: العنصرية الصهيونية الاستيطانية، بنفس القوة والإصرار التي واجهت بهما العنصرية في الداخل الأمريكي أو الأوروبي. فلم تكن العنصرية والشعبوية الأمريكية الصاعدة في ظل إدارة ترامب قاصرة على الداخل الأمريكي ولكن امتدت إلى الخارج. فبالرغم من اتجاهات "الانعزالية" الأمريكية لإدارة ترامب المتمثلة في الانسحاب من المؤسسات والمشروعات متعددة الأطراف، إلا أن الأذرع التدخلية الأمريكية ظلت قائمة دفاعًا عن "العنصرية الاستيطانية الإسرائيلية" وعن "الاستبدادية" الحاكمة في نظم عربية عدة وعن "التطبيع العربي الإسرائيلي"، وكانت سياسات إدارة ترامب داعمة لكل هذه الأشكال ودافعة بها.

واستخدمت إدارة ترامب وبإصرار سياسة العصا والجزرة في مواجهة الدول العربية لتقبل التطبيع ولتعلن عنه بفجاجة وحماسة، وتدافع عنه بذرائعية مصلحية مادية فجة تسقط كل اعتبارات حقوق الشعوب في أوطانها. فجاء رفع اسم السودان من القائمة الأمريكية للدول الراعية للإرهاب، والاعتراف بالصحراء الغربية المتنازع عليها بين المغرب والجزائر جزءًا من المغرب، بمثابة

الجزرة لكل من نظام السودان الانتقالي بعد ثورة، والنظام الملكي المغربي الذي يرأس لجنة القدس في منظمة المؤتمر الإسلامي وتتصدره حكومة ذات توجه إسلامي. ولقد سبق هذه "الجزرات" لدولتي السودان والمغرب "العصا" مع دول الخليج وخاصة الإمارات والسعودية والبحرين؛ وهي عصا التهديد بإيران وعصا التهديد برفع الحماية الأمريكية العسكرية (غير مدفوعة الثمن).

وفي المقابل ظهر التصدي للشعبوية اليمينية العنصرية أيضًا في دول أوروبية مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا؛ وهي التي أطلت برأسها في ظل أزمة اللاجئين إلى أوروبا وأزمة الإرهاب العالمي، كاشفة عن جذورها القومية القديمة التي سبق وتحركت، تاريخيًا، في ظل سياقات داخلية وعالمية مختلفة (الفاشية والنازية على سبيل المثال). وتمثل الأصوليات اليمينية سواء الدينية أو القومية، في أوروبا التحدي الأساسي لنموذج الديمقراطية التمثيلية الأوروبية العتيدة، وهي تقترن، وإن كانت لا تتطابق معها في الدوافع والأهداف، مع حركات اليسار الراديكالي ضد فشل الرأسماليات المتوحشة في علاج أزمات العدالة الاجتماعية والرفاهية المجتمعية.

والتظاهرات ضد قانون الأمن الشامل في فرنسا لما تمثله بعض مواده من انتهاك لقيم ومبادئ الجمهورية بذريعة الحفاظ على الأمن، وكانت تلك المظاهرات دفاعًا عن الحرية وجهًا آخر مقابلًا ومكملًا للتظاهر ضد العنصرية والشعبوية اليمينية الصاعدة في فرنسا.

إلا أن الوجه الآخر اللصيق بهذا التصعيد الشعبوي العنصري بل وقد يكون أحد أسبابه، وكما اتضح في فرنسا بصفة خاصة، هو تصعيد الهجوم على ما أسماه ماكرون "الإرهاب الإسلامي" أو "الانعزالية الإسلامية" في فرنسا؛ وهو الأمر الذي تطلب قوانين "للإدماج القسري للمسلمين في فرنسا تحت ذريعة تعزيز العلمانية وحماية قيم الجمهورية، حتى لو اقتضى الأمر انتهاك أهم مبادئ هذه الجمهورية؛ وهي الحرية والمساواة؛ تلك الشعارات التي تتزين بها فرنسا -دومًا- بحثًا عن دور عالمي ثقافي أو فكري حين تفقد الدور السياسي والاقتصادي العالمي.

وكان المبرر والذريعة دائمًا هو مواجهه "الإرهاب الإسلامي"؛ حيث لم تخلُ الساحة الفرنسية من أحداث إرهابية في عدة مدن فرنسية، وكان رد ماكرون عليها أكثر تطرفًا وأصولية في الدفاع عن دين الجمهورية الفرنسية؛ أي العلمانية الفرنسية.

أما في بريطانيا، فلقد اقترن التصدي للأحادية الثقافية والشعبوية اليمينية والعنصرية، بالعودة إلى "القومية الجارفة" التي تمثلت في الانسحاب من الاتحاد الأوروبي وما أثاره من أزمات سياسية متعاقبة في النظام البريطاني طيلة ثماني سنوات تقريبًا. ولم يخلُ المشهد البريطاني طيلة هذه السنين من أعمال إرهابية قام بها مسلمون إلا أن النظام البريطاني؛ وهو نظام يقوم على التعددية الثقافية، لم يشهد نمط إدارته لوضع "المسلمين" في بريطانيا نفس ما يشهده مسلمو فرنسا منذ ما يقرب من العقدين (منذ قانون حظر الرموز الدينية الذي طال الحجاب ٢٠٠٤).

وفي المقابل، فإن سياسة ميركل المتوازنة تجاه قضية اللاجئين إلى أوروبا وألمانيا كانت من أهم أسباب صعود اليمين الألماني في الانتخابات المحلية، وساعد على ذلك تكرار أعمال الإرهاب التي قام بها لاجئون. إلا أن مظاهرات الاحتجاج ضد العنصرية والنازية الصاعدة كانت تتصدى لمظاهر هذه العنصرية في المجال العام. هذا ولم تكن النمسا بعيدة عن هذه المشاهد بصورة أو بأخرى قبل وبعد الأحداث الدموية التي شهدتها في نوفمبر ٢٠٢٠.

بعبارة موجزة: هذه النماذج الأوروبية يجمع بينها بوضوح، رغم تنوع درجاتها، أمر أساس؛ وهو أن الوجه الآخر للحملة ضد العنصرية والشعبوية التي تهدد سلم المجتمعات الأوروبية هو الموقف من الوجود المسلم في أوروبا وفي جوارها القريب جنوب وشرق المتوسط؛ سواء العربي أو التركي، وفي جوارها الأبعد جغرافيا ولكن اللصيق مصلحيًا وثقافيًا؛ أي أفريقيا. فالمواقف الأوروبية

تجاه هذا الوجود المسلم في أوروبا ليست متطابقة؛ سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، إلا أن المشترك هو ما يمكن وصفه "بعدم الارتياح الأوروبي العام" من تزايد هذا الوجود عددًا وتجليات.

(٢)

وعبر عالم "الجنوب" بتنويعاته الحضارية وسياقاته الإقليمية المختلفة، تكررت مشاهد الاحتجاجات الشعبية على النظم العسكرية أو الفاسدة أو الأصولية أو القومية المتعصبة.

ففي أفريقيا، شهدت أوغندا مثلًا موجة من الاحتجاجات العنيفة في نوفمبر ٢٠٢٠ عقب إلقاء القبض على أحد المرشحين الرئاسيين في انتخابات يناير ٢٠٢١ ضد موسيفيني الرئيس الحالي.

وفي آسيا، مثلت احتجاجات هونج كونج الرافضة للتدخلات الصينية المقيدة للحريات المدنية والسياسية، نموذجًا واضحًا على المواجهة بين الأيديولوجية الليبرالية سياسيًا واقتصاديًا، التي يتبناها جيل جديد من شباب هونج كونج (المستعمرة البريطانية السابقة وحتى ١٩٩٧ وتحت السيادة الصينية حتى الآن في إطار من الحكم الذاتي)، وبين الأيديولوجية الصينية. وتضع هذه المظاهرات ومآلاتها شكل العلاقة المستقبلية بين الصين وهونج كونج على المحك، وخاصة بعد إصدار الصين، كرد فعل على مطالب المظاهرات، ما يعرف بقانون تسليم المجرمين الهاربين هذا العام.

وفي تايلاند اندلعت منذ فبراير ٢٠٢٠ المظاهرات ضد الحكم شبه العسكري للمطالبة بحكم مدني وتشكيل حكومة جديدة ودستور جديد وإصلاح النظام الملكي، وكانت بداية تلك الموجة من الاحتجاجات في الحرم الجامعي ونظمها الطلاب وانتشرت إلى أنحاء البلاد على ثلاث مراحل: الأولى في فبراير، والثانية في يوليو، والثالثة في أغسطس ٢٠٢٠؛ علمًا أن هذه الاحتجاجات قد سبقتها احتجاجات في عامي ٢٠١٣– ٢٠١٤.

وشهدت جمهورية قيرغيزستان، في آسيا الوسطى، مظاهرات حاشدة أودت بالحكومة القائمة ودفعتها للاستقالة؛ وذلك عقب الانتخابات التي فاز فيها أنصار الرئيس، ولكن المعارضة ومراقبين دوليين أعلنوا أنها شهدت أعمال تزوير، وعقب الاضطرابات ألغت السلطات نتائج الانتخابات، وأعلن الرئيس استعداده للاستقالة بمجرد تعيين حكومة جديدة.

وشهدت الهند، منذ ضم الجزء الهندي من كشمير، ومنذ إصدار قانون الجنسية (أو المواطنة) في ٢٠١٩ في ظل حكم الحزب الهندوسي المتعصب، مظاهرات حاشدة ضد انتهاك علمانية ومدنية النظام الهندي والمساس بديموقراطيته التعددية في مقابل مظاهرات أكثر حشدًا ذات طابع عنصري هندوسي متطرف ضد المسلمين بصفة خاصة.

ولم تسلم جمهورية إيران الإسلامية، من المظاهرات ضد تردي الأوضاع في ظل كورونا، وأخرى ضد التدخلات الأمريكية والعقوبات المتنامية على إيران وضد اغتيال كل من قاسم سليماني القيادي في الحرس الثوري الإيراني، ود.فخري زاده العالم النووي. ومهما حاولت وسائل إعلام أمريكية تقديم هذه المظاهرات على أنها معارضة للنظام الإيراني تهدد استمراره، فإن هذه المظاهرات لم تكن بالقدر الكافي الذي تفترضه طبيعة الأوضاع الاقتصادية في إيران في ظل العقوبات الأمريكية وفي ظل تنامي الإنفاق العسكري الإيراني والمناورات المستمرة في مواجهة التهديدات الأمريكية الإسرائيلية بحرب على إيران.

وفي تركيا، ورغم كورونا ومصاعب الاقتصاد التركي ورغم التحالفات الإقليمية في شرق المتوسط ضد المصالح التركية، فإن المظاهرات الحاشدة خرجت احتفالاً بحكم المحكمة العليا بتصحيح وضع آيا صوفيا، لتعود من جديد إلى مسجد جامع كما كان وضعها قبل قرار تحويلها في عام ١٩٣٤ إلى مزار سياحي.

وعلى هذا المنوال من المظاهرات الحاشدة من أجل العقيدة والهوية الإسلامية، تأتي مظاهرات جنوب شرق آسيا ضد صفقة القرن وضد تهويد القدس وضد التطبيع العربي مع إسرائيل، والأهم ضد تشويه صورة رسولنا ﷺ وعدم منع تداولها بذريعة احترام وحماية حرية الرأي والتعبير التي أعلنها ماكرون، وهي المواقف التي فجرت هذه المظاهرات وحملة المقاطعة للمنتجات الفرنسية.

والجدير بالإشارة أن الشعوب العربية في مجملها لم تشهد مظاهرات دفاعًا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما شهدت من قبلِ أكثر من عقد من الزمان حين فُجعت الأمة بما عرف حينئذ بالرسوم الدانماركية. ولقد خرجت دعوات من شيوخ السلطان —سواء في مواقع رسمية أو غيرها– بتحريم المواقف العدائية ضد فرنسا أو مقاطعة المنتجات الفرنسية بل ودعوة مسلمي فرنسا للامتثال الكامل لنظام الجمهورية الفرنسية.

وعلى صعيد آخر، لم تخرج مظاهرات في الدول العربية ضد صفقة القرن أو ضد التطبيع مع إسرائيل أو ضد الاستبداد والفساد والظلم، إلا من قبيل الاستثناء؛ وذلك في لبنان بعد انفجار مرفأ بيروت وفي العراق أيضًا، خاصة مع استمرار الفشل في تكوين حكومات فعالة ومستقرة في البلدين لمواجهة الانهيار الكامل الاقتصادي في البلاد. ناهيك عن المطالب الشعبية المدنية ضد الطائفية والحزبية التي تقسم أواصر البلدين.

وبذا يمكن القول: إن موجه الثورات العربية الثانية في لبنان والعراق قد تم وأدها، مثلها مثل الموجة الأولى التي اندلعت منذ عقد من الزمان، ولم يبق منها إلا مظاهرات ظرفية طارئة، يجدد بها الشعبان اللبناني والعراقي الإعلان عن أنهما مازالا على طريق المطالبات حتى ولو لم تتحقق الاستجابات. وبالمثل، ومن آن لآخر، تصدر الأنباء عن مظاهرات محدودة في أرجاء اليمن ضد تدهور الأوضاع الإنسانية في ظل استمرار الأعمال العسكرية للتحالف العربي وللحوثيين على حد سواء.

كما تصدر الأنباء أيضًا عن مظاهرات محدودة النطاق لمجموعات من الليبيين؛ سواء في طرابلس ضد معسكر حفتر أو سواء في بنغازي ضد معسكر الوفاق. أما الجزائر فلقد وأدت كورونا من ناحية، والانتخابات الرئاسية والبرلمانية الثورة الجزائرية التي امتدت مظاهراتها الأسبوعية لما يزيد عن العام (٢٠١٩). وفي تونس فإن الحراك العلماني المتعصب ضد حركة النهضة شاهدٌ على مدى التحول في أساليب المعارضة العلمانية، المدعية للمدنية والحداثة، من السلمية إلى عنف اللفظ واليد داخل أروقة البرلمان وخلال اجتماعاته وعلى نحو شل من العمل البرلماني.

وفي المقابل تظل حاضرة مقاومة غزة المحاصرة ومقاومة أهل القدس المرابطين ضد تهويد الأقصى، ومظاهرات أهل الأردن ضد صفقة القرن وضد ممارسات ترامب ونتنياهو وبالطبع ضد التطبيع مع إسرائيل.

بعبارة موجزة: فإن موجات الغضب الشعبي واحتجاجاته في الدول العربية، محدودةُ النطاق وقاصرةٌ تقريبًا على ما تبقى من القضية الفلسطينية وعلى ما يتصل برسولنا الكريم ﷺ. وفي المقابل تلاشت أو توارت الاحتجاجات ضد الظلم والفساد والاستبداد وانتهاك حقوق الإنسان، ليس لانعدام هذه الأمور في الفضاء العربي السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ولكن نظرًا للقيود الأمنية الشديدة التي تحول دون هذه الاحتجاجات إلا بثمن شديد الكلفة.

إذًا، كيف يمكن أن يحدث التغيير من الداخل في الجنوب بصفة عامة، وفي الفضاء العربي بصفة خاصة، والقدرات المطلوبة معدومة أو مقيدة؟ سواء بفعل الفقر أو الجهل أو المرض أو بفعل القيود السياسية والأمنية أو بفعل سحر الأذرع الإعلامية للنظم التي تعمل على إعادة تشكيل الوعي العام بالحقائق أكثر من مائة مرة في اليوم الواحد؟! أو بفعل أصحاب المطامع الجدد الذين

يجدون مصالحهم مع الاصطفاف مع النظم القائمة بعد تخلصها من أذرعها السابقة التي استنزفت توظيفها في أدوار المساندة والتعبئة السابقة ضد موجة الثورات الأولى التي اندلعت منذ عقد من الزمان.

إذًا، هل التغيير يمكن أن يأتي من الخارج؟! بالطبع لا، وإلا ستواجه الشعوب خبرات سلبية واجهتها حالات سابقة تأكد خلالها أن التدخلات الخارجية، بأي شكل: سياسي أو اقتصادي أو عسكري، ليست بالطبع خالصة النوايا، ولكن تحركها حسابات ومصالح ضد مصالح الشعوب. وليست حالة أفغانستان ٢٠٠١ ثم العراق ٢٠٠٣ ثم حالة الثورات العربية، والثورات المضادة، إلا نماذج واضحة على عقم الاعتماد على الخارج وخطورة أن تكون النظم الاقليمية –الدولية معادية للتغيير، التدريجي أو الثوري.

خاتمة القول: إن الشعوب في الغرب تتصدى وتكشف الآن عن أوجه أزمات الديمقراطية الغربية العتيدة، والتي سبق وتباهت أكثر من ثلاثة أرباع القرن (منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة) بإنجازاتها في تداول السلطة السلمي، وفي حكم القانون، واحترام حقوق الإنسان. وهي –للأسف- نفس الديمقراطيات التي فشلت في اتباع سياسات خارجية تحقق العدالة والرفاهية لشعوب أخرى في العالم ابتليت بالاستعمار الأوروبي في أشكاله المختلفة عبر عدة قرون.

ولقد امتلكت هذه الشعوب خلال احتجاجاتها أدوات ومؤسسات تضبط عملية الاحتجاج لتحقق التكيف مع الجديد من التحديات، وللعبور إلى مرحلة جديدة من تطور نفس "النظم الديمقراطية الرأسمالية"، التي تسيطر عليها قوى اقتصادية وسياسية وعسكرية تناضل بدورها للحفاظ على الوضع الراهن لهيمنة النظام الرأسمالي الديمقراطي في نموذجه الحضاري الغربي الحداثي.

خرجت هذه الشعوب الغربية وتحدت ورفعت صوتها واستطاعت، من خلال المؤسسات والصناديق الانتخابية والشوارع، أن تؤثر في توازنات القوى السياسية والاجتماعية المتنافسة، ولكن لم تتمكن حتى الآن من إحداث تغيير جوهري تمتد أثارة إلى بقية أرجاء العالم الذي يرنو إلى العدالة وحقوق الإنسان ولو في طبعات حضارية أخرى.

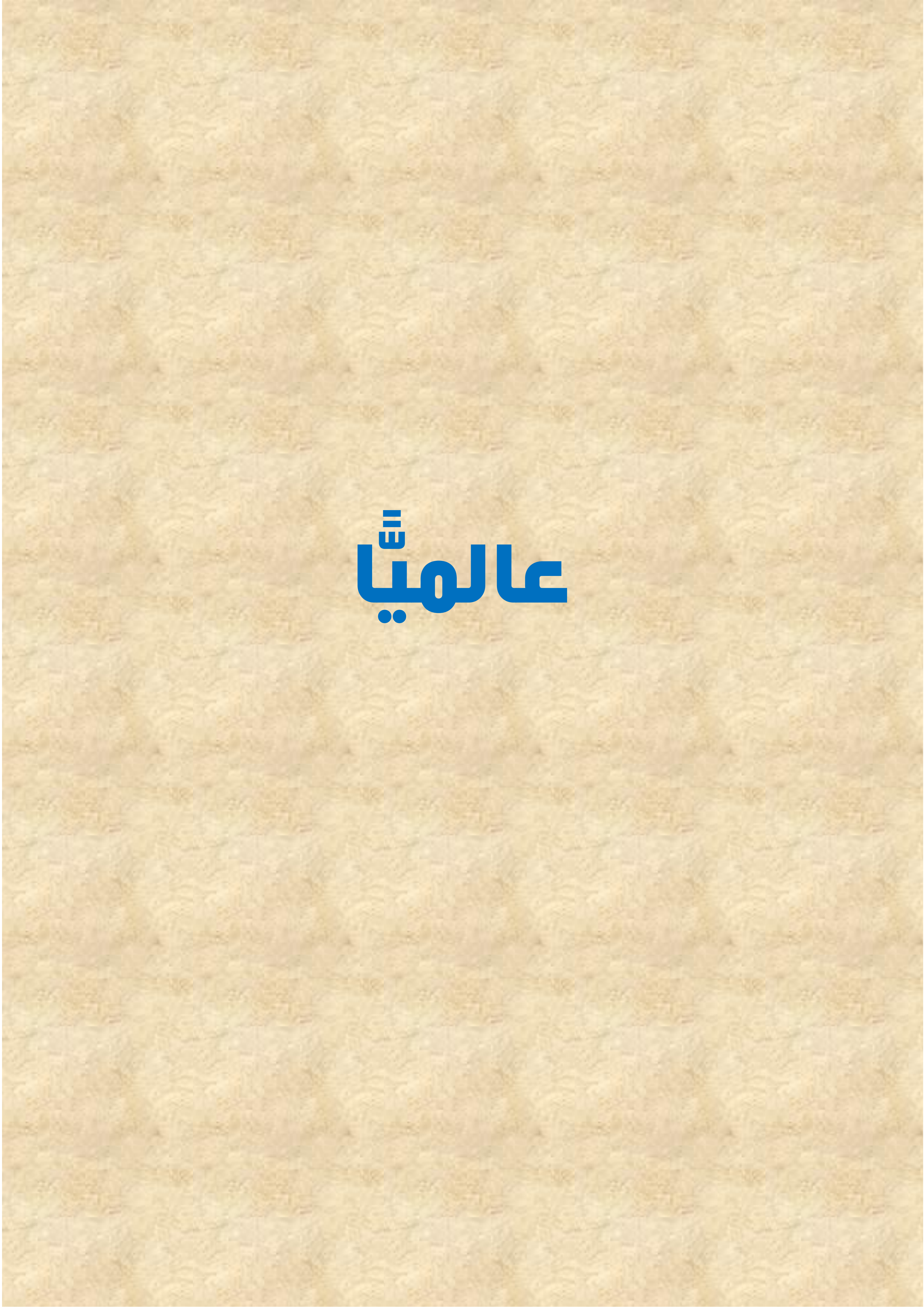
أما الشعوب في الشرق بصفة عامة وفي القلب العربي الإسلامي، فهي أقل قدرة على الاحتجاج –ولا نقول الثورة- مطالبة بالتغيير. والطريق أمامها ما زال طويلاً وشديد الكلفة لتحقيق تغيير سريع وجذري، ومع ذلك فإن البؤر المضيئة بالمقاومة المدنية السلمية للتغيير التدريجي اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا تمثل الملاذ الممكن حتى الآن، وهي تحظى بمساندة ودعم من نظائرها في الخارج، من مؤسسات المجتمع المدني العالمي في مجالات التنمية وحقوق الإنسان والتغيير المجتمعي.

ولكن تظل اختلافات السياقات والخصوصيات الحضارية، بين الشمال والجنوب، عائقًا يحول دون تحقيق مجتمع مدني عالمي حقيقي يقوم على التعدد والتنوع الحضاري، في ظل رابطة جامعة عادلة إنسانية تعددية. ويزداد الأمر صعوبة، على عكس اعتقاد البعض، مع الثورة المعلوماتية والتكنولوجية المتزايدة، فهي لا تزيد الفجوة بين النظم والحكومات فقط ولكن أيضًا بين الشعوب، وخاصة أنها تحمل في ذاتها منظومة قيمية مادية استعلائية، ترفع من قدر العلم المتجاوز للقدرة البشرية العادية، من ناحية، وتزيد من ناحية أخرى بفعل وسائل التواصل الاجتماعي من القدرة على اكتشاف أو تسويق منظومات من الثنائيات الاستقطابية الذرائعية "التي تزيد من حيرة المؤمن الحليم"؛ من قبيل: بادين أم ترامب، كورونا مؤامرة أم عقاب إلهي، التطبيع مع إسرائيل مصلحة أم خيانة، ممارسات التحالف العربي في اليمن ضد الحوثي وإيران أم خدمة لإسرائيل، الأمن ومواجهة الإرهاب أم حقوق الإنسان، حماية البيئة أم مصالح الرأسمالية والتنافسية الاقتصادية، المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني أم أنه إرهاب وتطرف، حماية الدولة ولو ظالمة أم حق المعارضة والثورة على الظلم، الانتماء للأمة أم الوطنية الشوفينية؟!!!

*****

ملف العدد:

مآلات عام من الشد والجذب شرقًا وغربًا



عالمياً



أزمة تصريحات ماكرون حول الإسلام: قراءة في أبرز القضايا الجدلية

شيماء بهاء الدين(*)

مقدمة:

إن دراسة الإشكاليات والأزمات ذات الأبعاد الحضارية والمتصلة بالعلاقة بين الثقافات والأديان لم تعد ترفًا فكريًا، ولم تعد حكرًا على سجالات الفلاسفة بل أضحت تمس عموم قاطني المعمورة، خاصة بعد أن أصبحت الاختلافات بين الجماعات على مستوى العالم مادة يتلاعب بها الساسة وأصحاب المصالح من مختلف الأطراف بلا استثناء، غير مكترثين بما قد يودي به تصريح مسيء أو فكرة صراعية أو سياسة عنصرية من هنا أو هناك (غالبًا بهدف التوظيف السياسي وتحقيق مصالح ضيقة)، إلى العنف وفقدان أرواح البشر على نحو قد يصل إلى حد الإبادة الجماعية: المواجهات مع المسلمين في الهند، ما يحدث في ميانمار، ما وقع في فرنسا مؤخرًا من حوادث عنف متبادلة بسبب تصريحات ماكرون حول الإسلام وتأييده الرسوم الكاريكاتورية المسيئة.

ومن ثم كان من الضروري التوقف أمام الأبعاد الفكرية والسياسية للحالة الفرنسية الراهنة وما يمكن أن تسببه من تداعيات تحديدا فيما يتعلق بأوضاع الجاليات المسلمة، وهذا ما يقوم عليه ذلك التقرير.

في خطاب ألقاه يوم الجمعة ٢ أكتوبر ٢٠٢٠، في (ليه موروه) أحد أحياء ضاحية باريس، خرج الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون بتصريح مستفز جاء فيه "أن الإسلام يعيش اليوم أزمة في كل مكان في العالم، ونحن لا نرى ذلك في بلادنا فقط. إنها أزمة عميقة مرتبطة بالتوترات بين الأصولية، وعلى وجه التحديد المشاريع الدينية والسياسية، نراها في كل العالم، وتؤدي إلى التشدد حتى في البلدان التي يعتبر الإسلام فيها دين الأغلبية".

استرسل ماكرون في خطابه هذا ذاكرًا فيه الإسلام؛ بشكل مباشر أو غير مباشر، وفق تقديرات البعض، أكثر من ٤٠ مرة، وكأنه المفكر الإصلاحي للحالة الإسلامية، ليس فقط داخل فرنسا، وإنما في عموم أوروبا والعالم، محتكرًا لنفسه التشخيص والعلاج(١).

ازدادت الأمور احتقانًا لتزامنها مع بعض التطورات: محاكمة المشتبه بهم بتنفيذ الهجمات الإرهابية في باريس عام ٢٠١٥، وإعادة نشر رسوم مجلة "شارلي إيبدو" التي تصور النبي محمد "صلى الله عليه وسلم" في صور مسيئة في سبتمبر ٢٠٢٠. وقد أثارت هاتان الحادثتان موجة إدانات بالعالم الإسلامي، وتفاقم الأمر عندما رفض الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إدانة الرسوم علنًا، بل في خطابه سالف الذكر كرر احترام فرنسا لحرية التعبير وتحدث عن "الانفصالية الإسلامية"، وهو موقف اعتبر بمثابة مصادقة مستفزة على محتوى الرسوم الكاريكاتورية وانتقاداً للإسلام ككل(٢).

كان من أبرز مسببات الاحتقان أيضًا ما قام به المدرس الفرنسي صمويل باتي الذي جعل الرسوم المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم جزءًا من محتوى دراسي، يخضع له في الفصل متعلمون فرنسيون بينهم مسلمون، لتحتد

(*) باحثة بمركز الحضارة للدراسات والبحوث.

(١) محمد طيفوري، "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، قنطرة، ١٦ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/XWNpm

(٢) لورانس بيندنر، هوغو ميشيرون، وهارون ي. زيلين، الإرهاب في فرنسا: اتجاهات جهادية جديدة وقديمة، معهد واشنطن، ١٣ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TyLIh

الأزمة عندما دخل والد تلميذة فرنسية مسلمة تحضر لصمويل باتي في حملة تواصلية واسعة لإدانة هذا السلوك وفتح نقاش عام حوله؛ ذلك حتى وقع الحادث الإرهابي (قيام شاب شيشاني بقتل المدرس الفرنسي)[٣]، الذي وظف لكي تتحول القصة –وفق تعبير البعض– من مظلومية المسلمين في فرنسا إلى مظلومية فرنسا من المسلمين[٤]. ذلك فضلا عن أحداث عنف أخرى متزامنة داخل فرنسا: في ٢٥ سبتمبر أمام مكتب مجلة "شارلي إيبدو" في باريس، وفي ٢٩ أكتوبر في كنيسة في نيس[٥].

لكن الأهم أن كل تلك التطورات لم تكن منفصلة عن سياسات متوالية مثيرة للجدل لبناء "إسلام فرنسي"، يتم فيه مراجعة ما وُصف بالحقل الديني (الإسلامي) في فرنسا برمته، من منع قدوم أئمة من خارج فرنسا، إلى تكوين الأئمة داخل فرنسا، ومن التحكم في تعليم اللغة العربية، إلى مراقبة المسلمين وتصرفاتهم المالية، ومن إعادة النظر في المنتجات "الحلال"، إلى مراقبة الهبات المالية (وسنفصل في ذلك)[٦].

في هذا الإطار من المهم الإشارة إلى بعض الحقائق التي تضفي خصوصية على القضايا المرتبطة بالإسلام والمسلمين في فرنسا. فقد أصبح الإسلام منذ ستينيات القرن العشرين الدين الثاني في فرنسا، ويُرتّب الإسلام حسب الأهمية مباشرةً بعد الكاثوليكية، وقبل البروتستنتية واليهودية. وينتشر المسلمون في مدن فرنسا وفي ريفها على السواء، وأغلب المسلمين من أبناء أو أحفاد الطبقة العاملة الوافدة من المغرب العربي ومن الجزائر بالأخص (٣٥٪)، ثم المغرب(٢٥٪)، فتونس (١٠٪). ويوجد أيضاً مسلمون منحدرون من إفريقيا، لا سيما من البلاد التي كانت قد استعمرتها فرنسا، مثل: مالي والسنغال والنيجر وساحل العاج، كما يوجد كذلك مسلمون من بلاد المشرق العربي مثل: سوريا ومصر والعراق وفلسطين، إضافة إلى أعداد كثيرة من المسلمين الأتراك (٣٦٠,٠٠٠ نسمة)[٧].

في هذا الإطار، ومع التأزم الأخير، تتجدد جدالات بعينها: هل بالفعل الإساءة للأديان ولاسيما الإسلام تدخل في نطاق حرية التعبير، ورفضها يمثل خطرًا على منظومة القيم الأوروبية ومظلتها العلمانية، وبالتحديد العلمانية الفرنسية؟ هل مثل تلك المواقف هي من الأساس قيمية مطلقة أم إن التوظيف السياسي في الداخل والخارج هو الحكم للأمور؟ وهل تلك السياقات والمواقف والسياسات الغربية تدعم مساعي الدمج للمهاجرين التي تتغنى بها أوروبا؟

وفي هذا الصدد، لا مانع من التساؤل: من المسئول: هل هي أزمة إسلام، أم أن ثمة أمور أخرى؟

تساؤل الدراسة: بناء على هذه السلسلة من التساؤلات يتحدد الدراسة في: إلى أي مدى تنبع الاتهامات المعادية للإسلام والسياسات الداعمة لها من قناعات قيمية حقيقية تتصل بالحريات والمساواة؟ وهل هناك من الأساس رؤية محددة المعالم لمنظومة القيم الأوروبية وللعلمانية، أم إن تلك الإساءات والمواقف تعبر عن توظيف سياسي قصير الأجل دون الوعي بالمصالح الفعلية، سواء على مستوى العالم، أو على مستوى الدول القومية؟ وهل الوضع الراهن يدعم ما تنادي به أوروبا بشأن إعلاء قيم التعددية ودمج المهاجرين؟

---

(٣) جريمة ذبح مدرس التاريخ الفرنسي: إدانة واسعة وتحريض يميني، العربي الجديد، ١٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/seu4i

(٤) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، عربي ٢١، ٣ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/vcuC7

(٥) لورانس بيندنر، هوغو ميشيرون، و هارون ي. زيلين، الإرهاب في فرنسا: اتجاهات جهادية جديدة وقديمة، مرجع سابق.

(٦) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، مرجع سابق.

(٧) المسلمون في فرنسا.. بين تحدي الاضطهاد والإساءة للإسلام، مجلة البيان (نقلا عن إسلام ويب)، ٢ ديسمبر ٢٠١٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1PIYV

يعرض التقرير الآراء والاتجاهات المختلفة حول تلك القضايا والتساؤلات بالتطبيق على الحالة الفرنسية الراهنة.

تنقسم الدراسة إلى: تمهيد عن جدوى خطاب الكراهية (الإسلاموفوبيا) بين الأمس واليوم. ثم خمسة عناصر هي؛ أولا- أي علمانية وأي حرية التعبير؟ ثانيًا- من الفكري والقيمي إلى السياسي. ثالثًا- الجاليات المسلمة: إذن دمج أم إقصاء؟ رابعًا- خطاب ماكرون تجاه الإسلام: الجدل حول الأبعاد الخارجية. خامسًا- جدوى المقاطعة الاقتصادية. ثم خاتمة.

تمهيد: جدوى خطاب الكراهية (الإسلاموفوبيا) بين الأمس واليوم:

إن اللحظة الراهنة وما تسفر عنه من حالة الإسلاموفوبيا، لتستدعي التوقف عند عدة محطات سابقة من المواجهة بين الإسلام والغرب، أو لنقل بعض قادة الغرب وتصور معين عن الإسلام روَّجوا له؛ سواء عن اقتناع أو رغبة في تمرير وتحقيق مصالح معينة، دون اكتراث بمآل السلم العالمي.

فلا شك أن الصدام الذي يقوده ماكرون مع الإسلام ليس في صالح التسامح والسلم العالمي. فهذه العداوة المعلنة ضد الإسلام ورموزه تعيد إلى الأذهان مرارة حقبة الحملات الصليبية التي مرت عليها قرون، والتي انطلقت بخطبة البابا أوربان في كليرمونت بفرنسا نفسها عام ١٠٩٥، لكن رغم ذلك مازال يستدعيها منفذو العمليات الإرهابية على الجانبين ليستقوا منها روح الكراهية[٨].

على سبيل المثال يرى المؤرخ الفرنسي **آلان روسيون** في دراسة تعود لعدة سنوات -ونشرها موقع "أوريان٢١" الفرنسي- أن العداء الممنهج للإسلام متجذر تاريخياً في الفكر الغربي، ومنبعه روح الحروب الصليبية، وأن هذا العداء ازدهر أثناء التوسع الاستعماري، واستعاد قوته مع "الحرب على الإرهاب"، فتلك أبرز محطات العداء.

ويوضح الأكاديمي الفرنسي أن أول استعمال لمصطلح "إسلاموفوبيا" يعود لعام ١٩١٠، عندما اقترح مؤلف يُدعى آلآن كيليان تعريفا لا يزال صالحا جاء فيه "كان -ولا يزال- عند شعوب الحضارة الغربية والمسيحية تحيز ضد الإسلام، حيث يرى كثيرون أن المسلم عدو طبيعي ولدود للمسيحي وللأوروبي، وأن الإسلام نفيٌ مطلق للحضارة، ولا يمكن أن يُرتقب من المسلمين سوى الهمجية وسوء النية".

وتغذى ذلك المفهوم من الحقبة الاستعمارية، رغم تراجع استعمال المصطلح، لكن تداوله عاد بقوة في عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، على خلفية الثورة الإيرانية، ومشاكل اندماج الجاليات المسلمة في بعض البلدان الغربية وذلك وفق حسابات سياسية معينة أيضًا[٩].

ثم كانت مقولات "صدام الحضارات" في مرحلة مابعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، ومحاولة الغرب (خاصة الولايات المتحدة) البحث عن عدو جديد تمثل فيما أسموه "الخطر الإسلامي"؛ ليتزامن ذلك مع أزمات المسلمين في جمهوريات الاتحاد السوفيتي المنحل، والذين تعرضوا في عدة حالات للإبادة الجماعية، على نحو أوجد تربة خصبة للجماعات الناقمة على الجانب الإسلامي تحت وطأة الشعور بالظلم؛ وهو ما وظفه الغرب أيضًا لصالحه تطبيقًا لمصداقية مقولة "الخطر الإسلامي" بما يحقق مصالح استراتيجية له ولبعض ساسته.

(٨) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، المعهد المصري للدراسات الاستراتيجية، ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1aBPt

(٩) مؤرخ فرنسي: الإسلاموفوبيا متجذرة بالغرب وقودها الدين والحروب الصليبية، ٢٠ مارس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/44FsJ

في هذا الإطار واجه العالم السياسات التي انتهجها جورج بوش الابن، وما خلفته من آثار قائمة على مستويات عالمية وإقليمية حتى يومنا هذا، حيث أعلن دعوته إلى حرب صليبية جديدة، وما كان لذلك من آثار عميقة أضرت بالسلم العالمي، ليس فقط على المستويات السياسية بل المجتمعية أيضًا. كما أوجد هذا المناخ المحتقن مزيدًا من التربة الخصبة للمتطرفين على الجانبين، فتواترت عمليات تنظيم القاعدة بالغرب وحقق على إثرها اليمين المتطرف الأوروبي —والأمريكي– مزيدًا من المكاسب جراء الخوف المتأجج من الآخر.

وها هو ماكرون وغيره (ترامب مثلا) قد سار على الدرب ذاته، دون اكتراث بالتداعيات. ويعد هذا التصريح المشار إليه سلفًا لماكرون (فضلا عن بعض السياسات بشأن الإسلام والمسلمين في فرنسا) وقودًا للكراهية بين المسلمين وغيرهم، ونذير هتك للسلم المجتمعي والذي تتفاخر به فرنسا دومًا انطلاقًا من أنها بلد الحريات والعدل والكرامة، ليتناغم ذلك مع فصل سابق من الكراهية أشاعته اليمينية المتطرفة مارين لوبان إبان الانتخابات الرئاسية لسنة ٢٠١٢ من أن كل اللحوم في منطقة باريس هي لحوم مذبوحة على الطريقة الإسلامية، وأن الفرنسيين —كما تقول– يستهلكون، دون علم منهم، لحوما مذبوحة باسم الإسلام وأنه يجب إعلام الفرنسيين بهذا ليتوقفوا[١٠].

واستشعارًا بالخطر يأخذ كثير من معارضي سياسة ماكرون، فيما يتعلق بالمسلمين في فرنسا، تغير خطابه واعتياده استخدام عبارات مستفزة ضد الإسلام والمسلمين، من قبيل تكراره دوما لعبارة "الإرهاب الإسلامي"، ويرون أن مهاجمة الإسلام باتت ملجأً للرئيس الفرنسي، للهروب من الضغوط الداخلية والأزمات —كما سنرى[١١]، وإن مثل تلك السياسات والخطابات تلقي بظلال داكنة على مستقبل الديمقراطية نفسها[١٢].

ورغم تلك المخاطر المحققة على الغرب ذاته من حيث قيمه ومصالحه واستقراره، فضلا عن العالم، إلا أن هناك خلافًا حول إدراك ذلك، سواء في الغرب أو العالم الإسلامي.

أولًا– أي علمانية وأي حرية التعبير؟

حماية العلمانية، احترام حرية التعبير، من أبرز العناوين الكبرى التي ترافقت مع تلك الأزمة، كما صاحبت أزمات مماثلة سابقة.

تقول إحصائيات الديمجرافيا الدينية في فرنسا إنه في عام ٢٠٠٧، كانت وزارة الداخلية الفرنسية تتحدث عن نسبة ما بين ٤،٥ و٨ في المائة من الفرنسيين مسلمون، وفي معطيات عام ٢٠١٩، ثمة حديث عن نسبة ١٥ في المائة من المسلمين داخل المجتمع الفرنسي. رغم أن الأرقام تتحدث عن تحول كبير، لكن مراكز التفكير الفرنسية لا تتحدث عن كيف وقع ذلك، ولا عن العوامل المفسرة، ونسبة كل عامل على حدة، وما إذا كان العامل الأقوى هو الهجرة، أم الاقتناع بالإسلام، أم الزواج؟ كما تفعل مراكز أمريكية متخصصة في دراسة التحولات الدينية والقيمية مثل مركز (بيو) مثلا.

بل إن الدوائر الرسمية للدولة أيضًا، تملك هذه الإحصائيات ولكن لا تتقاسمها مع الجمهور إلا فيما ندر، وبدل ذلك، تنتج ردود فعل ضد ظواهر اللباس والزي، وتحاول تصوير هذا الوجود الإسلامي بأنه معركة ضد مبادئ

---

(١٠) محسن الكومي، مكيدة ماكرون : هل أصبح المسلمون عبئا على فرنسا أم أنهم لا يقرأون التاريخ ؟، المركز الديمقراطي العربي، ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Q3Z4S

(١١) ماهي دوافع الرئيس الفرنسي لانتقاد "النزعات الانعزالية" للمسلمين؟، بي بي سي عربي، ٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/MFCGC

(١٢) وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، المعهد المصري للدراسات الاستراتيجية، ٢٨ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/0yTrm

الجمهورية، وضد النموذج العلماني الفرنسي، يقودها إسلام متطرف راديكالي[١٣].

كان من أبرز تعليقات ماكرون في هذا الصدد ما جاء في معرض حديث له أعقبَ الحوار الوطني حول احتجاجات الستائر الصفراء في عام ٢٠١٩؛ إذ تحدث عن انتشار الطائفية وتراجع قيم العلمانية في بعض الأحياء الفرنسية؛ بسبب انتشار أفكار الإسلام السياسي، حسب وصفه[١٤].

ولم يكن الأمر مجرد تصريحات، فقد وضعت السلطات الفرنسية على مدار السنوات الماضية عدة استراتيجيات لوقف هذه التهديدات المتصورة؛ حيث أعلن ماكرون وثيقة رسمية تحمل عنوان "إستراتيجية لمحاربة الإسلاموية وضد الهجمات على مبادئ الجمهورية". وذلك في زيارته لمدينة مولوز الفرنسية في النصف الثاني من فبراير ٢٠٢٠، والتي تشهد مشكلات عدة بسبب تواجد عدد من المهاجرين واللاجئين المسلمين إلى جانب أنصار اليمين المتطرف؛ حيث أكد الرئيس الفرنسي خلال زيارته اعتزامه القضاء على التشدد والانفصال الإسلامي داخل الأحياء الفرنسية المهمشة، خاصة أن هذا التشدد لا يتوافق مع مبادئ الحرية والمساواة ووحدة الأمة، فلا يمكن بحال من الأحوال استغلال الدين لمخالفة قوانين الجمهورية الفرنسية، وفق قوله.

وتنص الوثيقة على ضرورة التركيز على البعدين التعليمي والثقافي بغية تعزيز العلمانية، ومن ناحية أخرى السيطرة على التأثيرات الأجنبية على بعض المؤسسات الدينية داخل فرنسا؛ وذلك من خلال مشروع قانون يرتكز على شفافية التمويل الخارجي والعمل على تنظيم الطوائف، وتعزيز الجمعيات الثقافية.

وبحسب الوثيقة هناك أربعة محاور رئيسية سيتم تفعيلها لحصار الميول المتطرفة والحفاظ على العلمانية، وتتركز هذه المحاور باختصار على النحو التالي:

المحور الأول- يعرف بـ"**استراتيجية العرقلة**"، وتستهدف مواجهة ظهور الإسلاموية عبر تحرير المساجد والمدارس من التأثيرات الأجنبية المتمثلة في الأئمة والمبعوثين الوافدين من دول محرضة ومتطرفة. علما أنه للتحكم في تمويل المساجد أطلق الرئيس الفرنسي في يناير ٢٠١٩ ما يعرف بالجمعية الإسلامية الفرنسية؛ حيث ارتكزت مسؤوليتها على مراقبة جمع التبرعات وجمع دخل ضريبة المنتجات الحلال، بالإضافة إلى تدريب واستقدام الأئمة.

المحور الثاني- يهدف إلى تشجيع استراتيجية العروض البديلة وتدابير الدعم المنسقة للمناطق الأكثر تضرر من هيمنة المتشددين.

المحور الثالث- تم تخصيصه لمكافحة المحاولات الانفصالية داخل المجتمع الفرنسي والتي تتعدد أشكالها؛ كتحديد أوقات استحمام منفصلة في حمامات السباحة العامة، وكذلك تخصيص ساعات للصلاة في النوادي الرياضية، في محاولة لإزالة كافة الحواجز والفوارق الفاصلة بين الفتيات والفتيان.

المحور الرابع- يرتكز إلى معالجة أزمة افتقار الكثير من الأحياء الفرنسية للعروض الاجتماعية والرياضية التثقيفية[١٥].

وجاءت مواقف وتصريحات ماكرون الأخيرة حول الإسلام ودعمه الرسوم الكاريكاتورية اتساقًا مع هذا التوجه.

---

(١٣) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، مرجع سابق..

(١٤) ماكرون: الإسلام السياسي تهديد للجمهورية الفرنسية، الجزيرة، ٢٥ أبريل ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/6NdGV

(١٥) نهال أحمد، "سيادة العلمانية".. سياسة "ماكرون" في مواجهة التطرف، المركز العربي للبحوث والدراسات، ١ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NFArF

اتجاها الرأي حول تصريحات ماكرون

تنقسم الآراء في هذا الصدد إلى اتجاهين:

أولهما: يرى أن تصريحات ماكرون وسياساته تتسق مع مبادئ الجمهورية الفرنسية العلمانية، كما تتواءم مع الخبرة العلمانية الأوروبية ككل، التي شهدت مواجهات دامية مع الكنيسة، حتى وصل الأمر بقبول الكنيسة تكوين المثليين لأسرة[١٦]، ومن ثم لا يوجد استعداد للخضوع لكنيسة جديدة، بعد الثمن الذي دُفع[١٧]. هذا لاسيما أن فرنسا تعمل على تشديد ترسانة قوانينها من أجل مواجهة النزعات الانفصالية الإسلاموية (على نحو ما أشير) وتحجيم أنشطة جماعات الإسلام السياسي على أراضيها التي باتت تهدد قيم الانفتاح والتسامح؛ وهي أهم المبادئ التي بنيت عليها الجمهورية الخامسة، خاصة أن فرنسا –وفق هذا الاتجاه– شهدت خلال العشرية الأخيرة تمددا لافتا للمجتمعات الدينية الموازية ما يهدد التماسك المجتمعي ويؤصل للتطرف والانعزالية التي ترجمت في الكثير من الأحيان في الهجمات الإرهابية التي شهدتها البلاد[١٨].

ويستند هذا الاتجاه إلى بعض استطلاعات الرأي التي تعكس تمسك المهاجرين المسلمين بالشريعة الإسلامية على حساب قوانين الجمهورية العلمانية، على سبيل المثال: نشر "المعهد الفرنسي للرأي العام" سبتمبر ٢٠١٩ استطلاعا للرأي بعنوان "الحق في التجديف، حرية التعبير"، طلبه مركز "جان جوريس"، وقد أظهر أن ٧٤ في المئة من الفرنسيين المسلمين ممن تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما يضعون قناعاتهم الدينية الإسلامية فوق قوانين الجمهورية فيما انخفضت تلك النسبة إلى ٢٥ في المئة لدى من تزيد أعمارهم عن ٣٥ عاما.

بالإضافة إلى ذلك، يعتقد ٤٥ في المئة من الفرنسيين المسلمين الذين تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما أن "الإسلام لا يتوافق مع قيم المجتمع الفرنسي"، بينما يؤيد هذا الرأي ٢٤ في المئة فقط ممن تزيد أعمارهم عن ٣٥ عاما.

ومن ثم فقد وجب –وفق هذا الاتجاه– أن ترسم فرنسا طريقا أكثر تشددا حيال أنشطة جماعات الإسلام السياسي على أراضيها بعد أن انكشفت مناوراتهم الفكرية والأيديولوجية وقدرتهم الدعوية الهائلة في التأثير على الشباب الفرنسي المسلم واستقطابهم بما يتنافى مع قوانينها وقيمها العلمانية[١٩].

هذا الاتجاه بالتبعية يرى أن الرسوم والدفاع عنها يدخل في نطاق حرية التعبير، وبشأن أن حرية الفرنسيين تنتهي عندما تبدأ مقدسات غيرهم، يدفعون بأن مشروع ماكرون يقوم على تأسيس هوية مواطنة فرنسية واحدة دون تمييز، وأن التجربة الفرنسية فيما يتصل بالعلمانية لها خصوصيتها عن غيرها من التجارب الأوروبية؛ وهو أمر يجب احترامه[٢٠].

وبشأن دلالة ردود الفعل المسلمة تجاه الرسوم، هناك من يصل به الأمر للقول بأن الذين أقدموا على إعادة نشر الرسوم هم مدركون لخطورة الأمر، بل إنهم يتحسبون نتائج ذلك،. فالأمر بمثابة اختبار لردود الفعل، وأنه بالفعل قد أثبت غضب المسلمين أن الانهيارات التي تواجهها المجتمعات الإسلامية لا تزيدها إلا تشبثا بمقدسها الديني

---

(١٦) برنامج نقطة حوار، حملة مقاطعة السلع الفرنسية: هل دخل ماكرون في صدام مع العالم الإسلامي، بي بي سي عربي، ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/7Y5Uh

(١٧) المرجع السابق.

(١٨) فرنسا ترسم طريقا متشددا في مواجهة الانفصالية الإسلاموية، العرب، ١٥ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/H9A0n

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) محمد بسيوني عبد الحليم، صراع هوياتي: الدلالات الخطرة لخطاب "ماكرون" حول الإسلام، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ٨ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rIXnh

ورموزها التراثية الدينية[٢١]، بل إنه قد تمّ تنفيذ جميع الهجمات المتزامنة باسم الدين ودفاعاً عن النبي محمد[٢٢].

أيضًا يُرجع هذا الاتجاه الغضب الإسلامي إلى علاقة العربي/المسلم بالفنون ويصفها أنها مشوبة باللبس والغموض، فالفن مُحرّم في العديد من الأوساط، ومنبوذ في أخرى ومهمش عند البعض. والسبب في ذلك يعود إلى اعتبارات عديدة، لكن الديني منها يقف على رأس الأسباب. وبشأن فن الكاريكاتير تحديدًا، والذي غالبا ما يعمل على التحريف في الملامح الرئيسية للشخص، أو يتم الاستعاضة عن الملامح بأشكال الحيوانات، وبالتالي فإن الكاريكاتير سيكون هو الشكل التصويري الأكثر نبذا لدى المسلمين الذين يرون في ذلك تشويها للخلقة التي تؤول في النهاية إلى السخرية من "صنيع/خلقة" الله. هذا ويضاف إلى ذلك العنصر السياسي، على اعتبار أن أغلب الأنظمة العربية تحرم التعرض للسخرية من شخص الحاكم على اعتبار أنه "شخصية مقدسة". في حين أن الكاريكاتير، وباقي فنون الرسم والصورة، تجد حقلها الخصب في المجتمعات الغربية، وأن الصورة ترعرعت ونضجت في رحم الكنيسة[٢٣].

وهنا يشير هذا الاتجاه إلى أن الغرب قد تفطّن، بعد أن كان في السابق ملجأ للعديد من المنفيين والمعارضين الدينيين، إلى خطر الجالية الإسلامية المتزايدة التي صارت تشكل تهديدا لمستقل ثقافاته، ومستقبل القيم الاجتماعية التي ناضل الغرب من أجلها والمتمثلة في قيم الاختلاف والحرية بما تتضمنه من حرية الفكر والاعتقاد؛ إذ إن المسلم في الغرب يعتبر نفسه، دائما، حاملا لمشروع حضاري إسلامي، والحال أنه في كل ذلك ينفي كل مبادئ اختلاف الهوية والثقافة، وينفي أن يكون الآخر على جانب من الصواب وعلى درجة من الحقيقة[٢٤].

وفي هذا الإطار، فإن بعض الوافدين إلى فرنسا (كجزء من الكل) لم يفهموا جوهر العلمانية الفرنسية التي تفصل بين الدين والدولة، وهي عجلة التطور. وبدلا من الاستفادة من العلمانية الفرنسية التي تحترم الأديان وتعتبرها نشاطًا إنسانيًا فرديًا بين الكائن وربه، يقوم المتطرفون بإشعال نار الفتنة والقتل[٢٥].

بالتالي، فمما لا شك فيه، أن فرنسا تعاني أزمة هوية بسبب مشاكل الاندماج لدى جزء كبير من ذوي الأصول المهاجرة. وهناك مَنْ يفهم أن العلمانية تعني الإلحاد، ويصل الحد بالمتطرفين أنهم ينظرون إلى فرنسا كبلد استعماري مسيحي منذ انخراطها في الحرب ضد المتطرفين والإرهابيين[٢٦]. هكذا يتحدث معتنقو هذا الاتجاه الأول.

الاتجاه الثاني– وتعبر عنه نخب فرنسية رسمية وفكرية وليس فقط عربية أو إسلامية، ولديهم انتقادات لتطبيقات مفاهيم الديمقراطية العلمانية وحرية التعبير الراهنة في الخبرة الفرنسية. وهذا بالتبعية اتجاه رافض للرسوم ولدفاع ماكرون عنها. وفي هذا الإطار جدير أن نلفت إلى أن بعض المنشقين عن حزب "الجمهورية إلى الأمام" في منتصف مايو ٢٠٢٠ قد صرحوا بأن تصرفات الرئيس الفرنسي التي وصفوها بأنها "ملكية" وتتناقض مع الكثير من المعايير الديمقراطية وبخاصة الفرنسية، كانت أحد أبرز أسباب الانشقاق[٢٧]. حيث تُطرح تساؤلات من قبيل: ألا يتجاوز

---

(٢١) خالد سليكي، بؤس العقل الديني من إساءة المقدس إلى تقديس الإساءة، هسبرس، ٣١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EHSCv

(٢٢) لورانس بيندنر، هوغو ميشيرون، و هارون ي. زيلين، الإرهاب في فرنسا: اتجاهات جهادية جديدة وقديمة، مرجع سابق.

(٢٣) خالد سليكي، بؤس العقل الديني من إساءة المقدس إلى تقديس الإساءة، مرجع سابق.

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) د. شاكر نوري، الإرهاب والعلمانية في فرنسا، العين، ١ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/GeG3A

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧)وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، امرجع سابق.

الرئيس بمواقفه تجاه الإسلام والمسلمين مقتضيات قانون ١٩٠٥ الذي أعلن فرنسا جمهورية علمانية؛ أي دولة محايدة منفصلة عن الديانات؟ ألا تحيي فرنسا بذلك الإمبريالية الثقافية وتصنع محاكم تفتيش جديدة، في وقت لا تدخر فيه جهدا لنشر وإشاعة الفرنكوفونية على طول العالم العربي والإسلامي لمحو ثقافته(٢٨)؟

فسياسات ماكرون –تبعا لأصحاب هذا الرأي– تضرب العلمانية في مقتل، فهو يمارس اضطهادًا ضد أقلية معينة، كما أن ما يقوم به ماكرون لا يؤدي سوى إلى مزيد من الانقسام وليس هوية واحدة. إن هجمة ماكرون وحكومته ضد الإسلام والإساءة لمقام النبي محمد صلى الله عليه وسلم تكشف عن حالة من فقدان المنطق والاتساق في مواجهة المسلمين(٢٩). ذلك لاسيما أن ماكرون ذاته سبق وأن عبر عن رؤيته للعلمانية؛ حيث أكد أنه "لا يمثل أي دين مشكلة في فرنسا في وقتنا الحالي. وإذا كان ينبغي أن تكون الدولة محايدة، وهو ما يأتي في صلب العلمانية، فعلينا واجب ترك كل شخص يمارس دينه بكرامة".

وبشأن الإسلام خاصة، وخلال لقائه بأنور كبيبش، رئيس المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، قبل أيام فقط من انطلاق الجولة الأولى من سباق الرئاسة، صرح "ماكرون" بأن "الدولة الفرنسية والأقلية المسلمة تقاتلان على جبهة مشتركة ضد التطرف الإسلامي"، وشدد في بيان له على "أهمية احترام التقاليد العلمانية الفرنسية"، لكنه قال إنها "لا ينبغي أن تستخدم لاستهداف المسلمين"(٣٠). كما شدد ماكرون –في مواضع أخرى– على رفضه أي نوع من أنواع العنصرية، مشيرًا إلى وجوب تساوي الفرص في التعليم وسوق العمل للجميع، مهما كانت أصولهم وتوجهاتهم

(٢٨) "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، مرجع سابق.

(٢٩) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، مرجع سابق.

(٣٠) المرجع السابق.

الدينية. وكان من بين تصريحاته آنذاك ما أثار جدلا واسعا، حيث سبق أن قال إن فرنسا ارتكبت أخطاء في بعض الأحيان باستهدافها المسلمين بشكل غير عادل(٣١).

برنامج "ماكرون" المترافق مع خطابه المنفتح هذا كان قد تزامن معه الدعوة إلى تدريس الشؤون الدينية في المدرسة، وإن كان طالب بتكوين الأئمة في الجامعات الفرنسية، ودعا لإغلاق المساجد التي تدعو للتطرف والإرهاب، كما طرح فكرة إعادة هيكلة الجمعيات الإسلامية في فرنسا، والتي يعتبرها غير ممثلة بشكل جيد. واللافت في هذا الإطار، أن برنامجه هذا لقي ترحيبا من مسلمي فرنسا، الذين منحوه أصواتهم بقوة في الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية، وهي أصوات ما كان ليتمكن من الوصول للمنصب دونها(٣٢).

وبشأن شعارات حرية التعبير التي دومًا ما ترافق مثل تلك الأزمات، فيرى هذا الاتجاه أن حرية التعبير وفق هذه الرؤية التي يروج لها ماكرون وداعمو الرسوم لا يحكمها سوى تصور عنصري يعتبر السخرية من اليهود معاداة للسامية، بينما السخرية من الإسلام حرية تعبير(٣٣). وليس أدل على ذلك من أن ماكرون استدعى السفير التركي لأن أردوغان أساء له، بينما يرفض المطالبة بعدم الإساءة لنبي الإسلام، بل يبدو الأمر وكأن ماكرون يشرعن الإسلاموفوبيا(٣٤).

ويرصد هذا الاتجاه كيف أنه في إطار الثقافة الأوروبية نفسها وعلى مستوى النخب، لم يلقَ ماكرون

(٣١) وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، مرجع سابق.

(٣٢) المرجع السابق. لاسيما أن الخبراء يصفون النتائج التي حققها ماكرون في الجولة الأولى من الانتخابات بأنها ضعيفة وغير مسبوقة في تاريخ فرنسا، وبلغ الأمر حد القول بأن "الحظ" هو أول العوامل التي أدت لنجاح "ماكرون"؛ علاوة على أنه واجه المتطرفة "لوبان" في الجولة الثانية بخطاب منفتح

(٣٣) برنامج نقطة حوار، مرجع سابق.

(٣٤) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، مرجع سابق.

تأييدًا حقيقيًا، رغم تأكيد الجميع على حرية التعبير، وذلك لتناقضاته، وخطورة سياساته على السلم المجتمعي الأوروبي ككل. فالمجتمع السياسي في فرنسا، لم يبد دعما كافيا لماكرون، بل بالعكس من ذلك، اشتدت الانتقادات الموجهة إليه على خلفية محاولته الهروب إلى الأمام، وافتعال عدو خارجي، لخلق جبهة داخلية قوية تسنده، بعد أن أظهرت أسهمه في سوق السياسة انخفاضًا كبيرًا (كما سنرى في تناول الجزئية المتعلقة بدلالات التسييس)[٣٥].

وخارج فرنسا، في ألمانيا مثلا، كانت المستشارة ميركل واضحة تماما حينما صرحت بوقوفها ضد نشر الرسوم المسيئة للنبي صلى الله علسه وسلم، وأن الحرية تنتهي عندما تبتدئ حرية الآخرين. وكذلك فعل رئيس الوزراء الكندي، فهم ينطلقون من الثقافة الحقوقية نفسها، لكنهم يدركون أن الحرية تمارس ضمن مقومات الاستقرار والتوازن الاجتماعي، وأنه في اللحظة التي تكون الحرية مربكة لهذا التوازن والاستقرار الاجتماعي، يصير تقييدها واجبا[٣٦].

ويركز هذا الاتجاه على الموقف الفرنسي من الحجاب لإثبات التناقض القيمي بشأن العلمانية والحريات، حيث إنه في فرنسا، بلد الحرية والمساواة والإخاء، يواجه الحجاب الإسلامي رفضا قويا باعتباره شكلا من أشكال الاضطهاد للنساء ورمزا للتخلف، مع أن الحجاب ليس خاصا بالمسلمين فقط؛ فما السر وراء معاداته في فرنسا خاصة؟

هذا السؤال طرحته الصحفية الإنجليزية أندي جرمان المنتمية للثقافة الأوروبية بحثًا عن الأسباب التي تجعل الفرنسيين منزعجين من ارتداء الحجاب الإسلامي أكثر من غيرهم. وقد تساءلت: ألا يشكل فرض نوع معين من اللباس على المرأة ممارسة للقمع والتضييق عليها؟ مشيرة إلى أن قطعة القماش الصغيرة هذه هزت فرنسا بأكملها؛ إذ رأى فيها البعض تحديا سافرا للعلمانية، في حين اعتبرها آخرون رمزا لاضطهاد المرأة وقمعها. وترى الصحفية الإنجليزية أنه لا يخلو الأمر من نفاق؛ لأن من يخشون على المرأة من الاضطهاد هم أنفسهم الذين يريدون إجبارها على ارتداء زي يخالف إرادتها؛ ما يدل على أن الموقف من الحجاب الإسلامي لا يتعلق بقضية حقوقية ودفاع عن المرأة بقدر ما يتعلق بالإسلاموفوبيا[٣٧].

وبين هذا الاتجاه وذاك هناك من يحاول التعامل مع الإشكالية بالقول إن: هناك من المسلمين أنفسهم من يعتبرون أن العلمانية هي التي تمكّن الدولة من التغاضي عن الإسلاموفوبيا والعنصرية الممنهجة؛ بهدف خلق مجتمع موحد يجمعه المنطق. وانطلاقاً من هذه الرؤية، لا يمكن أن تخضع البلاد للقوانين الإلهية، بل يجب أن تكون الدولة حَكَماً محايداً يقدّر جميع الأديان على قدم المساواة ولا يتدخل في ممارستها. وبالمثل، لا يجب أن تفرض أي طائفة معتقداتها أو ممارساتها على طائفة أخرى. ولكن غالباً ما يُساء فهم العلمانية أو يتم تحريفها من بعض المتطرفين بالغرب، وبالتالي تساعد هذه المغالطات المتطرفين على الجانب الآخر على أن يظهروا بصورة المدافعين في نهاية المطاف عن دين إسلامي يتعرض للهجمات[٣٨].

أين المشكلة إذن؟ هل تأخذ عمقها في بعدها الفكري، أم القانوني، أم الحقوقي؟ إنها كل ذلك، فالإسلام أصبح جزءً لا يتجزأ من النظام الأوروبي (ولوضع الإسلام والمسلمين أهمية خاصة في إطاره). والحرية لم يعد من الممكن ممارستها في فرنسا من غير مراعاة قواعد هذا التوازن؛ ومنها وجود الإسلام في مربع المعادلة[٣٩].

---

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) المرجع السابق.

(٣٧) ميديا بارت: الحجاب ونفاق باريس.. كيف هزت قطعة قماش كيان فرنسا؟، الجزيرة، ١ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/i2whl

(٣٨) لورانس بيندنر، هوغو ميشيرون، و هارون ي. زيلين، الإرهاب في فرنسا: اتجاهات جهادية جديدة وقديمة، مرجع سابق.

(٣٩) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، مرجع سابق.

فماذا حقق ماكرون إذن للقيم الأوروبية والفرنسية خاصة؟ ثمة تناقض يبدو واضحًا على الجانب القيمي، تناقض تخلقه بعض الحسابات السياسية قصيرة المدى (كما سنرى)..

ثانيًا– من الفكري والقيمي إلى السياسي:

وفق ما أشير فيما سبق، يبدو أن الأمر لا يقف عند اختلاف في تفسيرات بعض المفاهيم من قبيل العلمانية وحرية التعبير (لاسيما لدى الاتجاه الرافض لتصريحات ماكرون والرسوم الكاريكاتورية)، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى التوظيف لحسابات سياسية داخلية وخارجية تؤدي إلى تناقضات قيمية فادحة، كما حدث في محطات تاريخية عدة في المواجهة بين الغرب والإسلام، وقد سبق تناول ذلك أيضًا.

وتجدر الإشارة بداية أن التسييس في فرنسا قد امتد إلى ساحات العلم والأكاديميا، على سبيل المثال على موقع أوريان ٢١ الفرنسي، جاء مقال الباحث لوران بونفوا من المعهد الفرنسي للبحث العلمي؛ ليوضح بعض ما اعتبر أنه تضخيم لظواهر هامشية في كتاب بعنوان "**استعادة الأراضي التي غزاها الإسلام**" للكاتب برنار روجييه، مبديًا أسفه لوضع البحوث في خدمة ما وصفه أنه أيديولوجيا بدائية. وأشار الباحث في بداية مقاله إلى أن الدعاية الإعلامية التي سبقت ورافقت نشر الكتاب، وظفت أخبار العنف التي حدثت في باريس وزادت من نشاطها في الذكرى الخامسة للهجمات على تشارلي إيبدو، لتعطي انطباعا بإلحاح وأهمية الكتاب في هذا النوع من الظروف. وأوضح الكاتب أن اختيار عنوان لهذا الكتاب يستحضر الفتوح الإسلامية في سياق توترات سياسية بالغة الخطورة، ومن قبل ناشر يدّعي أنه أكاديمي، يعد عملا لا يمت إلى البحث العلمي بصلة[٤٠].

يتجاهل هذا النهج العام –بحسب الباحث– وضع المسلمين في المجتمع الفرنسي، والصعوبات الموروثة من التاريخ الاستعماري؛ بحيث يصبح رفض المجتمع من قبل البعض بالنسبة له نتيجة حتمية لأيديولوجيات إسلامية قائمة على المناورة. وكأن التفكير في الروابط بين ما يحدث و"ما بعد الاستعمار" غير مقنع وضرب من محاكمة النوايا. وفي هذا السياق، فإن أي تعبير سياسي أو إعلامي يأتي مما يسمى الهوامش الإسلامية كمكافحة التمييز، يصبح مشتبها فيه بالتواطؤ، بمن في ذلك عدد من المثقفين اليساريين، وكأن "هناك صلات عضوية بين حركات إنهاء الاستعمار والحركات الجهادية"[٤١].

وبالتطبيق على موضوع الدراسة، ومدى حضور التوظيف السياسي للأبعاد القيمية، نجد أن السياق السياسي الفرنسي قد استحوذ على جانب كبير من التحليلات التي تناولت الأزمة الأخيرة، حيث أُعتبر أن ماكرون يغازل، في لعبة مكشوفة، أنصار اليمين واليمين المتطرف؛ بإشعال الموضوعات الشائكة. فالإسلام بمثابة حائط قصير، يستطيع من خلال الهجوم عليه، تعويض التدني الكبير في شعبيته[٤٢].

ذلك علمًا بأن أصول ماكرون السياسية أتت من "الحزب الاشتراكي الفرنسي"؛ أي إنه ليس يمينيا بحكم نشأته السياسية، لكن براجماتيته دفعته للخروج من عباءة "اليسار"، والدخول في مربع "الوسط"، والترشح من خلاله. هذه السمة السياسية التي أسماه الاشتراكيون بموجبها

---

(٤٠) نقاش فرنسي لأفكار عنصرية.. الدعاية غير العلمية في كتاب "استعادة الأراضي التي غزاها الإسلام"، الجزيرة، ١٥ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ScJbm

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، مرجع سابق.

"بروتس الجديد"، تعني أنه بإمكانه أن يعيد صياغة أفكاره، وأن يعيد توجيهها، ولو باتجاه اليمين، وهو ما حدث بالفعل على نحو ما نرى[٤٣].

وفي مقارنة بين خطاب "ماكرون" في الحملتين الرئاسيتين فيما يتصل بمسائل الإسلام والمسلمين، نجد أن حملة "ماكرون" الانتخابية الماضية استهدفت أصوات المسلمين، وهي أصوات صارت محسومة لصالحه في الجولة الثانية من الانتخابات بعد أن كانت أصوات مسلمي فرنسا قد تشتت خلال الجولة الأولى من انتخابات ٢٠١٧، حيث زاد انفتاح خطاب ماكرون بعد تأهله للدور الثاني من الانتخابات بعد تصدر الدور الأول بنسبة ضئيلة بلغت ٢٣٫٨٦% من الأصوات متقدما على مرشحة اليمين المتطرف مارين لوبن التي حلت في المرتبة الثانية بنسبة أصوات بلغت ٢١٫٤٣%. ومن ثم فقد استبشر قطاع واسع من المسلمين بوصول ماكرون للحكم، وكان أول تعليق إسلامي على فوز ماكرون من المسجد الكبير في العاصمة الفرنسية "باريس"، والذي ذكر بيانه "أن فوز ماكرون على لوبان هو علامة على المصالحة بين الأديان في البلاد"[٤٤].

من ثم فعلى صعيد تقييم مدى انتخابية طرح ماكرون الراهن، فإن قراءة مواقف ماكرون من المهم أن تأتي ضمن سياق الإعلان عن نتائج استطلاع للرأي، أظهر أن زعيمة اليمين المتطرف الفرنسي، مارين لوبان ستكون منافسته الرئيسية، لو أجريت الانتخابات الرئاسية حاليا. وذهب ذات الاستطلاع أبعد من ذلك، حيث توقع فوزها بالرئاسة في الجولة الأولى من الانتخابات[٤٥].

ذلك أن ماكرون يواجه العديد من الأزمات الداخلية؛ على رأسها: احتجاجات السترات الصفراء، والتداعيات الاقتصادية لوباء كورونا، مع العلم أن التدهور في شعبية ماكرون ليس وليد اليوم، أو لأسباب تتعلق مباشرة بالمسلمين، حيث إن التدهور بدأ في سبتمبر من العام ٢٠١٧ عندما صدر قانون العمل والذي يُرى أنه مثل المسمار الأول في نعش شعبية ماكرون. فمع وجود بنود اعتبرها العديد من الفرنسيين مجحفة بحقهم، وتهدد مستوياتهم المعيشية، استمرت شعبية الرئيس في التدهور ليزيد من تدهورها، فرض مزيد من ضرائب القيمة المضافة على السيارات التي تستخدم الديزل والتي أُقرت في نوفمبر من العام ٢٠١٨؛ وهو ما زاد من رقعة الاحتجاجات الشعبية في البلاد ليفجر ما عرف باسم "احتجاجات ذوي السترات الصفراء"[٤٦].

وحتى يحول ماكرون سهام النقد عن استهدافه، عزف اللحن الذي يطرب أنصاره في اليمين المتطرف وهو محاربة ما أسماه تارة التشدد الإسلامي وتارة أخرى الإرهاب الإسلامي[٤٧]. ففي حديثه الذي أعقب انتهاء ما يعرف بالحوار الوطني لتقديم حلول ناجعة للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي فجرت حركة السترات الصفراء، أدلى الرئيس الفرنسي بتصريحات استقبلت بكثير من الاستغراب والاستنكار بشأن ما أسماه تهديد الإسلام السياسي لقيم الجمهورية الفرنسية، متوعدا بمحاربته دون هوادة. واعتبرت انتقادات ماكرون للدين الإسلامي حينها أمرا غير مسبوق في حدّتها وصرامتها منذ توليه الحكم، خاصة أن هذه الانتقادات جاءت منفصلة عن أي سياق، لأنها كانت ضمن حوار ماكرون أمام ملايين الفرنسيين لاقتراح حلول للمشاكل التي تعانيها فرنسا.

---

(٤٣) وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، مرجع سابق.

(٤٤) المرجع السابق.

(٤٥) "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، مرجع سابق.

(٤٦) ماهي دوافع الرئيس الفرنسي لانتقاد "النزعات الانعزالية" للمسلمين؟، مرجع سابق.

(٤٧) د.أحمد زكي، طوق نجاة ماكرون: التشدد الإسلامي أم هو الخوف من الإسلام، تبيان، ٩ اغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/q94Z3

حينها استنكر الحاج التهامي بريز رئيس "اتحاد مسلمي فرنسا" في منطقة باريس – وتنضوي تحته أكثر من ثلاثمائة جمعية إسلامية– تصريحات ماكرون، معتبرا أنها تهدف للاستهلاك الإعلامي وللتغطية على المشاكل الحقيقية التي تتخبط فيها فرنسا، حسب وصفه. وقال التهامي إن المنظمات الإسلامية الفرنسية ترفض أن يتحول المسلمون إلى كبش فداء للحكومة الفرنسية بسبب عجزها عن تقديم حلول للمشاكل التي يعانيها الفرنسيون في كل القطاعات[٤٨].

ومن ثم فمع تكرار التصريحات المعادية للإسلام، يصطاد الرئيس الفرنسي عصفورين بحجر واحد، فعلاوة على استجداء أصوات المتطرفين، يعمل على تصدير الأزمة أو بالأحرى الأزمات التي تحاصر فرنسا، بالتأكيد على أن الإسلام مصدر مشاكل العالم بأسره، ولفرنسا التي تضم جالية إسلامية كبيرة، نصيبها الأوفر. هكذا ينقلب فشل السياسات الداخلية، معبرا عنها باحتجاج السترات الصفراء، والأزمة الاقتصادية الخانقة جراء تفشي وباء كورونا، وإفلاس السياسة الخارجية في مالي وليبيا وسوريا، إلى مجرد انعكاس لأزمة "الإسلام"[٤٩]!

أي إنه في ضوء هذه التعقيدات التي تواجه ماكرون، بدت أصوات المسلمين غير أولوية في اللحظة الراهنة، لاسيما في ضوء السلوك التصويتي لمسلمي فرنسا في الانتخابات البلدية في يونيو ٢٠٢٠[٥٠]. وبالرغم من أن حزب "الجمهورية إلى الأمام" الذي ينتمي إليه الرئيس الفرنسي كان نصيبه في هذه البلديات متعثرا، إلا أنه بالنسبة للمسلمين حمل دلالة أساسية، حيث تأكد لـ"ماكرون" خسارته أصوات المسلمين في البلديات التي يتركز وجودهم فيها مثل "مارسيليا" و"ليون" و"ليل" و"باريس"، وحتى في المناطق الصناعية التي يتركز فيها المسلمون ضعيفو المؤهلات القادمون من الغرب الأفريقي. فبدلا من البحث في أسباب ذلك كان كيل الاتهامات.

أيضًا هناك حديث عن الدوافع النفسية لتصريحات ماكرون المعادية للإسلام، في إشارة إلى ما أبدته نتائج أحد استطلاعات الرأي من أن "ماكرون" يمارس سلوكا "لينا" أمام ظواهر التشدد الإسلامي والهجرة، ولا يخفى أن استخدام استطلاع رأي لهذه المفردة "Soft" قد يكون مدفوعا لاستدراج الرئيس الفرنسي للانتقال لهذا المربع، ودفعه لتبني هذا الموقف من المواطنين الفرنسيين من أصول مسلمة، خاصة وقد أدرك أنه قد خسر تأييدهم الانتخابي[٥١]

وإن كان ذلك على صعيد التوظيف السياسي من قبل ماكرون، فإن هناك وجها آخر للتوظيف السياسي تطرق إليه بعض التحليلات، حيث تحفيز "القاعدة" و"داعش": فالوجه المقابل لليمين المتطرف هو ذلك المتعلق بإرهاب "القاعدة" و"داعش". حيث إن كلا النمطين من التطرف يتغذّيان على المحفزات ذاتها، وفي هذا السياق تبرر "القاعدة" و"داعش" عملياتهما الإرهابية بسياسات الدول الغربية، وخطاب القيادات الغربية المعادي للمسلمين.

(٤٨) مسلمو فرنسا لماكرون: لسنا كبش فداء لمشاكلك مع السترات الصفراء، الجزيرة، ٢٧ أبريل ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/s9bnA

(٤٩) "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، مرجع سابق.

د.أحمد زكي، طوق نجاة ماكرون: التشدد الإسلامي أم هو الخوف من الإسلام، مرجع سابق.

(٥٠) حول نتائج الانتخابات البلدية الفرنسية انظر: نتائج الانتخابات البلدية الفرنسية تنذر ماكرون وتستدعيه لمراجعة سياسته، الفهرس، ٢٩ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/67Aey

(٥١)وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، مرجع سابق.

في مثل هذا السياق، يرجح أن يمنح خطاب الرئيس الفرنسي محفزات للتنظيمات المتطرفة لإكساب خطابها المزيد من الزخم، والحصول على المزيد من المؤيدين[٥٢].

ثالثًا- الجاليات المسلمة: إذن دمج أم إقصاء؟

لكن ماذا عن تداعيات هذا كله على مستقبل المجتمع الفرنسي، والذي يشكل المسلمون جزءًا غير بسيط منه على نحو ما أشير؟ ماذا عما هو أبعد من ماكرون بحساباته العقدية والسياسية والنفسية؟ ماذا إذن عن أوضاع الجالية المسلمة في فرنسا جراء كل ذلك؟

رغم أن الحديث عن أوضاع المجتمع الإسلامي في فرنسا وتعديل هذه الأوضاع يثور في فرنسا قبيل الحملات الانتخابية الرئاسية الفرنسية منذ عقود مضت، وبرغم أنه مثّل ملمحًا رئيسًا في الخطاب السياسي لأكثر من رئيس فرنسي، إلا أن "ماكرون" تحت ضغوط تراجع شعبيته، وتحت طائلة المدّ اليميني الأوروبي، يتجه نحو ترسيخ المخاوف (على الجانبين الفرنسي والإسلامي) عبر مجموعة من الخطابات والسياسات[٥٣].

فقد أبدى ماكرون رغبة في التقارب مع الجالية الإسلامية على نحو ما ذكر، وكان من أبرز مواقفه التصريحات حول الاستعمار الفرنسي التي جعلته يكسب ود قطاع واسع من أبناء الجالية المغاربية وخاصة الجزائرية، وأدت لتعرضه لعاصفة من الانتقادات من منافسيه بعد أن وصف الاستعمار الفرنسي بأنه "جريمة ضد الإنسانية"، وقوله: "كان الأمر وحشيا حقا وهو جزء من الماضي، يجب أن نواجهه حتى نعتذر أيضًا لمن تضرروا" [٥٤].

لكن التحول في خطاب وتوجهات ماكرون -على نحو ما سلف- مثل إعلان ماكرون عزم فرنسا محاربة ما أسماه "الانفصالية الإسلامية الساعية إلى إقامة نظام موازٍ وإنكار الجمهورية الفرنسية"، وهي -وفق تحديد ماكرون- "أيديولوجيا تدعي أن قوانينها يجب أن تعلو على قوانين الجمهورية"[٥٥]، هذا الإعلان كان له تداعياته لدى جانب كبير من الجالية المسلمة في فرنسا.

وإن كان من المعلوم أن افتعال الصراعات بين قيم الجالية الإسلامية وتلك الخاصة بالجمهورية الفرنسية لم تكن وليدة فترة حكم ماكرون، فقد سبق لجاك شيراك أن شكل "لجنة ستازي" عام ٢٠٠٣، وكانت ضرورة حظر الرموز الدينية في الفضاء العام، من بين أهم توصياتها، في قرار ظاهره "حماية العلمانية"، وباطنه سياسة عنصرية إقصائية؛ مغلفة بشعار التسامح والاندماج وقيم المواطنة والجمهورية.

لم يتأخر ماكرون في اتخاذ النهج ذاته، فبعد ثمانية أشهر من حكمه؛ وبالتحديد في فبراير ٢٠١٨، أعلن عن مساعيه لإزالة اللبس أو ما يعتبره سوء فهم كبير بين الإسلام وقيم الجمهورية، تعززت هذه المساعي بإصدار معهد مونتاني، بداية سبتمبر ٢٠١٨، تقريرا حول الموضوع أعده الأكاديمي حكيم القروي؛ مستشار الرئيس الفرنسي في قضايا المسلمين بفرنسا، بعنوان "صناعة الإسلاموية" (la fabrique de l'islamisme) الذي تلقى مسلمو فرنسا مقترحاته بالاستغراب، وتوصياته بالكثير من الاستهجان.

عاد الرئيس الفرنسي لإثارة النقاش بشأن الإسلام والجالية المسلمة في فرنسا، في فبراير ٢٠٢٠، حيث كشف عن جملة من التدابير، مقدما معالم استراتيجيته الجديدة (والسالف التفصيل بشأنها)، ضد "الانفصال الإسلامي"، الذي يتعارض مع قيم الحرية والمساواة وقيم الجمهورية ووحدة الأمة الفرنسية.

(٥٢) محمد بسيوني عبد الحليم، صراع هوياتي: الدلالات الخطرة لخطاب "ماكرون" حول الإسلام، مرجع سابق.

(٥٣) وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، مرجع سابق.

(٥٤) المرجع السابق.

(٥٥) "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟، مرجع سابق.

استعاد ماكرون هذه الخطة؛ في تصريحه الأخير، بأسلوب هجومي أكثر فجاجة هذه المرة، مؤكدا أن ولادة "الإسلام الفرنسي" ستكون على يديه، بعدما باءت جهود الحكومات الفرنسية المتعاقبة على مدار ٣٠ عاما بالفشل. علمًا بأن المصطلح؛ في حد ذاته، ليس وليد اليوم، بل يعود إلى عام ١٩٩٠؛ مع الرئيس فرانسوا ميتران ووزير داخليته بيير جوكس، الذي شكل حينها "مجلس تفكيري حول إسلام فرنسي"(CRIF)[٥٦]. ليترافق مع تصريحات ماكرون إعلان لوزير الداخلية الفرنسي جيرالد دارمانان عن إجراءات تستهدف الجالية المسلمة مثل إغلاق السلطات لـ ٧٣ مسجدًا ومدرسة خاصة ومحلا تجاريا منذ مطلع العام الجاري؛ بذريعة مكافحة الإسلام المتطرف[٥٧].

فقد جرى الإعلان عن حل بعض الجمعيات الإسلامية المرخص لها قانونيا كجمعية بركة سيتي، وجمعية ائتلاف الشيخ ياسين، وتم غلق مسجد بونتان، وكذلك فرض رقابة شديدة على بعض الأشخاص والهيئات. ويعلق على ذلك عضو اتحاد المنظمات *الإسلامية* في فرنسا (*فيدرالية* مسلمي فرنسا) ورئيس الفيدرالية الوطنية للتعليم الإسلامي الخاص، مخلوف مامش: لست هنا في إطار توجيه الاتهام أو تبرئة هذه الجمعيات والشخصيات التي تخضع للمراقبة، هذا من اختصاص الدولة. إنما نقول إن أي أمر لا بد أن يكون شفافا وفي إطار ما يسمح به القانون حتى لا يفهم على أنه سياسة موجهة ضد المسلمين ويخلق جوًّا من الكراهية داخل المجتمع[٥٨].

وقد اختلفت الآراء حول تقييم هذا التوجه وأثره في وضع الجاليات المسلمة بفرنسا، فعلى جانب هناك اتجاه يعتبر أن ما يتخذه ماكرون من إجراءات وما يعبر عنه من مواقف يدخل في إطار المواجهة مع الإسلام السياسي وليس موجها ضد الجالية المسلمة. ويؤكد أصحاب هذا التوجه أن فرنسا الجمهورية الخامسة تحمي الحريات، ولطالما احترمت القوانين ونبذت العنف؛ فبالتالي فرنسا لا تخلط بين الإسلام بصفته ديناً وحق العبادة والتعبد، وبين قوى سياسية تتلبس بالدين؛ وتتخذ من مساجد وجمعيات إنسانية ستاراً لها لتخفي أنشطة إرهابية لدرجة التهديد بتدمير الجمهورية الخامسة في فرنسا. ذلك حتى إن وزير داخليتها جيرالد دارمانان طالب السلطات المحلية بوضع المساجد في مدينتي بوردو وبيزييه تحت حماية الشرطة بعد تلقيها تهديدات، وبعد تلقيها رسائل كراهية في إطار الأحداث الأخيرة[٥٩].

ومن ثم فهذا الاتجاه يقدم قراءة لبيان الحكومة الفرنسية؛ لا تعتبره شرعنة تمييز ضد المسلمين بوصفهم أقلية تعيش في فضاء الجمهورية الخامسة، لكنه محاولة لتحصين فرنسا من تسلل قوى الإسلام السياسي الذين أفسدوا الحياة السياسية في ليبيا وسوريا واليمن والعراق ومصر[٦٠]. ذلك حيث يرون أن أخطر ما في جريمة مقتل المدرس الفرنسي هو دلالتها الكاشفة عن استمرار خطر التنظيمات الإرهابية التي تمارس العنف وتحرض عليه، حيث تحدث وزير الداخلية الفرنسي عما وصفها بأنها "فتوى ضد المدرس" صدرت من بعض الأشخاص المشتبه بهم، ومن بينهم الناشط الإسلامي المتطرف عبد الحكيم الصفريوي، الذي يرأس "جماعة الشيخ ياسين"، ليقترب الوزير بذلك من وضع الإصبع على الجرح

(٥٦) محمد طيفوري، "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، مرجع سابق.

(٥٧) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، مرجع سابق.

(٥٨) في مقابلة خاصة مع "عربي٢١": فيدرالية مسلمي فرنسا: هذه أبعاد الأزمة.. وندعو للتهدئة، عربي ٢١، ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/u1cDK

(٥٩) د.جبريل الصعيدي، فرنسا والمعركة مع الإسلام السياسي، الشرق الأوسط، ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/3PyX6

(٦٠) المرجع السابق.

أو المروج الحقيقي والأهم للفكر المتطرف الذي يُترجمه بعض المتطرفين إلى جرائم إرهابية على أرض الواقع(٦١).

حيث انخراط عدد من المسلمين الأوروبيين، وأبناء الجالية المسلمة في فرنسا بتنظيمات إرهابية وتم توجيههم نحو تنفيذ مثل تلك العمليات في بلدانهم وهو ما استوجب ضرورة إيجاد آلية للتعامل مع هذا الإشكال وإعادة دمجهم ثانية باعتبارهم مواطنين أوروبيين(٦٢). هذا لاسيما أنه وفق هؤلاء: "المسألة باتت مسألة شبكة متكاملة من المساجد وقاعات الرياضة والجمعيات التي تغطي أحياء بأكملها في كل أرجاء فرنسا وباتت تشكل مجتمعا مضادا يفصل ما بين الحلال والحرام". ليستشهد أصحاب هذا الاتجاه بما قالته عضو مجلس الشيوخ الفرنسي، جاكلين أوستاش برينيو: "يجب التحرك سريعا، لأنّ كلّ مناطق فرنسا صارت متأثرة اليوم، باستثناء غرب البلاد، بأفكار الإسلام السياسي المتطرفة، وإلا ففي غضون أعوام قليلة، قد تخرج بعض هذه المناطق والأحياء في نزعات انفصالية عن الجمهورية" (٦٣).

وفي هذا الإطار يشار إلى أن الباحث ميشيل أوبوان تحدث في مقالة بعنوان "الإسلام السياسي وغزو الأحياء" في ٩ نوفمبر ٢٠١٩ عن أن أحياء تتجاوز الألف في فرنسا تعرضت للانعزال الجغرافي والثقافي؛ وهو الوضع الذي استغلته الأيديولوجيا الإسلاموية الحركية.

وبالتالي يؤيد هذا الاتجاه سياسات ماكرون انطلاقًا من أنه بات من الضروري إيجاد كيان بديل يمثل الجاليات المسلمة في دول الغرب، يمثل العقيدة الدينية المعتدلة التي يتبناها معظم المسلمين، وليست لديه أي أطماع أو طموحات حزبية أو سياسية، يستطيع صناع القرار الأوروبيون التعاون معه في خدمة الجاليات المسلمة في هذه الدول(٦٤). فضلا عن منع وجود أي حواجز بين المسلمين وباقي المواطنين الفرنسيين، وعدم مواصلة عيشهم في أوروبا باعتبارهم أقليات غير قابلة للاندماج، لهم أسلوب حياتهم في المأكل والمشرب والملبس، في إطار رفض الآخر(٦٥)

ومن التفسيرات التي يقدمها هذا الاتجاه لوضع الجاليات المسلمة في الغرب، أن العديد من المهاجرين المسلمين، الذين استقروا في أوروبا وأمريكا، هم ذوو درجة ضعيفة معرفيا، وهم في غالبيتهم أيدٍ عاملة، لم يتمكنوا من الاندماج بسبب ضعف الآليات الثقافية التي يحملونها؛ وهو ما يقوي من الصراع ويدفعهم إلى العيش بعيدا عن الحياة العامة واختلافاتها. لذلك يشتغلون على شكل جمعيات أو مؤسسات خيرية هدفها هو نشر الدين والدفاع عن حقوق ممارسة الشعائر وبناء المساجد(٦٦).

على الجانب المقابل هناك اتجاه آخر يرفض تلك التصريحات والسياسات ويحذر من تداعياتها السلبية على الجالية المسلمة بفرنسا، والمجتمع الفرنسي والأوروبي برمته، خاصة مع ما قد تثيره من استفزاز لقطاعات غير واعية (حادث مقتل المدرس الفرنسي مثلا)؛ وهو ما قد توظفه جماعات متطرفة بالفعل، فتتحول الأشباح إلى حقائق قاسية.

أيضًا بدلا من الاقتصار على توجيه أصابع الاتهام إلى المسلمين يجدر الالتفات إلى ما تشهده الأحياء الفقيرة في الضواحي الباريسية والتي يمثل المهاجرون غالبية سكانها، وما ترمز إليه من فشل السياسة الفرنسية على مدار عقود

---

(٦١) أمل عبد الله الهدابي، رنسا في مواجهة جرائم التطرف والإرهاب، العين، ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/e2en1

(٦٢) نهال أحمد، "سيادة العلمانية".. سياسة "ماكرون" في مواجهة التطرف، مرجع سابق.

(٦٣) فرنسا ترسم طريقا متشددا في مواجهة الانفصالية الإسلاموية، مرجع سابق.

(٦٤) المرجع السابق.

(٦٥) نهال أحمد، "سيادة العلمانية".. سياسة "ماكرون" في مواجهة التطرف، مرجع سابق.

(٦٦) خالد سليكي، بؤس العقل الديني من إساءة المقدس إلى تقديس الإساءة، مرجع سابق.

في دمج هؤلاء في المجتمع الفرنسي، وتركهم يعيشون في مجتمعات هامشية، بغض النظر عن انتماءاتهم العقدية سواء كانت الإسلام أو غير الإسلام. وقد بدا ماكرون معترفا بالمسؤولية عن ذلك، في خطابه؛ إذ اعتبر أن السلطات تتحمل قسما من المسؤولية، في تطوير ظاهرة "تحول الأحياء إلى جيتوهات"، وقال: "قمنا بتجميع السكان بموجب أصولهم، لم نعمد إلى إحلال ما يكفي من الاختلاط، ولا ما يكفي من تمكينهم من التدرج الاقتصادي والاجتماعي"[٦٧].

أيضًا من مآخذ هذا الاتجاه أن خطوات الحكومة الفرنسية تبدو أحادية، بينما يجب إيلاء الاهتمام لمواقف الهيئات الإسلامية المعنية، خاصة أنه قد أعربت عدة هيئات وجمعيات ممثلة للمسلمين، عن مخاوفها من أن تسهم تصريحات الرئيس الفرنسي وسياساته الراهنة وخطته المرتقبة، في انتشار خطاب الكراهية ودفع البعض إلى الخلط بين الدين الإسلامي وتصرفات المتطرفين[٦٨]. فقد أصبح المسلمون يستشعرون في تغير السلوك السياسي للدولة اتجاههم أن شيئا غير عادي ينتظرهم، ليس فقط من ماكرون، بل من جانب من النخب التي تتحكم في بنية السياسة الفرنسية[٦٩].

في هذا الإطار قال عضو اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا (فيدرالية مسلمي فرنسا) ورئيس الفيدرالية الوطنية للتعليم الإسلامي الخاص، مخلوف مامش، إن "مسلمي أوروبا اليوم في أزمة حقيقية بسبب تنامي الشعور بالكراهية ضد الأجانب، وخاصة المسلمين، ولانتشار فكر التطرف والغلو الذي تغذيه الصراعات والتصريحات اللامسؤولة من بعض أبناء جلدتنا"، منوِّها إلى أن "اليمين المتطرف سيقوى ولربما سيصل إلى الحكم في العديد من الدول الأوروبية". لاسيما أنه قد جرت العادة أنه كلما كانت هجمات إرهابية في فرنسا يتم إلقاء اللوم على المسلمين وكأنهم مسؤولون عن هذه الأحداث في حين أن المسلمين مستهدفون كبقية المواطنين[٧٠].

ومن ثم يجب على الحكومة الفرنسية ألا تضع المسلمين الفرنسيين كلهم في موضع الاتهام، وبالتالي السماح بالتطاول على الإسلام ونبيه "صلى الله عليه وسلم"؛ فالشاب الشيشاني المتهم بقتل المدرس يعبر عن سلوك فردي نتيجة الاستفزاز الذي زاد عن الحد، وليس اتفاقا جنائيا من جماعة أو حزب أو حتى الشعوب المسلمة. فلم يحدث أن أعلن المسلمون في فرنسا أو خارجها الحرب على الفرنسيين وقطع رءوسهم؛ وفي المقابل تتخذ الحكومة الفرنسية ذاتها بقيادة أكبر رأس فيها مواقف معادية للمسلمين[٧١].

أيضًا من أبرز الانتقادات للتوجهات الفرنسية الراهنة تجاه الجاليات المسلمة، ليس فقط الجانب الإجرائي، وإنما مضمون التصريحات أيضًا الذي يقوض من فكرة الدمج والتعددية؛ لأنه يستبطن رسالة سلبية من قبل السلطة وتصويرها للمسلمين كأفراد لا ينتمون للمجتمع ومنظومته القيمية والثقافية[٧٢].

يأتي ذلك في إطار أطروحة "أسطورة تعريب أوروبا" التي تقوم على تغذية ادعاء كاذب مفاده أن مسلمي أوروبا يشاركون في حرب ثقافية تستهدف قلب منظومة القيم الأوروبية؛ وبالتالي يجب على المسيحيين البيض القتال لإنقاذ حضارتهم. وهذه وإن كانت نظرية متهورة، فإن الجانب الرصين فيها يدور غالبيته حول ما بات يُعرف

(٦٧) ماهي دوافع الرئيس الفرنسي لانتقاد "النزعات الانعزالية" للمسلمين؟، بي مرجع سابق.

(٦٨) المرجع السابق.

(٦٩) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، مرجع سابق.

(٧٠) في مقابلة خاصة مع "عربي٢١": فيدرالية مسلمي فرنسا: هذه أبعاد الأزمة.. وندعو للتهدئة، مرجع سابق.

(٧١) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، مرجع سابق.

(٧٢) محمد بسيوني عبد الحليم، صراع هوياتي: الدلالات الخطرة لخطاب "ماكرون" حول الإسلام، مرجع سابق.

بـ"الانفصالية الإسلامية"، وهذه الأخيرة نفسها كانت من الأفكار التي تُتَدَاول في الهامش لكنها انتقلت من هناك وأصبحت مؤخرا ضمن الأفكار المتداولة في التيار السائد، فصارت تؤثر في سياسات اليسار واليمين في فرنسا وخارجها[٧٣].

وفي مثل هذا السياق، ربما يتم إكساب محفزات التطرف والإرهاب المزيد من الزخم[٧٤]. ويعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن ما مرت به فرنسا من أحداث أخيرة خلال الشهرين الماضيين بمثابة خطر كبير على السلم المجتمعي داخل فرنسا، وكان آخرها الهجوم بسكين على أسرة مسلمة مكونة من تسعة أفراد، من قِبل مهاجمين يمينيين، وسط إطلاق إهانات عنصرية وعبارات نابية عن العرب والمسلمين. إن هذه الأحداث تنم عن عدم رشد الحكم الفرنسي؛ إذ يعد الرئيس ماكرون مسئولا مباشرا هو وإدارته عن سير الأحداث وسط تصريحاته العدائية للإسلام[٧٥].

ذلك خاصة إذا أخذنا في الاعتبار بعض المؤشرات الإحصائية: فعلى سبيل المثال في عام ٢٠١٩ أعلن المرصد الفرنسي لمكافحة الإسلاموفوبيا، عن ارتفاع حاد في الهجمات ضد المسلمين بفرنسا بنسبة ٥٤% مقارنة بالعام الذي قبله. وقال عبد الله زكري رئيس المرصد التابع للمجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، أن عدد هجمات الاعتداء على المسلمين في البلاد خلال العام الماضي ارتفع إلى ١٥٤ اعتداء، مشيرا إلى أن عام ٢٠١٨ شهد مئة اعتداء ضد المسلمين. وقال زكري حينها: يجب أن يكون المسلمون في فرنسا قادرين على ممارسة دينهم بحرية مثل معتنقي الديانات الأخرى[٧٦].

أيضًا يشير تقرير صادر عام ٢٠٢٠ عن وكالة الشرطة الأوروبية "يوروبول" عن اتجاهات الإرهاب في أوروبا خلال عام ٢٠١٩، إلى تعرض التجمعات المسلمة لعدد من الهجمات الإرهابية وعمليات العنف التي تورط فيها عناصر محسوبة على اليمين المتطرف في أوروبا[٧٧].

ولا شك أنه تزداد الخطورة في حال فوز أحزاب اليمين المتطرف الذي يكن كل العداء للمسلمين والعرب، سيناريوهات مرعبة قد تتحول إلى الأسوأ في أي لحظة إذا لم تتدارك فرنسا الأمر وتكرس ثقافة تعايش حقيقي بعيدا عن الشعارات[٧٨].

رابعًا- خطاب ماكرون حول الإسلام: الجدل بشأن الأبعاد الخارجية

تجاوز الجدل حول مدى توظيف ماكرون للإسلام حدود المشاكل والأزمات الداخلية، نحو الخارج، فهناك اتجاه يرى أن المسألة ليست توظيفا لأغراض سياسية خاصة بماكرون، حيث يقترن على سبيل المثال الرفض الفرنسي للأئمة الأتراك بتوجهات دول أوروبية تتصاعد شكوكها حيال دور سياسي مشبوه لهؤلاء الأئمة. وتجلت مخاوف أوروبا في فبراير ٢٠١٥ عندما وافق برلمان النمسا على مشروع قانون ينص على إخلاء البلاد من الأئمة الأتراك العاملين في مساجد تابعة لفرع الاتحاد الإسلامي التركي

(٧٣) نهال أحمد، "سيادة العلمانية".. سياسة "ماكرون" في مواجهة التطرف

(٧٤) محمد بسيوني عبد الحليم، صراع هوياتي: الدلالات الخطرة لخطاب "ماكرون" حول الإسلام، مرجع سابق.

(٧٥) محسن الكومي، مكيدة ماكرون : هل أصبح المسلمون عبئا على فرنسا أم أنهم لا يقرأون التاريخ ؟، مرجع سابق.

(٧٦) حيدر شريف، هل تتجه فرنسا نحو حرب أهلية أو دينية بسبب اضطهاد المسلمين؟، الحراك، ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EQXbk

(٧٧) محمد بسيوني عبد الحليم، صراع هوياتي: الدلالات الخطرة لخطاب "ماكرون" حول الإسلام، مرجع سابق.

(٧٨) حيدر شريف، هل تتجه فرنسا نحو حرب أهلية أو دينية بسبب اضطهاد المسلمين؟، مرجع سابق.

"ديتيب" بالنمسا، والامتناع عن استقبال أئمة جدد من تركيا[٧٩].

ويرصد هذا الاتجاه بعض الإشكاليات التي يسببها وجود الأئمة الأجانب، فرغم ما يقال عن التطلع الفرنسي نحو إدماج المسلمين والتعامل معهم من منطلق كونهم مواطنين أوروبيين من الدرجة الأولى ثم أنهم مسلمون، إلا أن هناك عدة عقبات تعرقل تنفيذ هذا الهدف لعل أبرزها أن تنفيذ هذا الهدف يعني ضمنيا الحيلولة دون ممارسة دول بعينها (الممولة) تأثير على الجالية المسلمة من خلال مؤسساتها وأئمتها، وهذا أمر مستبعد لاسيما في ظل العلاقات التي تجمع فرنسا بتلك الدول كالمغرب والجزائر وتركيا وقطر. ومن ناحية أخرى نجد فإن فكرة إعادة تأهيل أئمة وخطباء جدد ستتطلب وقتا ومجهودا[٨٠].

وهناك اتجاه آخر يرى أن المسألة تتصل بتنافسات وصراعات فرنسا الخارجية، خاصة أنه من المعلوم أن فرنسا توجد في الدرجة المتوسطة للخطر الإرهابي، وأن درجة الخطر هبطت بست درجات كما يفيد بذلك مؤشر الإرهاب العالمي ٢٠١٩، ومع ذلك تصور التعبيرات الإعلامية الفرنسية التهديد الإرهابي الذي يستهدف البلد، كما ولو كانت فرنسا في وضع آخر غير ما تكشفه هذه المؤشرات التي تستقي معطياتها من الإحصائيات الأمنية الرسمية التي توفرها الدول، فيبدو الأمر كما لو كانت فرنسا صاحبة رسالة عالمية[٨١].

فما التفسير؟

تعرضت فرنسا لخسائر متلاحقة في الملفات الحيوية، والتي تشير إلى أن النفوذ الفرنسي العالمي يتراجع أمام التغيرات الجديدة؛ وذلك على أكثر من مستوى:

أولا– تصاعد التمرد والثورة في المستعمرات الفرنسية بدول الساحل وغرب إفريقيا لانتشار حالة الوعي بسبب مواقع التواصل ووسائل الإعلام الحديثة، والذي ظهر بوضوح في ثورة مالي، وهذا يشكل تهديدا للوجود الفرنسي في هذه المنطقة[٨٢].

ثانيًا– المعركة مع تركيا، التي اصطدمت مع باريس في أكثر من ملف (ليبيا واليونان ونيجريا...)، كما شرعت منذ سنوات في مزاحمتها داخل مستعمراتها بإفريقيا[٨٣]. حيث الصعود التركي الذي أدى إلى تراجع نفوذ فرنسا في ليبيا ويشكل بديلا مفضلا لباقي الدول الإسلامية الراغبة في التخلص من التبعية لفرنسا[٨٤]. فقد أدت المواجهات مع تركيا في شرق المتوسط إلى أن تفلتت دول غرب شمال أفريقيا من القبضة الفرنسية، حيث اتجهت تونس نحو الولايات المتحدة للهرب من ضغوط فرنسا، فيما اتجه الجيش الجزائري نحو تكثيف التعاون العسكري مع تركيا، والذي لم يلبث أن تحول إلى تعاون تجاري باتجاه تعميق الحضور المزدوج للبلدين في القارة الأفريقية[٨٥]. وتنبع خطورة صعود تركيا بالنسبة لفرنسا في قوتها العسكرية المتطورة، خاصة الأسلحة الذكية وأجيال الطائرات المسيرة، التي تم اختبارها بنجاح في ليبيا ومن قبل في إدلب بسوريا وأخيرا في أذربيجان[٨٦].

(٧٩) فرنسا ترسم طريقا متشددا في مواجهة الانفصالية الإسلاموية، مرجع سابق.

(٨٠) نهال أحمد، "سيادة العلمانية".. سياسة "ماكرون" في مواجهة التطرف، مرجع سابق.

(٨١) بلال التليدي، الأبعاد الفكرية في موقف فرنسا من الرسوم المسيئة للإسلام، مرجع سابق..

(٨٢) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، مرجع سابق.

(٨٣) "إسلام فرنسي" ودفاع عن قيم العلمانية؟ ماكرون والإسلام.. أزمة دولة لا أزمة ديانة، مرجع سابق.

(٨٤) وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، مرجع سابق.

(٨٥) المرجع السابق.

(٨٦) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، مرجع سابق.

ويجيد ماكرون الجدل بين الداخلي والخارجي، حيث استدعى خطابه الأخير معطيات الصراع القائم بين فرنسا وتركيا، والخلافات بينهما حول ملفات شرق المتوسط والأزمة الليبية والمعارضة الفرنسية للسياسة التركية في الشرق الأوسط عامة[٨٧]، وفي الوقت ذاته تعهد الرئيس الفرنسي بوضع حد لما أسماه "التدخل التركي" في شؤون فرنسا و"الانفصالية الإسلامية"، مشددا على أنه "لا يمكن تطبيق القوانين التركية على أراضي فرنسا". وفي كلمة ألقاها يوم ١٨ فبراير الماضي في مدينة ملوز شمال شرق فرنسا المعروفة بالحضور القوي للجالية التركية، قال ماكرون: "على تركيا أن تدرك أن باريس لا تقبل أن يقوم أي بلد بدعم متشددين لهم توجهات انفصالية في الجمهورية الفرنسية"[٨٨].

أيضًا تتسق هذه التصريحات الفرنسية مع التقارب الفرنسي الإماراتي حول عدد من القضايا، برز التعاون فيها بشكل جلي؛ إذ قامت الإمارات بدعم وتمويل اللواء المتقاعد خليفة حفتر، وقدمت له شحنات أسلحة نقلت عبر طائرات فرنسية. كما شهدت العلاقات الإماراتية والفرنسية من جهة، والتركية من جهة أخرى، واحدة من أكبر الأزمات بسبب دعمت الجهة الأولى لليونان في أزمة شرق المتوسط، ومسألة الترسيم البحري للمناطق الاقتصادية[٨٩]. وفي هذا الإطار برز موقف الإمارات كداعم لماكرون في وجه الأصوات الرافضة للسياسات الفرنسية تجاه الإسلام والمسلمين، التي اعتبرت أبوظبي أن من يقف وراءها هم "فئة متطرفة" في إشارة إلى حركات الإسلام السياسي.

(٨٧) محمد بسيوني عبد الحليم، صراع هوياتي: الدلالات الخطرة لخطاب "ماكرون" حول الإسلام، مرجع سابق.

(٨٨) فرنسا ترسم طريقا متشددا في مواجهة الانفصالية الإسلاموية، مرجع سابق

(٨٩) دعم أبوظبي لماكرون في مواجهة الحملات الغاضبة ضد الإساءة الفرنسية للإسلام والرسوم، مركز الإمارات للدراسات والإعلام، ٦ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/XDZ4a

ويشار في هذا الصدد أنه قد سبق للإمارات عبر قادتها أن قاموا بالتحريض على الجاليات الإسلامية في أوروبا، حيث كان وزير الخارجية الإماراتي عبدالله بن زايد طالب المسؤولين الألمان بعدم التغافل عن الشباب المسلم في المساجد الألمانية، ونصح بتشديد الرقابة عليهم، في الوقت الذي كانت تدعو فيه أبوظبي للتسامح بين الأديان والتآخي بينها.[٩٠]

خامسًا– جدوى المقاطعة الاقتصادية:

واقعيًا لا يمكن اعتبار أن المقاطعة لم تقل شيئا، ورغم الإصرار من القادة الفرنسيين على الاستمرار في الإساءة ودعمها، لم تحتمل فرنسا حملة المقاطعة للمنتجات الفرنسية في الدول العربية والاسلامية، وخرجت وزارة الخارجية الفرنسية ببيان تطالب فيه بوقف المقاطعة. ورغم الغطرسة في صياغة البيان واتهام المسلمين المقاطعين بأنهم أقلية متطرفة، فإن مجرد صدوره يعكس قوة الشعوب المسلمة في إيصال رسائلها[٩١].

تبعَ البيان تغريدة للرئيس الفرنسي على تويتر يدعو فيها للنقاش العقلاني واحترام الخلاف بروح السلام! ورغم أنه بدأها بأنه ثابت على موقفه، فإن كتابة التغريدة باللغة العربية يؤكد أن رد الفعل الإسلامي كان لافتًا[٩٢].

ومع ذلك فقد تباينت الآراء في تقييم جدوى المقاطعة:

اتجاه يؤيد المقاطعة: انطلاقًا من أن هذه الرسوم لا علاقة لها بحرية التعبير بل هي إساءة تستحق التوقف، ولا شك أن المقاطعة لها دور فعال في مواجهة تلك التصرفات والتصريحات الاستفزازية المؤيدة لها، حيث من شأنها رفع نسبة البطالة في فرنسا، خاصة مع تنوع السلع الفرنسية

(٩٠) المرجع السابق.

(٩١) عامر عبد المنعم، ماكرون والحرب الملعونة ضد الإسلام، مرجع سابق.

(٩٢) المرجع السابق.

المستخدمة في العالم الإسلامي مثل: زيوت العربيات، العطور، منتجات الألبان. أيضًا هناك بُعد سيكولوجي يؤكد عليه مؤيدو المقاطعة، حيث استشعار المسلمين بأنهم قد أدوا مسئوليتهم، كما أنه يرسل رسالة نفسية إلى الطرف الآخر[٩٣].

ذلك لاسيما أنه في التاريخ الحديث قد نجح سلاح المقاطعة في مساعدة شعوب عدة على التحرر من الاستعمار الأجنبي والتدخلات الخارجية، فقد ساعدت المقاطعة الهندية الواسعة للسلع والمنتجات البريطانية في مساعدة الشعب الهندي على وضع نهاية للاحتلال البريطاني، حيث شهر الزعيم الهندي المهاتما غاندي سلاح المقاطعة الاقتصادية في وجه الاحتلال[٩٤].

لكن مؤيدي المقاطعة يضعون شرط أن تكون هذه المقاطعة وفق خطط زمنية وتدعمها الحكومات العربية والإسلامية[٩٥].

وفيما بدا وكأنه خطوة إلى الوراء من وجهة نظر هذا الاتجاه، خرج الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون عقب انتشار حملات المقاطعة على قناة الجزيرة ليقول إن الأخبار التي نقلت أنه يدعم الرسوم المسيئة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم "مضللة ومقتطعة من سياقها"، مؤكدا أنه "يتفهم مشاعر المسلمين إزاء هذه الرسوم"[٩٦].

اتجاه يرفض المقاطعة: وينطلق من أن تلك الدعوى بسبب الرسوم تخالف قيمة حرية التعبير التي يؤمن بها الإسلام ذاته، كما أنها تؤصل لصورة مغلوطة عن المسلمين، وكأنهم لا يقبلون الرأي الآخر، ومن ثم فالمقاطعة لن تسهم سوى في ترسيخ تلك الصورة، خاصة بعد حادث مقتل المدرس الفرنسي؛ ومن ثم قد يتسبب الأمر في مزيد من الضرر للمسلمين بفرنسا. أيضًا تُتهم هذه الفكرة بأنها عاطفية، خاصة أن المنتجات الفرنسية في عداد المنتجات الكمالية[٩٧].

وفي هذا الإطار برز البُعد الديني نوعا، حيث ظهر قول لبعض المشايخ بضرورة إذن ولي الأمر بالمقاطعة[٩٨].

خاتمة: هل هي حقًا أزمة إسلام؟

عود على بدء، "الإسلام في أزمة"، تلك هي العبارة التي أشعلت الغضب الإسلامي، ربما بما يفوق أثر الرسوم. ذلك أن توجيه النقد إلى الإسلام ذاته كدين أمر غير مقبول بخلاف توجيه النقد إلى أحوال المسلمين. رغم ذلك هناك من داخل العالم الإسلامي من أيد رأي ماكرون ليعتبر أن الإسلام في أزمة لأن الدولة الإسلامية قد ابتلعته منذ زمن بعيد[٩٩].

أيضًا هناك من يرى أنّ ماكرون لا يسيء إلى الدين الإسلامي ولا يتناول أصوله العقائدية وإنّما يصف الواقع الإسلامي المعيش من خلال الفاعلين فيه عبر مشاريع دينية/سياسية قائمة على الراديكالية والتي يمثّل مشروع الخلافة الداعشية أبرز تجلياتها[١٠٠].

وبالتالي، هذا الاتجاه يرى أن الاحتجاجات التي تعم الشارع العربي/الإسلامي وأن يصبح الغضب تجاه التصريحات والرسوم كبرى القضايا التي ينتفض من أجلها الشارع العربي/الإسلامي، فهنا تحمل المسألة دلالات "الكارثية"، وتكشف عن مآزق العقل العربي الإسلامي، بل

(٩٣) برنامج نقطة حوار، حملة مقاطعة السلع الفرنسية: هل دخل ماكرون في صدام مع العالم الإسلامي، مرجع سابق.

(٩٤) المرجع السابق.

(٩٥) المرجع السابق.

(٩٦) صلاح الدين كمال، تصريحات ماكرون.. تراجع عن الإساءة أم مناورة لتجاوز الأزمة؟، عربي ٢١، ٣١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/2R2oX

(٩٧) برنامج نقطة حوار، حملة مقاطعة السلع الفرنسية: هل دخل ماكرون في صدام مع العالم الإسلامي، مرجع سابق.

(٩٨) المرجع السابق.

(٩٩) خالد سليكي، بؤس العقل الديني من إساءة المقدس إلى تقديس الإساءة، مرجع سابق.

(١٠٠) هل حقّاً أساء ماكرون إلى الإسلام والنبيّ؟، ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/576F3

وبؤسه أيضا[١٠١]. وبين من يرى أنها بالكلية أزمة إسلام ولا يرى داعيا لرد الفعل هذا، وبين من يدعو إلى ردود فعل عنيفة، يأتي خطر تضييع الفرص. نعم فإن في الأزمات فرصا للوقوف على حقائق الأمور ومواجهة الأطراف المعنية جميعها في لحظات صحوتها على وطأة الأزمة.

فبعيدًا عن الجدالات الفكرية، يجب إدراك أن خطورة الوضع الراهن تنبع من التفاعلات العنيفة "العشوائية" على الجانبين، حيث الهجمات العشوائية على المسلمين بأوروبا، وفي المقابل يبدو أن كافة الهجمات من قبل مسلمين متطرفين هي أمثلة على تحركات جهادية مستقلة بلا قيادة؛ حيث لم يزعم أي من منفذي الهجمات أنه يتصرف باسم منظمة إرهابية، بما يعني أننا صرنا بصدد إرهاب أكثر عشوائية[١٠٢].

لكن يمكن القول إن التعامل مع ظواهر الإسلاموفوبيا، فضلا عن إدراك العموميات، يجب أن يراعي خصوصية كل حالة، فطالما كان الاستغراق في العموميات وتوجيه الاتهامات لطرف وتبرئة آخر هو السائد. وذلك يأتي على مستويين؛ الأول: أسباب تفاقم الظاهرة في الحالة موضع التناول، المستوى الثاني: مقترحات الحل بما يناسب تلك الحالة.

فبشكل عام هناك أزمة نماذج الحداثة التي ظهرت بعد عصر الأنوار، وما صاحبها من أزمات سياسية واقتصادية وثقافية واجهت العالم، بما حفز كل أنواع الخوف والبحث عن كبش فداء لاتهامه بتحمل مسؤولية كل الشقاء، الإسلاموفوبيا هي أحد أشكال كره الأجانب الملازم لهذا النوع من المخاوف[١٠٣].

وإن العوامل التي شجعت نمو الإسلاموفوبيا في فرنسا أو في أوروبا أو في بلدان أخرى من قارات أخرى بعيدة، مازالت تزداد حدة يوماً بعد يوم. سواء تعلق الأمر بتأثيرات منطق الليبرالية الفائقة التي تُفرض على الدول وعلى المجتمعات، أو سواء تعلق الأمر –أيضاً– بالأزمة الاقتصادية المستمرة منذ سنوات السبعينيات وما ارتبط بها من الآثار الاجتماعية، ومنها خسارة الوظائف، وتراجع الخدمات العامة. وقد شجعت هذه الظروف من الانطواءات على الهوية، وكان هذا الأساس لكل أشكال كراهية الأجانب[١٠٤].

ويمكن مما سبق تناوله بالتقرير استخلاص الأسباب التالية بالنسبة للإسلاموفوبيا في فرنسا:

- **ثقافيًا وفكريًا:** هناك خصائص معينة للعلمانية الفرنسية تخلق العداوات بينها والإسلام، إلى درجة أن اعتبرت تلك النسخة من العلمانية تعاني أزمة ذاتية، وأنها خرجت عن الإطار المتعارف عليه للعلمانية من حيث الحياد تجاه الأديان، وذلك باتخاذها مواقف عدائية تجاه الإسلام. يزيد من حدة الأزمة طبيعة الثقافة الفرنسية الشيفونية التي لا تقبل الاختلاف بسهولة، بل تريد أن تصبغ الجميع بصبغتها، وفي فترة الاستعمار (سياسات الفرنسة) خير دليل.
- **اقتصاديًا:** الأزمات المالية والاقتصادية العالمية المستمرة، التي تركت آثارها على الاقتصاد الفرنسي، فضلا عن السياسات الاقتصادية للحكومة الفرنسية التي وجدت رفضًا شعبيًا تجلى في حركة السترات الصفراء، فكان من الضروري أن تجد الحكومة وسيلة للإلهاء تمثلت في إطلاق التصريحات المتتالية عن الخطر الإسلامي الذي يواجه فرنسا، وفي الوقت

---

(١٠١) خالد سليكي، بؤس العقل الديني من إساءة المقدس إلى تقديس الإساءة، مرجع سابق.

(١٠٢) لورانس بيندنر، هوغو ميشيرون، و هارون ي. زيلين، الإرهاب في فرنسا: اتجاهات جهادية جديدة وقديمة، مرجع سابق.

(١٠٣) روضة القدري، الإسلاموفوبيا في فرنسا، ٢٦ ترجمة: جورج كتورة، المسبار، سبتمبر ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ogzte

(١٠٤) المرجع السابق.

نفسه توجه أصابع الاتهام إلى الجالية المسلمة في فرنسا باعتبارها عبئًا اقتصاديًا.

- **سياسيًا:** انطلاقًا من الأسباب السابقة، وغيرها واجه ماكرون تراجعًا في شعبيته في مقابل ارتفاع نسبة التأييد لليمين المتطرف، فأراد بالهجوم على الإسلام وتأييد الرسوم المسيئة لنبيه "صلى الله عليه وسلم" أن ينتزع بعضا من مؤيدي منافسيه.

- **خارجيًا أيضًا** استخدم ماكرون الهجوم على الإسلام في إطار تصفية حساباته مع تركيا من خلال مسألة الأئمة —على نحو ما أشير.

المقترحات:

بالنسبة لفرنسا:

- على ماكرون التعامل بجدية مع قضية الحكم الرشيد للمسلمين وإدراك قضاياهم في جميع أنحاء العالم، واعتبار ذلك جزءًا من السياسة الخارجية الفرنسية. وعليه، فإن فشل ماكرون في إعطاء الأولوية لقضايا الحكم الرشيد يجعل حديثه عن وجود أزمة لدى المسلمين أقلّ إقناعا[(١٠٥)].

- إنشاء كيانات ثقافية يشرف عليها معتنقو الإسلام من الفرنسيين لتعريف الجاليات بطبيعة الثقافة الفرنسية، وإيصال الصورة الحقيقية للإسلام للفرنسيين، بما يؤدي إلى بناء جسور تواصل. على سبيل المثال يشير الموسيقار الفرنسي تيوفيل دي فالنسبورغ الملقب بتيوفيل أحمد إلى أهمية **الإسلاموفيليا (حب الإسلام)**؛ وهو مصطلح قائم على نشر قيم الدين الإسلامي ومرتبط –في معظم الأحيان– بالانبهار بالحضارة الإسلامية، وأنه يمكن أن يستخدم مضادا أو ترياقا لموجة "الإسلاموفوبيا" (الخوف من الإسلام) المتصاعدة في الغرب.

- يتحدث الفيلسوف الفرنسي عبد النور بيدار عن تحسين الحالة المتدهورة عموما للمجتمع الفرنسي، خاصة الشباب، حيث إن الشباب عموما والشباب المسلمين المهاجرين خاصة لا يجدون لأنفسهم مكانًا؛ ذلك أن الشباب من أصل مهاجر يصعب عليهم ترسيخ احترام الذات والثقة بالنفس (تحقيق الذات) في مجتمع يحكم عليه مسبقا بعدم الأهلية للثقة ويعتبره غريبا عنه[(١٠٦)]. ويؤكد بيدار أيضًا ضرورة إعادة بناء الرواية عن شعار الحرية والمساواة والإخاء الذي لم يعد سوى كذبة —وفقًا له– بالنسبة للعديد من المواطنين الفرنسيين[(١٠٧)].

وبالنسبة للجاليات المسلمة:

- ضرورة الانخراط في الحركة السياسية والاجتماعية في فرنسا، والتعامل بمنطق "جماعات المصالح" في الدفاع عن مصالحهم الحياتية والعقدية، فلا يجب أن يستسلم مسلمو فرنسا لضغوط الواقع الاقتصادي—الاجتماعي، ويزيدوا من تقوقعهم على هامش مدن فرنسا؛ إذ إن "ذهنية الجيتو" تعزز الانغلاق الثقافي، وتزيد من إمكانيات "شيطنة" التجمعات الإسلامية[(١٠٨)].

---

(١٠٥) منصور سليمان، كيف نقرأ إساءة ماكرون للإسلام؟، الجزيرة، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ixhPF

(١٠٦) فيلسوف فرنسي: لماذا كل هذا التخويف من الإسلام؟، الجزيرة، ١ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/kayNK

(١٠٧) المرجع السابق.

(١٠٨) وسام فؤاد، ماكرون والإسلام: الشيطنة والتخويف وتآكل الحريات، مرجع سابق.

- إيجاد حائط صدٍّ تجاه تسلل التنظيمات المتطرفة إلى الشباب المسلم؛ سواء بمراعاة الظروف الاقتصادية للفئات الأكثر فقرا، من خلال كيانات تؤسسها الجاليات، أو بتقديم التوعية الثقافية بصحيح الإسلام.

وبالنسبة إلى العالم الإسلامي:

- اعتبار مسألة وضع المسلمين بفرنسا والمسائل الثقافية عامة، رقمًا أساسيًا في المحادثات الاستراتيجية مع فرنسا، فبشكل عام تراجع الثقافي على أجندة العلاقات الثنائية بين الدول لصالح العسكري والسياسي، على نحو عزز من فكرة الصدام الحضاري.
- وعلى **مصر** بوجه خاص أن تستعيد دورها الثقافي فيما يتعلق بالدعوة الإسلامية من خلال تعزيز دور الأزهر، لاسيما أن أئمته يحظون بثقة ومصداقية لا يجدها غيرهم.

*****



الانتخابات الأمريكية:الفعاليات، النتائج والتغيرات المتوقعة (الصورة "الأمريكية" بين الترميم والسقوط)

يارا عبد الجواد(*)

مقدمة:

تمثل الانتخابات الأمريكية حدثًا هامًّا على الساحة الدولية فضلا عن الداخل الأمريكي نظرًا لما تؤول إليه من تغيير إدارة وإحلال أخرى، وما قد يترتب على ذلك من تغيُّرات في بعض السياسات التي تتبنَّاها الولايات المتحدة سواء على صعيدها الداخلي أو سياساتها الخارجية، والتي بدورها تمس الكثير من القضايا الدولية بل وتمس الكثير من الفاعلين الدوليين وغير الدوليين على عدَّة مستويات، وذلك لما للولايات المتحدة من نفوذ عالمي سياسي واقتصادي وهيمنة ثقافية، ولذلك فإن مثل هذا الحدث تسلَّط عليه الأضواء لما يحظى به من أهمية عالمية وليس فقط أمريكية.

وتعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية هذا العام فريدة من نوعها، وهذا يبدو من عدَّة جهات تتمثَّل أولا في كونها تُعقد في ظل أزمة عالمية غير مسبوقة وهي جائحة فيروس كورونا، كما أن المشهد الانتخابي ذاته والذي ابتدأ في الثالث من نوفمبر ٢٠٢٠ كان نقطة فاصلة في تاريخ الديمقراطية والسياسة الأمريكية حيث شهد العالم صراعًا حول نتائج التصويت بين مرشح فائز ورئيس يتَّهم بالتزوير منذ الأيام الأولى للتصويت مما أعطى هذه الانتخابات أهمية مختلفة عن سابقاتها حيث أصبحت بمثابة اختبار تمرُّ به الولايات المتحدة يمتحن مكانتها العالمية وديمقراطيتها، هذا مع ما يشهده العالم من تغيرات كبيرة تتمثل في صعود اليمين في عدة دول مع عودة للقومية ورفع شعاراتها.

ومن هنا تأتي أهمية الوقوف عند فعاليات هذا المشهد منذ بداية الحملة الانتخابية للمرشحين، وهما جو بايدن مرشح الحزب الديمقراطي والذي تولى منصب نائب الرئيس في ظل إدارة الرئيس الأسبق باراك أوباما، ودونالد ترامب الرئيس الحالي ومرشَّح الحزب الجمهوري لفترة رئاسية ثانية، ومن ثم تأتي هذه الورقة البحثية لتقف على المشهد الانتخابي بأبعاده المختلفة وسياقاته ومآلاته ودلالاته الهامة لنستقي منها رؤية مستقبلية قد تؤثِّر في رسم شكل جديد للنظام الدولي، وللديمقراطية الأمريكية الشهيرة.

أولًا– الحملة الانتخابية والقضايا الانتخابية المركزية في خطاب المرشحين:

منذ بداية الحملة الانتخابية في أغسطس ٢٠٢٠ والعالم يراقب هذا المشهد الانتخابي التنافسي بين المرشح الديمقراطي جو بايدن والرئيس دونالد ترامب المنتمي للحزب الجمهوري، حيث شهدت الساحة الانتخابية سجالات ومناظرات واتهامات في محاولة لكلِّ طرف لأن ينال الدعم الكافي ليفوز بمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تضمَّنت هذه المناظرات والسجالات قضايا مركزية تفاوتت من حيث الأهمية والأولوية وتسليط الضوء على أجندة المرشَّحين نظرًا لاختلاف انتمائيهما الحزبي وتوجُّهاتهما السياسية وكذلك الأساليب الخطابية، فالرئيس دونالد ترامب يتبع في حملته أسلوبًا خطابيًّا شعبويًّا بالدرجة الأولى، وهذا ظهر بجلاء في حملته الانتخابية عام ٢٠١٦، وكذلك أثناء حكمه حتى إن البعض كانوا يصفون خطاباته أثناء رئاسته بأنها أشبه بخطابات الحملات الانتخابية وكأنه في حملة انتخابية لا تنتهي.

(*) باحثة في العلوم السياسية.

وهذا الخطاب الشعبوي عامة يناسب سياسة ترامب في الحكم حيث شعار " أمريكا أولًا" و اتباع نهج للسياسة الخارجية يقتضي خلق الأعداء وبث شعور عام بأن هناك كارثة خارجية تهدِّد أمن الولايات المتحدة بالإضافة إلى خلق حالة من الفوضى مصحوبة بتغييرات سريعة في المؤسسات بتعيينٍ أو عزلٍ، وهذه الحالة يعزِّزها استخدام الرئيس الدائم لموقع "تويتر" كمنصة إعلامية يبث من خلالها قراراته وتوجُّهاته وكذلك اتهاماته، حيث إن تصميمها وبنيتها التحتية تناسب هذه الأجواء المرتبطة بسياسة الفوضى التي يتبعها، سواء على الصعيد الخارجي[١] أو الداخلي، فهو لا يكتفي بخلق تهديد خارجي، بل يمارس نوعًا من التجزئة داخل المجتمع الأمريكي وذلك عن طريق التأكيد بأن هناك تهديدًا أمريكيًّا داخليًّا يتمثَّل في اليسار بفروعه المختلفة، وكذلك الأقليات وكل من عدا الأمريكي الأبيض اليميني -تقريبًا- وذلك في سياق "نحن وهم"، وهذا بدا بوضوح في حملته الانتخابية السابقة في ٢٠١٦ عندما وصف المكسيكيين بأنهم مغتصبين ومحرِّضين على العنف، وكذلك في حملته الانتخابية الحالية حيث يحرص على ربط الديمقراطيين الليبراليين بالشمولية "Totalitarianism" واعتبارهم لا يمثلون قيم وثقافة الولايات المتحدة الأمريكية بل هم خطر على مستقبلها، ومن هنا تأتي الهوية التي يريد الرئيس ترامب أن يطبع بها حكمه ويرضي بها داعميه، وهي بناء أمريكا العظمى وخلق إحساس بالفخر والبطولة لديهم، فأكثر الكلمات المكرَّرة في خطاباته تتمثَّل في "العظمة، القوة، النهوض، القانون، الفوز" وهذا الأسلوب الخطابي يعد جزءًا هامًّا من استراتيجية ترامب ومصدرًا هامًّا لقوَّته السياسية بالنسبة لداعميه[٢].

على الصعيد الآخر يتبنَّى جو بايدن استراتيجية خطابية تتمثَّل في شيطنة "ترامب" وإدارته، ورفع شعار الوحدة في مقابل التجزئة التي يتهم ترامب بخلقها، وقد عنونت جريدة "واشنطن بوست" لإحدى المقالات واصفة خطاب بايدن بأنه خطاب فارغ "empty rhetoric" حيث إن خطابه قائم بشكل أساسي على فكرة إصلاح ما أفسدته إدارة ترامب[٣]، فخطابه يتمحور بشكل رئيسي حول مسألة "الاستعادة" أي استعادة الولايات المتحدة من جديد في محاولة لاسترجاع الولايات المتحدة إلى ما قبل ترامب، حيث مفترق الطرق الذي ذهب بالولايات المتحدة إلى الهاوية من وجهة نظره، ومن ثم فهو يتوعَّد بإعادة الكثير مما ألغاه ترامب أو قام بتعديله مما كانت عليه الولايات المتحدة تحت إدارة الرئيس السابق باراك أوباما والذي عمل جو بايدن كنائب له، وهذه النبرة الخطابية الماضوية تعدُّ جديدة على الديمقراطيّين خاصة التقدميّين منهم، فهم دائمًا ما يتحدَّثون عن التقدُّم وليس عن التاريخ، ولكن جو بايدن يعتبر إدارة ترامب قد انحرفت عن الطريق ومن ثم يجب إعادة الولايات المتحدة إلى الطريق أولا، وهو في هذا يتشابه مع نظيره ترامب الذي يريد أيضًا استعادة أمريكا العظمى من جديد وإن كمن الاختلاف بينهما في حقيقة هذه الاستعادة وتجلياتها الواقعية[٤].

---

(1) Amy Skonieczny, Trump talk: Rethinking elections, rhetoric, and American foreign policy, Political studies Association, 28 July 2020, available at: https://cutt.us/IYzh1

(2) Jerome Viala, Donald Trump's heroic fantasy, The Conversation, 3 September 2020, available at: https://cutt.us/8e6WL

(3) Wesley Pruden, Joe Biden's rumble in the jungle of empty rhetoric, Washington Post, 20 May 2019, available at: https://cutt.us/vEGwF

(4) David A. Graham, One Big Difference Between Biden and Every Other Recent

وفي هـذا السـياق سـوف نشـير إلى بعـض القضـايا المركزيـة الـتي أخـذت حيـزًا مـن خطـاب كـلٍّ مـن المرشَّـحين وكذلك النقاشات والسجالات الدائرة بينهم، والتي بدورها تهم المجتمع الأمريكي، وتهم العالم الخارجي كذلك، وذلك للوقوف على مكان هذه القضايا في أجندة كلٍّ منهما وكذلك موقف كل منهما تجاهها.

١) أزمة كورونا

عُقدت الانتخابات الأمريكية ٢٠٢٠ في ظل أزمة غير مسبوقة تتمثَّل في وباء فيروس كورونا المستجد، وأزمة الوباء تعد إحدى القضايا المركزية التي دار حولها الجدل والسجال بين المرشحين، وبدا ذلك واضحا في تصريحات كل من الرئيس ترامب وجو بايدن وكذلك في المناظرات التي عقدت بينهما، حيث إنها تعتبر القضية الأهم التي يستخدمها المرشَّح جو بايدن لصالحه ويضعها على أجندة أولوياته في كسب الدعم، على الصعيد الآخر كان تعامل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مع هذه الأزمة محل انتقاد دائم حيث بدا حرصه منذ بداية الأزمة على التقليل من شأنها حتى آل الأمر إلى أن أصبحت الولايات المتحدة أكثر الدول تضرُّرًا، ولا تزال إلى الآن ضمن قائمة الدول العشر الأكثر تضرُّرًا من جرَّاء هذه الأزمة، نظرًا لارتفاع معدَّل الإصابات والوفيات فيها، وفي هذا السياق كان يؤكِّد الرئيس ترامب بشكل دائم على كون الفيروس صناعة صينية ويسمِّيه في خطاباته "بالفيروس الصيني" ويعتبره أحد مسارات العداء مع الصين(٥).

ومن ناحية أخرى فإن سياسات ترامب في التعامل مع الأزمة اتَّسمت بالتخبُّط الشديد وعدم وضوح الرؤية، حيث إن إجراءات الحجر الصحي والإغلاق التي اتخذتها إدارته جاءت متأخِّرة؛ ممَّا أدَّى إلى نتائج وخيمة تمثَّلت في ارتفاع عدد المصابين وكذلك معدَّل الوفيات، ويرجع هذا بشكل رئيسي إلى سعي ترامب إلى تقليل الإنفاق على كثير من القطاعات ومن ضمنها قطاع الصحة(٦)، هذا بالإضافة إلى انسحابه من منظمة الصحة العالمية في يوليو ٢٠٢٠ مما أثار جدلًا واسعًا، حيث إن الولايات المتحدة تعد أكبر مساهم منفرد في منظمة الصحة العالمية(٧)، ويأتي هذا في إطار أولوية الاقتصاد التي تحظى بها أجندة ترامب بغض النظر عن التداعيات الصحية لهذه السياسات حسب ما أشار لذلك الكاتب الأمريكي أوجين رونسن(٨).

ومن هنا حظيت مسألة الرعاية الصحية بأهمية كبيرة في خضم السباق الانتخابي بين المرشحين حيث أصبحت إحدى النقاط الفاصلة وأحد المعايير الهامة للاختيار من قبل المجتمع الأمريكي، حيث باتت مصدرًا للقلق بالنسبة له، وفي هذا السياق يقدِّم ترامب رؤية تقوم على إجراء تخفيضات كبيرة في الإنفاق على الرعاية الصحية على مدى العقد المقبل، لا سيما برنامج "ميديكيد" بتكلفة ٩٠٠ مليار دولار مع تخفيض أسعار الدواء، ولكن لم تتحقق نتائج واضحة لهذا الأمر، بالإضافة إلى هذا يسعى ترامب إلى تقويض برنامج الرعاية (ACA) المعروف باسم (أوباما كير). على الصعيد الآخر يؤكد جو بايدن على كونه متعهدًا بحماية هذا البرنامج وتقويته وتوسيعه وأنه كان حاضرًا عند توقيع هذا البرنامج كنائب للرئيس أوباما، كما

Democratic Nominee, The Atlantic, 1 May 2019, available at: https://cutt.us/BjrcG

(٥) فيروس كورونا: ترامب يُشدد على أن أصل الفيروس من مختبر صيني مناقضا أجهزة مخابراته، بي بي سي، ١ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/UNc7U

(٦) فطيمة الزهراء رمون، انعكاسات سياسات ترامب الداخلية والخارجية على مستقبله السياسي، المركز العربي للبحوث والدراسات، ١٦ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dSR8L

(٧) فيروس كورونا: ترامب يتخذ إجراءات لخروج الولايات المتحدة من منظمة الصحة العالمية، بي بي سي، ٨ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/nFj8H

(٨) انتقادات لتعامل واشنطن مع أزمة كورونا: إدارة "مثيرة للشفقة"، سكاي نيوز، ١٥ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/gljvD

أعلنت حملته أن خطته ستوفِّر التأمين الصحي لأكثر من ٩٧% من الأمريكيِّين[٩].

٢) قضية العنصرية

تعتبر قضية العنصرية من القضايا الشائكة في المجتمع والتاريخ الأمريكي، وازداد الأمر سوءًا جرَّاء ما قامت به إدارة ترامب على مدار فترة رئاسته من محاولات إقصاء مختلفة تمثَّلت أولا في إقصاء المكسيكيين ووصفهم بالمجرمين والمغتصبين، وكذلك منع الكثير من المسلمين من دخول الولايات المتحدة، وعلى جانب ثالث العنصرية المنتشرة ضد المواطنين من أصول أفريقية والتي من تجلياتها مقتل الأفروأمريكان دون محاكمات قوية على يد الشرطة، والذي صعد من أزمة العنصرية في الولايات المتحدة وصولًا لاحتجاجات عارمة هو مقتل جورج فلويد على يد الشرطة دون سبب داعٍ لذلك، بالإضافة إلى صعود الجماعات التي تنادي بالتفوق الأبيض في ظل حكم ترامب[١٠].

وتعد هذه القضية من القضايا البارزة في الجدل والمنافسة بين الرئيس ترامب ونظيره المرشح الرئاسي جو بايدن الذي اتهمه في المناظرة الثانية التي دارت بينهما والتي عقدت في الثاني والعشرين من أكتوبر ٢٠٢٠ بأنه واحد من أكثر الرؤساء عنصرية في التاريخ، وأشار إلى أن هناك عنصرية مؤسَّسية في الولايات المتحدة[١١]، وبالتالي تعدُّ هذه القضية التي تمسُّ فصائل المجتمع الأمريكي بشكل مباشر وكذلك علاقته مع "الآخر" تسهم بدور كبير في توجُّهات الناخبين، خاصة من المسلمين والسود و الكاثوليك من أصول لاتينية الذين يتوجَّهون إلى دعم جو بايدن[١٢].

٣) مسألة الهجرة واللجوء

مسألة الهجرة والمهاجرين واللاجئين تعد من القضايا التي برزت أيضًا في الحملة الانتخابية للمرشحين الجمهوري والديمقراطي، ومن المعلوم أن قضية الهجرة تعد من أخص خصائص المجتمع الأمريكي وجزءًا لا يتجزَّأ من تكوينه وتاريخه. ولقد أخذت قضية الهجرة منحى نزاعيًّا بين المرشحين، وقد تجلَّى ذلك في ما جرى بينهما من مناظرات، وتبين أيضًا في سياسة الرئيس ترامب وتصريحات نظيره بايدن، فالرئيس ترامب وحسب خلفيته اليمينية وبروز القومية الأمريكية في سياسته قام باتخاذ مجموعة من القرارات للحد من الهجرة وأعرب عن كونها هدفًا أساسيًّا يسعى لتحقيقه[١٣]، كما أنها كانت أحد القضايا الرئيسية في حملته الانتخابية الماضية عام ٢٠١٦، حيث توعَّد حينها ببناء حائط بين الولايات المتحدة وبين المكسيك، وبالفعل أنجز منه أكثر من نصفه، والبناء ما زال مستمرًّا، مع إصدار عدَّة قرارات قيَّد بها دخول الأجانب من ثماني دول يعتبرها راعية للإرهاب وهي (إيران، العراق، ليبيا، سوريا، كوريا الشمالية، فنزويلا، اليمن، تشاد؛ ولكنها أزيلت مؤخَّرًا من القائمة).

ومن جانب آخر، إلغاء برنامج (DACA) أو ما يعرف ب (Deferred Action for Childhood Arrivals) الخاص بالأطفال

---

(٩) مروة عبد الحليم، أين يقف مرشحو الرئاسة من قضايا الداخل، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ٩ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/eJwXs

(10) German Lopez, Donald Trump's long history of racism, from the 1970s to 2020, VOX, 13 August 2020, available at: https://cutt.us/oi6Y3

(١١) الانتخابات الأمريكية ٢٠٢٠: ترامب وبايدن يتبادلان الاتهامات في آخر مناظرة قبل التصويت، بي بي سي، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/7858R

(١٢) الانتخابات الأمريكية ٢٠٢٠: الفئات الدينية والعرقية منقسمة بين ترامب وبايدن، بي بي سي، ١٥ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/tL1oa

(١٣) خطة ترامب للهجرة: المحكمة العليا توافق على فرض قيود للحد من المهاجرين، بي بي سي، ١٢ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TfGhL

المهاجرين[١٤]، وفى المناظرة الأخيرة التي عقدت بين المرشحين اتهم بايدن الرئيس ترامب استنادًا إلى تقارير تدينه بوجود خمسمئة وخمسة وأربعين طفلًا مهاجرًا مفصولًا عن عائلته بسبب الإجراءات التي اتخذتها إدارته للحد من الهجرة، وفي المقابل فإن بايدن يعلي من شأن هذه المسألة ويعلن في خطته أنه سوف يقوم بالعديد من التغييرات بشأن ما قامت به إدارة ترامب فيما يتعلّق بقضية الهجرة وأنه سوف يعيد العمل ببرنامج (DACA) والذي كان يعمل به في ظل إدارة الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما[١٥]، كما أن خطابه كان خطابًا توحيديًّا يحتوي كافة الأقليات وتجلّى ذلك في رسائله المطمئنة للأقلية المسلمة حيث أعرب أنه سوف يقوم بإلغاء الحظر على دخول المسلمين إلى الولايات المتحدة في أول يوم من رئاسته واستشهد بحديث للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في حديثه متعهّدًا بإشراك المسلمين في إدارته ودعم حقوق الأقليات المسلمة حول العالم[١٦].

٤) الاقتصاد

تكمن نجاحات ترامب على الصعيد الداخلي بشكل أساسي في الملف الاقتصادي؛ حيث تشير المؤشرات إلى تراجع معدل البطالة عند مستوى ٣,٧% كأقل مستوى له منذ السبعينيات مع خلق فرص عمل جديدة، مع تبنّي سياسة لتحفيز الإنتاج الداخلي بعد تعرُّض السوق الداخلية الأمريكية لمنافسة قوية مع المنتجات الصينية[١٧]، وتقوم رؤية ترامب الاقتصادية على شعار "أمريكا أولا" وهذا الشعار كان أساسًا له في جميع التعاملات مع الدول الأخرى خاصة الصين التي كانت محورًا لسياسته التجارية وتجلّت أولوية الاقتصاد لدى ترامب في رفع قيود الإغلاق على الكثير من الأنشطة الاقتصادية بالرغم من انتشار فيروس كورونا وارتفاع معدلات العدوى، في المقابل يرفع بايدن شعار التحالف مع الشركاء واستعادة مكانة الولايات المتحدة في الاقتصاد العالمي وذلك من خلال دعم الطبقة الوسطى وأن مواجهة الصين لن تكون بشنّ حرب جمركية كما فعل ترامب بل من خلال التحالف مع الشركاء، مع تركيزه الدائم على كون الرعاية الصحية هي الأولوية[١٨].

٥) تغيُّر المناخ

أخذت قضية تغيُّر المناخ والقضايا البيئية الأخرى ترتيبًا متأخّرًا نسبيًّا من حيث المركزية على سلم اهتمام المجتمع الأمريكي في هذه الانتخابات تحديدًا، وذلك بسبب وباء كورونا والأزمات الاقتصادية التي برزت على السطح واستولت على اهتمام الرأي العام، بالرغم من أنها كانت إحدى القضايا المركزية التي يهتم بها الأمريكيون خاصة اليساريّين ويعتبرونها أحد فواصل الاختيار لديهم.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن الرئيس ترامب لم تتغيَّر رؤيته لهذه القضية منذ ٢٠١٦ وحتى الآن فهو يعتبرها خدعة لا وجود لها من الأساس وأنها تمثّل تهديدًا على الاقتصاد ومن ثم قام بتخفيف القيود المفروضة على انبعاثات الغاز من السيارات والشاحنات وكذلك صناعة النفط والغاز، ويتهم ترامب أجندة بايدن الاقتصادية بأنها حرب على الطاقة الأمريكية، في المقابل يقدّم بايدن رؤية

(14) Lora Ries, President Trump and Joe Biden: Comparing Immigration Policies, The Heritage Foundation, No. 3574, 21 October 2020.

(15) Daisy Conant and James Pollard, Trump and Biden dig into COVID-19, immigration in final debate, The Daily Northwestern, 23 October 2020, available at: https://cutt.us/PySo2

(١٦) في قمة انتخابية افتراضية جو بايدن يداعب أصوات مليون ناخب أمريكي مسلم بحديث للنبي محمد، سي إن إن، ٢١ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WHufG

(١٧) فطيمة الزهراء رمون، انعكاسات سياسات ترامب الداخلية والخارجية على مستقبله السياسي، مرجع سابق.

(١٨) مروة عبد الحليم، أين يقف مرشحو الرئاسة من قضايا الداخل، مرجع سابق.

أكثر طموحًا للحدِّ من انبعاثات الغاز ويعتبرها قضية رئيسية ذات أهمية ويتعهَّد بأنه سيُعيد انضمام الولايات المتحدة إلى اتفاقية باريس للمناخ (Paris climate agreement) والتي انسحب منها ترامب في يوليو ٢٠١٧، وأنه سيستثمر ما يقرب من ٢ تريليون دولار لبناء محطة للطاقة المتجدِّدة كاسبًا بذلك دعم الشباب والنشطاء المهتمِّين بهذه القضية، مع توعُّده بإلغاء كل ما اتخذته إدارة ترامب من سياسات وقرارات من شأنها أن تسبِّب تراجعًا بيئيًّا[١٩].

٦) السياسة الخارجية

تعرَّضت إدارة ترامب للسياسة الخارجية إلى انتقادات واسعة، حيث ذكر الكثير من المحلِّلين أن سياسته الخارجية عملت على تقويض مكانة الولايات المتحدة العالمية كقوة ليبرالية، وقد ظهر هذا في انتهاج ترامب طريقًا مغايرًا لطبيعة السياسة الخارجية الأمريكية، حيث عمد إلى الخروج من المنظمات الدولية وكذلك مهاجمة حلفاء الولايات المتحدة ودعم الحكام الشعبويين وتعزيز النزاعات والصراعات الدولية خاصة في منطقة الشرق الأوسط حيث العداء مع إيران، هذا ضمن سياق استراتيجية العزلة التي تبنَّاها ترامب والتي تقوم على مبدأ "أمريكا أولًا". لقد اعتمد ترامب الانكفاء وعدم انخراط الولايات المتحدة في الشؤون الدولية، حيث يرى أن الآخرين لا يتحمَّلون أعباء توفير الأمن في النظام الدولي وأنهم إذا أرادوا التمتُّع بحماية الولايات المتحدة فعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك، هذه السياسة الانعزالية التي اتَّبعها ترامب أثَّرت بشكل كبير على دور الولايات المتحدة في الخارج وكذلك على صورتها الذاتية كما أدَّى إلى تراجع مكانتها الدولية من المركز الأول في جدول القوة الناعمة ٢٠١٦ إلى المركز الخامس في عام ٢٠١٩ والحال أن هذا التراجع ما زال مستمرًّا إلى الآن، وهذا مما له أثر كبير على سرعة التحولات في النظام الدولي.

في المقابل تبدو رؤية جو بايدن للسياسة الخارجية شبيهة بما كانت عليه إدارة أوباما، حيث يعرب بايدن عن كونه سيدعم المنظمات الدولية وسيدعم كذلك علاقات الصداقة مع دول العالم مع اتخاذ موقف حذر من الخصوم واتباع سياسة تعيد الولايات المتحدة إلى مكانتها وتعيد إليها نفوذها العالمي، وبالرغم من الاختلاف الواقع بين ترامب وبايدن في ما يتعلَّق بالدور الأمريكي العالمي إلَّا أن هناك شبه إجماع داخل الولايات المتحدة بأن دور الحامي أو الشرطي الذي كانت تلعبه الولايات المتحدة قد انتهى[٢٠]، وأن القيادة الأمريكية سوف يتم تعزيزها عن طريق التحالفات وذلك في ظلِّ صعود الصين كقوة عالمية، بالإضافة إلى الاستقطاب الداخلي الذي يشهده المجتمع الأمريكي والذي بات يؤثِّر على سياستها الخارجية[٢١]، ويضاف إلى هذا معاناة الطبقة الوسطى في المجتمع من أعباء هذا الدور، ويعد فوز ترامب عام ٢٠١٦ خير شاهد على هذا التوجُّه داخل المجتمع الذي ينبع من الأعباء الاقتصادية بشكل أساسي[٢٢]، ومن خلال الوقوف على

(19) Anna M. Phillips, Climate crisis or 'hoax': Where Biden and Trump stand on environmental policy, Los Anglos Times, 17 August 2020, available at: https://2u.pw/zRI0u

(٢٠) خالد هاشم، الانتخابات الرئاسية الأمريكية وأجندة السياسة الخارجية بين دونالد ترامب وجو بايدن، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٥ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/PALpn

(21) Judy Dempsey, Can the US regain its global leadership, Carnegie Europe, 15 October 2020, available at: https://2u.pw/cMLTr

(22) Tom Wyler, Ashley Tellis, Sustaining America's Role in the World Demands Renewal at Home, Carnegie Endowment For International Peace, 21 October 2020, available at: https://2u.pw/yB0uc

أهم الملفات الخارجية بالنسبة للولايات المتحدة يبرز الاختلاف بين المرشحين:

أ) العلاقة مع الصين

تعد العلاقات الأمريكية–الصينية من أهم العلاقات الدولية وأكثرها تعقيدًا لما تحمله من أهمية وأثر على توازنات القوة وشكل النظام الدولي، فهي علاقة بين أكبر اقتصاد في العالم (الولايات المتحدة) وثاني أكبر اقتصاد (الصين) كما أن كلا القوتين تتشابكان معًا في الكثير من القضايا الإقليمية، وبالرغم من أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة بدءًا من نيكسون وحتى باراك أوباما اتَّبعت سياسة توفيقية مع الصين إلَّا أن ترامب اتَّخذ نهجًا يقوم على المواجهة المباشرة معتبرًا فشل السياسات السابقة في الحدِّ من نفوذ الصين حيث شنَّ حربًا جمركية على الصين بما يبلغ ٥٠ مليار دولار أمريكي على السلع الصينية، وفي المقابل ردَّت الصين بالمثل في سياق حرب تجارية معلنة، بالإضافة إلى التوتُّرات في بحر الصين، وتعزَّزت هذه الحرب باتهام ترامب للصين بأنها المتسبِّبة في انتشار فيروس كورونا وأن منظمة الصحة العالمية "دمية في يدها"، ومن هنا نستطيع القول بأن انعكاس هذه التوتُّرات يتعدَّى العلاقات الثنائية بين البلدين حيث يتَّسع مدى تأثيره إلى الأمن العالمي.

على الصعيد الآخر يتَّفق الحزب الديمقراطي ومرشحه بايدن مع الحزب الجمهوري بشكل أساسي على أولوية وأهمية العلاقة بالصين، ولكن يكمن الاختلاف في طريقة التعاطي مع هذا الملف، فقد يعمد بايدن إلى التخفيف من حدَّة التوتُّر المحيطة بالحرب التجارية مع الصين، كما يمكن أن يعمل على إزالة بعض العقوبات ضدَّها متبعًا نهج أوباما في إعادة التوازن على محور آسيا، وإن كانت سياسة دمج الصين والتعاون معها التي كانت سائدة في ظلِّ إدارة أوباما قد تغيَّر الاعتقاد بشأنها اليوم بالنسبة للولايات المتحدة مما يشير إلى أن المواجهة قد يكون لها انعكاسًا على سياسة بايدن[٢٣]، والتي قد تجعله يواصل سياسة ترامب في مواجهة الممارسات الاقتصادية الضارة التي تقوم بها الصين، ولكن ستكون هذه المواجهة بالاشتراك مع الحلفاء على عكس الاتفاقيات الأحادية التي تبنَّاها ترامب وذلك في سياق "إحياء القيادة الأمريكية" التي يرنو إليها بايدن على حدِّ قوله[٢٤].

ب) قضايا الشرق الأوسط

من الملاحظ أن قضايا الشرق الأوسط لم تحظَ بأهمية كبيرة، ولم تكن ذات ظهور جلي على أجندة المرشحين في هذه الحملة، هذا فيما عدا السياسة تجاه إسرائيل الذي يستغلها ترامب لكسب دعم الإنجيليين وكذلك السياسة تجاه إيران والنزاع القائم بينها وبين الولايات المتحدة على اعتبار أنها مصدر للتهديد وداعمة للإرهاب بالإضافة إلى تطويرها لبرنامجها النووي الذي يعد مصدرًا هامًّا لقلق الولايات المتحدة، أمَّا ما سوى ذلك فلم يكن ذا بروز في الحملة الانتخابية للمرشحين، وهذا الغموض المهيمن على مكانة الشرق الأوسط يثير المخاوف بشأن التغيُّرات التي قد تشهدها المنطقة في الفترة المقبلة[٢٥].

وسوف يعتمد بايدن سياسة أكثر دبلوماسية وانخراطًا مع العودة لخطاب حقوق الإنسان، ولكن هذا لن يمنع التعاون مع مصر والعمل على مجالات المصالح المشتركة، كما تشهد منطقة الخليج قلقًا من فوز بايدن خاصة المملكة العربية السعودية والإمارات وذلك من غياب استراتيجية واضحة تبيِّن كيف سيتعامل بايدن مع الملفات

(٢٣) خالد هاشم، الانتخابات الرئاسية الأمريكية وأجندة السياسة الخارجية بين دونالد ترامب وجو بايدن، مرجع سابق.

(٢٤) باربرا بليت، كيف سيغير جو بايدن السياسة الخارجية لأمريكا؟، بي بي سي، ١٩ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/D89b6

(٢٥) انتخابات الرئاسة الأمريكية ٢٠٢٠: كيف يمكن أن تغير النتيجة منطقة الخليج والشرق الأوسط؟، بي بي سي، ١٥ أكتوبر، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/BybZt

الهامة لدى الخليج مما يهزُّ ثقة الخليج في دور الولايات المتحدة لحفظ الأمن في المنطقة ودعم حكامها، أما على مستوى الشعوب فإنه يمكننا القول بأن الولايات المتحدة فقدت مكانتها الأخلاقية في الشرق الأوسط جراء تركيزها الكبير على الأمن الإسرائيلي والذي يعتبر أحد الخطوط الحمراء لدى شعوب المنطقة[٢٦].

● إسرائيل والقضية الفلسطينية:

إن القضية الفلسطينية من القضايا المحورية التي تلعب فيها الولايات المتحدة دورًا رئيسيًا متمثلًا في الدعم الدائم لإسرائيل، وهي قضية ذات أهمية عالمية وإسلامية وعربية أيضًا، وتزداد أهميتها في هذه الانتخابات تحديدا لما سبقها من خطوات كثيرة وسريعة ومباشرة اتخذتها الولايات المتحدة لدعم إسرائيل، وإن كان كلا من المرشحين يتبنى أسلوبًا مختلفًا للتعامل مع القضية إلا أن هناك هدفًا يسعون له ويتّفقون عليه وهو الحفاظ على أمن إسرائيل وقوتها الفاعلة في الشرق الأوسط، ويبدو بوضوح حرصهم على توظيف القضية في حملاتهم الانتخابية واستغلالها لكسب دعم اللوبي اليهودي والإنجيليّين، وهذا يتّضح في حملة ترامب بشكل أكثر صرامة، أما بايدن فيبدو أكثر حذرًا، ويرجع حذر بايدن في هذا المضمار إلى الخوف من اليساريّين الليبراليّين الداعمين لحقوق الفلسطينيّين.

وإذا أردنا الوقوف على الفارق الكامن بين تعاطي ترامب مع القضية ونظيره بايدن سنجد أن ترامب يعد من أكثر الرؤساء تنفيذًا لوعوده في دعم إسرائيل، وأن إسرائيل حظيت في ظل رئاسته بدعم غير مسبوق، وتجلّى ذلك في نقل السفارة الأمريكية إلى القدس والاعتراف بسيادة إسرائيل على مرتفعات الجولان ثم إعلانه الأخير عن خطته التي ستدعم إسرائيل لضم كل مستوطنات الضفة الغربية وغور الأردن[٢٧]، هذا فضلًا عن توسط الولايات المتحدة في سلسة من عمليات التطبيع التي جرت بين إسرائيل والعديد من الدول العربية والإسلامية وعلى رأسها الإمارات والبحرين[٢٨].

أما جو بايدن فرؤيته للقضية تبدو متناقضة إلى حد كبير، فقد أعلن أنه ملتزم بأمن إسرائيل وببقاء السفارة الأمريكية في القدس مع دعمه لخطة حل الدولتين كحل للقضية[٢٩]، ويعتبر بايدن مؤيدًا وداعمًا لإسرائيل على مدار حياته السياسية، كما اعترف بأنه صهيوني وبالرغم من هذا، فهو يقول إن على إسرائيل أن توقف النشاط الاستيطاني في الأراضي المحتلة وأن تقدِّم المزيد من المساعدة لغزة، وعلى الصعيد الآخر يدعو الدول العربية إلى التطبيع مع إسرائيل ويرحب بذلك وينتقد المبادرات العالمية التي تسعى إلى ممارسة ضغوط اقتصادية على إسرائيل مثل حركة المقاطعة لإسرائيل، والتي يقول "بايدن" عنها إنها "تنحرف إلى معاداة السامية"[٣٠]، ويبدو أن هذا التخبط عائد لرغبته في كسب الجميع بمن فيهم الأقلية المسلمة ومن يدعمون حقوق الفلسطينيين من اليساريين.

● الملف النووي الإيراني:

إن الاتفاق الذي تمَّ التوصُّل له بين إيران والمجتمع الدولي كان دائمًا محل سعي من إسرائيل ورموز الحزب

(٢٦) كيف سترسم الانتخابات الرئاسية للعام ٢٠٢٠ معالم السياسة الأمريكية إزاء الشرق الأوسط؟، بروكينجز، ٢ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/fL2R9

(٢٧) أشرف العيسوي، قضايا الشرق الأوسط في الانتخابات الرئاسية الأمريكية ٢٠٢٠ والتحولات المحتملة في السياسة الأمريكية، تريندز، ٢٨ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/KFDbW

(٢٨) التطبيع مع إسرائيل: دونالد ترامب يحتفل بـ"فجر شرق أوسط جديد"، بي بي سي، ١٥ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/293RT

(٢٩) أشرف العيسوى، قضايا الشرق الأوسط في الانتخابات الرئاسية الأمريكية ٢٠٢٠، مرجع سابق.

(٣٠) عزت إبراهيم، الأجندة الغائبة: كيف ينظر بايدن إلى الشرق الأوسط؟، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ٩ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/ZwYvX

الجمهوري بالإضافة إلى الإمارات والسعودية لتقويضه وإبطاله. وقد تعهَّد ترامب –الذي يتَّخذ موقفًا عدائيًّا متشدِّدًا ضد إيران التي يعتبرها مصدر تهديد للأمن الإقليمي والدولي– بالخروج من هذا الاتفاق خلال حملته الانتخابية السابقة ٢٠١٦ مما ضمن له الحصول على تأييد الأوساط السياسية المؤيِّدة لإسرائيل في الولايات المتحدة مثل "إيباك"، وكان من أكبر المتبرعين لحملته شيلدون أدلسون المقرَّب من نتنياهو وصاحب صحيفة "إسرائيل اليوم" اليومية التي تعتبر الناطقة باسم نتنياهو، وبالفعل أنجز ترامب ما تعهَّد به وأعاد فرض العقوبات الأمريكية بتوسُّع على إيران، أما بالنسبة لبايدن فإنه قد صرَّح بأنه سوف يسير في إثر الرئيس الأسبق باراك أوباما، واعتبر أن الاتفاق النووي الإيراني من أهم إنجازات أوباما على الصعيد الدولي، كما أكَّد على أنه إذا التزمت إيران بتعهُّداتها المنصوص عليها في الاتفاق، فإن الولايات المتحدة ستعود للعمل بالاتفاق إلى جانب الأطراف الدولية الأخرى[٣١]، ولكنه في الغالب سيواجه تحديًا يتمثَّل في فقدان الثقة بين طهران وواشنطن على إثر ما قام به ترامب من ضغوط وعقوبات على إيران والتي فاقمتها جائحة كورونا، مما قد يصعب فكرة العودة إلى الاتفاق مرة أخرى وتمهيد الطريق بين البلدين والذي لن تقبله إيران إلَّا بتعويضات عن خسائرها الوخيمة كما جاء على لسان المتحدث باسم الحكومة الإيرانية علي ربيعي بأن "الإدارة الأمريكية القادمة لا بدَّ أن تعوِّض طهران عن الخسائر التي ترتَّبت على الانسحاب من الاتفاق وأن تقدِّم ضمانات تقضي بأن هذه الانتهاكات لن تتكرَّر"[٣٢].

(٣١) الانتخابات الأمريكية ٢٠٢٠: ما موقف جو بايدن من أزمات وقضايا الشرق الأوسط؟، بي بي سي، ١٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://2u.pw/CbKal

(32) Parisa Hafezi, Arshad Mohammed, Analysis: Biden would face uncertain path to detente with wary Iran, Reuters, 28 October 2020, available at: https://cutt.us/se2bQ

ثانيًا– المجتمع الأمريكي والمشهد الانتخابي: الرؤية والأولويات

١) القضايا الأساسية ورؤية الناخبين

بالنظر إلى الساحة الانتخابية وتوجُّهات الناخبين نجد –وذلك حسب نتائج مركز بيو Pew الأمريكي لدراسة أجراها قبل موعد الانتخابات[٣٣]– أن ٥٣% من الناخبين يدعمون جو بايدن في مقابل ٤٥% يدعمون ترامب، ولكن تشير الدراسة إلى أن داعمي ترامب يدعمونه بقوة ويجزمون بفوزه، أما داعمي بايدن وإن كانوا أكثر عددًا فإن دعمهم له يتَّسم بالفتور، وهذا مما يشير إلى أجندة بايدن الغائبة –كما سمَّاها البعض– أو المستعارة التي تجعل مؤيديه يرغبون به هروبًا من فوز ترامب وهو ما أشارت له التحليلات بأن فوز بايدن مبني على فشل ترامب، كما أشارت الدراسة إلى أن مؤيِّدي ترامب يعبِّرون عن مشاعرهم بقوة وأنهم سينتابهم الغضب عند خسارته وهو ما أثبته الواقع نسبيًّا، منذ إجراء الانتخابات وظهور النتائج على التوالي، حيث بدتْ حالة من الغضب والإنكار لدى مؤيدي ترامب مما جعل البعض يتوقَّع حدوث حرب أهلية.

كما أن هناك تفاوتًا واضحًا بين الناخبين الديمقراطيِّين والجمهوريِّين حول مدى الرضا عن مرشح الحزب فنسبة الرضا بين الجمهوريين تصل إلى ٥٩% في مقابل ٤٢% بين الديمقراطيِّين وهذه من أعلى نسب التفاوت مقارنةً بنظيراتها من الانتخابات الرئاسية السابقة، خاصة عندما يتعلَّق الأمر بمرشَّح يُنتخب لفترة رئاسية ثانية، كما أن أكثر مؤيِّدي بايدن أفصحوا عن أن دعمهم لبايدن مبني على كونه "ليس ترامب" أما مؤيدو ترامب فالسبب الأول لديهم في دعمه هو انتماؤهم الحزبي.

(33) Election 2020: Voters Are Highly Engaged, but Nearly Half Expect To Have Difficulties Voting, Pew Research Center, 13 August 2020, available at: https://cutt.us/z5bPI

وتشير الدراسة كذلك إلى أن النسبة الأكبر من الناخبين لم يكونوا راضين عن الحملة الانتخابية لهذا العام، ورأوا أنها لم تناقش القضايا الهامة بالنسبة لهم، وأشارت النتائج إلى أن القضايا الداخلية تحظى باهتمام الأمريكيّين أكثر من القضايا الخارجية. وهو ما لم ينتبه له ترامب الذي حاول أن يتجاوز إخفاقه في عدة ملفات داخلية بما حقّقه على صعيد السياسة الخارجية خاصَّة تجاه إسرائيل وذلك لكسب أصوات المحافظين والإنجيليّين واليهود الأرثوذكس، بالإضافة إلى دعم اللوبي اليهودي، ويأتي الاقتصاد في المرتبة الأولى بالنسبة للناخبين، تليه الرعاية الصحية، وتأتي السياسة الخارجية في مرتبة متأخِّرة نسبيًّا هي المرتبة السادسة[٣٤].

وتختلف الأهمية أيضًا بين الديمقراطيّين والجمهوريّين، فالجمهوريون يجعلون الاقتصاد أولا ثم تليه جرائم العنف، أما الديمقراطيون فالرعاية الصحية لديهم في المقدمة ثم الوباء وقضية العنصرية والمناخ، وهذا ما انعكس في خطابات مرشحيهم نسبيًّا.

٢) توجهات الأقليات والجماعات العرقية

من خلال قراءة المشهد الانتخابي في الداخل الأمريكي يتبين تباين التوجُّهات على مستوى القوى السياسية وكذلك على مستوى الولايات المختلفة وعلى مستوى الأقليات والأعراق، وهذا الاستقراء لا يمكن أن ينفصل عن سياق الأحداث التي يمرُّ بها المجتمع الأمريكي خاصة في الآونة الأخيرة، كما أنه لا ينظر إليه بمعزل عن تاريخ الانتماء السياسي لكلٍّ من القوى السياسية أو حتى على مستوى الأفراد من عامة الشعب، فمن المعلوم أن المنافسة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية تقع بشكل رئيسي بين الحزب الديمقراطي الذي يمثِّل اليسار، والذي يعبِّر عن الأغلبية الليبرالية، وإن كان يحوي بداخله اختلافات أيديولوجية تتحرَّك بشكل نسبي بين الأكثر محافظة والأكثر تقدُّمية، وبين الحزب الجمهوري ذي التوجُّه اليميني والذي أيضًا يتضمَّن اختلافات أيديولوجية نسبية بين أعضائه وداعميه، وإن كان إجمالًا يعتبر حزب المحافظين[٣٥].

فعند الحديث عن الجماعات العرقية يتبيَّن أنه ليس من الضروري أن نجد جماعةً عرقية ما تدعم نفس الحزب على الدوام، وإن كان هناك ميلًا عامًّا تجاه حزب من الحزبين، فحسب الدراسة التي أجراها مركز "بيو" الأمريكي للأبحاث والدراسات فإن الحزب الديمقراطي لا يزال يتمتَّع بأفضلية واضحة فيما يتعلَّق بدعم الإثنيَّات الأمريكية من أصول أفريقية أو آسيوية أو لاتينية، بينما يحافظ الحزب الجمهوري على أفضلية بسيطة عند الحديث عن الكتلة التصويتية البيضاء[٣٦].

وفي هذا السياق لا بدَّ من الإشارة إلى أن الحوادث العنصرية التي شهدها المجتمع الأمريكي في السنوات الماضية والتي توقَّدت هذا العام بمقتل جورج فلويد –الأمريكي من أصل أفريقي– زادتْ من أهمية تأثير هذه الجماعات العرقيَّة على نتائج الانتخابات كما أدَّتْ إلى زيادة نشاطهم سواء كناخبين أو فاعلين سياسيِّين، وبدا ذلك بجلاء في المظاهرات التي شنُّوها ضدَّ الشرطة وكذلك إنشاؤهم لحركة "حياة السود مهمة Black Lives Matter"، مما جعل قضية العنصرية أحد أهم القضايا المساهمة في حسم هذه الانتخابات، ولذلك حاول كلٌّ من المرشَّحين كسب دعمهم، حيث قام بايدن بختيار كامالا هاريس لتكون نائبة له، وهي امرأة من أصول هندية آسيوية، ذات بشرة سمراء، ولها اسمها المعروف في أوساط المرأة والأقليات، ومن ثم

(34) Ibid.

(35) Democratic Party, political party, United States, Britannica, 6 November 2012, available at: https://cutt.us/WoxFD

(36) Election 2020: Voters Are Highly Engaged, but Nearly Half Expect To Have Difficulties Voting, Pew Research Center, Op. cit.

شكَّل اختيارها فارقًا بالنسبة لحملة بايدن الانتخابية، حيث يرى الخبراء أنه تمكَّن من استمالة الأقليات بهذه الخطوة، كما أن هذه القضية كانت مادة ثرية استغلَّها بايدن لانتقاد ترامب واتهامه بالعنصرية كما حدث في إحدى المناظرات.

على الصعيد الآخر، حاول ترامب كسب دعمهم عن طريق التقائه بعددٍ من قادة منظمات المجتمع المدني، وقادة جهاز الشرطة، وعدد من مؤسسي حركة "حياة السود مهمة Black Lives Matter" ومجموعة من ضحايا عنف الشرطة وقيامه بدعم مشروع قانون خاص بالنظام القضائي لإقامة إصلاحات في جهاز الشرطة بولاية كارولاينا الشمالية التي يشكِّل فيها الأفارقة الأمريكيُّون النسبة الأكبر ممن يحق لهم التصويت، وبالتزامن مع جائحة كورونا والتي تسبَّبت بأضرار للأقليَّات أكثر من غيرهم على الصعيد الاقتصادي وكذلك الصحي، فوفقًا لدراسة نشرتها الرابطة الحضارية الوطنية في ١٣ أغسطس الماضي فإن واحدًا من كلِّ ١٤٥٠ أمريكي أفريقي يصاب بكورونا بينما يصاب بها واحدٌ من كل ٣٠٠٠ لاتيني بينما يصاب بها واحدٌ من كل ٣٣٥٠ أمريكي أبيض، وأشارت الدراسة أيضًا إلى وجود تفرقة وعدم مساواة بين الأقليات المختلفة في الحصول على الرعاية الصحية وبالأخص الأمريكيين من أصول أفريقية مما كان له انعكاسٌ واضحٌ على خطط المرشحين الخاصة بالرعاية الصحية(٣٧).

وبالنظر إلى الأقلية المسلمة نجد أنها تمثل ١,١ في المئة من سكَّان الولايات المتحدة، وهي نسبة ضئيلة ولكن تركزهم السكَّاني في ولايات معيَّنة يقوِّي من تأثيرهم على عملية التصويت، كما أن مركز "بيو" الأمريكي للدراسات والبحوث يشير إلى أن الكتلة المسلمة ستتجاوز من حيث العدد الكتلة اليهودية لتصبح بحلول عام ٢٠٤٠ ثاني أكبر كتلة دينية بعد المسيحيِّين، ولا نستطيع القول بأن الأقلية المسلمة كانت تدعم أحد الحزبين على الدوام، ولكن الأمر أخذ منحنيات متعدِّدة حسب السياقات المختلفة والأجندات كذلك، وذلك لما للمسلمين من منظومة قيمية تختلف عن توجُّهات كلٍّ من الحزبين، فهم يرفضون تقويض الديمقراطيِّين للأخلاق العامة في القضايا الاجتماعية، وكذلك فإنهم يرفضون التوجُّهات اليمينية المتطرِّفة للجمهوريِّين التي تتَّخذ موقفًا معاديًا منهم، ومن ثم فهم بين النظر إلى الجمهوريِّين على أنهم معادون لهم على أسس عرقية، بينما يرون الديمقراطيِّين معادين للأخلاق والقيم الإسلامية.

وحسب ما تشير إليه التقارير، فإن الأقلية المسلمة في هذه الانتخابات تدعم جو بايدن بالرغم من أنه ليس المرشَّح الأمثل بالنسبة لهم، ولكن التفسير المباشر لهذا التوجُّه يتمثَّل في خطاب العنصرية والكراهية الذي تبنَّاه الرئيس ترامب ضد المسلمين في حملته الانتخابية السابقة بعد تصريحه في مارس ٢٠١٦، والذي قال فيه "أعتقد أن المسلمين يكرهوننا، لدينا مشاكل مع المسلمين، ولدينا مشاكل مع المسلمين القادمين إلى البلاد"، كما تعهَّد بفرض "إغلاق كامل" لهجرة المسلمين، بالإضافة إلى قيامه بنقل السفارة الأمريكية في إسرائيل إلى القدس(٣٨)، ولكنه حاول استمالتهم من جديد، حيث قامت حملته الانتخابية بإنشاء منظمة باسم "أصوات المسلمين لترمب" والتي حاولت بنشاط حشدَ المسلمين الأمريكيِّين، وخاصة الشباب، للتصويت لصالح ترمب(٣٩).

---

(٣٧) محمد هيكل، الأقليات والانتخابات الأمريكية مشاركة مؤثرة أسباب ودلالات، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ١٥ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/BDF4e

(38) Mehmet Ozalp, Who will Muslim Americans vote for in the US elections?, The Conversation, 27 October 2020, available at: https://cutt.us/oBjRJ

(٣٩) ألطاف موتى، المسلمون الأمريكيون في انتخابات ٢٠٢٠ وما بعدها، الجزيرة، ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ciA4W

على الصعيد الآخر، تمثِّل الأقلية اليهودية حوالى ٢,٢% من إجمالى عدد السكَّان في الولايات المتحدة الأمريكية، وإن كانت أصواتهم تتأرجح بين الحزبين الديمقراطي والجمهوري على مدار تاريخ الولايات المتحدة ولكنها تميل في الغالب نحو الديمقراطيِّين[٤٠]، إلا أن النُّفوذ الحقيقي لليهود يكمن في الإسهامات المالية والنفوذ السياسي للوبي اليهودي الذي يدعم الرئيس الجمهوري دونالد ترامب كما أعرب المندوب الصهيوني السابق لدى الأمم المتحدة داني دانون حيث أشار إلى الدعم المالى الضخم الذي حصلت عليه حملة ترامب من رجال الأعمال والمنظمات اليهودية وكذلك من قبل اليهود الأرثوذكس والإسرائيليِّين المقيمين في الولايات المتحدة[٤١].

وقد شهد العالم سلسلةً من الخطوات التي اتخذتها إدارة ترامب لصالح إسرائيل، والتي مثَّلت أولوية على أجندة السياسة الخارجية الأمريكية في ظلِّ إدارته والتي شملت نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، وكذلك قيام الولايات المتحدة بدور الوساطة في عدد من اتفاقيات التطبيع بين إسرائيل وعدَّة دول عربية على رأسها الإمارات العربية المتحدة والبحرين والسودان والمغرب، والتي يعتبرها ترامب جزءًا أساسيًّا من حملته الانتخابية رغبة في الحصول على دعم اللوبي اليهودي واليهود الأرثوذكس والإنجيليِّين الأمريكيِّين[٤٢].

وتعدُّ جماعات الضغط اليهودية أو ما يُعرف باللوبي اليهودي المؤيِّد لإسرائيل في الولايات المتحدة إحدى -إن لم تكن- أقوى جماعات الضغط في العالم، وهذا يعود إلى القوة السياسية التي تملكها، وكذلك قوَّتها الاقتصادية الفائقة. إن ما حقَّقته إدارة ترامب من مكاسب لإسرائيل خير شاهد على مدى قوة هذه الجماعات وسعة نفوذها في السياسة الأمريكية[٤٣]، ولكن ممَّا يُشار إليه في هذا السياق أن الأمريكيِّين اليهود بشكل عام رغم دعمهم لإسرائيل إلَّا أن بعضهم لا يضعها أولوية أولى عندما يتعلَّق الأمر بانتخاب رئيس جديد ومن ثم يميلون للحزب الديمقراطي لأسباب بعضها اقتصادي والآخر يتعلَّق برفض رقابة الدولة على الحياة الاجتماعية، خاصة ما يتعلق بحرية الإجهاض وحقوق الشذوذ وغيرها، وإن كانت هناك بعض المؤشرات تقول إن نسبة التصويت للجمهوريِّين في صعود نسبي بين الشباب اليهود جرَّاء تنفيذ ترامب لوعوده تجاه إسرائيل[٤٤]، ولكن شهدت هذه الانتخابات ميل كفة تصويت اليهود من غير الأرثوذكس إلى المرشَّح الديمقراطي جو بايدن، وقد يعود هذا إلى إخفاق ترامب في عدَّة ملفات داخلية رغم ما حقَّقه على الصعيد الخارجي تجاه إسرائيل.

ثالثًا- المشهد الانتخابي ونتائجه: الدلالات والمآلات

١) إنكار ترامب والجمهوريين للهزيمة

مع بداية توجُّه الناخبين إلى صناديق الاقتراع في الثالث من نوفمبر ٢٠٢٠، وحتى إعلان فوز بايدن الأوَّلي في السابع من نوفمبر ٢٠٢٠، شهدت الانتخابات

---

(40) Lara Friedman, The American Jewish Community and the 2020 US Presidential Election, Arab Center Washington DC, 31 January 2020, available at: https://cutt.us/iCkmB

(٤١) عبد السلام سكية، هذا هو وزن "الصوت اليهودي" في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، الشروق أونلاين، ٢ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WhmSV

(42) Trump Extends Arab Push to Normalize Ties With Israel, Foreign Policy, 11 September 2020, available at: https://cutt.us/6waqX

(43) Pro-Israel, Center for responsive politics, February 2019, available at: https://cutt.us/zBwb9

(44) Maya Jaradat, How and why the Jewish American voter might be changing, Desert News, 30 August 2020, available at: https://cutt.us/iMEKM

الأمريكية أعلى نسبة إقبال للناخبين منذ أكثر من قرن، كما أن عدد المصوِّتين عبر البريد تضاعف مقارنة بانتخابات ٢٠١٦ وهذا نظرًا لاستثنائية هذه الانتخابات والتي تُعقد في ظل انتشار كبير لفيروس كورونا[٤٥]، ويلي ذلك توالي إعلان نتائج الولايات والتصديق على فوز بايدن حتى السابع من ديسمبر حيث تأكّد فوز بايدن بفارق كبير، ولقد كان لإعلان نتائج التصويت الشعبي بفوز المرشح الديمقراطي جو بايدن في ٧ نوفمبر ٢٠٢٠ رد فعل غير مسبوق في تاريخ الولايات المتحدة حيث قام الرئيس الحالي والمرشح الجمهوري دونالد ترامب مع بداية ظهور النتائج الأولية للانتخابات بإطلاق تصريحات معلنًا فيها بأنه لا سبيل له إلَّا الفوز ومطالبًا المحكمة العليا بوقف العد وملقيًا باتهامات صريحة بوقوع تزوير في نتائج التصويت، كما صرَّح عند إعلان فوز بايدن بأن هذه الانتخابات لم تنتهِ بعد[٤٦].

في المقابل لم يقدِّم بايدن تصريحات مشابهة حتى خرج بخطاب فوزه في الثامن من نوفمبر مركِّزًا في حديثه على الوحدة وعلى استعادة ما سمَّاه "روح أمريكا" وأنه سيُعيد لها الاحترام بين العالم متوجِّهًا بخطابه نحو الأقليات والطبقة الوسطى، بالإضافة إلى الإشادة بنائبته كمالا هاريس كأول أمرأة سمراء تتولَّى هذا المنصب والتي ذكرت في خطابها أن هذه الانتخابات كانت بمثابة اختبار للديمقراطية الأمريكية، حيث قالت "كانت ديمقراطيتنا ذاتها على ورقة الاقتراع في هذه الانتخابات"[٤٧].

ويعتبر هذا المشهد الذي تراقبه وسائل الإعلام ويتابعه العالم مشهدًا في غاية الأهمية من حيث الدلالة والصورة، فهو مشهد تتعرَّض فيه ديمقراطية الولايات المتحدة إلى اختبار وتتعرَّض فيه صورة الولايات المتحدة سواء داخليًّا أو خارجيًّا إلى اختبار أيضًا، من حيث التصوُّر والإدراك لدى شعبها وكذلك شعوب العالم، ومن هنا تأتي أهمية الوقوف عند هذا المشهد وما يؤول إليه.

تشير التحليلات إلى أن الصورة العالمية للولايات المتحدة أو بالأحرى "سمعتها" تواجه خطرًا، وقد بدأ هذا الخطر يدقُّ أجراسه مع سوء إدارة ترامب لجائحة كورونا ثم مقتل الأمريكي من أصول أفريقية (جورج فلويد) ثم تُوِّجَتْ هذه الأحداث بانتخابات يلقي فيها الرئيس اتهامات بالتزوير مزعزعًا بذلك مصداقية العملية الانتخابية ومثيرًا شكوكًا بشأن مدى متانة الديمقراطية الأمريكية[٤٨]، هذا مع وجود فريق من المتظاهرين المنتمين لليمين المتطرِّف الداعمين لترامب يحملون السلاح ويرفضون قبول فوز جو بايدن، في مقابل فريق آخر من داعمي بايدن يهدِّدون بمظاهرات مضادة في حالة لم يتم الاعتراف بفوز بايدن، وفي هذا السياق يحذِّر الخبراء من أن هذين الفريقين الذين يضمَّان

---

(45) Hanna Miao, 2020 election sees record high turnout with at least 159.8 million votes projected, CNBC, 6 November 2020, available at: https://cutt.us/wxLbH

(46) Danielle Medina, 'Far from over': See Trump's statement after Biden was declared president-elect, Tennessean, 7 November 2020, available at: https://cutt.us/pGtc1

(47) Maeve Reston and Stephen Collinson, President-elect Joe Biden seeks to unite nation with victory speech, CNN, 8 November 2020, available at: https://cutt.us/BrX9x

(48) Inderjeet Parmar, This bitter election is damaging US global standing – and the international liberal order, The Conversation, 6 November 2020, available at: https://cutt.us/VvGeB

جماعات متطرِّفة من كلا الجانبين قد يتحوَّل الصراع بينهما إلى عنف صريح إذا تواجها[٤٩].

وفي هذا السياق يؤمن ٨٠% من الناخبين الجمهوريّين -حسب استطلاعات الرأي- بما يدَّعيه ترامب من وقوع التزوير ويقول البعض منهم إنهم يستعدُّون إذا ما وقعت حرب أهلية بينهم وبين اليسار الأمريكي. إن حالة الإنكار العام لنتائج الانتخابات المنتشر بين غالبية الناخبين الجمهوريّين تعكس صورة خطيرة في ديناميـة السياسة الأمريكية حيث التطبيع مع مثل هذه الادِّعاءات ممَّا يضعف مصداقية النظام السياسي الأمريكي كنظام ديمقراطي دستوري، وكذلك تفسح المجال لنظرية المؤامرة لتأخذ حيِّزًا كبيرًا من تصوُّرات الناخبين من الفريقين وهذا ممَّا يؤثِّر على المدى الطويل على دور المؤسَّسات الأمريكية السياسية والمدنية، كما أشار لذلك عالم السياسة الأمريكي في جامعة نيويورك بول لايت "بأن أمريكا قد تتمزَّق"[٥٠].

على الصعيد الآخر يظهر أن هناك انقسامًا آخر أيضًا بين أعضاء الحزب الجمهوري في الكونجرس حول ادِّعاءات ترامب، فبينما تهدف اللجنة القومية للجمهوريّين إلى أن تدعم ترامب بما يزيد عن ٥٠ مليون دولار في معركته القانونية لإثبات ادِّعائه، يرفض البعض الآخر هذه المعركة من الأساس[٥١].

وبالتوازي مع هذه الأحداث قام ترامب بإقالة عدد من المسؤولين في عدَّة مؤسَّسات، حيث أقال وزير الدفاع الأمريكي مارك إسبر من خلال تغريدة على موقع تويتر عازلًا إيَّاه من منصبه ومعينًا آخر، مما جعل البعض يصف هذا التصرُّف بالطفولي المتهوِّر وأن الولاء لدى ترامب هو المعيار الأول حتى لو على حساب الكفاءة، والتي تزيد أهميتها بطبيعة الحال في المراحل الانتقالية، وتشير التحليلات إلى أن أسباب عزل وزير الدفاع تعود إلى خلاف بين إسبر وترامب فيما يتعلَّق باستخدام القوة، حيث عارض إسبر ترامب في استخدام الجيش لمواجهة الاحتجاجات التي شهدها الشارع الأمريكي ضدَّ العنصرية[٥٢].

ولم يكن مارك إسبر الوحيد الذي تمَّت إقالته في هذه الفترة، فلقد أقال ترامب ولأسباب مشابهة مسؤول الأمن الإلكتروني (السيبراني) كريس كريبس الذي دافع عن نتائج التصويت ودافع كذلك عن التصويت عبر البريد رافضًا ادعاءات ترامب بوقوع التزوير أو حدوث اختراق إلكتروني[٥٣]، بالإضافة إلى هذا تم إقالة عدد من المسؤولين

---

(49) Kristina Cooke, Ned Parker, and Ted Hesson, As Trump refuses to concede defeat, far-right groups plan show of support in Washington, Reuters, 13 November 2020, available at: https://cutt.us/CagxD

(50) Brad Brooks, Nathan Layne, and Tim Reid, Why Republican voters say there's 'no way in hell' Trump lost, Reuters, 20 November 2020, available at: https://cutt.us/TQEBR

(51) Richard Cowan, U.S. Republicans divided over Trump's election-fraud claims, Reuters, 7 November 2020, available at: https://cutt.us/2HpaH

(52) Helene Cooper, Eric Schmitt and Maggie Haberman, Trump Fires Mark Esper, Defense Secretary Who Opposed Use of Troops on U.S. Streets, New york Times, 9 November 2020, available at: https://cutt.us/EQLh3

(53) Joseph Menn, Christopher Bing, Trump fires top U.S. election cyber security official who defended vote, Reuters, 18 November 2020, available at: https://cutt.us/89XAp

الآخرين في وزارة الدفاع وإحلال آخرين أكثر ولاءً للرئيس ترامب مما يجعل هناك حالة من التأهُّب والفوضى داخل البنتاجون، وهذا يأتي متوازيًا مع تصريحات عدد من المسؤولين في وزارة الدفاع ينبئون فيها عن قلقهم من هذه القرارات وعلى رأسهم رئيس أركان الجيش الأمريكي مارك مللي الذي قال "نحن لا نحلف اليمين لملك أو ملكة أو طاغية أو دكتاتور، لا نـؤدِّي اليمين لأي فرد، ولكن للدستور"، وقد جاء هذا التصريح على إثر إقالة وزير الدفاع مارك إسبر وكذلك تعيين ٣ من الموالين لترامب في البنتاجون، ويعد هذا التصريح الذي أتى في ظل حالة من الفوضى والقلق تشهدها الولايات المتحدة نتيجة لعدم اعتراف الرئيس ترامب بفوز نظيره جو بايدن وكذلك حالة من توتُّر تشهدها العلاقة بينه وبين البنتاجون تنبئ بأن الحيادية السياسية للجيش الأمريكي قد تتغيَّر وأنه قد يصبح له دور في حلِّ هذا الإشكال السياسي المتمثِّل في عرقلة التداول السلمي للسلطة(٥٤).

على صعيد آخر، استمرَّ ترامب في سياسته القائمة على مبدأ "أمريكا أولًا" واتِّخذ قرارات سريعة بسحب القوات الأمريكية من عدَّة دول على رأسها أفغانستان والعراق مما قد يؤدِّي إلى زعزعة استقرار العلاقة بين الولايات المتحدة وطالبان بالنسبة لإدارة بايدن(٥٥)، هذا بالإضافة إلى تفاقم التوتُّر بين الولايات المتحدة وإيران بعد اغتيال العالم النووى الإيراني "فخرى زاده" حيث تشير التحليلات إلى أن هذا الاغتيال جاء ليؤجِّج التوتُّر في المنطقة، ومن ثم عرقلة عودة بايدن إلى الاتفاق النووى الإيرانى(٥٦).

ويأتي ذلك في سياق عرقلة ترامب لإجراءات نقل السلطة والتي تضمَّنت معارك قانونية مع عدم وجود أي تعاون من شأنه تمهيد الطريق للإدارة الجديدة وتمكينها من الوصول للمعلومات والأموال المطلوبة(٥٧)، إلى أن آل الأمر بترامب للموافقة على بدء انتقال السلطة في الرابع والعشرين من نوفمبر وذلك عقب اعتماد فوز بايدن رسميًّا في ولاية ميتشيجان التي مثلت ضربة كبيرة لترامب(٥٨)، في مقابل هذه الأحداث المتتالية قام بايدن -بسرعة موازية- بتعيين أعضاء الجهاز الإداري والتنفيذي الذي سيعمل معه استعدادًا لبدء العمل، مصرِّحًا بعدم اكتراثه بما يقوم به ترامب وما يثيره من معوِّقات(٥٩).

هذا المشهد المعقد يقوِّض من محورية الولايات المتحدة في العالم ويرسم لها صورة جديدة في الأذهان سواء محليًّا أو عالميًّا معتمدًا على فشل داخلي في عدم توفير الأمن والاستقرار بالإضافة إلى عرقلة التداول السلمي للسلطة، مع سياسة خارجية تعتمد استراتيجية انعزالية، ولكن بالرغم من كلِّ هذا فإن ترامب لم يحصل على نسبة

(54) Lolita Baldor, Military wary that shakeup could upend its apolitical, AP News, 13 November 2020, available at: https://cutt.us/bo4tc

(55) Julian Borger, Trump reportedly plans to withdraw nearly half of US troops in Afghanistan, The Guardian, 17 November 2020, available at: https://cutt.us/goWeD

(٥٦) معصومة طرقة، محسن فخري زاده: ما الدوافع التي تقف وراء اغتيال العالم الإيراني؟، بي بي سي، ٣٠ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/y6yvL

(57) Kevin Liptak, Trump blocks transition as he refuses to accept loss, CNN, 10 November 2020, available at: https://cutt.us/J0214

(٥٨) الانتخابات الأمريكية ٢٠٢٠: ترامب يوافق على بدء انتقال السلطة إلى بايدن، بي بي سي، ٢٤ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/RqQfg

(59) Linda So, Raphael Satter, and Simon Lewis, Biden identifies more administration officials, Trump vows continued election fight, Reuters, 30 November 2020, available at: https://cutt.us/aFJi3

قليلة من الأصوات وإنما حصل على حوالي ٤٧٪ من أصوات الناخبين، كما أن الجمهوريّين يملكون عددًا كبيرًا من مقاعد الكونجرس ولديهم أغلبية في مجلس الشيوخ مما يشير إلى أن ترامب وأسلوب إدارته قد يظلُّ حاضرًا كقوة فاعلة في السياسة الأمريكية وإن لم يكن رئيسًا[٦٠].

٢) أسباب فوز بايدن

إذا أردنا الوقوف عند أسباب فوز بايدن سنجد أنها تعود لأمرين أساسيَّين: الأمر الأول- يتعلق بشكل رئيسي بإخفاقات إدارة ترامب وأسلوب إدارته، حتى إن بعضًا ممَّن صوَّتوا لبايدن يرون أنه ليس هو الرئيس الأمثل ولكنه رئيس تقليدي قد يُعيد الاستقرار والوحدة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعدما أساءت إدارة ترامب للقيم الأمريكية ولمكانتها العالمية، وإن كان هناك من يرى أنه لولا سوء إدارة ترامب لأزمة كورونا، لكان من المحتمل أن يفوز بفترة رئاسية ثانية وهذا يعود لما حقَّقه على الصعيد الاقتصادي -الذي تبين أنه يحظى بأهمية كبيرة لدى الناخبين- قبل ظهور الوباء حيث قلَّت نسبة البطالة وارتفعت الأجور بين العاملين الفقراء بنسبة ٤,٧٪ في العام، كما أن قراراته تجاه مسألة الهجرة والقيود التي فرضها للحدِّ منها، كانت مرضية بالنسبة لداعميه -وهم لا يمثِّلون نسبة قليلة من المجتمع الأمريكي- حيث كانت بمثابة تحقيق لوعود قد تعهَّد بها عند تولّيه، كما أن دوره في تطبيع عدد من الدول العربية والإسلامية مع إسرائيل لقي صدًى عند داعميه خاصة الإنجيليّين واليهود الأرثوذكس، ولكن إذا غضضنا الطرف عن هذه السياسات التي قد تواجه بالنقد أو القبول داخل المجتمع الأمريكي ذاته سنجد أن الأزمة الحقيقية تتمثَّل بشكل عام في تشوُّه قد جرى لصورة القيم والمبادئ التي تروِّج لها الولايات المتحدة والذي تسبَّبت به إدارة ترامب، بالإضافة إلى النقلة النوعية التي أحدثها في أسلوب الخطاب الأمريكي وكذلك أسلوب الإدارة الأمريكي الذي اعتاد عليه العالم وطبع في الأذهان، ابتداءً بالثقافة الديمقراطية الأمريكية التي أصبحت على حافة الهاوية حيث عمد ترامب في إدارته إلى إقصاء كل من لا يدعمه محدثًا بذلك تمزُّقًا وانشقاقًا في المجتمع وذلك عن طريق الاستمرار في التأكيد على أن هناك تهديدًا داخليًّا يتمثَّل في نصف الشعب أو أكثر، والذين يعتبرهم ترامب لا يمثِّلون قيم الولايات المتحدة. هذه الحزبية المفرطة والخطابات المسيئة والفوضوية والقرارات السياسية التي كان يتَّخذها عبر تغريدات على موقع تويتر أسهمت في تقويض الأعراف الأمريكية وكذلك قوة المؤسسات، كما أن سياسة العزلة والتنصُّل من الحلفاء التي اتَّبعها، تعدُّ مما يخالف تقليد السياسة الخارجية الأمريكية[٦١].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى الأسباب القريبة المباشرة -التي أسهمت في إخفاق ترامب وظهوره بهذه الصورة المشوَّهة مما ساعد على فوز بايدن- متمثلة بشكل رئيسي في سوء إدارته لأزمة كورونا، بالإضافة إلى مقتل الأمريكي من أصول أفريقية (جورج فلويد) حيث كان تعامل ترامب مع هذه المسألة أحد المحاور الهامة في قضية العنصرية التي تشكل أزمة في المجتمع الأمريكي بشكل عام، وفي هذه الانتخابات بشكل خاص، حيث أعرب عن كونه لا يرى بأسًا في استخدام العنف ضد المحتجّين السلميّين مما أدّى إلى انتقاده بشدَّة[٦٢]، واعتبرت هذه القضية -فضلًا عن أزمة كورونا- أحد المسارات الهامَّة للنزاع القائم بين ترامب وبين الإعلام ومادة أساسية استخدمها الإعلام

(60) Inderjeet Parmar, This bitter election is damaging US global standing – and the international liberal order, OP. cit.

(61) Why it has to be Biden, The Economist, 29 October, available at: https://cutt.us/mI1st

(٦٢) مقتل جورج فلويد يكشف "شروخ الأسطورة الأمريكية"، بي بي سي، ٥ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jjXMW

الأمريكي في حملته المضادَّة لترامب والتي لعبت دورًا كبيرًا في رسم صورة المشهد الانتخابي.

على صعيد آخر، فإن العامل الثاني الذي يكمن وراء فوز بايدن يتمثَّل في استراتيجية الحزب الديمقراطي المتبنَّاة في إدارة الحملة الانتخابية، والتي تضمَّنت التزام الوسطية في الخطاب وتسليط الضوء على أزمة كورونا ومقتل فلويد والبُعد عن الضجيج والاتسام بالهدوء والعمل الدائب المستمر رغم ما يثيره ترامب، هذا بالإضافة إلى سلاح المال الذي استخدمه بايدن بشكل جيد ومن خلاله تمكَّن من مواصلة الحملة حتى النهاية[٦٣]، ومن ثم تمكَّنت حملة بايدن من الحفاظ على الولايات الموالية للديمقراطيّين، كسب ولايات متأرجحة بين الديمقراطيّين والجمهوريّين واقتحام ولايات جمهورية مثل جورجيا وأريزونا، بالإضافة إلى تعبئة كبيرة جدًّا للناخبين المتردِّدين وتحفيز الناخبين الديمقراطيّين للتصويت سواء مباشرة أو عن طريق البريد.

ومن هنا يكون جو بايدن بمثابة رئيس قد يسهم في وضع الولايات المتحدة مرة أخرى على طريقها التقليدي، فهو لم يُظهر توجُّهًا يساريًّا متطرِّفًا ولا يمينيًّا متطرِّفًا، بل تبنَّى خطابًا يقف على نقطة واحدة من الجميع، ومن ثم استطاع أن ينال أصوات جميع من لم يريدوا ترامب من التقدميّين والأقليَّات العرقية من ذوي الأصول اللاتينية والأفريقية وإن لم يكن هو الأفضل بالنسبة لهم، ولكن هذا المظهر التقليدي المحايد الذي أبداه بايدن كان أحد الأسباب الرئيسية في فوزه[٦٤].

خاتمة

مما سبقت الإشارة له، تتبين استثنائية هذه الانتخابات من جهات عديدة، ولعلَّ أبرزها يتمثَّل في المنعطف الذي تمر به ديمقراطية الولايات الأمريكية وصورتها العالمية، وبالرغم من أن الفائز في هذه الانتخابات هو جو بايدن إلا أن دونالد ترامب كان هو المحور الذي تدور حوله الأحداث. ونحن لا نستطيع أن نجزم بما يمكن أن يحدث في الشهور المقبلة ولكن ما شهدته الولايات المتحدة من تغيُّرات على مدار ٤ سنوات قد يظل ذا صدى، خاصة مع كون الجمهوريّين يتمتَّعون بأغلبيه في مجلس الشيوخ، بالإضافة إلى الانقسام الشعبي الكبير، كما أن العالم الآن ليس كما كان قبل ٤ سنوات، فإنه يشهد تغيُّرات واسعة في ظل انتشار عدد من الحكومات الشعبوية اليمينية القومية في عدَّة دول كبرى، مما قد يكون له انعكاس على مسار الولايات المتحدة في الفترة المقبلة، كما أن اهتزاز مكانة الولايات المتحدة العالمية ليس بالأمر اليسير الذي يمكن تلافيه بسرعة، ومن هنا قد يشهد العالم تغيُّرات كبيرة في توازنات القوة، ليس فقط عسكريًّا بل سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا أيضًا في ظل صعود قوى جديدة تتمثَّل في الصين وفي ظل شرق أوسط يعاني أزمات وصراعات ويبرز فيه نجم إسرائيل وفي ظل أزمات عميقة تعانيها أوروبا، هذا مع آثار جائحة كورونا التي أحدثت ارتباكًا اقتصاديًّا وكان لآثارها أبعاد أخرى، ففي سياق كلِّ هذه الأحداث الكبيرة ينتظر العالم شيئًا جديدًا قد يغيِّر من ملامح اعتاد عليها.

*****

---

(٦٣) أنتوني زوركر، نتائج الانتخابات الأمريكية: خمسة أسباب وراء فوز بايدن، بي بي سي، ٨ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jk3BZ

(64) Edward, Isaac Dovere, Why Biden Won, The Atlantic, 7 November 2020, available at: https://cutt.us/qDKAr



روسيا والغرب ٢٠٢٠: خريطة التفاعلات والقضايا

أحمد عبد الرحمن خليفة(*)

مقدمة:

منذ وصول بوتين إلى السلطة، وعلى مدار ما يقرب من ٢٠ عاما مضت، عمل على تقوية دوره مركزًا للنظام السياسي الروسي، وصانعًا أول لسياسة بلاده الخارجية. لاحظ المتابعون من حينها جنوح بوتين لرفض تسرب القيم السياسية الغربية سواء داخل روسيا، أو في محيطها القريب، وعمل على تحييد دورها ومحاربتها داخليًا بالقضاء على أي دور لمعارضة سياسية واجتماعية موالية للقيم الليبرالية، متخذًا بذلك عددًا من الإجراءات والسياسات القانونية والفعلية، كان آخرها التعديلات الدستورية ٢٠٢٠، وما دار حولها من نقاشات أكدت هذه الرغبة.

شهدت تفاعلات روسيا مع الغرب(**) عام ٢٠٢٠ تكثفًا في كافة القضايا المطروحة على الصعيدين الداخلي الروسي والخارجي، حيث كان الغربي حاضرًا في الخطاب والممارسة السياسية الروسية، جعلت منه رقمًا مهمًا في معادلة التفاعلات الداخلية الروسية بين القيادة السياسية في الكرملين ومجلس الدوما، والمجتمع المدني، والقوى السياسية المختلفة، كما مثَّل الغرب أحد أهم مُحددات علاقات روسيا مع العالم مع العالم الخارجي.

(*) باحث في العلوم السياسية.

(**) يُقصد بالغرب في هذه الدراسة بصورة أساسية دول غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

تستلهم هذه الدراسة في معالجة علاقات روسيا بالغرب عام ٢٠٢٠ من نظرية ملف السياسة الخارجية(١)، لكن مع توسعة قليلة تتعلق بربط روسيا بالغرب في السياستين الداخلية والخارجية، فالملف الرئيس -وفق هذا التصور- المطروح أمام صانع السياسة الروسية كان -ولا يزال- التصدي لكل ما هو غربي؛ سواء على مستوى الأفكار أو الممارسات. وتتجلى هذه السياسة في الداخل بتعزيز قدرة النظام على امتصاص الأفكار الغربية وإسكاتها ومنع قدرتها على المعارضة الجادة للنظام سياسيًا واجتماعيًا، أما في الخارج فتظهر في تأكيد روسيا على سعيها لعالم مُتعدد الأقطاب ليس للغرب موضع فيه، أو يصبح الغرب فيه قطبًا يماثل العديد من الأقطاب الأخرى في النسق الدولي، ويمكن لروسيا حينها أن تستعيد مكانتها التاريخية قوة عظمى، ووريثة للقطب السوفيتي.

وعليه، فإن التساؤل محل الدراسة هو: **كيف تفاعلت "روسيا البوتينية" مع الغرب عام ٢٠٢٠ في السياستين الداخلية والخارجية؟**، ومنه يتفرع عدد من الأسئلة:

- كيف تتعامل روسيا والغرب في الفضاء ما بعد السوفيتي؟

- كيف يتفاعل الغرب مع الداخل الروسي وما أهم تجليات هذا التفاعل عام ٢٠٢٠؟

(١) يدفع أصحاب هذا الاقتراب بأن السياسات الخارجية المختلفة للدولة تصب في خدمة ملف واحد؛ عن طريقه يمكن توصيف السياسة الخارجية وتحليلها كما لو كان يحفزها هدف واحد؛ فسياسات التجارة الخارجية، وسلوك الدولة الصراعي أو التعاوني لا يمكن تحليله كسياسة نهائية منقطعة الصلة عن هذا الملف؛ فهو يقدم ما يشبه فلسفة عامة تهتدي بها السياسات الأخرى.

- جلين بالمر، كليفتون مورجان، نظرية السياسة الخارجية، ترجمة: عبدالسلام نوير، (الرياض: النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، ٢٠١١)، ص ص ٦-٩.

– لماذا أقدم بوتين على تعديل الدستور الروسي في أوائل عام ٢٠٢٠؟ وماذا يمكن أن تمثل هذه التعديلات في علاقة روسيا بالغرب؟

– ما أهم القضايا في العلاقات بين روسيا ودول "قلب أوروبا" في عام ٢٠٢٠؟

– كيف سارت العلاقة الروسية الأمريكية في عهد ترامب؟

وعلى هذا الأساس، تبدأ الدراسة بمقدمات لا بد منها لفهم العلاقات بين روسيا والغرب بصفة عامة، وفي عام ٢٠٢٠ بصفة خاصة، ثم تُعرّج في المحاور التالية على بيان **أولًا**: الحضور الغربي في الداخل الروسي، وطبيعة التعديلات الدستورية الأخيرة، **وثانيًا**: العلاقات بين المثلث: روسيا، ودول قلب أوروبا، والولايات المتحدة، **وثالثًا**: تبحث التفاعلات بين روسيا والغرب في الفضاء ما بعد السوفيتي متخذةً من بيلاروسيا نموذجًا لبحث طبيعة تفاعلاتهما في شرق أوروبا، والصراع بين أرمينيا وأذربيجان على إقليم قره-باغ نموذجًا للعلاقات بينهما في منطقة جنوب القوقاز، وتنتهي الدراسة بخاتمة تحمل بعض التوقعات بشأن الأوضاع الداخلية الروسية وعلاقاتها مع الغرب، ومستقبل التعددية القطبية.

- **محور تمهيدي: روسيا والغرب: مُقدمات لا بد منها**

يتناول هذا المحور مقدمات خمسا لأهم العوامل المؤثرة في علاقة روسيا بالغرب، فيبحث في المنظور الروسي والغربي لهذه العلاقات، وكيف تبلورت على مستوى الخطابات والسياسات والتاريخ، مع التركيز على أهم العوامل التي تساعدنا في فهم التفاعلات بين روسيا-بوتين والغرب عام ٢٠٢٠.

المقدمة الأولى: ورثت روسيا الاتحاد السوفيتي وراثة غير كاملة، فروسيا الاتحادية ورثت أعباء الحقبة السوفيتية من تدنٍ في مستوى التنمية والتكنولوجيا، ونظام سياسي مُقيد، وديموغرافيا سكانية هشة، ولكنها لم ترث اتساعه الجغرافي الذي مثّل الموقع الجغرافي (الجيوبولتيك) الذي طالما سعت إليه روسيا منذ عهد القيصرية حتى عهد بوتين، ذلك الموقع المتوارث لم يؤمنها ضد "الغرب" أو أوروبا وحلف الناتو العدو التقليدي لها، الموجهة له أصابع الاتهام دومًا في أي محاولة لتغيير النظام في الداخل، بل ويُعتقد أنه السبب في انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي. بدأت تُستخدم هذه السردية – خاصةً في عهد بوتين – بصورة واسعة في الإعلام الروسي، ومثلت أداة السلطة لتشكيل مسار الأحداث المحلية والدولية لصالح نظام بوتين، الذي أيقن أن الحفاظ على نظامه يكون بإضعاف الغرب[٢].

كذلك، وحسب العديد من وجهات النظر الروسية، كسبت روسيا وضعها كقوة عظمى بفضل مقاومتها للغزو الخارجي، ومحاولات السيطرة عليها، فأكدت "وجودها بالمواجهة مع العالم الخارجي وليس بالتعاون معه"، ومن ثمّ تمثلت صورة روسيا أمام صناع القرار في موسكو "قلعة مُحاصَرة"، ليس لها شركاء دائمون، بل مجرد نقاط التقاء عارضة فرضتها توجهات الحكام وضرورات السياسة الداخلية[٣].

المقدمة الثانية: ظلت مصالح روسيا في مجال السياسة الخارجية مستمرة حتى مع نهاية الحرب الباردة، تمثلت هذه المصالح في: الحفاظ على السيادة الروسية، والسلامة

---

(2) Posard, Marek N., Marta Kepe, Hilary Reininger, James V. Marrone, Todd C. Helmus, and Jordan R. Reimer, *From Consensus to Conflict: Understanding Foreign Measures Targeting U.S. Elections*, (Santa Monica, CA: RAND Corporation, 2020), p4, available at: https://cutt.us/jJZVf

(٣) أندري غراتشيف، واشنطن في مواجهة موسكو: ثلاثون سنة من الأخطاء وسوء التفاهم، (في): أوضاع العالم ٢٠٢٠: نهاية الزعامة الأمريكية، إشراف: برتان بادي، دومينيك فيدال، ترجمة: نصير مروّة، (بيروت، مؤسسة الفكر العربي، ٢٠٢٠)، ص٢٣٩.

الإقليمية، والحفاظ على نظام الحكم، ورفض أي تدخل خارجي في شؤونها، وممارسة نفوذها على البلدان المجاورة (مجالها الحيوي المتصور) أو ما يُسمّى بفضاء ما بعد السوفيت Post-Soviet Space، وإثبات نفسها كقوة عظمى(٤). ولأن عالم اليوم من الصعب أن تصبح فيه روسيا القطب الثاني مثلما كان في الحقبة السوفيتية، فإنها تبنت رؤية عالم مُتعدد الأقطاب تكون هي إحدى أقطابه، ظهرت هذه الرؤية بعد فترة وجيزة من تولي بوتين حكم روسيا في عام ٢٠٠٠(٥).

وتضع روسيا لنفسها استثناءً (فعليًا) على مبدأ "عدم التدخل في الشؤون الداخلية" الذي تصدره للعالم الخارجي إذا تعلق الأمر بالحديث عن المجال الروسي الطبيعي للتأثير والنفوذ في دول الجوار(٦)، أو كان ذلك بناءً على طلب الدول –عن طريق قيادتها السياسية– في أن تمارس روسيا ذلك رسميًا.

المقدمة الثالثة: لدى موسكو وجهة نظر مختلفة بشأن أهمية مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان والعولمة، فترى أنها مبادئ غربية لا تُستخدم سوى لترسيخ حالة الهيمنة الأمريكية على النسق الدولي، ليس هذا فحسب، بل تعتبر انتشارها سواءً في داخلها أو المُحيط القريب منها تهديد لأمنها(٧). تجلّى ذلك خاصةً في عهد بوتين في سعيه لتوطيد صلاحياته ودوره مركزًا للنظام السياسي الروسي، وعملية صنع القرار فيه، فمع بداية حركات التغيير في شرق أوروبا تصدرت فكرة معاداة "الثورات الملونة" كهاجس رئيس للنظام السياسي في عهد بوتين، ولبوتين شخصيًا، الذي وضع أهم أولوياته الحفاظ على استقرار نظامه، ومنع انهيار الدولة مرة أخرى كما انهارت الدولة السوفيتية، وتأكد ذلك النهج مع التعديلات الدستورية الأخيرة في روسيا(٨).

حاول بوتين إكساب معارضة (مواجهة) نظامه للغرب ثوبًا جديدًا غير بعيد عن الأبعاد الجيوبولوتيكية والسياسية السابقة، فأضفى عليها أبعادًا قيمية وأيديولوجية؛ فأخذ يروج هو والنخبة القريبة منه للانحلال الأخلاقي والديني للغرب، ووثق علاقته بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، ليجري عملية إعادة ربط وتوثيق روسيا بالقيم المحافظة الدينية، وبتاريخها، وأمجاد الماضي السوفيتي، وانتصار الحرب العالمية الثانية(٩)، فأصبح المزيج الثلاثي: الوطنية – العسكرية – والأرثوذكسية مزيجا يتوافق والتصورات المحافظة لبوتين كنموذج للروسي الصالح المتدين، عدو بلاد ممارسة الرذائل: أوروبا الغربية والولايات المتحدة(١٠).

المقدمة الرابعة: أسس بوتين لنظام سياسي هجين يجمع بين عناصر ديمقراطية (تقل مع الوقت)، وعناصر استبدادية (تزداد مع طول مدة حكمه)، لذلك فهو مع مركزيته في عملية صنع القرار، ودرجة سلطوية نظامه، وتحكمه فيه، إلا أنه يهتم للرأي العام الروسي، والأغلبية

(٤) أندرو رادين، كلينت ريتش، وجهات النظر الروسية بشأن النظام الدولي، (كاليفورنيا: مؤسسة راند، ٢٠١٧)، صxi.

(5) Posard, Marek N., Marta Kepe, Hilary Reininger, James V. Marrone, Todd C. Helmus, and Jordan R. Reimer, Op.Cit, p2.

(٦) أندرو رادين، كلينت ريتش، وجهات النظر الروسية بشأن النظام الدولي، مرجع سابق، ص١٩.

(٧) المرجع السابق، ص٦٢.

(8) Martin kragh, Russia in 2045: A Scenario Analysis, (Sweden, Swedish Institute of International Affairs, 2020), p7.

(9) Watts, Stephen, Nathan Beauchamp-Mustafaga, Benjamin N. Harris, and Clint Reach, Alternative Worldviews: Understanding Potential Trajectories of Great-Power Ideological Competition, (Santa Monica, CA: RAND Corporation, 2020), p7, available at: https://cutt.us/9z1tf

(١٠) فلاديمير بوتين – "قيصر" روسيا الجديدة | وثائقية دي دبليو – وثائقي روسيا، ٢٧ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/5bc94

الشعبية فيه من كبار السن، والمتقاعدين، والنخبة المحافظة، وحتى أصحاب الاتجاهات والميول الغربية من الشباب والنخب[١١].

رصدت استطلاعات الرأي التي أجريت بعد فترة من انتخاب بوتين لولايته الرئاسية الرابعة أن ثمة احتجاجًا متصاعدًا في الأوساط المختلفة بين الروس على الأداء الحكومي[١٢]، مع انخفاض شديد في شعبية حكومة مندلييف، فتخطت نسب عدم الرضا عن الحكومة نسبة الـ٧٠%، ربط البعض ذلك بالتغيير الحكومي الذي قام به بوتين في يناير ٢٠٢٠، مع تضمينه لعناصر أصغر سنًا وتكنوقراط. أضف إلى ذلك أن استطلاعات الرأي التي أُجريت في أوائل انتشار فيروس كورونا في روسيا أَشَّرَت على انخفاض في درجة تأييد بوتين إلى حدٍّ غير مسبوق، إذ وصلت نسبة مؤيدي بوتين من المُستطلعين إلى ما دون الـ٦٠%، وهي أقل نسبة تأييد حصل عليها أثناء سنوات حكمه العشرين، وهو ما يُفسر إصرار بوتين على عرض التعديلات الدستورية على الاستفتاء الشعبي، رغم حاجتها فقط إلى اعتماد مجلس الدوما، مع التعويل على ارتفاع كثافة المُشاركة كنوعٍ من إظهار الشرعية، وإثبات ارتفاع نسب تأييده شعبيًا، وهو ما تحقق بالفعل حينما وافق على التعديلات الدستورية ما يقرب من ٧٨% من المشاركين، بنسب مشاركة وصلت إلى ٦٨% من إجمالي من يحق لهم التصويت[١٣].

البعض أيضًا –وبتتبع خطاب بوتين في افتتاح ولايته الرابعة– وفي يناير ٢٠٢٠، أشار إلى أنه يولي أهمية كبيرة للداخل وللتنمية بعد أن أصبح لروسيا صوت مسموع في عالم اليوم، فبينما كان خطابه في ٢٠١٨ استعراضًا لقوة روسيا العسكرية وعظمتها عالميًا، فإن بوتين في خطاب ٢٠٢٠ أضحى أكثر تصميمًا في التأكيد على ضرورة التصدي لتحديات الداخل المُلحة[١٤].

المقدمة الخامسة: ليس للغرب سياسة موحدة تجاه روسيا، بل ليس لدول الاتحاد الأوروبي سياسة موحدة تجاه روسيا، ولطالما كانت العلاقة مع روسيا مصدر خلاف بين دول الاتحاد الأوروبي الشرقية والبلطيق (المُجاورة لروسيا) المنادية بسياسة أكثر تشددًا (رادعة) تجاه روسيا، ودول غرب "قلب" أوروبا: فرنسا، ألمانيا، والمملكة المتحدة (عضو الاتحاد الأوروبي سابقًا) الساعية لعلاقة أكثر اتزانًا وتفاهمًا مع روسيا، وبين هذا الجانب الأخير والولايات المتحدة، التي تسعى لتنسيق السياسات الأوروبية تجاه ردع روسيا، والتصدي لسلوكها العدواني في أوروبا وغيرها، سيظهر هذا الاختلاف عام ٢٠٢٠ في عدد من القضايا والتفاعلات

(١١) أوليسيا تكاشيفا وآخرون، السياسة الخارجية الروسية في السياقين التاريخي والحالي، (كاليفورنيا: مؤسسة راند، ٢٠١٥)، ص ٢١.

(١٢) للاطلاع حول آراء بعض النخب الروسية في عدد كبير من القضايا الداخلية والخارجية، يُنظر:

- Sharon Rivera et.al, Survey of Russian Elites: New Perspectives on Foreign and Domestic Policy, (Clinton, Hamilton College, July 28, 2020).

(13) Russia: Domestic Politics and Economy, Congressional Research Service (CRS), 9 September 2020, p4-7.

(14) Elena Alekseenkava, Russia First? The New Constitution’s Impact on Domestic and Foreign Policy, (in) Aldo Ferrari, Eleonora Tafuro, Paolo Magri (.ed), Forward to The Past? New/ Old Theatres of Russia International Projection, (Milan, Italian Institution for International Studies, April 2020), p15.

كان على رأسها مظاهرات بيلاروسيا، وخط الغاز الجديد نورد ستريم ٢ كما سيأتي بيانه(١٥).

ساعدت هذه السياسة غير الموحدة روسيا، ليس فقط في الاستفادة بهامش مناورة في محيطها الأوروبي والآسيوي، والقضايا المشتركة بينها وبين الغرب، وإنما في استغلال هذه السياسة في اتباع نهج أكثر تشددًا تجاه الغرب(١٦)، والإسراع من تحقيق التعددية القطبية، بضم كل عضو يستبعده الغرب من كتلته أو يفرض عليه عقوبات إلى صف القوى المعارضة أو المراجعة لبنية النسق الدولي الراهن الدولي Revisionist Power*، مثل: إيران، وكوريا الشمالية، وفنزويلا، والصين(١٧).

(١٥) للمزيد يُراجع:

- Judy Dempsey, Europe Divided Over Belarus's Future, 8 September 2020, Accessed: 28 November 2020, 6:00, available at: https://cutt.us/7Lvb3
- Alexander Vershbow, Daniel Fried, How the West should deal with Russia, 23 November 2020, Accessed: 28 November 2020, 6:00, https://bit.ly/37bTaQC

(16) Andrew S. Weis, Russia and Europe: Stuck on Autopilot, (Carnegie Empowerment for International Peace, 24 September 2020), p1.

* يُقصد بها مجموعة القوى الدولية التي تسعى لتعزيز مكانتها وأدوارها في النسق الدولي على حساب القوة المهيمنة، عن طريق اتباع سياسات لتغيير الوضع الراهن. تسعى هذه القوى لنسج شبكة من العلاقات الدولية، وإقامة منظمات إقليمة ودولية موازية لتلك التي تسيطر عليها القوة المهيمنة، مع نشر قيم مناهضة للقيم السائدة في النظام الدولي (المرغوب تغييره).

(١٧) الفيلسوف والاستراتيجي الروسي ألكسندر دوغين: انتلجنسيا، تلفزيون لانا بلاس، ٦ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/syOHv

- **أولًا: الداخل الروسي والحضور الغربي:**

مثلت لحظة الاستفتاء على التعديلات الدستورية في روسيا مجرد لحظة كاشفة للصراع الداخلي/الخارجي على هوية الدولة الروسية ونظامها السياسي، فالسياسة الداخلية الروسية دائمًا ما كانت مسار تجاذبات بين تيارات ثلاثة، تيار مع الغرب Pro-Western، وتيار ضد الغرب Non-western، وبينهما يقع تيار الدولاتية أو أنصار الدولة. تاريخيًا دار الجدل حول تعريف الهوية الروسية عن طريق علاقاتها مع أوروبا(١٨). وفي هذا الإطار نستعرض عددًا من القضايا كانت موضع تماس بين الداخل الروسي والغرب عام ٢٠٢٠ هي: التعديلات الدستورية الأخيرة، والانتخابات المحلية الروسية، وتسميم المعارض نافالني، وتقييد المجتمع المدني الروسي.

(١) التعديلات الدستورية..والصراع على النظام السياسي في روسيا:

أتت التعديلات الدستورية –التي اقترحها الرئيس بوتين في يناير ٢٠٢٠ على مجلس الدوما، ثم تأجل الاستفتاء عليها إلى يوليو بعد أن كان من المُقرر جريانه في أبريل– في سياق سياسي واجتماعي صعب عايشته روسيا وقيادتها جراء أزمة كورونا من جانب، وانخفاض أسعار النفط من جانب آخر، مولدةً معها ضغوطات على النظام السياسي الروسي، وسط أصوات معارضة في الداخل والخارج تتحدث عن حجم الفساد المنتشر في روسيا، واستمرار اعتماد الاقتصاد الروسي على العائدات النفطية، وعلى خلفية احتجاجات اندلعت في العاصمة موسكو في سبتمبر ٢٠١٩.(١٩)

(18) Marco Siddi, Russia's Foreign Policy and E.U- Russia Relations, (Stvdiorvm Caralitana Vniversitas, 25 May, 2020), p5.

(١٩) للمزيد عن حركة الاحتجاجات والتظاهرات في سبتمبر ٢٠١٩، وفي عهد بوتين بصفة عامة، يُراجع:

أظهرت النقاشات التفصيلية لمنطق التعديلات الدستورية فضلًا عن بنودها بين الإعلاميين، والنخب الروسية المختلفة، وحتى عامة الشعب، هذا الجدل الدائم على الهوية الروسية؛ إذ كانت الآراء الروسية تتراوح بين مؤيد لروسيا القوية المحافظة ذات السيادة مع بوتين حتى عام ٢٠٣٦، وبين الدعوة لروسيا الأكثر تحررًا وحاجة للتغيير. فالمعارضة الروسية –أغلبها في الخارج/أوروبا– نددت بالاستفتاء وقالت إنه يمنح مزيدا من السلطة لبوتين، ويسمح له البقاء في الحكم لمدة أطول، في حين أظهر مستوى آخر من النقاشات صراع الأجيال الصغيرة –الأقل عمرًا– (تحت الخامسة والعشرين) والكبيرة على مستقبل روسيا، فتعديلات بوتين بالنسبة للأولى –التي ستعيش في ظلها– ستجعل من روسيا دولة أكثر محافظة وشمولية، أما بالنسبة للثانية فرفض الأجيال الأقل سنًا لهذه التعديلات هو ناتج عن تأثرها بالقيم الغربية[٢٠].

سلطت وسائل الإعلام الروسية والنخب المؤيدة للتعديلات الدستورية الضوء على الجوانب المختلفة لها، فمنها ما يتعلق بسياسات الحد الأدنى للأجور، وضرورة أن تكون عند الحد المناسب للحياة، ومنها ما يشير إلى أهمية بناء نظام التقاعد على أساس الصحة العامة للأفراد، ومستوى تعليمهم، ومبادئ العدالة، ومنها ما يركز على حقوق الأطفال باعتبارهم أمل ومستقبل البلاد، ومنها ما يؤكِّد على أهمية مراعاة حقوق الحيوان. بالإضافة إلى البنود الثقافية المتعلقة بحماية الحقائق التاريخية وتخليد ذكرى المدافعين عن الوطن، مع إشارة إلى اللغة الروسية كلغة مُعبرة عن روح الأمة يُحدد القانون سياسات الحفاظ عليها. ولم تخلُ التعديلات من الإشارة إلى الجوانب الدينية؛ إذ لأول مرة ينص الدستور الروسي على لفظة "الإيمان بالرب"، وتعريفٍ للزواج على أنه مؤسسة بين رجل وامرأة[٢١].

أما عن النواحي السياسية[٢٢]، بيت القصيد في التعديلات وفق الكثير من المتابعين، فهي الأهم، ليس لأنها فقط عدلت المادة المتعلقة بولايات الرئيس فحذفت لفظة "على التوالي" من المادة المُحددة لبقاء الرئيس في الحكم، فجعلت للشخص الواحد الحق في الحصول على فترتين رئاسيتين فقط مدة كل واحدة منهما ٦ سنوات، مع تأويلٍ خاص بتصفير الولايات السابقة لبوتين، ما يعطي له فرصة للبقاء في الحكم لفترتين أخريين، ولكن لكونها تهيئ المجتمع لعملية انتقال في السلطة ليس من شخص لآخر أو من بوتين إلى غيره، ولكن إلى نظام جديد؛ أسماء وأدوار شخوصه/ عناصره قيد التبلور[٢٣].

إلى جانب هذا التعديل –الذي يراه بعض المُختصين الوحيد الجدير بأن يكون من أجله تعديل دستوري، والبنود

- Russia Under Putin: 20 years of Protest, (Reported by Institute of Modern Russia, 2020).

(٢٠) تعديلات بوتين الدستورية تعمق الهوة بين الأجيال، يورونيوز بالعربية، ٢٦ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٦:٠٦، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1unLo

(21) What changes will be in the Constitution of the Russian Federation?, The State Duma News, Accessed: 28 November 2020, 6:20, available at: https://cutt.us/WFqpv

(٢٢) للمزيد حول تفصيلات التعديلات الدستورية ودورها في توزيع السلطات وتشريحها من النواحي القانونية، يُراجع:

- Shashkova, Anna & Verlaine, Michel & Kudryashova, Ekaterina, On Modifications to the Constitution of the Russian Federation in 2020, Russian Law Journal, Vol. 8, No. 8, 2020, p63-80, available at: https://cutt.us/mnZov

(23) Elena Alekseenkava, Russia First? The New Constitution's Impact on Domestic and Foreign Policy, Op,cit, p26.

الأخرى يمكن تغطيها على مستويات مختلفة من القوانين والأحكام الفيدرالية- ثمة عدد كبير من التعديلات تمنح رئيس الاتحاد الروسي صلاحيات واسعة في تعيين القضاة على المستوى الفيدرالي، وإقالتهم حال ثبت اتهامهم في قضايا تخل بالشرف بعد موافقة المجلس الفيدرالي، وفي إقالة الوزراء، فجعلته يترأس اجتماعات مجلس الوزراء، وأصبح رئيس المجلس تحت رئيس الدولة[٢٤].

ومع أنه وفق التعديل سيكون لمجلس الدوما صلاحية تسمية رئيس الوزراء والموافقة على تكوين مجلس الوزراء، ما يُعد توسعة لصلاحيات الدوما، لكن التعديل بحكم الواقع أعطى رئيس الاتحاد الروسي فيتو ثانيا بشأن القوانين التي يعتمدها مجلس الدوما، فإذا حصل القانون الذي اعترض عليه الرئيس في المرة الأولى حتى على أغلبية الثلثين في المرة الثانية، يمكن للرئيس إحالة القانون للمحكمة الدستورية للنظر في مدى دستوريته، ما يُعطى للرئيس نفوذا أكبر في المجال التشريعي.

استحدثت التعديلات الدستورية هيئة جديدة تُسمى مجلس الدولة State Council كهيئة استشارية تقوم برسم السياسات الخارجية والداخلية والتنسيق بين السلطات المختلفة، يصدر الرئيس قانونًا بتكوينها، وتفصيلًا بصلاحياتها الأخرى، بما لا يجعلها هيئة موازية أو تتشابه في أدوارها مع مجلس الاتحاد Federation Council.

استنادًا إلى أهمية هذه الجوانب السياسية، يمكن القول إن المقصود من التعديلات كان الأحكام الأداتية Instrumental Provisions المتعلقة بتنظيم العلاقة بين السلطات، وأن التعديلات الأخرى الاجتماعيةSocial Provisions كان الغرض الأساسي منها هو تحقيق التوازن الذي تقوم عليه الدساتير بصفة عامة بين هذين النوعين من الأحكام من جانب، وإغراء الروس للمشاركة بكثافة في التعديلات الدستورية من جانب آخر[٢٥].

(٢) احتجاجات شرق روسيا .. وتسميم نافالني:

مر الاستفتاء بإشكالاته وجدالاته حسب ما كان مُخططًا له من قبل الكرملين، ولكن لم تختفِ المعارضة، ولم تختفِ أصوات الانتقاد لنظام بوتين، وتجددت الاحتجاجات هذه المرة ليس في العاصمة، وإنما في أقصى شرق روسيا قرب الحدود مع الصين، اعتراضًا على توقيف حاكم إقليم "خاباروفسك"، وإلقاء القبض عليه في قضايا جنائية، وتعيين مساعده حاكمًا للإقليم. استمرت هذه الاحتجاجات -التي وُصفت بأنها الأكبر ضد الحكومة الروسية منذ سنوات- ما يقرب من شهر، ابتداءً من منتصف شهر يوليو حتى منتصف أغسطس، رفع خلالها المعارضون شعارات مناهضة للحكومة، وبوتين، وحزب روسيا الموحدة، ثمّ هدأت مع الانتخابات المحلية، التي كانت اختبارًا جديدًا للحزب الروسي صاحب الأغلبية البرلمانية "روسيا الموحدة"، وللرغبة في التغيير الكامنة لدى الروس. جاء رد بوتين على هذه الحركة مستحضرًا الغرب في زعمه أن هذه الاحتجاجات مدعومة من قوى خارجية[٢٦].

---

(24) Shashkova, Anna & Verlaine, Michel Kudryashova, Ekaterina &, On Modifications to the Constitution of the Russian Federation in ٢٠٢٠, Op.Cit., p 72.

(25) Ibid, p75.

(٢٦) للاستزادة يمكن الرجوع إلى:

- احتجاجات مناهضة لبوتين في أقصى الشرق الروسي بعد إقالة حاكم واتهامه بجرائم قتل قبل ١٥ عاما، يورونيوز بالعربية، ٢٥ يوليو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٦:١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/B7agC
- Steve Rosenberg, Sergei Furgal: The arrest fuelling anti-Moscow anger in Russia's far east, BBC, 17 July 2020, Accessed: 28 November

تُجرى **الانتخابات الروسية المحلية** في ٤١ إقليميًا من أصل ٨٥، حُددت الأيام من ٩ سبتمبر حتى ١١ سبتمبر كموعد للانتخابات المحلية في ٢٢ بلدية، بعضها ينتخب رئيسا أو حاكما للولاية، وبعضها الآخر ينتخب مجلس البلدية. فاز تحالف حزب روسيا الموحدة United Russia بالرئاسة في ٢٠ ولاية من الجولة الأولى، ومع ذلك فَقَدَ الأغلبية في المجالس البلدية في ثلاث ولايات هي: تومسك، ونوفوسيبيرسك، وتامبوف لصالح أحزاب المعارضة: الحزب الليبرالي الديمقراطي، وحزب روسيا العادلة، والحزب الشيوعي، والمستقلين، في حين نجح حاكم جمهورية تشوفاشيا (حزب روسيا العادلة A just Russia)، وحاكم ولاية سمولينسك (عن الحزب الليبرالي الديمقراطي) في الحفاظ على رئاستيهما للولاياتين[٢٧].

جاءت هذه الانتخابات المحلية في ظل أجواء من التوترات في بعض البلديات الآسيوية، بفعل حملة معارضة ضد الرئيس بوتين، وحزب روسيا الموحدة قادها أليكس نافالني (الذي يمكن وصفه بالموالي للقيم الغربية)، بدأت مع حملة معارضة للاستفتاء على الدستور، وامتدت إلى انتخابات الولايات/البلديات. ابتدعت أحزاب المعارضة ما يُسمى "بالتصويت الذكي" لإثبات وحساب الأصوات التي حصلت عليها في انتخابات المجالس البلدية، وحكام الولايات عن طريق تصوير يُرفع على التطبيقات الإلكترونية[٢٨].

شهدت هذه الحركة والدعوات زخمًا كبيرًا حتى بعد تسميم نافالني، الذي اتهمت الحكومات الغربية نظام بوتين بمحاولة اغتياله في ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠ عبر تسميمه، نُقل بعدها للعلاج في ألمانيا. أخذت ألمانيا زمام المبادرة بدعوة الكرملين لإجراء تحقيق عاجل وعادل بشأن الواقعة، ومع ذلك لم يرد الكرملن على ما تقدمه تقارير السموم الألمانية والفرنسية والسويدية سوى بنفي ما يعتبره مخاوف غربية عن وجود أي صلة رسمية بما حدث لنافالني[٢٩]. ليس هذا فحسب، بل توسع رئيس مجلس الدوما الروسي في اتهام الغرب بالوقوف وراء قضية نافالني، وأزمة بيلاروسيا، فقال في تصريح له عند سؤاله عن هذه التطورات في الداخل الروسي ودول الجوار: ".. هذا يُظهر مرة أخرى أن كل هذا تم تنظيمه من قبل الدول الغربية من أجل إثارة التوترات في روسيا مباشرة عندما كانت نتائج الانتخابات البيلاروسية قيد الفرز، ولعرقلة بلدنا، ومنعها من الدفاع عن سيادة دولتنا الحليفة.. فأولئك الذين أرادوا وضع أيديهم على بيلاروسيا فشلوا في ذلك.."، فتسميم نافالني والأزمة في بيلاروسيا هما بالنسبة له "حلقات في نفس السلسلة" التي ينشدها الغرب لإثارة المشكلات في روسيا ودول جوارها[٣٠].

---

(٢٧) للمزيد عن الانتخابات المحلية الروسية، يُراجع:

- Russian regional elections en.wikipedia, 28 November 2020, available at: https://cutt.us/oyMCM
- Andrei Nikerichev, Russia's Regional Elections, Explained, the Moscow Times, 11 September 2020, available at: https://cutt.us/nfff4

(٢٨) الانتخابات المحلية في روسيا اختبار لسيطرة الحزب الحاكم على السلطة، بي بي سي بالعربية، ١٣ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٦:٢٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1T8yy

(29) Andrew,S. Weiss, Russia and Europe: Stuck on Autopilot, Op.Cit., p10.

(30) Russian State Duma speaker accuses West of being behind Navalny's case, crisis in Belarus, Belsat, 1 October 2020, Accessed 28 November 2020, 6:35, available at: https://cutt.us/Ux0AD

وفي سياق غير منفصلٍ عن الانتخابات المحلية، والاستفتاء على التعديلات، وتسميم المعارض نافالني، يأتي تعامل السلطات الروسية مع **منظمات المجتمع المدني** ابتداءً من تصنيفها إلى منظمات "خيرة Good NGO's"، ومنظمات "شريرة Bad NGO's"، مرورًا بطريقة تعاملها معه الصنفين، ففي حين تعمل الأولى في مجال الرعاية الصحية والتعليم ونشر القيم المحافظة، ودعم الكنيسة الأرثوذوكسية، ومن ثم تحظى بالدعم والتمويل الحكوميين، تعمل الثانية في مجالات الحقوق والحريات، والنسوية، وحقوق الشواذ، وتموّل خارجيًا، فجرى التضييق عليها في الأونة الأخيرة بفعل قوانين تقييد التمويل الأجنبي، ثمّ بعد تضمين التعديلات الدستورية وذكر لفظة "الرب" في الدستور، وتعريف الأسرة على أنها علاقة بين رجل وامرأة، من المؤكد أنها ستضع موجة جديدة من التشريعات التي تُحد من عمل تلك المنظمات "الشريرة" في روسيا[٣١].

إن هذه الخيوط حول الأوضاع الداخلية في روسيا تحت حكم بوتين، وطبيعة التناول الرسمي لها، إنما تؤكد حقيقة العلاقة الجدلية بين الداخل الروسي والخارج الغربي، وحضوره في كل تفصيلة من تفاصيل الأحداث الروسية، بدءًا من الاتجاهات العامة في الحكم والسياسات العامة على المستوى الاتحادي، مرورًا بالمجالس التشريعية، وليس انتهاءً بالولايات المحلية، والمجتمع المدني الروسي.

- **ثانيًا: مثلث روسيا ودول قلب أوروبا والولايات المتحدة:**

شهد عام ٢٠٢٠ تفاعلات عدة بين هذا المثلث كان على رأسها: ما دار حول خط الغاز نورد ستريم ٢ الذي سينقل الغاز من روسيا إلى ألمانيا مباشرة، وانتشار فيروس كورونا واستغلال روسيا له لشن حربٍ معلوماتية ضد الغرب وفق الوصف الغربي، وعلاقات روسيا النامية مع الصين، وتجديد اتفاقية الحد من التسلح النووي نيو ستارت. بنى هذا المثلث تفاعلاته على أساس المقدمات التي طرحناها في المحور التمهيدي، وغيرها من المعطيات -في الفترات السابقة على هذا العام- والتي نسجت خيوط هذا المثلث، ومنها:

أولًا: وصول دونالد ترامب بشخصيته وتصريحاته المثيرة إلى البيت الأبيض في يناير ٢٠١٧، ليثبت عزمه على تطبيق كثير مما صرّح به أثناء حملته الانتخابية، وعلى رأسها: نقده لدور أمريكا المُكلف في الخارج، وضرورة تحميل الحلفاء نفقة دفاع الولايات المتحدة عنهم، وتصريحاته المُتكررة بإعجابه ببعض زعماء العالم المستبدين، منهم صديقه بوتين، بالإضافة لعدم سعيه لنشر القيم الأمريكية على أية أمة من الأمم. صَدَقت معظم هذه التصريحات وتحولت إلى أفعال وسياسات اللهم إلا تجاه روسيا التي لم ينجح نتيجة لضغوط اللوبيات الأمريكية، واتهامات تدخل روسيا في انتخابه عام ٢٠١٦، والاختلاف بينه وبين أفراد إدارته على بلورة سياسة موحدة متماسكة تجاه روسيا، بل وصلت العلاقات رسميًا إلى أسوأ مستوياتها -حسب متابعين- منذ أزمة القرم ٢٠١٤، رغم العلاقة الشخصية بين الزعيمين، بل أكثر من ذلك حددت استراتيجية الأمن القومي الأمريكي روسيا والصين بالدول التي تُهدد المصالح والقيم الأمريكية في العالم، ووصفتهما بأنهما دول مراجعة للنظام الدولي الراهن[٣٢].

---

(٣١) للمزيد حول أوضاع المجتمع المدني تحت حكم بوتين، يُراجع:
- Russia Under Putin: 20 Years of Battling over Civil Society, (Report by the Institute of Modern Russia, ٢٠٢٠).

(32) John Hannah & David Adesnik (.ed), Midterm Assessment: The Trump Administration's Foreign and National Policies, (Washington, Foundation for Defense of Democracies, January 2019), p28.

ثانيًا: برزت مصالح متزايدة بين روسيا ودول قلب أوروبا هيأت لمزيد من التفاهمات ليس فقط في الغاز، الذي أصرت أوروبا فيه على مخالفة السياسة الأمريكية التي تهدف إلى تنويع مصادر الطاقة التي تصل إلى حلفائها في أوروبا. تجلى ذلك في إنشاء خط غاز جديد "نورد ستريم ٢" يمر من روسيا عبر بحر البلطيق إلى ألمانيا مباشرة، ولا يمر بأوكرانيا، وذلك تحقيقًا لأهداف الروس في زيادة اعتماد أوروبا عليها في الغاز، وتخليها عن الاعتماد على خطوط الغاز المارة من أوكرانيا المهدَدَة دائمًا بالثورة الملونة(٣٣). ولم يقف الأمر عند حدود الغاز وإنما أيضًا في بعض مسائل الشرق الأوسط التي جعلت أوروبا بعيدةً (قليلًا) عن الولايات المتحدة، كما في سوريا وليبيا.

ففي حين فرضت الولايات المتحدة حزمة من العقوبات على الشركات التي تعمل في مشروع نورد ستريم ٢، ومنعت شركاتها من التعامل مع هذه الشركات، رفضت دول قلب أوروبا، وعلى رأسها ألمانيا، تعطيل المشروع، بل أصرت - هي وروسيا - على استكمال هذا المشروع حسب ما خُطط له(٣٤). إلى جانب ذلك سعى الرئيس الفرنسي ماكرون إلى استحداث آلية حوار استراتيجي فرنسي-روسي حول القضايا المختلفة والمصالح المشتركة بين الدولتين. كل هذه الآليات ترفضها الولايات المتحدة وتعتبرها خروجًا على إجماع واشنطن، وطبيعة السياسات التي يجب أن تكون موحدة في مواجهة السلوك العدواني الروسي(٣٥).

ثالثًا: قرب انتهاء ولايات رؤساء فرنسا (ماكرون)، وألمانيا (المستشارة أنجيلا ميركل)، ودخول رئيس الولايات المتحدة (دونالد ترامب) عامه الأخير في ولايته الأولى بالبيت الأبيض. هذه السنة الأخيرة في حكم رؤساء هذه الدول (الديمقراطية) تُعرف سياستهم فيها "بالبطة العرجاء "Lame Duck"، وفيها يُصبح الرئيس أكثر انشغالًا بالانتخابات وبترتيب الداخل لمصلحته، وإذا أضيف إلى ذلك تنامي تيارات اليمين المتطرف في أوروبا، وزيادة التدخلات الروسية في الغرب، فإن المحصلة ستكون في مصلحة روسيا بوتين لتحرز تقدمًا على الغرب عام ٢٠٢٠.

(١) فيروس كورونا بين روسيا والغرب:

سمح انتشار فيروس كورونا هو الآخر منذ بدايات عام ٢٠٢٠ في دول أوروبا، والولايات المتحدة، وحتى في روسيا، لقيادة الكرملين بتوجيه مزيد من النقد للغرب وبالأخص الولايات المتحدة، وبيان لاأخلاقية استمرار العقوبات المفروضة من قبل الغرب خاصةً على روسيا وإيران وسوريا في ظل ظرف إنساني، لطالما تشدق الغرب بمراعاته للظروف الإنسانية وحقوق الإنسان(٣٦).

---

(33) Mamuka Komakhia, Review of Russia's Policy in the Post-Soviet Space, Publication 12, *Review period:* July 1-15, 2020, Goreogian Foundation for Strategic and International Studies, Accessed: 28 November 2020, 6:42, available at: https://cutt.us/bcJGQ

(٣٤) للاستزادة في هذا الموضوع، يُنظر:

- Judy Dempsey, Europe Divided Over Belarus's Future, Op. Cit.
- Mamuka Komakhia, Review of Russia's Policy in the Post-Soviet Space, Op. Cit.
- Meghan Gordon, US steps up sanctions pressure on Nord Stream 2 gas pipeline contractors, S&P Global Platts, 20 Oct 2020, available at: https://cutt.us/kdVAi

(35) Andrew S. Weis, Russia and Europe: Stuck on Autopilot, Op. Cit., p3-4.

(36) Sergey Sukhankin, COVID-19 As a Tool of Information Confrontation: Russia's Approach, The School of Public

إذن، فتحت أزمة كورونا ملفًا جديدًا سيكون مسار خلاف بين الغرب وروسيا، فإذا كانت الولايات المتحدة قد سارعت بوصم الصين بالفيروس، على أنه "فيروس صيني"، فإن روسيا ما فتئت تذكر أن الممارسات الغربية هي المسؤولة عن انتشار الفيروس وتفشيه، فقادت منصات النشر والمعلومات الإلكترونية الروسية حملات تنشر نوعًا من "الأدلة" يؤكد أن الفيروس تمت صناعته في مختبر أمريكي من أجل وقف النمو الاقتصادي الصيني[٣٧].

أضف إلى ذلك، ما جرى من تنافس حول المصل المُنتظر للفيروس، فبين اتهامات غربية لروسيا بسرقة وقرصنة معلومات متعلقة بالأمصال التي يُجرى اختبارها في ألمانيا والولايات المتحدة[٣٨]، وبين اتهام مستمر لروسيا بالتدخل في الشؤون الداخلية، أكدت مصادر غربية استخدام روسيا لأزمة كورونا لخلخلة الداخل الأوروبي، وإضعاف الاتحاد الأوروبي، مستخدمة حملات دعائية وإعلامية تلفزيونية وإلكترونية لتصدير الفشل الغربي في التعاطي مع فيروس كورونا؛ منها مثلًا: نشر صور تشير إلى أن في الولايات المتحدة وأوروبا حالة ذُعر وتزاحم على المحلات التجارية "الفارغة" من المنتجات أثناء انتشار الفيروس في مقابل المتاجر الروسية "المليئة بالمنتجات"، بالإضافة إلى محاولة المنصات الروسية تأكيد فكرة نفاق الغرب، "فالسلطات في الاتحاد الأوروبي -وفق هذه المنصات- أظهرت عجزًا تامًا في التعامل مع الأزمة، وأن العاملين الصحيين يختارون بين إنقاذ كبار السن والأفراد الأكثر قدرة جسدية في المجتمع، حيث تخفي هذه الشعارات حول الديمقراطية والمساواة أيديولوجية البقاء للأصلح"[٣٩].

(٢) متغير الصين في العلاقات بين روسيا والغرب:

ملف آخر، أضحى مسار جدل خاصة بين الولايات المتحدة من ناحية، وروسيا والاتحاد الأوروبي من ناحية أخرى، يتعلق بالتعاطي مع "الصين"، واتباع الولايات المتحدة -في عهد ترامب- سياسة مُتشددة ضد ما تسميه الممارسات التجارية والاقتصادية غير العادلة من الصين تجاهها وتجاه الحلفاء، وسعيها للحصول على التكنولوجيا الأمريكية (الغربية) دون وجه حق، بالإضافة لكونها تقوم بتحديث عسكري واسع لقواتها المسلحة، وتسعى للهيمنة على دول جوارها في منطقة جنوب شرق آسيا، كل هذه العوامل جعلت الولايات المتحدة تطالب دول أوروبا الغربية وحلفاءها باتباع سياسة أكثر حزمًا تجاه الصين، وخاصةً بعد تفشي فيروس كورونا -المسؤولة عنه الصين-، ومع ذلك لم يجد ترامب وإدارته ردًا ملائمًا من الدول الأوروبية بشأن الصين.

برز في الفترة الأخيرة الخلاف بين روسيا والولايات المتحدة حول تجديد سريان اتفاقية منع الانتشار النووي نيو ستارت New START، التي تنتهي بحلول فبراير ٢٠٢١، وسط إصرار أمريكي على على إدخال الصين كطرف ثالث في هذه الاتفاقية، وهو ما عارضته الصين، زعمًا أن ترسانتها النووية ضئيلة جدًا مقارنةً بحجم الترسانات النووية الأمريكية والروسية التي تمثل ما يقرب من ٩٠% من حجم الأسلحة النووية المنتشرة عالميًا. إذن، وبصيغة أكثر عمومية، ثمة اختلافات واضحة بين الولايات المتحدة وحلفائها في أوروبا -وبالطبع مع روسيا- على سياسة الردع والتوازن التي تتبعها الولايات المتحدة حيال

Policy Publications, Vol. 13, No.3, April 2020, , p4, Available at: https://cutt.us/qtsUk

(37) Ibid, p3-4.

(٣٨) اتهام أمريكي لروسيا والصين وإيران بشأن لقاح كورونا، آر تي بالعربية، ١٠ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٦:٠٦، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/N5iCb

(39) Sergey Sukhankin, COVID-19 As a Tool of Information Confrontation: Russia's Approach, Op,cit, p3.

الصين وآسيا، وهو ما يجعل هذا الملف واحدًا من الملفات الاستراتيجية التي ستشتغل حيزًا من النقاشات في فترة ما بعد ترامب(٤٠).

- **ثالثًا: روسيا والغرب: من جنوب القوقاز إلى شرق أوروبا**

يمثل الفضاء ما بعد السوفيتي، منطقة النفوذ الروسية الأساسية المتصورة من جهة، ومنطقة ارتطام وصدام بين روسيا والغرب من جهة أخرى. شهد هذا الفضاء منذ تفكك الاتحاد السوفيتي تفاعلات كثيفة بين الغرب وروسيا، بسبب رغبة حلف الناتو توسيع نطاق نفوذه في هذه المنطقة، وهو ما تُرجم على أنه تهديد للأمن القومي الروسي.

تقع منطقة شرق أوروبا وجنوب القوقاز –منذ غزو روسيا لأوكرانيا ٢٠١٤، واحتلالها مدينة سيفاستوبول المهمة استراتيجيًا بالنسبة لها، وقبلها جورجيا ٢٠٠٨– في قلب الجدل بين الروس والغرب، ففي حين تعترف أوروبا بوجد ثلاث دول جنوب القوقاز هم: أرمينيا، وأذربيجان، وجورجيا، تعترف روسيا بدولتين أخريين إلى جانب هذه الثلاثة هما: أبخازيا الانفصالية، وأوسيتيا الجنوبية.

(١) احتجاجات بيلاروسيا: بين روسيا والغرب

في عام ٢٠٢٠، يُمكن القول إن أهم الملفات (الجديدة) التي طُرحت في هذا الفضاء، هي احتجاجات بيلاروسيا المعارضة لحكم ألكسندر لوكاشينكو الذي يحكم بيلاروسيا منذ عام ١٩٩٤، وأُنتخب لفترة رئاسية جديدة، اندلعت على إثرها حركة احتجاجات واسعة طالت معظم أرجاء البلاد، تجاوزت المئة يوم، وتستمر حتى وقتنا الحالي(٤١).

تحتل بيلاروسيا أهمية خاصة في المخيلة الاستراتيجية الروسية، فموقعها الجغرافي بين روسيا من الشرق ودول أعضاء الناتو بولندا وليتوانيا ولاتفيا من الغرب، وأوكرانيا من الجنوب، وتشابه نظامي الحكم في موسكو ومينسك، وارتباطهما معًا بمعاهدة اتحاد بين الدولتين منذ عام ١٩٩٩، أضف إلى ذلك التداخلات الثقافية واللغوية والعرقية والتاريخية بينهما(٤٢)، كلها عوامل جعلت الحفاظ على التحالف أو الاتحاد مع بيلاروسيا ونظامها السياسي أمرًا مركزيًا في سياسة الكرملين، تأكد ذلك مع وصف بوتين لبيلاروسيا على أنها: "..الدولة الأقرب إلينا: الأقرب عرقياً، ولغوياً وثقافياً وروحياً"(٤٣). بالإضافة إلى ذلك فإن بيلاروسيا محطة رئيسية في نقل الطاقة من روسيا إلى أوروبا، فيعبر ما يقرب من ٢٠% من صادرات الغاز الروسي منها إلى أوروبا(٤٤).

(٤٠) للتوسع في هذا الموضوع، يُمكن الرجوع إلى:

- Cyrus Newlin, Heather A. Conley Natalia Viakhireva, Ivan Timofeev, U.S.-Russia Relations at a Crossroads, (Washington: Center for Strategic and International Studies October ٢٠٢٠), p2, available at: https://cutt.us/rBZRK

(41) 100 days of Belarusian protest, 2020.11.18, Belsat, available at: https://cutt.us/kBcqW

(42) Igor Zevelev, In a Confrontation between Putin and the West, Belarus May Get Caught in the Middle, KENNAN INSTITUTE, 5 august 2020, available at: https://cutt.us/9kdUe

(43) Nigel Gould-Davies, Russia and the Belarusian question, IISS, 1 September 2020, available at: https://cutt.us/JZK0J

(٤٤) فيرونيكا حليم فرنسيس، جيوبولتيكا السياسة الخارجية الروسية: دراسة في أثر الجيوبولتيك في علاقة روسيا بدول الجوار، مجلة كلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، جامعة الإسكندرية، المجلد ٤، العدد ٨ ، صيف ٢٠١٩، ص١٦٣.

يخشى بوتين من هذه الاحتجاجات القريبة من حدود بلاده أن تنتقل عدواها للداخل الروسي، وأن يحل محل لوكاشينكو آخر موال للغرب، مع أن لوكاشينكو في السنوات الثلاث الماضية حاول التقرب من الغرب، للتمتع بهامش مناورة أكبر في صفقات الغاز الروسية التي يعتمد اقتصاد بلاده على إنتاج مشتقاتها، وتُعد القضية الأكثر خلافًا بين بيلاروسيا وروسيا بوتين. ظهرت بيلاروسيا بصورة مُقلقة من وجهة نظر الكرملين في الاستراتيجية الأمريكية حينما تكررت الزيارات الأمريكية إلى مينسك في سبتمبر ٢٠١٩ لوكيل الخارجية الأمريكية، ثم زيارة وزير الخارجية مايك بومبيو ولقائه بلوكاشينكو في فبراير ٢٠٢٠، وتُعتبر الزيارة الأولى من نوعها منذ ٢٦ عامًا، صرح أثناءها بأن الولايات المتحدة يمكنها أن تمد بيلاروسيا بـ ١٠٠% من احتياجاتها من الطاقة(٤٥)، تلاها بفترة وجيزة في مايو ٢٠٢٠ إعلان بومبيو عن شحنة من النفط الخام الأمريكي إلى بيلاروسيا "كجزء من محاولة لمساعدة بيلاروسيا على تحسين أمن الطاقة لديها"(٤٦).

ومع ذلك، لم يُعجب الغرب الأوروبي كما روسيا بسلوك لوكاشينكو "آخر ديكتاتور في أوروبا"، ولكنْ كلٌ من وجهة نظر مختلفة؛ فأوروبا لا تمانع انتشار الديمقراطية في بيلاروسيا، وتنادي بمشروعية مطالب الجماهير، وتفرض عقوبات على العديد من المسؤولين في بيلاروسيا ومنهم لوكاشينكو نفسه، أما روسيا فترغب في تعديل سلوك الأخير، وإثنائه عن محاولات التغريد خارج سرب بوتين، ومن ثمّ حفزت هذه الاحتجاجات الأطراف جميعها لمراجعة سياساتها تجاه بيلاروسيا لوكاشينكو، وسمحت له هو الآخر بتمييز من هو صديقه حقًا، فوجد نفسه تلقائيًا متجهًا إلى الكرملين يطلب المساعدة والحماية من بوتين "صديق الشدة"، وهو ما رآه بوتين فرصة لاستعادة بيلاروسيا إلى صفه مرة أخرى(٤٧)، فجُددت عقود الغاز بقيمة أقل ربما من الذي كان يتفاوض عليها البيلاروس، وتمنح خزانة الفيدرالية الروسية قرضًا بمليار ونصف لبيلاروسيا سيتم استخدامها كلها في تسديد ديونها لدى شركات روسية(٤٨).

إذن، وبدوافع مُختلفة، بدت روسيا والغرب متفهمين بل ومتقبلين للاحتجاجات في بيلاروسيا، مع فوارق كبيرة في الهدف، والنهاية المرجوة، فإذا كان هدف الغرب تغيير النظام، فإن روسيا لم يكن هدفها سوى رد الديكتاتور إلى صفها، وألا تسمح بوصول رئيس موال للغرب على رأس السلطة في الدولة الجار حال كان هناك من بُدٍ لإحداث بعض التغييرات في اللعبة السياسية في بيلاروسيا. ومع ذلك فلم يخرج خط السياسة المُعلن من قبل روسيا عن موقفها بشأن دور الغرب في دعم المعارضة والمجتمع المدني في بيلاروسيا، فقد صرح وزير الدفاع سيرجي شويغو بأنه: "كانت هناك محاولة لإحداث تغيير في السلطة في بيلاروسيا بدعم مالي وسياسي من الغرب"(٤٩). وأعلنت روسيا في

(45) Dmitry Shlapentokh, How Belarus Maneuvers between Russia and the West, 30 April 2020, The Institute of Modern Russia, Available at: https://cutt.us/ro9oF

(46) Belarus: An Overview, Congressional Research Service (CRS), 24 August, 2020, Op.cit,.

(47) NIKOLA MIKOVIC, How Russia benefited from Belarus's turmoil, The Interpreter, 7 Sep 2020, available at: https://cutt.us/SaUjd

(48) Russian Finance Minister says Belarus will receive almost nothing from EFSD loan, Belsat, 2020.09.22, available at: https://cutt.us/nfzbW

(49) Belarus experiencing external forces' attack on sovereignty – Putin, Belsat, 11 November 2020, Accessed: 28 November 2020, 7:09, available at: https://cutt.us/mC8fB

أكثر من مناسبة رفضها لأي وساطة "تدخل" خارجي لحل الأزمة في بيلاروسيا[٥٠].

حاولت روسيا في هذا الملف (بيلاروسيا) أن تُحقق نوعًا من التوازن بين خط سياستها الثابت تجاه رفض الثورات الملونة، وانتشار الديمقراطية في دول جوارها، وبين استغلال الأزمة في تحقيق رؤيتها السياسية لبيلاروسيا لوكاشينكو، بالإضافة إلى أنها سعت إلى إثناء ذاتها عن اللجوء إلى سيناريو التدخل مرة أخرى للحفاظ على النظام السياسي مثلما فعلت في الحالة الأوكرانية، ومن ثمّ يتجدد الاصطدام بالغرب. وإلى الآن يدير الغرب هو الآخر اللعبة مع الروس في هذا الملف –بنفس المنطق– تجنبًا للسيناريو ذاته، فيؤكد على حق الشعوب في أن تختار من تحكم، وأن البيلاروسين لم يطالبوا لا بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي ولا الناتو، وإنما أرادوا بيلاروسيا ديموقراطية[٥١].

(٢) روسيا وتوازنات جنوب القوقاز: قره – باغ نموذجًا

فيما يتعلق بجنوب القوقاز، فالأمور لا تختلف بين الغرب وروسيا في المجمل كثيرًا، وإن كانت التطورات المصاحبة لعام ٢٠٢٠ تثير حساسية أقل في إدارتها بينهما عنها في بيلاروسيا، فالخلاف بين أرمينيا وأذربيجان الذي سنعرض له تاليًا سار بالصورة التي تمناها الغرب –جزئيًا– وروسيا على السواء.

تسعى روسيا بصفة عامة إلى فرض نفوذها وتواجدها في منطقة جنوب القوقاز، بصور عدة ولأسباب مختلفة؛ أما الأسباب فتتصل كما أسلفنا بالأبعاد التاريخية والجغرافية، كما تتعلق بالتواصل العرقي والثقافي بين الروس وسكان هذه المنطقة، بالإضافة للهواجس الأمنية المتعلقة باحتمالات التواصل بين شمال القوقاز (الروسي) حيث الجمهوريات الإسلامية، وجنوب القوقاز، واحتمالات إمدادها بالسلاح أو تنفيذ عمليات عسكرية "إرهابية" موجهة ضد الداخل الروسي، إذ تعتبر موسكو ضمان الاستقرار في جمهوريات القوقاز السوفيتية السابقة شرطًا أساسيًا للتنمية المحلية المستدامة لروسيا وللمحافظة على وحدة أراضيها[٥٢].

أما فيما يتعلق بالوسائل[٥٣]، فتنوع روسيا بين الارتباط بالنخب الحاكمة، ونخب المعارضة المحلية ذات التوجهات الموالية لها، مع دعم للدول الانفصالية في أوسيتيا الجنوبية، وأبخازيا، وممارسة الضغوط السياسية والأمنية، وإيجاد نفسها كوسيط دائم للصراعات في هذه المنطقة، يُمسك ويدير بصورة دقيقة توازنات القوى في منطقة تتشابك عوامل الصراع فيها بين داخلي وخارجي. وعليه، أوجدت روسيا نفسها في كافة ملفات المنطقة الداخلية والخارجية على السواء، في جورجيا، ومولدوفا، وأرمينيا وأذربيجان.

مؤخرًا على طول عام ٢٠٢٠ تصاعد مستوى الحراك السياسي والعسكري في الصراع بين أرمينيا وأذربيجان على

---

(50) Andrew S. Weis, Russia and Europe: Stuck on Autopilot, Op. Cit,. p.10.

(٥١) Tanja, A. Borzel, Thomas Risse, EU to Russia: Stay Out of Belarus!, Carnegie Europe, 24 September 2020, Accessed: 28 November 2020, 7:13, available at: https://cutt.us/XIEO7

(52) Markedonov, Sergey M., Suchkov, Maxim A, Russia and the United States in the Caucasus: cooperation and competition, Caucasus Survey Volume 8, Issue 2: Russian perspectives on the Caucasus ,2020/05/03, p.3-4, available at: https://cutt.us/zcYcz

(٥٣) للمزيد:

- Ibid, p10.
- International Security and Estonia, Estonian Foreign Intelligence Service, 2020, p.30, available at: https://cutt.us/CwF35

إقليم قره–باغ. يعود تاريخ الصراع على إقليم قره–باغ إلى الحقبة البلشفية والسوفيتية، حينما اقتطع ستالين عام ١٩٢١ الإقليم ذا الأغلبية الأرمينية من أرمينيا وألحقه بأذربيجان، ثمّ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي اشتعلت حرب كبرى عام ١٩٩٤ حسمها الأرمن لصالحهم، فأضحى الإقليم جزءًا من أرمينيا رغم الاعتراف الدولي بأحقية أذربيجان فيه. ظلت جذور الصراع موجودة وتشتعل ثمّ تهدأ دون تغير في الوضع القائم، حتى أُشعل فتيل الأزمة مرة أخرى في ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٠، فحقق الآذريون تقدمات كبيرة على الأرض تجاه السيطرة على بعض مدن قره–باغ بدعم تركي قوي معلن، وهو ما دعا روسيا –بتوافق مع الأطراف– إعلان وقف إطلاق النار في ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، وإعلان خطة لتسليم الإقليم تدريجيًا إلى أذربيجان[٥٤].

تاريخيًا، ومنذ عهد بوتين، تحتفظ روسيا بعلاقات قوية مع طرفي الصراع، وتبيع لكلتيهما السلاح، مع تقارب أكثر مع الأرمن، بفعل ارتباطها رسميًا بمعاهدات دفاع مشترك ضمن منظمة الأمن الجماعي والاقتصادي الأوروآسيوي (EAEU)[٥٥]، لذلك اهتمت موسكو بأن تلعب دورًا متوازنًا بين أذربيجان وأرمينيا، فهي نَعَم صديقة لأرمينيا، ولكنها في نفس الوقت ليست عدوًا لأذربيجان، كيلا تجعل من أذربيجان جورجيا جديدة. ويبدو أنها أرادت ألا يستدعي دورها في هذا الصراع خلافات أخرى مع الغرب عن دورها في تسميم نافالني أو بيلاروسيا أو غيرهما[٥٦].

قَبِلت أوروبا الغربية بالدور الروسي الراهن في قرة–باغ على مضض، لعدة أسباب: تعود إلى اختلاف هذا الصراع بصفة عامة عن طبيعة الصراعات المعلقة بين روسيا والغرب، فلا مصالح حيوية تربط الغرب بهذه المنطقة سوى نشر الديمقراطية بالنسبة لأوروبا، وتقارب أرمينيا مع دول غربية مثل فرنسا بفعل انحدار عددٍ من سكانها من أصل أرميني، وتدعيم فرنسا لقضية الأرمن التاريخية باعتبارهم تعرضوا لمذابح من قبل العثمانيين، لذلك عارضت فرنسا الدور التركي المتنامي في هذه المنطقة، بل سآلت روسيا عن حقيقة هذا الدور[٥٧]! ويُفسر هذا الموقف الفرنسي على أنه لا يتعلق بالاتحاد الأوروبي ولكنه يتعلق بفرنسا ورئيسها الذي تربطه علاقات توتر وقضايا عالقة مع تركيا في شرق المتوسط (ليبيا)، والناتو، ولبنان، وبشأن خطاب ماكرون تجاه الإسلام[٥٨].

أما من زاوية الولايات المتحدة، فرغم قوة اللوبي الأرميني داخلها، وضغطه تجاه سياسة متشددة تجاه تركيا بصفة عامة، وموقف أكثر صرامة من قره–باغ، فإن تركيز الاهتمام على المسائل الداخلية في هذه الفترة، وغياب مصالح حيوية عاجلة، وتغير خطط تنويع مصادر الطاقة والدور العالمي للولايات المتحدة بفضل اكتشافات النفط

---

(٥٤) محمد البقالي، قره باغ.. عناصر أساسية لفهم الصراع التاريخي بين أرمينيا وأذربيجان، الجزيرة.نت، ٥ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٧:١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jPXKO

(٥٥) للمزيد حول الخلفية التاريخية للصراع بين أرمينيا وأذربيجان ودور القوى الخارجية في الأزمة الحالية، يُراجع

- The Armed Conflict Survey, The International Institute for Strategic Suites (IISS),٢٠٢٠ , p١٣٨-١٤٥.

(٥٦) The Nagorno-Karabakh Conflict and the Risk of Regional War (Webinar), RUSI, 2 October 2020, available at: https://cutt.us/BDHrY

(٥٧) خوفا من الدور التركي.. فرنسا تريد إشرافا دوليا في قره باغ، الجزيرة. نت، ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٧:٢٦، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/P4L5b

(٥٨) The Nagorno-Karabakh Conflict and the Risk of Regional War (webinar), Op,Cit.

الصخري من ناحية، وتدني رغبتها في التدخل الخارجي من ناحية أخرى -على الأقل في عهد ترامب-، وارتباطها مع روسيا في "آلية مينسك" لحل الصراع بين أرمينيا وأذربيجان[٥٩]، وأن أذربيجان هي الأهم في هذا الصراع كمصدر للطاقة إلى أوروبا أو الولايات المتحدة، كل هذه العوامل حدت من الانخراط النشط للولايات المتحدة في هذا الصراع.

خاتمة:

يمكن القول إن روسيا بوتين أحرزت في عام ٢٠٢٠ تقدمًا على الغرب في عددٍ من الملفات المطروحة، فكما حافظت على مصالحها في شرق أوروبا، وجنوب القوقاز، وخطوط نقل الغاز الروسي إلى أوروبا، حافظت على الداخل الروسي من دون وقوع ثورة ملونة، أو زيادة قدرة المعارضة القريبة من القيم الغربية والمجتمع المدني في الداخل على بلورة أدوار جادة تعارض نظام بوتين بقيمه المحافظة، بل نجح بوتين في أن يمد سيطرته إلى كافة سلطات الدولة التشريعية والقضائية والتنفيذية ليعزز موقعه مركزًا للنظام السياسي الروسي، وليدعِّم فرص بقائه في الحكم سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وتؤمن رحيله -إن هو أراد-.

يظل الداخل الروسي، حتى مع تعديلات بوتين الدستورية، منفتحًا على كافة السيناريوهات سواء ببقاء بوتين في السلطة حتى عام ٢٠٣٦، أو تعيين بوتين لخليفة له، أو تنحيه عن السلطة مع لعب أدوار مختلفة في عملية الحكم في روسيا، والأرجح أن بوتين سيولي أهمية كبيرة للأوضاع الداخلية، ويراعي تحقيق استتباب نسبي للأوضاع لصالح نظامه، وشرعيته، مع الحفاظ على توازنات داخلية تسمح له بالحكم لفترة رئاسية مُقبلة أي حتى عام ٢٠٣٠ أو قبلها بقليل، يدعم هذا السيناريو "افتقار روسيا تاريخيًا نموذجًا لتسليم السلطة من دون وفاة أو رغبة من الزعيم ذاته"[٦٠].

يبدو أن روسيا (بوتين) في المستقبل القريب والمتوسط عازمة على مدّ نفوذها في الفضاء ما بعد السوفيتي في بلدان الجوار الروسي، مع الحفاظ على الوضع الراهن من دون انضمام أي من دوله إلى حلف الناتو أو الاتحاد الأوروبي، يشترط هذا السيناريو بقاء بوتين في الحكم، واستمرار روسيا متماسكة داخليًا، ترجّح هذا السيناريو أيضًا الشواهد التاريخية القريبة من جورجيا ٢٠٠٨، إلى أوكرانيا ٢٠١٤، إلى بيلاروسيا، وصولا إلى قره - باغ ٢٠٢٠.

عززت روسيا في عام ٢٠٢٠ وضعها في مواجهة الغرب، بفعل انخراطها الواسع في الصراعات الإقليمية والدولية، وسياسات الغرب ذاته الأكثر تخبطًا وتأثرًا بالمشكلات والأزمات الداخلية من البريكست إلى الخلافات داخل حلف الناتو، وخلافات دول غرب أوروبا والولايات المتحدة خاصةً تجاه العلاقة مع روسيا والصين وإيران، إلى أزمة كورونا، ساعدت هذه الخلافات على ضم مزيد من الأعضاء إلى نادي التعددية القطبية، الذي تدعو إليه موسكو، وتعزز أدواره -بعيدًا عن الغرب-، ولا شك أن قبولها بدور تركي في الصراع بين أرمينيا وأذربيجان هو نموذج للعلاقات بين أعضاء هذا النادي.

(٥٩) تأسست مجموعة "مينسك" عام ١٩٩٢ خصوصًا لحل نزاع إقليم ناغورني كاراباخ بين أذربيجان وأرمينيا، كمجموعة تابعة لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا، ولإيجاد حل سلمي للأزمة التي بدأت مع احتلال أرمينيا لإقليم كاراباخ ومحافظات أذرية أخرى. ومنذ ٦ من ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٤، تشارك الولايات المتحدة وفرنسا وروسيا في رئاسة المجموعة.

- ما هي مجموعة مينسك؟ وكيف عجزت عن حل الصراع في كاراباخ لمدة ٢٨ عاما؟، الجزيرة.نت، ٦ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٧:٣١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/m9E48

(٦٠) Martin kragh, Russia in 2045: A Scenario Analysis, Op. Cit., p7.

يبقى الوصول إلى عالم التعددية القطبية الكامل في الأجلين المتوسط والبعيد مرهونًا بحفاظ روسيا على قوتها، وبنائها لعناصر قوتها الشاملة، وتأكيدها لنفوذها على دول غرب أوروبا بفعل الواردات النفطية، وإخفاق الولايات المتحدة ما بعد ترامب في تجديد قيادتها للعالم.

*****



مآلات السياسة الفرنسية في المنطقة العربية: بين الأهداف والفعالية

رضوى منتصر[*]

مقدمة:

تمتلك فرنسا تاريخًا طويلًا من السياسات الاستعمارية تجاه المنطقة العربية من الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨، ثم احتلال الجزائر ١٨٣٠، ووضع تونس تحت الحماية الفرنسية ١٨٨٢، تلتها المغرب ١٩١٢، واشتدَّ التنافس بين فرنسا وبريطانيا في المنطقة العربية وهو ما جعلهم يتَّفقون على صيغة مشتركة عكستْها اتفاقية سايكس-بيكو ١٩١٦ من أجل اقتسام منطقة الهلال الخصيب (الشام) واحتلاها واستعمارها بعد طرد العثمانيّين منها[١]، ثم تطبيق نظام الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان بموجب قرار من عصبة الأمم في ١٩٢٠، والإدارة العسكرية الفرنسية لأجزاء من ليبيا في ١٩٤٣[٢].

ظلَّت فرنسا تمارس جرائمها الاستعمارية في المنطقة العربية حتى أن انتهت الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ ووجدت نفسها في مأزق حيث تعالَتْ أصوات حركات التحرُّر الوطني في مستعمراتها ممَّا اضطرَّها إلى الانسحاب التدريجي بداية من إعلان استقلال سوريا ١٩٤٢، ولبنان ١٩٤٣، حتى استقلال دول المغرب العربي مع تصفية الاستعمار في الجزائر ١٩٦٢، لكن لم يكن يعني تصفية استعمار فرنسا انتهاء نفوذها في المنطقة بل استطاعت ترك بصماتها -خاصة في لبنان ودول المغرب العربي، التي كانت مدخلًا تتشبَّث به فرنسا، في ظل تراجع دورها وانحسارها عالميًّا- لاستعادة نفوذها خلال فترة حكم شارل ديجول[٣].

تميَّزت فترة الرئيس ديجول بالدور الفرنسي النشط في المنطقة، حيث استطاع أن يؤسِّس سياسة خارجية قائمة على التقارب والتعاون مع الدول العربية وتوسيع دائرة المصالح الفرنسية وذلك لتأمين احتياجاتها البترولية وأسواق لصادراتها، وهو ما نتج عنه تضاعف للزيارات الدبلوماسية والمساعدات الاقتصادية وتبنِّي مواقف دولية مساندة للقضايا العربية، وهو النهج الذي لم يتغيَّر، بل سار عليه جورج بومبيدو وجيسكار ديستان حتى وإن لم يكن بنفس الفاعلية، وكان ذلك بسبب تصاعد أهمية البُعد الاقتصادي في العلاقات الدولية في الوقت الذي تخلَّل فيه الضعف الاقتصاد الفرنسي وهو ما جعلها في حاجه ملحَّة لمصادر الطاقة، أضفْ إلى ذلك التغيُّرات التي فرضها النظام الإقليمي العربي بعد حرب ١٩٧٣[٤].

ولقد تغيَّرت الخطوط العريضة التي تقوم عليها السياسة الفرنسية تجاه المنطقة العربية مع وصول الاشتراكيّين للحكم في فرنسا ١٩٨١ حيث تخلَّى الرئيس فرانسو ميتران عن أيِّ دور فرنسي مستقل، بل أصبح مكمِّلًا للدور الأمريكي في المنطقة ومع الوقت تآكل تمامًا في ظلِّ التفرُّد الأمريكي غير المسبوق بشؤون المنطقة[٥]، وصعود النفوذ

(*) باحثة في العلوم السياسية.

(١) د. بوقنطار الحسان، السياسة الخارجية الفرنسية إزاء الوطن العربي منذ ١٩٦٧، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى ١٩٨٧)، ص ص ٩-١١.

(٢) جي فورمونت، سياسة فرنسا العربية بين إرث التاريخ وتحديات الحاضر، جريدة أخبار الخليج، ٢٥ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Yo1h7

(٣) د. بوقنطار الحسان، السياسة الخارجية الفرنسية إزاء الوطن العربي منذ ١٩٦٧، مرجع سابق، ص ص١٢-٢٥.

(٤) كريمة بو عافية، سياسة ديجول تجاه بلدان المشرق العربي: سوريا والعراق نموذجًا (١٩٦٢-١٩٦٩)، (جامعة محمد بوضياف - المسيلة: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية)، رسالة ماجستير، ٢٠١٥-٢٠١٦، ص ص ٢٥-٤٧.

(٥) رواء طه درويش، السياسة الخارجية الفرنسية حيال المشرق العربي: حقبة ما بعد الحرب الباردة، (جامعة النهرين: كلية العلوم

التجاري الصيني، وهو ما أدَّى إلى خسارة فرنسا لجزء كبير من مصالحها ونفوذها في الدول العربية[٦] في ظل اتباع جاك شيراك سياسة الانعزال، ثم تبنِّي ساركوزي توجُّهات معادية للعرب، وما اتَّسمت به تحرُّكات فرانسوا هولاند من الحذر الشديد[٧].

ظلَّ الأمر هكذا -تتوالى دورات الانخراط والتراجع عن أمور المنطقة[٨]- حتى تولَّى ماكرون رئاسة فرنسا وزاد من مستوى انخراط فرنسا في عدد من الملفات والقضايا العربية خاصة في الفترة الأخيرة، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب:

أ) **أسباب داخلية:** يمكن إيجازها في ثلاث نقاط أساسية:

- الأوضاع الاقتصادية السيئة دفعت ماكرون لأن يتوجَّه شرقًا ليبحث عن عقود تجارية وصفقات عسكرية تدعم اقتصاد فرنسا المتهالك[٩].

- إلهاء الشعب الفرنسي عن المشاكل الداخلية بالتدخُّل في عدد من القضايا الخارجية لتحقيق نصر خارجي يطمأن به الداخل ويخفِّف من وطأة احتجاجات السُّترات الصفراء[١٠].

- تأثُّر فرنسا بتطوُّرات وتقلُّبات المنطقة لكونها موطنًا للمجتمعات العربية في أوروبا وقربها من السواحل الأفريقية والعربية، وهو ما يجعل تدخُّلها في المنطقة ضروري للحفاظ على أمن وسلامة حدودها وتوازنها السياسي والاجتماعي[١١].

ب) **مصالح إقليمية:** تأْمل فرنسا في استعادة نفوذها في مستعمراتها القديمة بعد أن تراجع دورها لحساب منافسين جدد مثل تركيا، وتأمين حصص الشركات الفرنسية في المنطقة الغنية بالغاز والنفط، وضمان أمن واستقرار قواعدها العسكرية في أفريقيا في ظل تصاعد الفوضى واتِّساع نفوذ الميليشيات التي تهدِّد أمن دول الجوار الأوروبي، وحماية الحدود من عمليات التهريب والهجرة غير الشرعية[١٢].

ج) **تنافس دولي وإقليمي:** تبحث فرنسا عن دور فعال في ظلِّ الاهتمام الأمريكي بقضايا المنطقة، والنُّفوذ الروسي في سوريا، ودخول الصين في المعادلة من أجل تأمين طرق التجارة والملاحة الرئيسية وتنفيذ مشروع طريق الحرير، والتحرُّك التركي المتنامي في المنطقة، فترى فرنسا أنها الأجدر والأحق بهذا الدور لما تمتلكه من تاريخ استعماري في المنطقة، إضافة إلى أنها الدولة المتوسطية الوحيدة التي تحظى بمقعدٍ دائمٍ في مجلس الأمن ولديها قدرات عسكرية ونووية[١٣].

د) **دوافع شخصية للرئيس ماكرون:** فهو شاب طموح يحاول أن يُعيد فرنسا إلى سابق عهدها ومكانتها في

السياسية)، رسالة ماجستير، ٢٠١١، ملخص الرسالة، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/hRbCI

(٦) جي فورمونت، سياسة فرنسا العربية بين إرث التاريخ وتحديات الحاضر، مرجع سابق.

(٧) وحدة الرصد والتحليل، تقدير موقف: التحركات الفرنسية في المنطقة.. الدوافع والأبعاد، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، سبتمبر ٢٠٢٠، ص٣ متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3mX2pKa

(٨) للمزيد انظر: د. نادية مصطفي، أوروبا والوطن العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦).

(٩) وحدة الرصد والتحليل، تقدير موقف: التحركات الفرنسية في المنطقة.. الدوافع والأبعاد، المرجع السابق، ص ٦.

(١٠) د. علي حسين حميد ود. فراس عباس هاشم، رؤية استراتيجية في ضوء ملامح التجديد الفرنسي: الماكرونية أنموذجًا، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٦ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/guPFh

(١١) كاثرين شكدام، تغير الموقف الفرنسي تجاه الشرق الأوسط، مركز البيان للدراسات والتخطيط، ٨ يناير ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/syW76

(١٢) وحدة الرصد والتحليل، تقدير موقف: التحركات الفرنسية في المنطقة.. الدوافع والأبعاد، مرجع سابق، ص ٧.

(١٣) المرجع السابق، ص ص ٧-٨.

العالم وضخ الروح الفرنسية في المجتمع الدولي[١٤]، ولديه قناعة بأن ذلك لن يتحقَّق إلَّا إذا امتلكت فرنسا سياسة خارجية مستقلَّة –على شاكلة فترات حكم الرئيس شارل ديجول وفرنسوا ميتران– ليست تابعة للتوجُّهات الأمريكية التي أفقدتها رونقها خلال حكم ساركوزي وهولاند وجعلتها على حافة الهاوية من المسرح الدولي، وهذا لا ينطبق على فرنسا وحدها بل على أوروبا كلها إذا لم تنقذ نفسها وتقوم بصياغة سياسة خارجية ودفاعية مستقلَّة متماسكة[١٥].

كان هذا هو التوجُّه العام لماكرون منذ تولِّيه الرئاسة، وهو ما انعكس على تطوُّرات السياسة الفرنسية في المنطقة العربية خلال العام ومآلاتها، وهو ما سوف يتناوله التقرير بشيء من التفصيل على مستويين: مستوى إقليمي يرصد ملامح السياسة الفرنسية تجاه بعض القضايا في المنطقة، ومستوى داخلي فرنسي يطرح خطابات وسياسات ماكرون تجاه الإسلام والمسلمين في فرنسا، ويطرح التدبُّر في المستويين السؤال التالي وهو: ما الرابطة بين المستويين؟

أولًا– التحركات الفرنسية في المنطقة العربية

كان لفرنسا نشاط واضح في المنطقة العربية خلال عام ٢٠٢٠، فلقد حرصت على أن يكون لها دور في العراق، وترفع من مستوى علاقاتها مع دول الخليج، وتظهر بمظهر الدولة الأبوية في لبنان، وتعمل على صيانة العلاقات مع دول المغرب العربي، وتعزِّز من وجودها في الملف الليبي والسوري، وتتواصل باستمرار مع الجانب المصري، وتدَّعي مساندة القضية الفلسطينية.

١) العراق:

تزايد النشاط الفرنسي في العراق بشكل ملحوظ مع تولِّي ماكرون الحكم، اتَّضح ذلك في تعاقب وتعدُّد زيارات كبار مسؤولي فرنسا للعراق –وزير الخارجية في يوليو ٢٠٢٠ ووزيرة الجيوش الفرنسية في أغسطس ٢٠٢٠– وكان آخرها زيارة ماكرون في سبتمبر ٢٠٢٠ والتي أطلق فيها مبادرة دعم سيادة العراق، كان الهدف من المبادرة –وفقًا لما أعلنه ماكرون– هو التأكيد على احترام سيادة واستقلال العراق ووقوف فرنسا إلى جانب شعب وحكومة العراق ضد أي محاولات للتدخُّل الخارجي ودعمهم في التصدِّي لتهديدات تنظيم داعش الإرهابي[١٦].

هذا هو ما أعلنته فرنسا لكن في الحقيقة كان الهدف هو أن تخلق لنفسها دورًا في العراق مستغلَّة حالة الفراغ التي سوف يخلِّفها الانسحاب الأمريكي من العراق، خاصة وأن لديها علاقات طيبة مع كافَّة الفصائل العراقية نتيجة لعدم مشاركتها في غزو العراق ٢٠٠٣ وعدم استهدافها من الجانب الإيراني في ظلِّ موقفها الحياديّ من التوتُّر الأمريكي–الإيراني، وتستهدف فرنسا أيضًا أن يكون لشركاتها النصيب الأكبر من مشروعات السوق العراقي في إعمار المدن والبنى التحتية والمرافق الحيوية ومجال الطاقة والنقل من إنشاء محطات نووية وخطوط الأنفاق والاستثمار في مجال التسليح[١٧]، أضف إلى ذلك رغبة فرنسا في أن تكون العراق جبهة مواجهة جديدة مع تركيا يمكن أن تستغلَّها لمحاصرة تركيا والضغط عليها حتى تقلِّل من حجم مكاسبها في منطقة المتوسط.

(١٤) د. علي حسين حميد ود. فراس عباس هاشم، رؤية استراتيجية في ضوء ملامح التجديد الفرنسي، مرجع سابق.

(١٥) تقييم السياسة الخارجية الفرنسية في عهد ماكرون، مركز سيتا، ٦ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/RP6k7

(١٦) كمال البني، ماكرون يؤكد دعمه للعراق أمام تحديات التدخل الأجنبي وتهديدات تنظيم الدولة الإسلامية، موقع دويتشه فيله، ٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NgK15

(١٧) محمد كريم الخاقاني ومروان محمد الطيارة، الدور الفرنسي في الشرق الأوسط، مركز سيتا، ٤ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WBWO2

يتَّضح من ذلك أن التواجد الفرنسي لم يصبَّ في صالح العراق بالقدر الذي استفادت منه فرنسا، فظلَّت العراق تعاني من الضغوط الأمريكية والإيرانية والتدخُّلات الخارجية ولم تكن فرنسا الحليف القوي القادر على ضمان أمن وسلامة سيادتها، ولم تستفد العراق من التضييق الفرنسي على تركيا فهي لا تتخوَّف من النُّفوذ التركي بالقدر الذي تتخوَّف فيه من إيران –في الوقت الذي تحرص فيه فرنسا على مهادنة إيران وعدم إثارة أيِّ توتُّرات أو خلافات معها– حيث تمتلك أذرعًا عسكرية تزعزع أمن العراق واستقرارها.

٢) ليبيا:

احتلَّ الملف الليبي نصيب الأسد من اهتمام فرنسا بالمنطقة، ويرجع ذلك إلى قناعة فرنسا بأن لها حقًّا تاريخيًّا في ليبيا التي استعمرتْها –جزئيًّا بعد الحرب العالمية الثانية– مع إيطاليا، ولقد أضحت ليبيا محطَّ أنظار فرنسا بدرجة أكبر منذ بداية قيادة فرنسا للحملة الغربية على نظام القذافي عقب ثورة أكتوبر ٢٠١١[١٨]، لكنها كانت حذرة طوال فترة حكم هولاند، ومع تولي ماكرون نشط الدور الفرنسي في ليبيا من أجل فرض التسوية السياسية وجمع الفرقاء على مائدة تفاوض واحدة، حتى تجني فرنسا ثمار قيادتها لعمليات حلف الناتو التي كلَّفتها ما يقرب من ٤٥٠ مليون دولار –وفقًا لتصريحات ماكرون– وكانت السبب في إسقاط القذافي، فترى فرنسا أنها الأحق بها بالرغم من أنها لم تجنِ ثمارها حتى الآن، حيث تتمثل المصالح الفرنسية في ليبيا فيما يلي:

– الحفاظ على حصص شركة توتال الفرنسية –حيث تحتل ليبيا المرتبة التاسعة من بين أكبر الدول النفطية– وحقها في التنقيب في حقول النفط والغاز بليبيا والاستحواذ على النسبة الأكبر من الاستثمارات في مجال الطاقة

(١٨) يمان دابقي، فرنسا في ليبيا: الدور التاريخي المتجدِّد ومستقبل النفوذ، برق للسياسات والاستشارات، ١١ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/abvWN

واستخراج المعادن والمواد الأولية في ظلِّ منافستها الشرسة مع شركة إيني الإيطالية[١٩].

– ارتباط مصالح فرنسا الاقتصادية في منطقة شرق المتوسط بوجودها في ليبيا لردع التحركات التركية في منطقة المتوسط، فهي منطقة واعدة لديها احتياطي غاز يكفي احتياجات أوروبا لمدة ٣٠ عامًا ممَّا جعل فرنسا حريصة على تأمين نصيبها من عمليات اكتشاف الغاز وأنشطة الإنتاج في منطقة شرق المتوسط لتأمين احتياجاتها، وتقليل الاعتماد الأوروبي على الغاز الروسي، وضمان حق شركاتها في التنقيب، خاصَّة بعد أن حصلت شركة توتال الفرنسية على تراخيص العمل في سواحل قبرص منذ سبتمبر ٢٠١٩[٢٠].

– استعادة النفوذ الفرنسي في ليبيا هو بوابة لضمان المصالح الفرنسية في أفريقيا، فهي عينها على شمال أفريقيا ودول الساحل الأفريقي حيث تحوز منطقة الشمال الأفريقي وحدها نصف الواردات الفرنسية و٦٠٪ من صادراتها، كما أنها تريد تأمين قواعدها العسكرية –التي تقع على الحدود الجنوبية لليبيا– في دول الساحل حيث تمتلك ثلاث قواعد عسكرية في تشاد واثنتان في النيجر –أهمها قاعدة مادام– واثنتان في مالي، خاصَّة في ظلِّ التحديات المستمرَّة التي يواجهها التدخُّل الفرنسي في مالي.

– تأمل فرنسا كذلك في أن يكون لها النصيب الأكبر من عقود تصدير السلاح للجيش الليبي والاستثمار في مشروعات إعادة إعمار ليبيا في حالة الاستقرار[٢١].

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) محمود قاسم، مساع فرنسية لتحجيم الطموح التركي في المتوسط، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ١ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/LAFHA

(٢١) يمان دابقي، فرنسا في ليبيا: الدور التاريخي المتجدِّد ومستقبل النفوذ، مرجع سابق.

– تهدف فرنسا أيضًا إلى التصدِّي لمحاولات الهجرة غير الشرعية التي تعتبر ليبيا إحدى نقاط انطلاقها الرئيسية من أجل الوصول للسواحل الأوروبية[٢٢].

لذا تعتبر ليبيا من أولويات الرئيس ماكرون منذ توليه الحكم؛ فسعى إلى أن تكون فرنسا مفتاح الحل للأزمة السياسية ودفع العملية السياسية الليبية[٢٣]، فتدخَّلت فرنسا مع كلِّ الأطراف وعلى كلِّ الأطراف –تحرِّض الجميع وتساند الجميع– حيث دعمت كل جهود التسوية السياسية لإيجاد مخرج للأزمة الليبية واستضافت اجتماعات لأطراف النزاع[٢٤]، فعقدت لقاء بين فايز السراج وخليفة حفتر بباريس في يوليو ٢٠١٧، وعقدت مؤتمر باريس في مايو ٢٠١٨ لبحث تطورات الأزمة الليبية بحضور كافة الأطراف الليبية وممثلين من دول الجوار والدول الفاعلة في المشهد الداخلي الليبي[٢٥]، وكانت ولا زالت حريصة على التواصل باستمرار مع الجانب المصري –حتى زيارة السيسي الأخيرة لباريس في ديسمبر ٢٠٢٠– باعتبارها أكثر دول الجوار فاعلية في الملف الليبي، خاصة وأن هناك تطابقًا واضحًا في موقف البلدين من رفض التدخُّل التركي والمسار السياسي الذي لا بدَّ وأن تسلكه ليبيا من خروج المرتزقة والمقاتلين ووقف إطلاق النار وإقامة حوار سياسي بين كافَّة الأطراف.

وفي الوقت ذاته لم تكتفِ فرنسا بالحل السياسي بل بحثت عن موطئ قدم لها من خلال دفع حفتر بالتصعيد نحو الإسراع في الحسم العسكري ودعم عملياته في جنوب وشرق ليبيا، وزحفه منذ أبريل ٢٠١٩ نحو العاصمة طرابلس من أجل السيطرة على الحقول النفطية وضمان تأمين نفوذها ومصالحها الاقتصادية وتوفير حماية دائمة لها[٢٦]، وهو ما أثار غضب الساسة الإيطاليين الذين رأوا في خطوات فرنسا محاولة لاحتكار ملف ليبيا.

في الحقيقة لم تحرز خطوات فرنسا أي تقدُّم ملموس في العملية السياسية أو العسكرية في ليبيا[٢٧]، حيث تغيَّرت الحسابات الفرنسية وموازين القوة العسكرية مع تدخُّل تركيا ودعمها لحكومة الوفاق[٢٨]، بل وتوقيع مذكرة تفاهم بين الجانبين في نوفمبر ٢٠١٩ حول المنطقة البحرية مما يعطي تركيا حق التنقيب عن الغاز على السواحل الليبية وإفساد السيناريو اليوناني القبرصي لتقاسُم منطقة شرق المتوسط، وكان ذلك ردًّا على إنشاء منتدى غاز المتوسط في يناير ٢٠١٩ –يضم الدول المنتجة والمستوردة للغاز ودول العبور بشرق المتوسط– دون وجود لتركيا لترسل بموجب ذلك رسالة أنه إذا لم يتم ضمُّها للمعادلة فسوف يكون من الصعب وصول خطوط الغاز لأوروبا، وهو أمر مهم لتركيا التي تستورد ٩٩% من حاجتها من الغاز[٢٩].

وهنا نجد أن التواجد الفرنسي في ليبيا لا ينفصل عن عدائها مع تركيا في منطقة المتوسط، وهو ما جعل فرنسا مستمرة في تقديم الدعم لحفتر المعادِي لحكومة الوفاق، والتنسيق مع الجانب المصري في ملفي تطورات الوضع في ليبيا والقضايا المتعلِّقة بغاز المتوسط، ودعم التحالف اليوناني المصري القبرصي ضدَّ اتفاقية ترسيم الحدود بين تركيا وليبيا،

---

(٢٢) رائد نجم، دوافع التدخل الفرنسي في ليبيا، شبكة رؤية الأخبارية، فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/c0A9b

(٢٣) أحمد قاسم حسين، التنافس الفرنسي – الإيطالي على النفوذ في ليبيا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة تقييم حالة، فبراير ٢٠١٩، ص ٥.

(٢٤) يمان دابقي، فرنسا في ليبيا: الدور التاريخي المتجدِّد ومستقبل النفوذ، مرجع سابق.

(٢٥) أحمد قاسم حسين، التنافس الفرنسي – الإيطالي على النفوذ في ليبيا، مرجع سابق، ص ص ٥-٦.

(٢٦) يمان دابقي، فرنسا في ليبيا: الدور التاريخي المتجدِّد ومستقبل النفوذ، مرجع سابق.

(٢٧) أحمد قاسم حسين، التنافس الفرنسي – الإيطالي على النفوذ في ليبيا، مرجع سابق، ص ٦.

(٢٨) يمان دابقي، فرنسا في ليبيا: الدور التاريخي المتجدِّد ومستقبل النفوذ، مرجع سابق.

(٢٩) الطريق إلى غاز المتوسط يبدأ من ليبيا، موقع البيان، ١٨ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/a2MDj

وطلب الانضمام إلى عضوية منتدى غاز شرق المتوسط في يناير ٢٠٢٠ ليكون لها حق الدفاع عن أعضاء المنتدى في مجلس الأمن بصفتها عضوًا دائمًا فيه، والاستفادة من عملية نقل الغاز لأوروبا عبر المنتدى وهو ما يصعب من موقف تركيا(٣٠).

نستخلص مما سبق أن النفوذ الفرنسي في ليبيا أصبح مهدَّدًا في ظلِّ التدخُّل التركي، وتوافق حكومة الوفاق المعترف بها دوليًّا مع تركيا، والدور الإيطالي المعارض للتحرُّكات الفرنسية في ليبيا، أضف إلى ذلك التعارض بين المصالح الأمريكية والفرنسية في منطقة الشمال الأفريقي ممَّا صعَّب من دخول حفتر -المدعوم من فرنسا- لطرابلس.

٣) دول المغرب العربي:

تعتبر منطقة المغرب العربي -الجزائر وتونس والمغرب- أولوية استراتيجية لفرنسا، يرجع ذلك لما تمتلكه هذه الدول من علاقات تاريخية طويلة مع فرنسا ومكوثها لعقود طويلة تحت الاستعمار الفرنسي، وعلى الرغم من ذلك فقدت فرنسا في العقدين الأخيرين جزءًا كبيرًا من نُفوذها في هذه المنطقة، فعلى المستوى الاقتصادي تراجع النُّفوذ الفرنسي لصالح دول أخرى حيث سيطرت إسبانيا والصين على السوق المغربي، وكان لألمانيا والصين وتركيا النصيب الأكبر من الاستثمارات في الجزائر، واستحوذت تركيا والولايات المتحدة على العلاقات التجارية مع تونس(٣١).

أما على المستوى السياسي فكان هناك قدر كبير من المواجهات نتيجة للذاكرة التاريخية عن وحشية الاستعمار الفرنسي وشعور جاليات هذه الدول بالاضطهاد والدونية في فرنسا، وتزايد التوتُّر مع تعمُّد بعض الجهات الإعلامية الفرنسية في مايو ٢٠٢٠ تصوير أفلام وثائقية وإصدار تصريحات تحمل توجُّهات عدائية وإهانة لرموز ثورات التحرُّر الوطني وبالأخص الثورة الجزائرية، وهو ما دفع برلمانات دول المغرب العربي إلى المطالبة باعتراف رسمي وصريح من جانب فرنسا بجرائمها خلال فترة الاستعمار وتقديم اعتذار رسمي وتعويض مادي عن ذلك إذا رغبت في تطوير العلاقات معهم(٣٢).

استطاع ماكرون أن يتجاوز حدَّة هذه الخلافات حتى تستعيد فرنسا نفوذها في هذه المنطقة، وهو ما جعله يقوم بإعادة رفات ٢٤ من قادة المقاومة الشعبية للجزائر في يوليو ٢٠٢٠ والتي كانت معروضة طوال هذه السنوات في متحف الإنسان بباريس، وسبق أن تأزَّمت العلاقات الفرنسية-الجزائرية بسبب ذلك، حيث اعتبرته الجزائر إهانة لرموز المقاومة وأنه ليس من حق فرنسا الاحتفاظ برفاتهم، وظلَّت تطالب بهذا الرفات منذ يناير ٢٠١٨(٣٣)، كما قام ماكرون بالاعتراف بجرائم الاستعمار الفرنسي وضحاياه، ولكن مع رفض الاعتذار الرسمي وذلك ليخفِّف من وطأة الغضب الشعبي في شمال أفريقيا ويفتح الباب أمام صفحة جديدة من العلاقات السياسية والشراكات الاقتصادية، لتظهر فرنسا بمظهر القوة العظمى ذات مناطق النفوذ الحيوية، وهو ما تجسَّد بالفعل في توقيع اتفاقيات للتدريب المشترك وتبادل الخبرات وتحديث المعدات العسكرية مع تونس، وتقديم منح مالية تصل إلى ٣٥٠ مليون يورو من أجل دعم الاقتصاد التونسي في يونيو ٢٠٢٠(٣٤)، وتعزيز علاقاتها الاقتصادية مع الجزائر ليصل عدد المؤسسات الاقتصادية الفرنسية فيها إلى أكثر من ٥٠٠ مؤسسة

---

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) إسماعيل عزام، كيف يؤثر الصراع التركي - الفرنسي حول ليبيا على الدول المغاربية؟، موقع دويتشه فيله، ١٩ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1uolk

(٣٢) حراك الجزائر: وثائقي فرنسي يثير أزمة أم مجرد زوبعة في فنجان؟، موقع BBC عربي، ٢٩ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/T38sE

(٣٣) يونس بورنان، الجزائر تسترجع الجماجم وتنهي أزمة الذاكرة مع فرنسا، موقع العين الاخبارية، ٢ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2KHXjEH

(٣٤) ٤١٥ مليون دولار.. فرنسا تدعم إصلاحات الاقتصاد التونسي بقرض، موقع العين الإخبارية، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/zDBex

بجانب عدد من المصانع لشركتي رينو وبيجو، واعتماد فرنسا على استيراد حوالي ١٠% من حاجتها من الغاز الطبيعي من الجزائر.

تتضاعف الأهمية الاستراتيجية لدول المغرب العربي في الوقت الحالي، حيث تمتلك هذه الدول حدودًا مشتركة مع مالي والنيجر وليبيا وتشاد، مما يكسبها أهمية في ظلّ مكافحة فرنسا لما تسمّيه بالإرهاب وتأمين عملياتها العسكرية في منطقة الساحل، كما أن هناك توافقًا في وجهات النظر بين فرنسا ودول المغرب العربي حول الأزمة الليبية، وهو ما يمكن الاستفادة منه حيث تشارك دول المغرب العربي فرنسا في تخوفها من التدخُّل العسكري التركي في ليبيا وترجِّح كفة تسوية الأوضاع ووقف تبادل إطلاق النار، وهو ما تجده فرنسا فرصة يمكن استغلالها لتشكيل تحالف إقليمي لردع تركيا[٣٥].

٤) دول الخليج:

تنامى الاهتمام الفرنسي بمنطقة الخليج تحت حكم ماكرون، وقد جاء ذلك في إطار سعي فرنسا إلى التسيُّد والظهور بمظهر القوة العظمى وتوسيع رقعة تواجدها حتى تكون أكثر تأثيرًا وفعالية في ظل التنافس الأوروبي –بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي– تجاه منطقة الخليج، وتأمين وارداتها النفطية من الخليج التي تعتمد عليها في خططها الصناعية[٣٦].

تزامن ذلك مع ظهور اتجاهات داخل دول الخليج ترى ضرورة توسيع شبكة علاقاتها وعدم حصرها على الولايات المتحدة، ووجدت دول الخليج في فرنسا خيارًا منطقيًّا وعقلانيًّا على الرغم من أنها ليست مؤهّلة لمنافسة الولايات المتحدة في التأثير والشراكة مع دول الخليج إلا أنها دولة لها ثقل عسكري وعلمي وعضوية دائمة في مجلس الأمن وتبنَّت مواقف مشابهة للمواقف الخليجية[٣٧] في الملف الليبي ودعم المعارضة السورية وتقديمها الدعم الاستخباراتي والعسكري لقوات التحالف العربي ضد الحوثيِّين في اليمن[٣٨].

وكانت هناك مؤشِّرات على زيادة النفوذ الفرنسي بمنطقة الخليج خلال هذا العام تمثَّلت في قيام فرنسا في يناير ٢٠٢٠ بنشر منظومة رادار على الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية من أجل تعزيز الدفاع عن المنشآت النفطية السعودية، وقيادة فرنسا لبعثة أوروبية في يناير ٢٠٢٠ لمراقبة أمن الملاحة في الخليج[٣٩]، وإطلاق عدد من الفعاليات الثقافية بين فرنسا وبعض دول الخليج –قطر والإمارات– مثل منتدى العلاقات بين فرنسا والإمارات في فبراير ٢٠٢٠ لتعزيز التعاون الأكاديمي والتبادل الثقافي بين الجانبين، وبرنامج العام الثقافي بين قطر وفرنسا في يناير ٢٠٢٠ لدعم أواصر التعاون بين المتاحف والجمعيات الثقافية في البلدين[٤٠].

كما حرصت فرنسا على استمرارية العقود التجارية والاستثمارات الاقتصادية التي قامت فرنسا بتوقيعها مع عدد من دول الخليج منذ ٢٠١٥ في مجالات النقل

(٣٥) إسماعيل عزام، بعد تدخل أردوغان: أين تقف الدول المغاربية من الأزمة الليبية؟، موقع دويتشه فيله، ٣ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/tyFFZ

(٣٦) أشرف محمد كشك، مستجدات السياسة الفرنسية تجاه أمن الخليج العربي، موقع أخبار الخليج، ٣ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/irx37

(٣٧) أحمد دياب، دبلوماسية جيواقتصادية: محفزات تعزيز الشراكة بين فرنسا والخليج، موقع مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ٨ مايو ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/zKeoZ

(٣٨) يوسف بوفيجلين، التطلعات الأوروبية في الخليج – مجرد صفقات سلاح؟، موقع دويتشه فيله، ٥ يونيو ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QKwK9

(٣٩) أشرف محمد كشك، مستجدات السياسة الفرنسية تجاه أمن الخليج العربي، مرجع سابق.

(٤٠) جامعة الإمارات تطلق فعاليات منتدى العلاقات بين فرنسا والإمارات، ١٧ فبراير ٢٠٢٠، موقع جامعة الإمارات العربية المتحدة، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WwsbS

والصحة والطيران المدني والدفاع والطاقة ومشاريع البنية التحتية وإنشاء خطوط للسكك الحديدية[٤١]، وضمان استمرارية التعاون الأمني والعسكري مع دول الخليج حيث تندرج الإمارات وقطر والسعودية في قائمة الشركاء الخمسة الكبار لفرنسا في مجال الدفاع[٤٢]، وتعتبر السعودية ثالث مستورد للسلاح الفرنسي واعتماد التسليح الإماراتي على فرنسا، كما أن فرنسا لديها قاعدة عسكرية بحرية "معسكر السلام" في الإمارات[٤٣].

٥) القضية الفلسطينية:

غابت فرنسا –منذ تولِّي ماكرون الرئاسة– عن دورها التقليدي في تحريك أوروبا تجاه القضية الفلسطينية وتبنِّي موقف رافض للاستيطان، على شاكلة قرار باريس في يناير ٢٠١٤ بمنع البضائع الإسرائيلية المنتجَة في المستوطنات من الاستفادة من التسهيلات الأوروبية، والتمسُّك بحلِّ الدولتين على أن تكون القدس عاصمة لهما[٤٤]، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب:

– ميول ماكرون لإسرائيل منذ خوضه انتخابات الرئاسة، فكانت هناك مؤشِّرات على ذلك، منها تعمُّده عدم الخوض في القضية الفلسطينية أثناء حملته الانتخابية لتفادِي خسارة أصوات الجالية المسلمة في فرنسا، واحتفاء إسرائيل والجالية اليهودية في فرنسا بخبر فوزه، حيث اعتبرتْه إسرائيل بشرى لتحسين العلاقات الفرنسية–الإسرائيلية، وما يربطه من علاقات صداقة قوية بشخصيات هامَّة في إسرائيل مثل أرييه درعي وزير الاقتصاد الإسرائيلي[٤٥].

– عدم رغبة ماكرون في فتح جبهة جديدة للمواجهة مع الرئيس ترامب في الوقت الذي اشتدَّ فيه الخلاف بين البلدين حول الاتفاق النووي الإيراني، فهو يرى أن معارضة الإرادة الأمريكية في هذه القضية غير مجدية فهي قضية خاسرة، وهو ما جعله يقرِّر الابتعاد عنها منذ وصوله للرئاسة[٤٦].

– حرص معظم القادة العرب على التواصل مع الطرف الأمريكي فيما يتعلَّق بالقضية الفلسطينية، فهم يرون أنها الأجدر على حلِّ الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي نظرًا لقدرة الولايات المتحدة على تحريك إسرائيل[٤٧].

– ظهور تهديدات جديدة للقادة العرب –مثل إيران وداعش والإسلام السياسي– بديلة عن إسرائيل وأصبح لها الأولوية وعلى رأس أجندة أي لقاءات عربية مع فرنسا[٤٨].

– ترى فرنسا أن المعطيات قد تغيَّرت بموجب توقيع الإمارات والبحرين اتفاقيات للتطبيع مع إسرائيل، ومن المتوقع أن تحذو عدد من الدول العربية الأخرى حذوهم مثل السودان والمغرب وسلطنة عمان[٤٩].

على الرغم من كلِّ ذلك كان لدى ماكرون قدر من الذكاء الذي جعله لا يتَّخذ موقفًا واضحًا من القضية

---

(٤١) أحمد دياب، دبلوماسية جيواقتصادية: محفزات تعزيز الشراكة بين فرنسا والخليج، مرجع سابق.

(٤٢) علي زياد، مضمون الاستراتيجية الفرنسية في الخليج، موقع القدس العربي، ٩ يونيو ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/34fWn

(٤٣) ميشال أبو نجم، ماكرون يسعى لتعزيز الدور الفرنسي في الخليج، موقع جريدة الشرق الأوسط، ١٠ نوفمبر ٢٠١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/U3n3d

(٤٤) ميشال أبو نجم، ماكرون في القدس: النزاع الفلسطيني – الإسرائيلي حاضر والجهود السياسية غائبة، جريدة الشرق الأوسط، ٢٢ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/LX1i0

(٤٥) أسماء خليفة، ماكرون الطريق إلى الإليزيه محملًا بمباركة إسرائيل، موقع إضاءات، ٢٤ مايو ٢٠١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/8AxyX

(٤٦) ميشال أبو نجم، ماكرون في القدس: النزاع الفلسطيني – الإسرائيلي حاضر والجهود السياسية غائبة، مرجع سابق.

(٤٧) المرجع السابق.

(٤٨) المرجع السابق.

(٤٩) حسن الحسيني، هل يصطف ماكرون خلف صفقة القرن، موقع مؤسسة مونت كارلو الدولية، ٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/GMWpm

الفلسطينية، بل تعمَّد الجمع بين كلِّ الأطراف وأمسك العصا من المنتصف، واكتفى بأن تقتصر ردود فعل فرنسا على التنديد والتفاوض والتواصل الدبلوماسي دون جدوى، واتَّضح ذلك في عدد من المواقف فلم يتَّخذ ماكرون أيَّ موقف جدي تجاه إعلان ترامب القدس عاصمة لإسرائيل في ٧ ديسمبر ٢٠١٧ ونقل السفارة الأمريكية إليها[(٥٠)]، بل رفض ماكرون طلب الرئيس عباس –عندما ذهب إلى باريس مباشرة بعد إعلان ترامب– باعتراف فرنسي بدولة فلسطين ليكون مشجعًا لباقي دول أوروبا أن تحذو حذوها وتفتح الباب أمام محادثات السلام المتوقِّفة، وبرَّر ماكرون رفضه بأن الاعتراف الفردي لن يفيد وأن المطلوب هو اعتراف أوروبي جماعي[(٥١)].

واكتفى ماكرون بعد إعلان ترامب عن صفقة القرن في يناير ٢٠٢٠ بالإعلان عن شروع فرنسا في دراسة خطة السلام بعناية والعمل مع الولايات المتحدة والأطراف الأوروبية في إطار ذلك، بل وتعمد ماكرون التلاعب بالألفاظ في تصريحاته لكسب ود الجميع حيث علق على خطة ترامب بأن فرنسا ما زالت متمسِّكة بحلِّ "السيادتين" بدلًا من "الدولتين" وهو ما يحمل دلالة واضحة[(٥٢)].

وظلَّ ماكرون يتظاهر بممارسة دور في القضية الفلسطينية من إعلانه عزم فرنسا على إطلاق مبادرات سلام والتواصل مع إسرائيل من أجل إيجاد حلٍّ عادلٍ يحترم القانون الدولي، ودعوته للرئيس محمود عباس إلى فرنسا في أغسطس ٢٠٢٠ لاستئناف المشاورات[(٥٣)]، وحرصه في زيارة الرئيس السيسي الأخيرة لباريس في ديسمبر ٢٠٢٠ على بحث القضية الفلسطينية وسبل عقد مؤتمر لإحياء عملية السلام في الشرق الأوسط من جديد في ظلِّ الإدارة الأمريكية الجديدة[(٥٤)].

يمكن القول، إن ماكرون يحاول الجمع ما بين الحفاظ على العلاقات مع الولايات المتحدة وإسرائيل من ناحية، وعدم خسارة شعبية فرنسا في المنطقة العربية من ناحية أخرى، فكانت المحصلة هو عدم التوصُّل إلى حل وغياب فاعلية التأثير، وعلى الرغم من ذلك يرى البعض –السلطة الفلسطينية وعدد من الأطراف العربية– أن الموقف الفرنسي من القضية الفلسطينية متقدِّمًا، حتى وإن كان لا يلبِّي طموحات وآمال الشعب الفلسطيني، مقارنة بالموقف الأمريكي المتحيِّز بالكامل للجانب الإسرائيلي[(٥٥)].

٦) لبنان:

ترجع العلاقات الفرنسية اللبنانية إلى سقوط الدولة العثمانية وتقسيمها بعد الحرب العالمية الأولى لتكون لبنان من نصيب فرنسا التي استمرَّ الانتداب الفرنسي عليها ما يقرب من ٢٥ عامًا حتى حصلت على استقلالها عام ١٩٤٣، وكان لفرنسا دور واضح في تأسيس دولة لبنان وترسيم حدودها مع سوريا، وأن يقوم نظامها السياسي على أساس طائفي حيث اشترطت فرنسا أن تكون النسبة الأكبر من مقاعد البرلمان للطائفة المسيحية وأن يكون منصب رئيس الجمهورية لمسيحي ماروني[(٥٦)].

---

(٥٠) أرليت خوري، موقف ماكرون من خطة السلام يثير قلقًا وحيرة في الأوساط العربية، INDEPENDENT عربية، ٢ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/KNhrR

(٥١) ميشال أبو نجم، ماكرون في القدس: النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي حاضر والجهود السياسية غائبة، مرجع سابق.

(٥٢) أرليت خوري، موقف ماكرون من خطة السلام يثير قلقًا وحيرة في الأوساط العربية، مرجع سابق.

(٥٣) ميشال أبو نجم، ماكرون في القدس: النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي حاضر والجهود السياسية غائبة، مرجع سابق.

(٥٤) تجاوزات تركيا تتصدَّر أجندات لقاء السيسي وماكرون في باريس، موقع العرب، ٥ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/6i3JC

(٥٥) د. زياد مدوخ، الموقف الفرنسي في مواجهة السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية القدس أنموذجا، موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٨ أغسطس ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4T4W7

(٥٦) ماري زعرور حنا، من التأسيس إلى الاستقلال وحتى انفجار مرفأ بيروت: تاريخ العلاقات الفرنسية اللبنانية، موقع فرنسا ٢٤، ٧

شهدت العلاقات الفرنسية اللبنانية بعد الاستقلال ولعقود طويلة فتورًا شديدًا حتى استغلّت فرنسا حادثة انفجار المقر العام للكتيبة الفرنسية في لبنان ١٩٨٣ لعودة العلاقات بين البلدين، وهو ما اتخذه الرئيس فرانسوا ميتران حجة لزيارة لبنان –وهي الزيارة الأولى لرئيس فرنسي بعد استقلال لبنان– والتمهيد لتوطيد العلاقة معها، ومنذ ذلك الحين كان لفرنسا دور واضح في لبنان وصلت لأوجها في ٢٠٠٥ حيث علاقة الصداقة التي جمعت بين الرئيس جاك شيراك والرئيس رفيق الحريري، حتى تولّى ماكرون الرئاسة في ٢٠١٧ وكان توطيد العلاقة مع لبنان محطّ اهتمامه وهو ما جعله يبذل جهدًا في عودة سعد الحريري من الرياض بعد أن أعلن استقالته من منصبه، ورعاية فرنسا لعدد من المؤتمرات لدعم لبنان المثقل بالديون(٥٧).

قد تكون العلاقات التاريخية مفسِّرة لسرعة ردود الأفعال الفرنسية على حادث انفجار مرفأ بيروت، حيث كان ماكرون أول رئيس يزور لبنان وبدت الزيارة مفاجأة للجميع من حيث السرعة، فهي جاءت بعد يومين من الانفجار الذي دمَّر مرفأ بيروت وعددًا كبيرًا من أحيائها في ٤ أغسطس ٢٠٢٠، بل تكرَّرت زيارة الرئيس ماكرون لبيروت بعد مدَّة قصيرة للغاية تحديدًا في ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، أما من حيث الدوافع الآنية المفسِّرة لسرعة وتعدُّد زيارات ماكرون لبيروت بعد حادث الانفجار هو حرص فرنسا على غلق الباب أمام أي محاولة لتدخُّل تركي يضرُّ بنفوذ فرنسا في لبنان ومنطقة شرق المتوسط أو أن تشهد لبنان انهيارًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا –في ظل تحميل حزب الله مسؤولية تخزين المواد المتفجِّرة وهو ما قد يفجِّر صراعات دينية ومذهبية خاصَّة وأن معظم الأحياء المتضرِّرة مسيحية– يخلق واقعًا جديدًا تخسر فرنسا نفوذها فيه(٥٨).

تدرك فرنسا أن الحفاظ على استقرار لبنان شرط لضمان مصالحها ونفوذها فيه، وهو ما جعلها حريصة على أن تتحاور وتعمل جنبًا إلى جنب مع كافَّة الأطراف بلا أيِّ مصادمات حتى مع حزب الله، فكانت فرنسا الدولة الغربية الوحيدة التي امتنعت عن تصنيف حزب الله كمنظمة إرهابية، فهي تدرك مدى أهمية وقوة حزب الله السياسية والحزبية في لبنان، وبرَّرت ذلك بأنه لا يمكن وضع حزب لبناني ممثَّل في الحكومة على قائمة الإرهاب وأنها تفرق بين جناحه السياسي الذي يمكن التواصل معه وجناحه العسكري، فبدون التحاور والتفاوض مع حزب الله لن يسمح للشركات الفرنسية بالتنقيب عن النفط على ساحل البحر المتوسط، وهو ما جعل فرنسا حريصةً على المناورة والتواصل والتفاوض مع كافَّة الأطراف اللبنانية والتأثير فيها حتى تتمكَّن من تمرير أهدافها وسياستها(٥٩).

هذا من حيث توقيت الزيارة ومبرِّراتها، أما من حيث مضمون الزيارة فلم تكن زيارة ماكرون لبيروت زيارة قائد غربي لدولة عربية بل بدت كزيارة لمسؤول محلي يتفقَّد الحطام الناتج عن التفجير ويصدر تعليماته للمسؤولين ويوجِّه لهم رسائل جافة وحازمة كما لو كان يتجوَّل في شوارع باريس، ولن نكون مبالغين إذا وصفنا تجوُّله في شوارع بيروت وأحياءها المنكوبة بالقائد الشعبي الذي لاقى ترحيبًا شعبيًّا وهتافات مدوية "تحيا فرنسا" ومطالب من المواطنين باتخاذ خطوات جدِّيَّة نحو إنهاء نظام الحكم القائم على المحاصصة باعتباره المسؤول عن الدمار الذي لحق بها

أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/nWr2X

(٥٧) المرجع السابق.

(٥٨) وحدة الدراسات السياسية، تقدير موقف: زيارة ماكرون لبيروت.. الدلالات والدوافع، المركز العربي للأبحاث ودراسة الدراسات، ٨ سبتمبر ٢٠٢٠، ص٢، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4gTXe

(٥٩) وحدة الرصد والتحليل، تقدير موقف: التحركات الفرنسية في المنطقة.. الدوافع والأبعاد، مرجع سابق، ص ٥.

والفساد والكوارث الذي تشهده البلاد، ووصل الأمر إلى مطالبة البعض منهم بعودة الانتداب الفرنسي وتوقيع ٥٥ ألف مواطن لبناني على عريضة تطالب بذلك، حيث إن هناك حالة من الاستنفار الشعبي من القيادة السياسية اللبنانية وأدركوا أنهم في حاجة إلى أن تتولَّى قوة من الخارج زمام أمورهم(٦٠).

وألقى ماكرون خطابًا عاطفيًّا مؤثِّرًا وجَّهه للشعب اللبناني استخدم فيه كلمات عربية ليعلن عن دعم فرنسا ووقوفها إلى جانب الشعب وتحميل قادة لبنان مسؤولية ما حدث ودعاهم إلى مكافحة الفساد وإجراء إصلاحات سياسية واقتصادية(٦١)، كما قام بزيارة لفيروز إحدى رموز الشعب اللبناني ومنحَها وسامًا، وقابل المطربة ماجدة الرومي ليطمئنها على مستقبل لبنان!

وأرسلت فرنسا إلى لبنان طائرة على متنها عمال للمشاركة في أعمال التطهير وإزالة بقايا التفجير، وثلاث طائرات للمساعدة في عمليات البحث والإنقاذ والتنقيب عن الضحايا في مناطق التفجير، وعيادات طبية متحركة لمعالجة الجرحى، وسفنًا وطائرات محمَّلة بنحو ١٠٠ طن من الأدوية والمواد الإغاثية والغذائية والمساعدات الإنسانية وتجهيزات البناء(٦٢).

ودعا الرئيس الفرنسي إلى مؤتمر دولي لمساعدة لبنان وقد تمَّ تخصيص ٢٥٠ مليون يورو في المؤتمر لصالح إعادة إعمار لبنان بلغت حصة فرنسا فيه ٣٠ مليون يورو، وكان هدف فرنسا هو أن يكون النصيب الأكبر من خطة الإعمار لصالح الشركات الفرنسية من أجل إنعاش الاقتصاد الفرنسي، بالإضافة إلى وصول ما يقرب من ٧٥٠ جنديًّا فرنسيًّا ووزيرة الجيوش الفرنسية للترويج لخطة الإصلاحات الفرنسية، وبرز دور مدير المخابرات الفرنسية في الإشراف على تنفيذ الخطة الفرنسية، والغريب أنه لم يقم بهذا الدور سياسيُّون ودبلوماسيُّون فرنسيُّون كما هو معتاد، بل عُهد به إلى عسكريّين واستخباراتيّين، وهو ما يعني أن حضور فرنسا أبعد من مساعدة لبنان على تجاوز الأزمة الاقتصادية والسياسية وتقديم مساعدات إغاثية(٦٣)، ففرنسا ليس لديها قدرة على إخراج لبنان من ورطتها الاقتصادية نظرًا لوضع فرنسا الاقتصادي المرير، كما أن الحلول التي كثيرًا ما يقترحها ماكرون لا يمكن لها أن تحل تعقيدات الأزمة السياسية اللبنانية(٦٤).

ومن هنا نجد أن فرنسا تبحث عن وجود عسكري لها في لبنان من أجل تعزيز نفوذها في شرق المتوسط، فلبنان هي بوابة المتوسط؛ لذا وجد ماكرون في الأزمة اللبنانية فرصة لتعزيز دور فرنسا في صراعها المرير مع تركيا حول منطقة شرق البحر المتوسط وثرواته(٦٥)، كما أنها تضمن حصص شركة توتال الفرنسية في التنقيب عن الغاز –في ظل تنافسها مع شركة إيني الإيطالية ونوفاتيك الروسية– خاصة بعد أن بدأت المفاوضات بين الجانبين اللبناني والإسرائيلي حول ترسيم الحدود البحرية في منطقة المتوسط، وأن يكون لفرنسا دور في هذه المفاوضات ولا تتركها برمَّتها للوساطة الأمريكية التي أعلنت رعايتها للمفاوضات حتى لا

(٦٠) قسم المتابعة الإعلامية، انفجار بيروت: ما الرسالة التي تحملها زيارة ماكرون إلى لبنان؟، موقع BBC عربي، ٧ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QmQeG

(٦١) خطاب الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون من بيروت، Al Jadeed News، ٦ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WXVrv

(٦٢) وحدة الدراسات السياسية، تقدير موقف: زيارة ماكرون لبيروت.. الدلالات والدوافع، مرجع سابق، ص ص ١–٣.

(٦٣) المرجع السابق، ص ص ١–٣.

(٦٤) وحدة الرصد والتحليل، تقدير موقف: التحركات الفرنسية في المنطقة.. الدوافع والأبعاد، مرجع سابق، ص ٦.

(٦٥) وحدة الدراسات السياسية، تقدير موقف: زيارة ماكرون لبيروت.. الدلالات والدوافع، مرجع سابق، ص ص ١–٤.

تغيب الشركات الأمريكية عن طاولة الغاز وتتركها للشركات الفرنسية والروسية والإيطالية[٦٦].

كل هذا دفع فرنسا إلى أن تكون أول الساعين إلى إعادة بناء مرفأ بيروت لتؤمِّن لنفسها نقطة ارتكاز على شاطئ البحر المتوسط، وهو ما يهمها، فهي ليس لديها القدرة على إيجاد حلول لمشاكل لبنان بل على العكس تزج بها في أزمات إقليمية بعيدًا عن مطالبها الحقيقية من تمكين الدولة على تجاوز أزماتها الداخلية والقضاء على الفساد ونظام المحاصصة الطائفية –فمهما عارض ماكرون نظام المحاصصة فهي مجرد تصريحات ولن يسعى إلى إنهائه لأنه يصبُّ في صالح الموارنة حلفاء فرنسا في لبنان– والاستفادة من خيرات وثروات لبنان لتحسين أوضاعها الاقتصادية[٦٧].

ثانيًا– فرنسا والمسلمون:

تكاثرت أحاديث وتصريحات ماكرون عن الإسلام منذ توليه لرئاسة فرنسا، فلم يكن حديثه في ٢ أكتوبر ٢٠٢٠ هو الأول من نوعه –بل سبقه خطاب مماثل في فبراير ٢٠٢٠ بمدينة ميلوز الفرنسية– عن الإسلام والمسلمين، فهو يرى أن الدين الإسلامي يمرُّ بأزمة في فرنسا وكافة أنحاء العالم، وتحدث عن الانعزالية الإسلامية وأوضاع الأقليات المسلمة في فرنسا –التي يقدَّر تعدادها بحوالي ستة ملايين نسمة– ونظرته لهم على أنهم يشكِّلون خطرًا، فهم دولة داخل الدولة يسعون إلى استخدام الدين الإسلامي من أجل تأسيس مشروع واقعي واستراتيجي يهدف إلى الانفصال عن الجمهورية الفرنسية وإرساء قوانين جديدة –تأسيس مجتمع مضاد– ودلَّل على ذلك بأن هناك جمعيات ومدارس داخل فرنسا تقوم بممارسات متطرفة وتمنع الاختلاط وتدرِّس الدين وتتلقَّى تمويلًا من الخارج[٦٨].

حاول ماكرون أن يخفِّف من العنصرية والكراهية التي يحملها خطابه، حيث حمَّلَ الحكومةَ الفرنسية جزءًا من المسؤولية، فبفضل السياسات الحكومية نشأت ظاهرة المجتمعات المنغلقة والأحياء المنفصلة التي جمعت السكان بناءً على أصولهم، الأمر الذي لم يوفِّر فرصة الاختلاط والاندماج وحرمانهم من التدرُّج الاجتماعي والاقتصادي، وواصل ماكرون حديثه عن الخطوات الجادَّة التي يجب أن تتَّخذها الدولة تجاه ظاهرة الانعزال الإسلامي، وعبَّر في إطار ذلك عن خطَّته لإيجاد إسلام فرنسي منفتح على الآخر ومتوافق مع قيم الجمهورية الفرنسية ونظامها العلماني وقابل للتعايش مع المجتمع الفرنسي، وتتضمَّن الخطة خمسة محاور أساسية وهي: حيادية المرافق العامة أمام الممارسات الدينية، وفرض الرقابة على الجمعيات الدينية، وإلغاء نظام التعليم في المنازل المنتشر في الأحياء التي يسكنها مسلمون من أصول مختلفة، والتوقُّف عن الاستعانة بأئمة من الخارج، وتنشئة أئمة يؤمنون بالقيم الفرنسية، وأكَّد على صياغة هذه المحاور في قانون تكون له قوة إلزامية للسلطات المحلية والمركزية[٦٩].

واستنتج البعض أن الهدف من تصريحات ماكرون هو البحث عن عدو وهمي "الإسلام" ليغطِّي على أزمته السياسية والاقتصادية والتظاهرات والحركات الاحتجاجية التي تخرج مندِّدة بسياساته، وأن يكون ذلك مدخلًا لجذب متعاطفين معه في حملته الانتخابية أمام اليمين المتطرف الذي يحظى بشعبية وكتلة انتخابية كبيرة.

---

(٦٦) إيهاب عمر، كيف نقرأ بدء مفاوضات ترسيم الحدود بين لبنان وإسرائيل؟، المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EEbIw

(٦٧) وحدة الدراسات السياسية، تقدير موقف: زيارة ماكرون لبيروت.. الدلالات والدوافع، مرجع سابق، ص ص ١–٤.

(٦٨) علاء الدين بونجار، ماكرون يرغب في صحوة جمهورية ضد التطرف والتأسيس لإسلام تنويري، موقع مونت كارلو الدولية، ٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/kapg0

(٦٩) د. حسن أبو طالب، ماكرون والإسلام الفرنسي: حدود المسؤولية المشتركة، موقع جريدة الشرق الأوسط، ٦ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/PqBvM

فكان الدين الإسلامي كبش الفداء، الذي اتّهمه عن جهل وعدم معرفة بما يدعو إليه من تسامح وتعايش مشترك مع معتنقي الديانات الأخرى، وتناسى أن النزعات الانفصالية لمسلمي فرنسا وأوروبا ترجع إلى سياساتهم الخاطئة التي حرمت المسلمين من الخدمات العامة وسوء أوضاعهم، وهو ما أدَّى إلى شعور بالانفصال عن المجتمع وغضب تجاه المؤسسات التي تنكر عليهم حقوقهم وهو ما يولد متطرفين يعادون الدولة وقيمها، فبدلًا من أن يقوم ماكرون بإلقاء الاتهامات التي تسبَّبت في زيادة مشاعر الغضب والكراهية والتضييق على الجاليات المسلمة في فرنسا وملاحقة أئمة المساجد والجمعيات الإسلامية وإغلاق البعض منها، كان عليه أن يقوم بحوار معمَّق مع ممثِّلي المسلمين الفرنسيِّين وإعادة فهم الدين الإسلامي بعيدًا عن التفسيرات الخاطئة والمقولات العدائية وإعادة تدريس اللغة العربية في المدارس العامة والتعرُّف على رموز الفكر الإسلامي ونتاجهم العلمي وتصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين[٧٠].

لم يُثر خطاب ماكرون عن الإسلام الغضب في عواصم الدول العربية والإسلامية مثلما أثار خطابه الأخير خلال حفل تأبين المدرس الفرنسي في ٢١ أكتوبر ٢٠٢٠ –الذي قُتل على يد طالب مسلم– والذي صرَّح فيه بعدم تخلِّي فرنسا عن الرسوم المسيئة للرسول التي إن أغضبت البعض فهي تعبِّر عن قيم الجمهورية العلمانية المتعلقة بحرية الرأي والتعبير[٧١]، وهو ما اعتبره المسلمون إشارة إلى تمسُّكه بازدراء الدين الإسلامي وإهانة رسوله، ولم يتوقَّف الأمر هنا، بل تمَّت إعادة نشر الرسوم المسيئة على مباني حيوية بفرنسا.

(٧٠) المرجع السابق.

(٧١) مراسم التأبين والتكريم الوطني للمعلم الفرنسي صامويل باتي بجامعة السوربون في باريس، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، فيديو من قناة فرنسا ٢٤ على موقع يوتيوب، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/x2Ej7

أدانت كافة الدول العربية والإسلامية تصريحات ماكرون من خلال وزراء خارجيتها ومؤسساتها الدينية حيث اعتبروها إساءة للإسلام والمسلمين ورسائل استفزازية لمشاعر ١,٩ مليار مسلم تحت شعار حرية الرأي والتعبير وهو ما يعزِّز خطاب الكراهية ويسيء للعلاقات الفرنسية مع دول العالم الإسلامي، ووصف الإرهاب بالإسلامي في الوقت الذي تشهد فيه فرنسا وعدد من العواصم الأوروبية هجمات إرهابية يقوم بها أنصار اليمين المتطرف على الجاليات الإسلامية ولا تخرج تصريحات عن مسؤولين تندِّد بها وتصفها بالإرهاب –فقد تعرَّض مسجدان في فرنسا لهجومين إرهابيَّيْن في مدينتي بريست وبايون– وهو ما يعني أنها تصريحات تستهدف في مجملها الإسلام والمسلمين وليس محاربة التطرُّف كما تدَّعي[٧٢].

كان لتصريحات ماكرون تأثيرات سلبية أضرَّت بالسياسة الفرنسية في المنطقة العربية ومصالحها، حيث دعا بعض قادة الدول الإسلامية وعلى رأسهم أردوغان إلى تدشين حملة لمقاطعة المنتجات الفرنسية، وهي الدعوة التي وجدت صداها بين الأوساط الشعبية التي تبنَّتها وقامت بتطبيق المقاطعة والعزوف عن المتاجر والبضائع الفرنسية[٧٣]، كما نتج عن التصريحات وقوع عدد من الحوادث الإرهابية التي استهدفت مؤسسات وشخصيات فرنسية منها حادثة كنيسة نيس في ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠ حيث قام شاب تونسي بطعن امرأة ورجلين في محيط الكنيسة[٧٤]، واستهداف مقابر غير المسلمين في جدة بعبوة

(٧٢) معتز ممدوح، مغازلة الشعبوية: أزمة الإسلام في فرنسا أم أزمة ماكرون؟، موقع إضاءات، ١٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/9psaZ

(٧٣) أردوغان يدعو لمقاطعة المنتجات الفرنسية: ماكرون يحتاج لعلاج عقلي، موقع CNN بالعربية، ٢٦ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/uvoJP

(٧٤) قسم المتابعة الإعلامية، هجوم نيس: من يتحمل مسؤولية الهجوم الذي وقع في كنيسة نيس في فرنسا؟، موقع BBC عربي،

ناسفة في ١١ نوفمبر ٢٠٢٠ أثناء حضور وفود دبلوماسية مراسم إحياء ذكرى انتهاء الحرب العالمية الأولى التي نظَّمتها السفارة السعودية وكانت بحضور القنصل الفرنسي، وجاء ذلك بعد أيام قليلة من الهجوم على حارس أمن القنصلية الفرنسية في جدة(٧٥).

كان هذا دافعًا لقيام ماكرون بإجراء مقابلة مع قناة الجزيرة في ٣١ أكتوبر ٢٠٢٠ لتوضيح موقفه وتقديم الاعتذار بشكل غير مباشر للعالم العربي والإسلامي الغاضب من تصريحاته –التي أضرَّت بالمصالح الفرنسية في المنطقة العربية– والتراجع عنها، حيث قال إنه يتفهَّم مشاعر الغضب والاستياء إزاء الرسوم المسيئة للرسول، لكنه لا يتبنَّى هذه الرسوم فهي صادرة عن صحيفة شارل إيبدو وهي صحيفة حرة مستقلة غير حكومية لا تعبر عن رأي الدولة والحكومة بل هي صحيفة ساخرة لا تعادي الإسلام بالأخص بل تقوم برسم كاريكتور مماثل عن رموز الدين اليهودي والمسيحي وزعماء وقادة دول وعلى رأسهم ماكرون(٧٦).

وأضاف ماكرون أنه لا يحمل أيَّ توجُّهات عدائية تجاه الإسلام، بل إن تصريحاته فُهِمت خطأ، فكان المقصود هو أنه يوضِّح موقفه كمسؤول أمام الشعب الفرنسي عن احترام وحماية قيم وقوانين الجمهورية الفرنسية العلمانية والتي من أهمها حرية الرأي والتعبير المكفولة للجميع(٧٧)، وكان ماكرون حريصًا على أن تصل رسالته للشعوب الإسلامية

٣٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/0CZWN

(٧٥) السعودية: عدة إصابات في اعتداء بعبوة ناسفة استهدف مقبرة لغير المسلمين في جدة، موقع فرنسا ٢٤، ١١ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QFbPb

(٧٦) لقاء الرئيس ماكرون على قناة الجزيرة، فيديو على موقع يوتيوب، ٣١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/VoyfJ

(٧٧) المرجع السابق.

ممَّا جعله يقوم بنشر مقتطفات من حواره مع قناة الجزيرة باللغة العربية على حسابه على الفيس بوك وتويتر.

وفي محاولة أخرى من فرنسا لتهدئة الرأي العام العربي والإسلامي الغاضب، وتفادي الخسائر السياسية والاقتصادية التي جنتها فرنسا من وراء تصريحات ماكرون، قام وزير الخارجية الفرنسي جان إيف لودريان بإجراء زيارة إلى مصر في ٨ نوفمبر ٢٠٢٠ لتوضيح موقف فرنسا والحرص على مقابلة شيخ الأزهر ليؤكِّد على احترام بلاده العميق للإسلام ورموزه ومقدَّساته وأن الهدف هو محاربة الإرهاب والتطرُّف(٧٨).

خاتمة:

يمكن أن نستخلص في الخاتمة أمرين فيما يتعلق بمآلات السياسة الفرنسية في المنطقة العربية:

- الأمر الأول هو أنه في كل مرة كانت تحاول فيها فرنسا البحث عن دور لها في الشرق الأوسط كقوة عظمى وترفع من مستوى انخراطها في قضايا المنطقة، كانت تصطدم بدول وقوى إقليمية ودولية تقف أمام طموحها وتعيدها إلى ما كانت عليه، والأمثلة على ذلك لا حصر لها منها:

– فشل ماكرون في أن يُدخل مبادرة تسوية الوضع في ليبيا بين حكومة فايز السراج والمشير حفتر حيز التنفيذ –التي سبق وطرحها بعد توليه للرئاسة بشهرين– نتيجة لعدم رضاء إيطاليا.

– حاولت فرنسا تعزيز العلاقات مع إيران من خلال الدفاع عن الاتفاق النووي الإيراني وفي الوقت ذاته الحفاظ على العلاقات الودية مع السعودية، لكنها أخفقت في تحقيق ذلك حيث رأت كلٌّ من السعودية وإيران أن هناك تناقض في الموقف الفرنسي.

(٧٨) وزير خارجية فرنسا يؤكد من مصر احترام بلاده "العميق للإسلام"، موقع دويتشه فيله، ٨ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/a7Uau

- رغبت فرنسا في أن تجد لها دورًا في الملف السوري فاضطرَّت إلى التخلِّي عن شرطها السابق بضرورة تنحِّي الأسد، وعلى الرغم من ذلك لم تلق ترحيبًا من سوريا ولم تولِها روسيا أي اهتمام، حيث فضَّلت التحاور مع الولايات المتحدة فيما يتعلَّق بالشأن السوري.

- كانت الذاكرة الاستعمارية عائقًا أمام محاولات فرنسا المستمرَّة لتطوير العلاقات مع دول المغرب العربي وخاصة الجزائر.

- لم يقدم ماكرون أي جديد -بفضل التعنُّت الإسرائيلي وغياب التكاتُف العربي- في ملف الصراع العربي الإسرائيلي بل حرص على إعلاء أسهم النفوذ الفرنسي في المنطقة[٧٩]، مستغلًّا تخلِّي إدارة ترامب عن حلِّ الدولتين والانخراط في سياسة مساندة تمامًا لإسرائيل على نحو غير مسبوق لم تشهده الإدارات الأمريكية السابقة وانشغال بريطانيا بملف الخروج من الاتحاد الأوروبي والتفات ألمانيا لشؤونها الداخلية.

وأخيرًا، عصفت التصريحات الأخيرة لماكرون عن الإسلام بكافة الجهود الفرنسية في المنطقة ومحاولاتها لممارسة دور في كافة القضايا والملفات العربية.

● والأمر الثاني هو أنه لا يمكن للتحركات الفرنسية في المنطقة أن تكون سبيلًا لحل أزمات فرنسا الداخلية أو إيجاد حل لمشاكل المنطقة أو حتى تمكِّن فرنسا من استعادة دورها القديم كقوة عظمى، حيث ارتفعت أصوات معارضة في الداخل بعد تدخُّل ماكرون في لبنان ومساندته لقوى الاستبداد في ليبيا وانتقاداته المستمرَّة للدور التركي في منطقة المتوسط وهو ما اعتبرته المعارضة الفرنسية استعادة للوصاية الاستعمارية بشكل يسيء لسمعة فرنسا كدولة ديمقراطية، كما أن مشاكل المنطقة أصبحت على درجة عالية من التعقيد بشكل لم يعد يتناسب معه التوجُّه الاستعماري، أضف إلى ذلك التغيرات التي طرأت على النظام العالمي ككل وبروز قوى أخرى غير غربية وهو ما يغير من شروط المساومات والاتفاقات في المنطقة[٨٠].

*****

(٧٩) ماكرون الحائر بين تناقضاته: هل ينجح في الشرق الأوسط؟، موقع إضاءات، ٣ يناير ٢٠١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NEfx2

(٨٠) وحدة الرصد والتحليل، تقدير موقف: التحركات الفرنسية في المنطقة.. الدوافع والأبعاد، مرجع سابق، ص ٨.



تركيا وأزمة الطاقة شرق المتوسط السياقات والتداعيات الإقليمية والدولية

محمود مؤمن(*)

مقدمة:

ارتبطت أزمة شرق المتوسط التي ظهرت مؤخرًا، منذ اكتشافات الغاز على ساحل (حوض) البحر الأبيض المتوسط في أواخر عام ٢٠١٠، بالسلوك التركي في هذه المنطقة؛ فتركيا منذ علمت بهذه الاكتشافات رأت فيها فرصة استراتيجية لإعادة التوازن بين الاعتماد على مصادر الطاقة المستوردة من الخارج والمنتَجة محليًا، فمع كل اكتشاف لآبار جديدة في هذه المنطقة أخذت تتخلخل توازنات القوى السائدة المتعلقة بالأساس بترسيمات الحدود البحرية بين دول الجوار وبعضها البعض، وبينها وبين تركيا، وتقسيم المنطقة الاقتصادية الخالصة، وبدور تركيا وموقعها وعلاقاتها بدول شرق المتوسط، التي يمكن القول إنها فقدت آخر حليف سياسي لها في المنطقة بعد أحداث ٢٠١٣ في مصر، ومعها أضحت علاقات أنقرة بكل دول جوارها في هذه المنطقة علاقة بين خصوم. بعد هذا الحدث المفصلي في المنطقة دخلت آبار الغاز حيز الإنتاج في ٢٠١٥، وثبت فعلًا حجم الاحتياطات المؤكدة في هذه المنطقة.

تأكدت مع ذلك مكانة شرق المتوسط في الإدراك الاستراتيجي التركي، وعمدت تركيا بكافة السبل للتداخل في قضايا وصراعات المنطقة الدائرة، من الصراع بين القبرصيين، والأزمة الليبية، والسورية؛ سعيًا لتحسين موقعها التفاوضي وتعزيز حقوقها في اكتشافات شرق المتوسط الغازية، إن لم يكن بمنطق الحقوق القانونية وبمقتضى القانون الدولي، فمن منطق فرض الأمر الواقع.

أثارت هذه التحركات التركية عددًا من الأسئلة: ما طبيعة استراتيجية الطاقة التركية في شرق المتوسط؟ ما موقع تركيا ودورها في تفاعلات شرق المتوسط المتعلقة بالغاز؟ وكيف يمكن أن تؤثر على علاقاتها بدول الإقليم والقوى العظمى؟ وما مستقبل هذه الأزمة في ظل التغيرات التي طرأت بعد اكتشافات الغاز من تكون منتدى غاز شرق المتوسط وفوز بايدن بالرئاسة الأمريكية؟

تأسيسًا على هذه التساؤلات، ينقسم التقرير إلى ثلاثة محاور وخاتمة: المحور الأول يتناول أبرز معالم الرؤية الاستراتيجية التركية في شرق المتوسط فيما يتعلق بالطاقة، وكيف يمكن فهمها من منطلق نظريات العلاقات الدولية، أما المحور الثاني فيتناول التفاعلات التركية في شرق المتوسط وطبيعة علاقاتها مع دول الإقليم قبل وبعد اكتشافات الغاز وتداعياتها الإقليمية، أما المحور الثالث فيتعاطى مع تداعيات التحركات التركية في هذه المنطقة على علاقتها بالدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة وروسيا، أما الخاتمة فتحاول الإجابة عن سؤال: ماذا ننتظر في شرق المتوسط وعن دور تركيا فيه؟

أولًا- استراتيجية الطاقة التركية شرق المتوسط:

تمثل قضايا الطاقة ومصادرها قضية أساسية لدى كل دولة، وتزداد أهميتها بازدياد أهمية الدولة وقوتها، وطموحاتها في المجالين الإقليمي والدولي. ومن ثمّ أضحت للمسائل المتعلقة بالطاقة أهمية كبرى لدى الدول الصناعية، ليس لكونها أساس القاعدة الاقتصادية والعسكرية فحسب، ولكن لأهميتها في تحديد قوة الدولة ووضعها العالمي[١].

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) محمد جاسم الخفاجي، روسيا ولعبة الهيمنة على الطاقة: رؤية في الأدوار والاستراتيجيات، دار أمجد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص ١١.

ولذلك ترتبط الطاقة بمفاهيم الأمن القومي مثلما ترتبط بمفاهيم المكانة والدور.

وتُعد مسائل الطاقة في تركيا على درجة كبيرة من الحساسية بسبب اعتماد تركيا بالأساس على استيراد ٧٥% من احتياجات الطاقة، فتستورد ما يقرب من ٩٨% من استهلاكها من الغاز، و٩٠% من استهلاكها من النفط، معتمدة بصورة أساسية على استيراد ٢٣,٠٩% من العراق، و١٩,٣٨% من روسيا، و١٧,٣٢% من إيران، و٤٠,٢١% موزعة على موردين آخرين.(٢)

وبناءً على ذلك، وضعت تركيا أمن الطاقة كمحدد رئيس في سياستها الخارجية وعلاقاتها الدولية، وتوضح النقاط التالية أبرز معالم الرؤية الاستراتيجية التركية في مجال الطاقة:(٣)

(١) الاعتماد على عدد محدود من موردي الطاقة (وبخاصة روسيا وإيران) لا يحقق الاستقرار في أمن الطاقة التركي.

(٢) لا يمكن لتركيا أن تصبح من بين الدول العشرة الأقوى اقتصاديًا من دون أمن الطاقة.

(٣) أضحى تنويع مصادر الطاقة ووارداتها من عدد كبير من الدول والمناطق هدفًا رئيسًا في استراتيجية الطاقة التركية.

(٤) ضرورة الاعتماد على مصادر طاقة جديدة منتجة محليًا (تنويع مزيج الطاقة)، مع إضافة الطاقة النووية إلى مزيج الطاقة التركي، ورفع كفاءة قطاع الطاقة لديها.

(٥) نظرًا لاعتماد تركيا على استيراد الطاقة، هدفت تركيا التحول إلى مركز رئيس لتجارة الطاقة Energy HUB في منطقتها من خلال الاستفادة من حجم سوقها في الطاقة، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي.

(٦) أن تركيا بحكم موقعها تقع على مقربة من أكثر من ٧٠% من احتياطات النفط والغاز المؤكدة في العالم.

ومن هنا جاءت اكتشافات شرق المتوسط الغازية(٤) بمثابة فرصة استراتيجية بالنسبة لتركيا، ليس فقط لتنويع مصادر الطاقة بإدخال موردين جدد، ولكن لإمكانية أن تكون هي ذاتها منتجة للغاز محليًا، عن طريق الاستفادة من سواحلها المطلة على البحر المتوسط، ومن ثم تقليل حساسية أنقرة تجاه قضايا الطاقة لا سيما مع طهران وموسكو(٥). فأكدت موقعها في هذه الاكتشافات عن طريق التداخل في كافة الصراعات الدائرة في الإقليم، سواء الممتدة تاريخيًا مثل الأزمة القبرصية والصراع بين قبرص الشمالية والجنوبية، ونزاعها على بحر إيجه مع اليونان، أو التي نشأت وتطورت مؤخرًا في سوريا وليبيا؛ حيث سعت في أواخر عام ٢٠١٩ إلى توقيع اتفاقية لترسيم الحدود البحرية مع حكومة الوفاق الليبية، تحجز وتحفظ بموجبها

(2) Remziye Yilmaz-Bozkus, Main Determinants Of Turkey's Foreign Oil And Natural Gas Strategy, Journal Of Research In Economics, Politics & Finance, 2018, 3 (2), P. 114.

(٣) للمزيد حول معالم هذه الاستراتيجية، انظر:

Turkey's Energy Profile and Strategy, Republic of Turkey: Minister of Foreign Affairs, Accessed: 9 December 2020, available at: https://cutt.us/k9HsH

(٤) للمزيد حول اكتشافات شرق المتوسط الغازية، وتداعياتها الإقليمية والدولية، انظر:

- أحمد خليفة: "موقع مصر في التفاعلات الإقليمية والدولية بعد اكتشافات شرق المتوسط"، مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر، ٢٠١٩،متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2Zgy6Eg

(5) Remziye Yilmaz-Bozkus, Main Determinants Of Turkey's Foreign Oil And Natural Gas Strategy, op.cit., p117

مزيدًا من حقوق الاستكشاف والتنقيب في شرق البحر الأبيض المتوسط.[٦]

ومن ثم، بدا أكثر من ذي قبل أن تركيا على بعد خطوات صغيرة تجاه تحقيق هدف تأكيد نفسها موزعًا إقليميًا لموارد الطاقة، بما سيعزز أمن الطاقة لديها من ناحية، ويعزز مكانتها الإقليمية وقدرتها على التأثير في الإقليم وأوروبا من ناحية أخرى؛ فكل خط غاز يمر عبر تركيا يمنح "أنقرة قوة تفاوضية"[٧] في مقابل كافة الشركاء الإقليميين: موردين ومستوردين، ويخلق آفاقًا جديدة للدور التركي في العالم.

ويمكن مقاربة سياسة الطاقة التركية وفقًا لمعطيات نظريتي العلاقات الدولية الواقعية والليبرالية على النحو التالي:[٨]

(١) تركيا ترى مسائل الطاقة جزءًا من أمنها القومي، يسهم في تحقيق قوتها الإقليمية، ومكانتها العالمية. وعليه، فالطاقة بالنسبة لها مسألة بقاء، كما أنها تتحول من قوة اقتصادية إلى قوة سياسية، والعكس بالعكس.

(٢) فوضوية النسق الدولي تجعل تركيا قلقة بصورة دائمة من نوايا الآخرين ورغبتهم في كسب المزايا المقارنة ضدها، وهو ما يجعلها في بحث دائم عن بدائل، وتنوع مصادرها.

(٣) ولكن سعي تركيا للتعاون في بعض حركتها يجعل الحديث ممكنًا عن ما تقدمه الليبرالية من تفاعلات بين الدول، وعن إمكانية خلق تركيا لمواقف المكسب للجميع win-win situation.

ثانيًا– التفاعلات التركية شرق المتوسط:

شهد الربع الأخير من عام ٢٠٢٠ ازدياد التوترات في منطقة شرق المتوسط نتيجة اتخاذ تركيا خطوات عملية لبسط نفوذها وسيادتها الإقليمية –وفق أنقرة– من خلال إرسال عدد من سفن التنقيب عن الغاز في مناطق متنازع عليها، وهي الخطوة التي اعتبرتها العديد من دول الإقليم تهديدًا صريحًا لمصالحها القومية.

وفي محاولة لاستكشاف موقع تركيا في منطقة شرق المتوسط واحتياطاتها الغازية، نتعرف في هذا المحور على طبيعة علاقات تركيا مع جيرانها من دول الإقليم، وكيف تعاطت تلك الدول مع التحركات التركية الأخيرة.

أ– علاقات تركيا مع دول شرق المتوسط:

تعد منطقة شرق المتوسط واحدة من أكثر بؤر العالم اشتعالًا بالأزمات والصراعات والحروب، خصوصًا في العقد الأخير، ما سرّع من وتيرة ديناميكية العلاقات بين بلدان تلك المنطقة، والتغير السريع في شبكات التحالفات، ولم تكن اكتشافات الغاز سوى إضافة لهذا المشهد المعقد؛ أي أن السمة المميزة لحالة البحر الأبيض المتوسط هي تعقد وشدة المنافسات الجيوسياسية التي تصاحب نزاعات الطاقة، والتي أدت بدورها إلى تصعيد الصراع –الموجود قبلًا– وترسيخه[٩]، ولم تكن تركيا بعيدة عن هذه التفاعلات، وإنما

---

(٦) ديتشه فيلا: الاتفاق التركي–الليبي.. لماذا تناوش أنقرة القاهرة وحلفائها؟، تاريخ النشر: ٢٩ نوفمبر ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٨ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3qJDPQg

(٧) يمكن الرجوع لمزيد من التفصيل حول مقاربة القوة التفاوضية Bragging Power ودورها وموقعها في السياسة الخارجية التركية إلى:

Sözen, Ahmet, "A Theoretical Evaluation of Different Faces of Power: US-Turkey Relations Towards Iraq", Uluslararası İlişkiler, Volume 6, No 24 (Winter 2010), p. 55-78.

(8) Remziye Yilmaz-Bozkus, Main Determinants Of Turkey's Foreign Oil And Natural Gas Strategy, Op.Cit., P. 124-126.

(9) Tolga Demiryol, Beyond Energy: The Geopolitical Determinants Of Turkey's

كانت فاعلًا فيها بشكل أو بآخر، وذلك على النحو التالي:

- **قبرص:** تاريخيًا، تربط تركيا علاقات متوترة مع جمهورية قبرص اليونانية، بسبب عدم اعتراف الأخيرة بجمهورية شمال قبرص التركية التي تسيطر على ثلث مساحة جزيرة قبرص من جهة، وبسبب مشكلة ترسيم الحدود بين الدول الثلاثة من جهة أخرى. وبالتالي فقد أثر استعصاء المشكلة القبرصية بشكل سلبي على آفاق التعاون في مجال الطاقة في المنطقة؛ حيث تتمسك تركيا فيما يتعلق باحتياطيات الغاز الطبيعي الحالية والمستقبلية للجزيرة بالملكية الجماعية وغير القابلة للتجزئة لهذه الموارد بين شطري الجزيرة، إذ ترفض إصدار أي تراخيص امتياز من قبل القبارصة اليونانيين قبل التوصل إلى تسوية نهائية بين طرفي الجزيرة: اليوناني والتركي، وهو ما أكده بيان الخارجية التركية إذ ينص على أن "الطريقة الوحيدة لاستغلال الموارد الطبيعية للجزيرة" هي "الموافقة الواضحة من الجانب القبرصي التركي فيما يتعلق بتقاسم هذه الموارد الطبيعية".

وعلى الرغم من محاولة قبرص اليونانية استغلال حقل أفروديت في تحسين موقفها على طاولة المفاوضات مع تركيا والقبارصة الأتراك، إلا أنه يصعب عليها إيجاد مزيج مناسب من الحوافز للقبارصة الأتراك من شأنه دفعهم للتوصل إلى حل وسط من دون: أ) تعريض سيادة قبرص اليونانية للخطر، أو ب) الاعتراف قانونًا بـ"الجمهورية التركية لشمال قبرص"، أو ج) تجميد اكتشافاتها في حال كان التوصل إلى حل وسط مع القبارصة الأتراك مستحيلًا. إلا أن هذا التوازن الدقيق يمكن أن يكون مهمة مستحيلة لجمهورية قبرص اليونانية؛ إذ إن سياسات جمهورية شمال قبرص التركية متطابقة تمامًا مع سياسات تركيا في هذا الشأن، بالإضافة إلى رفض الأحزاب القبرصية بالإجماع جميع مطالب القبارصة الأتراك في ظل عدم وجود حل لمسألة قبرص؛ خوفًا مما يعتبرونه عداء تركيا الصريح لمحاولات جمهورية قبرص استثمار إمكاناتها الطاقوية داخل حدودها المرسومة، التي تم إنشاؤها في اتفاقيات المنطقة الاقتصادية الخالصة التي وقعتها نيقوسيا مع جيرانها بعيدًا عن تركيا، وهو ما دفع الأخيرة لاستخدام قوتها العسكرية لردع نيقوسيا وشركة نوبل إنرجي عن القيام بأعمال الحفر الاستكشافية التي اكتشفت حقل أفروديت في سبتمبر ٢٠١١[١٠].

- **اليونان:** لم تكن العلاقات التركية اليونانية أفضل حالًا من مثيلتها مع قبرص، إن لم تكن أسوأ. فاليونان تقليديًا تلعب دور راعي جمهورية قبرص اليونانية؛ حيث تدافع أثينا دائمًا عن المصالح القبرصية اليونانية في سيطرتها على كامل الجزيرة، فضلًا عن مناطقها البحرية، ما يعني أن واقع ومستقبل الجزيرة محكوم بالعلاقات بين اليونان وتركيا.

من جانب آخر، فإن توتر العلاقات التركية اليونانية يرجع بالأساس إلى مشكلة ترسيم الحدود البحرية بين البلدين، والتنازع الحاصل بينهما على بعض الجزر والمناطق البحرية في بحر إيجه الواقع بينهما، وبالتبعية حول المناطق الاقتصادية الخالصة لكل منهما في بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط.

Mediterranean Policy, Foreign Policy Research Institute, November 2020, p.1.

(١٠) للمزيد انظر:
Theodoros Tsakiris and Others, Gas Developments in the Eastern Mediterranean: Trigger or Obstacle for EU – Turkey Cooperation?, FEUTURE Online Paper No. 22, May 2018, p.8-10, available at: https://bit.ly/3oKXZYb

- **إسرائيل**: على الرغم من وجود مصلحة مشتركة ومهمة في إنشاء إطار تعاون إقليمي دائم بين تركيا وإسرائيل بسبب تأثيرهما الجيوسياسي في المنطقة وشراكتهما مع الولايات المتحدة، ودورهما في سوق الهيدروكربونات، إلا أنهما يتمتعان بعلاقات سياسية غير مستقرة ومترددة؛ فمستوى العلاقات بينهما دائم الارتباط بشكل وثيق بطبيعة العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية، بالإضافة إلى دور العلاقات التركية الإسرائيلية في تشيكل السياسة الداخلية لتركيا وصراعها الداخلي العنيد على هويتها، فضلًا عن تأثرها بعلاقة تركيا مع الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تعقدت العلاقات التركية الإسرائيلية منذ عام ٢٠٠٩، عندما نفذت إسرائيل عملية الرصاص المصبوب[١١] في غزة، وهو ما تجلى في "التلاسن" بين رئيس الوزراء التركي آنذاك رجب طيب أردوغان، والرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز، خلال اجتماعات المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس. بالإضافة إلى الهجوم الإسرائيلي على أسطول مافي مرمرة التركي الذي كان يهدف لكسر الحظر الإسرائيلي المفروض على غزة، والذي أدى إلى مقتل تسعة مواطنين أتراك عام ٢٠١٠.

غير أن تلك العلاقة شهدت تطورًا إيجابيًا عام ٢٠١٦ بعد استقالة رئيس وزراء تركيا ومهندس علاقاتها الخارجية، أحمد داوود أوغلو، واعتذار إسرائيل رسميًا عن حادث مرمرة وتعويض أسر الضحايا، وهو ما أدى في الأخير لعودة السفير الإسرائيلي إلى أنقرة. وهو ما يمكن إرجاعه جزئيًا إلى احتمال وجود صفقات في مجال الغاز بين البلدين. ومع ذلك، كانت التجارة بينهما على أساس متين للغاية على مدار سنوات القطيعة؛ فلم ينخفض التبادل التجاري دون مستويات ٢٠٠٨. غير أن العلاقات الدبلوماسية لم تستمر طويلًا؛ حيث طردت تركيا سفير إسرائيل لديها عام ٢٠١٨ احتجاجًا على المذبحة التي اقترفتها إسرائيل بحق الفلسطينيين في قطاع غزة[١٢].

- **مصر**: تزامنت السنوات الأولى من الربيع العربي مع تقارب قوي بشكل خاص بين كل من تركيا ومصر، حيث رأت تركيا فيه فرصة لتعزيز مصالحها في المنطقة. غير أن هذه العلاقة الطيبة بين البلدين تحولت كلية في ٢٠١٣؛ حيث وصفت أنقرة الحكومة المصرية بأنها غير شرعية، وطلبت تركيا من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فرض عقوبات على الحكومة المصرية. وقد تبع ذلك، وبناء عليه، خلاف في العديد من القضايا الإقليمية بين البلدين، مثل الموقف من النظام السوري وقطر، وأخيرًا فيما يتعلق بدعم كل منهما طرف حرب مختلف في ليبيا عسكريًا. أي أنه يمكن القول إن البلدين على طرفي نقيض. وبعيدًا عن السياسة، احتفظت تركيا بعلاقات اقتصادية طيبة مع مصر، حيث عقدت اجتماعات المجلس التركي المصري في القاهرة في يناير ٢٠١٧ بعد انقطاع دام أربع سنوات، وزار وفد من البرلمانيين الأتراك مصر لحضور اجتماع حول التعاون في شرق البحر الأبيض المتوسط[١٣].

---

(١١) أطلقت المقاومة الفلسطينية اسم معركة الفرقان على تلك العملية.

(١٢) للمزيد، انظر:

- Ibid, p13-15.

- قناة الجزيرة: تركيا تطرد سفير إسرائيل وتل أبيب تطرد قنصلها بالقدس، تاريخ النشر: ١٥ مايو ٢٠١٨، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/39WLJQi

(١٣) للمزيد، انظر:

Thedoros Tsakiris and Others, Gas Developments in the Eastern Mediterranean: Trigger or Obstacle for

وهكذا فقد أصبحت تركيا في حالة "توتر دائم" مع جيرانها، ما جعلها تشعر بالعزلة عن إقليمها في شرق المتوسط، حيث جمع كلًا من مصر وإسرائيل وقبرص واليونان: التقارب الجغرافي، والعداء لتركيا.

وقد عزز تطوران تصورات أنقرة عن التهديد وعمَّقا شعورها بالعزلة، وتنظر إليهما على أنهما من صور مجهودات محاصرة تركيا على هوامش البحر الأبيض المتوسط، وهو نتيجة حقيقية في واقع الأمر، هذا التطوران هما[١٤]:

١. إنشاء منتدى غاز شرق المتوسط (EMGF) في يناير ٢٠١٩، ومقره في القاهرة، والذي يتكون من قبرص اليونانية، واليونان، وإسرائيل، وإيطاليا، والأردن، وفلسطين، ومصر. ويحظى بدعم من فرنسا والولايات المتحدة، مستبعدًا تركيا. وتكمن مهمة هذا المنتدى في حفظ حقوق أعضائه القانونية في توزيع غاز شرق المتوسط.

٢. توقيع اتفاق خط أنابيب EastMed في يناير ٢٠٢٠ من قبل اليونان وجمهورية قبرص وإسرائيل؛ حيث سيربط هذا الخط حقول غاز البحر الأبيض المتوسط مباشرة بأوروبا، بعدما كان يمر تقليديًا عبر تركيا.

وبجانب المصالح الغازية المشتركة بين الدول أعضاء منتدى شرق المتوسط، إلا أن كلًا منها وجد مبررًا سياسيًا في هذا التعاون، عنوانه الرئيس: العداء مع تركيا. حيث كانت إسرائيل –التي ظلت لفترة طويلة بعيدة عن قبرص اليونانية حتى لا تعرض علاقتها مع أنقرة للخطر– مستعدة للنظر في شراكات جديدة في أعقاب حادثة مرمرة ٢٠١٠، وقد رحبت اليونان وجمهورية قبرص بتوثيق العلاقات مع إسرائيل، ورأتا فيه وسيلة لاحتواء النفوذ الإقليمي المتزايد لتركيا. كما أن التنافس الإقليمي بين تركيا ومصر في عهد رئاسة عبد الفتاح السيسي قد وفر قوة دفع إضافية للشراكة الرباعية. وعلى الرغم من أن هذه الشراكة الرباعية لا ترقى إلى مستوى تحالف عسكري رسمي، إلا أنها تمتد بالفعل إلى مجال التعاون الأمني، بما في ذلك العديد من التدريبات العسكرية المشتركة واتفاقيات التعاون الدفاعي الثنائية[١٥].

ب– التحركات التركية للتنقيب في شرق المتوسط

أرادت تركيا كسر تلك العزلة المفروضة عليها إقليميًا، والتي تنعكس على طبيعة علاقاتها الدولية بطبيعة الحال، من خلال فرض الأمر الواقع من وجهة نظر تركية، وهو ما يمكن الوقوف عليه من خلال كل من:

١. توقيع الحكومة التركية في نوفمبر ٢٠١٩ اتفاقيتي ترسيم حدود وتعاون أمني مع حكومة الوفاق الليبية في طرابلس، وهو ما أدى عمليًا لتوسيع أنقرة منطقتها الاقتصادية الخالصة. وقد اعتبرت اليونان اتفاقية ترسيم الحدود "انتهاكًا" لمبادئ القانون الدولي، من خلال التعدي على المياه اليونانية الإقليمية، حيث تجاهلت الاتفاقية جزيرة كريت اليونانية، وهو ما دفع أثينا لطرد سفير حكومة الوفاق الليبية. ويعزي البعض هذه الاتفاقية إلى الغضب التركي من إعلان إنشاء منتدى شرق المتوسط الذي استثنى تركيا[١٦].

٢. إرسال الحكومة التركية سفن تنقيب عن الغاز (رفقة سفن حربية) في مناطق بحرية متنازع عليها بين كل من تركيا وقبرص واليونان، والتي استمرت منذ أواخر عام ٢٠١٩ وحتى الوقت الراهن، وهو ما أدى لاعتراض

EU-Turkey Cooperation?, Op,Cit., p15-16.

(14) Tolga Demiryol, Beyond Energy: The Geopolitical Determinants Of Turkey's Mediterranean Policy, Op. Cit., p.7.

(15) Ibid, p. 5.

(١٦) بي بي سي: تحركات تركيا الأخيرة للتنقيب عن الغاز في شرق المتوسط "قد تشعل بؤرة توتر جديدة"، تاريخ النشر: ١٧ ديسمبر ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ١٠ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/2VWL3Cg

من قبل دول الإقليم قاطبة، بالإضافة إلى الاتحاد الأوروبي الذي أيد حقوق كل من اليونان وجمهورية قبرص، العضوين فيه.

ج- التداعيات الإقليمية على التحركات التركية

لم تمر تلك التحركات التركية التي وصفت بـ"الاستفزازية" من قبل جيرانها في الإقليم من دون رد فعل؛ حيث بدأت كل دولة تستعد للرد على تلك التحركات بطريقتها، وهو ما أدى عمليًا لدخول تركيا في أكثر من أزمة في أكثر من جبهة مفتوحة، بالإضافة لزيادة التوتر العسكري في المنطقة، وحبس الأنفاس في انتظار أي تشابك عسكري وشيك.

فقد درست الولايات المتحدة سحب أسلحتها وقواتها من قاعدة أنجرليك التركية ونقلها إلى إحدى الجزر اليونانية؛ ما يعني زيادة تسليح اليونان، إضافة لتزويد فرنسا اليونان بـ١٨ مقاتلة رافال. بالإضافة إلى زيارة وزير الخارجية الأمريكي جزيرة قبرص معلنًا رفع حظر السلاح المفروض عليها، والمناورات العسكرية الرباعية بين كل من اليونان وقبرص وإيطاليا وفرنسا، فضلًا عن توقع فرض الاتحاد الأوروبي عقوبات اقتصادية وملاحية على تركيا(١٧).

كما وقعت كل من مصر واليونان، عبر وزيري خارجيتيهما، في القاهرة اتفاقية حول تعيين المنطقة الاقتصادية الخالصة بين الدولتين في شرق البحر المتوسط، وهي الاتفاقية التي أثارت تحفظ تركيا؛ حيث اعتبرها وزير الخارجية التركي مولود جاويش أوغلو -من العاصمة الليبية- "باطلة ولاغية"، كما أعلنت الخارجية التركية أن هذه الاتفاقية "تنتهك الحقوق البحرية الليبية". ويرى محللون أن هذه الاتفاقية تعد ضربة قوية للمخططات التركية للتنقيب عن الغاز في شرق المتوسط، بالإضافة إلى كون ترسيم الحدود البحرية المصرية اليونانية يغطي بعض المناطق

(١٧) مركز سيتا: "الغزل التركي".. هل يعيد ثقة الشركاء؟!، تاريخ النشر: ٢٢ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3n4H9TJ

التي شملتها اتفاقية ترسيم الحدود بين أنقرة وطرابلس، ما يعني "إلغاءها"(١٨)، وعدم اعتراف مصر واليونان بها.

وقد ردت تركيا على اتفاقية ترسيم الحدود البحرية المصرية اليونانية من خلال إعلانها استئناف أنشطة المسح والتنقيب في مناطق متنازع عليها؛ حيث أصدرت البحرية التركية في العاشر من أغسطس ٢٠٢٠ إخطارًا ملاحيًا (نافتيكس) يستمر حتى ٢٣ أغسطس، لتجري السفينة التركية «أوروتش رئيس» عمليات مسح زلزالي خلال تلك الفترة. وهو ما دفع القوات اليونانية للتأهب، ودعوة الاتحاد الأوروبي أنقرة لوقف تحركاتها التي وصفها بـ«المثيرة للقلق الشديد»(١٩).

أما اليونان، فقد أعلنت -في سبيل تعزيز قوتها العسكرية- شراء ١٨ مقاتلة رافال من فرنسا، وأربع فرقاطات متعددة الأغراض، وأربع طائرات هليكوبتر تابعة للبحرية، كما ستضخ الموارد للاستثمار في صناعة الأسلحة الوطنية والدفاع السيبراني، بالإضافة إلى تأمين أسلحة جديدة مضادة للدبابات وطوربيدات بحرية وصواريخ تابعة للقوات الجوية(٢٠).

وقد أدت حالة عسكرة شرق البحر المتوسط لزيادة التوتر والتشنج فيه؛ حيث زادت المناورات العسكرية البحرية لكل من تركيا واليونان في البحر المتوسط، كما حشدت

(١٨) مركز سيتا: الإتفاقية البحرية المصرية - اليونانية.. عرقلة لمخططات أنقرة؟!، تاريخ النشر: ١٥ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3oAs9xi

(١٩) الشرق الأوسط: تركيا تشعل التوتر مجددًا شرق المتوسط... واليونان تتأهب عسكريًا، تاريخ النشر: ١١ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3oJN7Kp

(٢٠) بي بي سي: التوتر بين تركيا واليونان: أثينا تعزز قدراتها العسكرية بمقاتلات من فرنسا، تاريخ النشر: ١٢ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي https://bbc.in/37Iv1kM

أنقرة قوات ودبابات عسكرية على الحدود مع اليونان. وقد أدت هذه التوترات إلى وقوع تصادم طفيف بين فرقاطتين تركية ويونانية، وهو ما دفع حلف شمال الأطلسي لأخذ زمام المبادرة للتهدئة بين البلدين العضوين فيه، تجنبًا لسيناريوهات لم تحدث سابقًا بين دول أعضاء في نفس الحلف؛ حيث أعلن الأمين العام للحلف عن توصل اليونان وتركيا لاتفاق على آلية لتجنب وقوع أي اشتباك عرضي في شرق المتوسط، "وذلك في إطار الجهود التي تستهدف نزع فتيل الصراع على موارد الطاقة في المنطقة"، بالإضافة إلى إقامة خط ساخن لتجنب الحوادث بينهما في كل من البحر والجو[٢١].

أما الاتحاد الأوروبي، فقد اعتمد خطابًا منسجمًا مع مواقف اليونان وقبرص حول أنشطة تركيا في منطقة شرق البحر المتوسط. وقد شهد هذا الخطاب تدرجًا من الاكتفاء بحث تركيا على الامتناع عن أي نوع من أنواع الخطاب والسلوك العدواني الذي يمكن أن يؤثر سلبًا على الحل السلمي للنزاعات الحدودية، وضرورة تجنب أي نوع من التهديد أو الاحتكاك أو الأفعال التي قد تؤثر سلبًا على علاقات حسن الجوار، وصولًا إلى حد اتهام تركيا بانتهاك القانون الدولي والانخراط في سلوك عدواني وغير قانوني[٢٢].

وفي محاولة منها لـ"إعطاء فرصة للدبلوماسية"، قررت تركيا إعادة سفينة الرصد الزلزالي "عروج ريس" إلى سواحلها في ١٣ سبتمبر ٢٠٢٠ (وقد سبق أن أرسلتها في العاشر من أغسطس للتنقيب عن النفط في المياه بين اليونان وقبرص)، كما شهد الأسبوع الأول من أكتوبر أول اجتماع رفيع المستوى بين وزيري خارجية كل من تركيا واليونان منذ بدء التوتر حول استكشاف النفط والغاز في شرق البحر المتوسط. غير أن هدوء العلاقات بين البلدين لم يستمر طويلًا؛ إذ أعلنت البحرية التركية عودة قيام سفينة "عروج ريس" بأنشطة في المنطقة ذاتها مرة أخرى، بما في ذلك جنوبي جزيرة كاستيلوريزو اليونانية، في الفترة من ١٢ لـ٢٢ أكتوبر، رفقة سفينتي أتامان وجنكيز خان الحربيتين[٢٣].

في هذا السياق، وبعيدًا عن حلفائها السابقين في الاتحاد الأوروبي، قررت تركيا استخدام خطاب أكثر دبلوماسية مع كل من إسرائيل ومصر، في محاولة منها لحلحلة الموقف لصحالها والقضاء على العزلة الإقليمية التي تحياها منذ فترة ليست بالقليلة. فمنذ الربع الثاني من ٢٠٢٠، تشير العديد من البوادر إلى محاولة رأب الصدع في العلاقات التركية الإسرائيلية، مثل استئناف الرحلات الجوية بين البلدين؛ حيث استغلت تركيا ظروف جائحة كورونا لإرسال مساعدات طبية لتل أبيب، في محاولة منها لتليين العلاقات الثنائية، بهدف تحييد دور إسرائيل في الخلافات التركية اليونانية القبرصية، وتحفيزًا لرغبة إسرائيل في تأمين خطوط إمداد لغازها لأوروبا عبر تركيا وفق محللين، خصوصًا في ظل إرهاصات عقد اتفاقية بحرية بين البلدين[٢٤].

كما حاولت تركيا "مغازلة مصر" من خلال التصريحات الرسمية التي اعتبرت أن الجيش المصري جيش قوي، وكشفت عن نية تركية لإجراء محادثات مع مصر؛ حيث أدلى الرئيس

---

(٢١) مركز سيتا: "منع اشتباك" في المتوسط.. هل يستمر؟!، تاريخ النشر: ٢ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2K4tqxI

(22) Volkan Tibet Gür, Turkey's Isolation From The Regionalization Process In The Eastern Mediterranean: A Case Study Of The Eastern Mediterranean Gas Forum (Emgf), A Master's Thesis, (Ihsan Doğramacı Bilkent University, Ankara), August 2020, p.87

(٢٣) فرانس ٢٤: شرق المتوسط: تركيا تعتزم إرسال سفينة تنقيب قبالة سواحل قبرص مجدّدا واليونان تندد، تاريخ النشر: ١٢ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3qFYNPT

(٢٤) قناة الغد: محلل: هذه أسباب عودة العلاقات بين تركيا وإسرائيل والسر هو "المياه القبرصية" [ملف فيديو]، تاريخ النشر: ٢٤ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://youtube/FMW0MPVksmE

التركي أردوغان بتصريحات صحفية قال فيها: "إجراء محادثات استخباراتية مع مصر أمر مختلف وممكن وليس هناك ما يمنع ذلك، لكن اتفاقها مع اليونان أحزننا". غير أن وزارة الخارجية المصرية أبدت تحفظها على ما أسمته المبادرة التركية، وقالت في بيان لها إن "نهج" تركيا يفتقر إلى "المصداقية". كما ذكرت بعض المصادر: "أكدت مصر تلقيها دعوات تركية لفتح قنوات اتصال معها على المستويين السري والعلني بغرض تحسين العلاقات"، بالإضافة إلى تلقي مصر دعوة تركية "لتوقيع اتفاقية لترسيم الحدود البحرية بين البلدين"(٢٥).

ثالثًا– تداعيات التحركات التركية على علاقتها بالدول الكبرى:

نظرًا لما تمتلكه منطقة شرق المتوسط من أهمية جيوستراتيجية بالنسبة للعالم كله، فمن غير المتوقع أن تقع مثل تلك الأحداث بعيدًا عن تدخل الدول الكبرى فيها، أو على الأقل اتخاذ موقف بصددها، خصوصًا مع ارتباط تلك الأحداث بأحد أهم مصادر الطاقة في القرن الحادي والعشرين بشكل أساسي. وعليه، يحاول هذا المحور التعرف على تداعيات التحركات التركية في هذه المنطقة على علاقتها بالدول الكبرى.

أ– الولايات المتحدة:

تتداخل الولايات المتحدة في منطقة شرق المتوسط لعدة اعتبارات ومصالح، على رأسها يأتي: الحفاظ على أمن حليفتها إسرائيل كهدف واستراتيجية دائمة لها في إقليم الشرق الأوسط الكبير ومناطقه الفرعية، وحماية حقوق الشركات الأمريكية العاملة في مجال استكشافات النفط والغاز كجزء من تحقيق أمن المواطن الأمريكي ورفاهيته، وتنويع مصادر إمداد الطاقة لدول أوروبا وحلفائها حتى لا تظل عرضة –نتيجة لاعتمادها المتزايد على روسيا– للابتزاز السياسي من الدول المصدرة للطاقة. وعليه، أضحى الحفاظ على توازنات القوى في هذه المنطقة في صالحها هدفا محددًا رئيسًا في سياساتها تجاه هذه المنطقة، خاصة بعد اكتشافات غاز شرق المتوسط، واستمرار الأزمة السورية والليبية والصراع اليوناني – التركي.

ارتدت هذه الاعتبارات والمصالح على العلاقات الأمريكية – التركية في شرق المتوسط، ومن ثم لجأت الولايات المتحدة إلى التوافق حينًا والنقد حينًا والتغاضي أحيانًا أخرى تجاه السلوك التركي؛ ففي حين سحبت الولايات المتحدة جنودها من سوريا، وتغاضت عن دخول القوات التركية إلى الشمال السوري، حثت تركيا على تجنب التصعيد في علاقاتها مع دول شرق المتوسط، ورفعت حظر بيع الأسلحة عن قبرص اليونانية، ودعمت نشأة منتدى شرق المتوسط الذي يضم في عضويته جيران تركيا من دونها؛ حيث حضر وزير الطاقة الأمريكي الاجتماع الأول للمنتدى في يناير ٢٠١٩، وتوقيع شركاتها لعقود مع دول المنتدى.(٢٦)

ومن ثم، فإن الولايات المتحدة –في عهد ترامب– أدارت لعبة الطاقة في شرق المتوسط بخبرتها في الحفاظ على توازنات القوى بين دول المنطقة، رغم رغبتها في موازنة الدور التركي المتنامي، ومساعي أنقرة لتجاوز نطاق التوافق مع واشنطن بتعزيزها علاقات أوثق مع موسكو وطهران، وتصريحات رئيسها المتكررة بشأن العالم متعدد الأقطاب. ومع ذلك، تستمر تركيا في المدرك الاستراتيجي الأمريكي كأحد دول حلف الناتو، وأحد حلفائها في الشرق الأوسط، وفيها قاعدة عسكرية أمريكية.

(٢٥) بي بي سي: هل تصريح أردوغان عن الحوار مع مصر نجاح للقاهرة؟، تاريخ النشر: ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/36YaZUu

(٢٦) آية عبد العزيز، الرؤية الأمريكية لتسوية الصراع في شرق المتوسط بين الضبابية والبراجماتية، المرصد المصري، تاريخ النشر: ٢١ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/37U3JrZ

استغلت تركيا، وفهمت قياداتها هذه المقاربة الأمريكية، وهذا التوازن في السلوك الأمريكي في التعاطي مع تركيا، لتمد مزيدًا من النفوذ في شرق المتوسط، وتتداخل في قضاياه المعقدة؛ رغبة منها في إدارة اللعبة من موقع قوة، وكسب موقع تفاوضي في مواجهة خصومها الإقليميين، خاصة فيما يتعلق باكتشافات غاز المتوسط والتنقيب عنه. ومن ثم، يمكن فهم كل تداخل تركي في قضايا شرق المتوسط الأخرى على أنه محاولة لتخفيف الضغط عليها في اللعبة الرئيسية: لعبة الصراع على الغاز، ومحاولة تحييد –أو على الأقل الحيلولة دون– دفع الولايات المتحدة لاستخدام أدواتها العقابية ضد التحركات التركية في البحر المتوسط. فوفقًا لأحد التحليلات يقدم كل تراجع للولايات المتحدة فرصة لتقدم تركيا في شرق المتوسط، خاصة بعد انسحاب القوات الأمريكية من سوريا[٢٧].

ب- روسيا:

من المهم الوقوف على حقيقة أن العلاقات التركية الروسية الحديثة في قطاع الغاز الطبيعي محكومة بمحددين اثنين: الأول هو اعتماد تركيا القوي على إمدادات الغاز الطبيعي الروسي، والثاني هو موقع تركيا كدولة عبور لتزويد أوروبا بالغاز الطبيعي الروسي[٢٨]، وبالتالي فإن العلاقة بين البلدين من هذا المنظور علاقة استراتيجية قوية.

الحقيقة الأخرى بالنسبة لروسيا، أن عائدات الطاقة تعد إحدى نقاط القوة القليلة للاقتصاد الوطني، وبالتالي فإن اكتشافات الغاز في شرق المتوسط تعد مصدر قلق كبير لموسكو، إذ إن الحد من المنافسة بين موردي الغاز والحفاظ على ارتفاع الأسعار من مصلحة روسيا بشكل عام، فهي المصدر المهيمن على النفط والغاز بالنسبة لتركيا ومعظم أوروبا، وهو موقع يمكن أن تستخدمه لصالحها وستحاول جاهدة حمايته. أي أنها تستفيد من الانقسام وعدم التعاون بين دول المنطقة الذي يفضي في الأخير إلى تقليل منافسة التوريد في سوق الغاز الأوروبية[٢٩].

وفي محاولة منها لعدم تقويض نفوذها في إمدادات الطاقة لأوروبا، عملت روسيا على التواجد في منطقة شرق المتوسط من خلال شركاتها لاستكشاف الغاز والتنقيب، خصوصًا في حوض سوريا، من خلال التفويض الحصري الذي منحته حكومة دمشق لروسيا للتنقيب عن الغاز في مياهها الإقليمية، بالإضافة إلى مساهمة شركة الغاز الروسية «نوفاتيك» ضمن كونسرتيوم دولى لاستكشاف واستخراج النفط والغاز في المياه الإقليمية اللبنانية[٣٠].

أما ما يتعلق بالتنافس التركي اليوناني القبرصي، فإن روسيا لم تتخذ موقفًا رسميًا مؤيدًا لتركيا إزاء خلافاتها الحدودية مع جيرانها، ولكنها أيضًا في نفس الوقت أعلنت استعدادها للتعاون مع تركيا في عمليات التنقيب على الغاز شرق المتوسط، وهو ما يمكن اعتباره تأكيدًا روسيًا على دور

(27) KIRIŞCI, K., TOYGÜ, I., "Turkey's New Presidential System and a Changing West: Implications for Turkish Foreign Policy and Turkey-West Relations", Brookings. Turkey project policy paper No. 15, January 2019, p. 10, available at: https://brook.gs/3mdjoaT

(28) Guzel Nurieva, Natural Gas Factor in Israel-Turkey-Russia "Energy Triangle", Turkish Journal of Middle Eastern Studies, Vol: 4, No: 1, 2017, p106.

(29) Kadri Tastan and Tobias Kutschka, The Implications of Eastern Mediterranean Gas for Turkey, On Turkey, GMF, No: 7, April 2019, p.2.

(٣٠) بشير عبد الفتاح، روسيا فى شرق المتوسط، موقع جريدة الشروق، تاريخ النشر: ١٤ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3oEUcf7

تركيا كدولة عبور، ما يسمح لهما معًا بالتحكم في إمدادات الغاز لأوروبا[٣١].

فعلى الرغم من أن تحول تركيا لدولة توريد للغاز، وليس فقط دولة عبور، من شأنه أن يهدد المصالح الروسية فيما يتعلق بالتحكم في أمن الطاقة الأوروبي، إلا أنها ترى في تركيا "حليفًا مشاكسًا" أقرب لها من دول غرب أوروبا، وهو ما حاولت تركيا التأكيد عليه من خلال العديد من الشواهد، مثل التنسيق معها في شمال سوريا، وشراء تركيا منظمة الدفاع الروسية S-400.

خاتمة: ماذا ننتظر في شرق المتوسط؟

ترتبط سيناريوهات مستقبل أزمة شرق المتوسط ووضع تركيا الإقليمي والعالمي بعدة اعتبارات، يأتي على رأسها: استمرار الرئيس رجب طيب أردوغان وحزبه بالأفكار الراهنة في موقع السلطة السياسية، ونطاق استمرار النهج الأمريكي –حتى بعد تولي بايدن الرئاسة رسميًا في يناير ٢٠٢١– المتردد أو المتوازن تجاه تركيا ودول شرق المتوسط، ومدى استمرار التقارب بين دول منتدى غاز المتوسط، ودرجة تجمد موقف الاتحاد الأوروبي عند الحد الراهن، واستمرار السياسة الروسية في مقاربتها الحالية لمنطقة شرق المتوسط ودوله، وبخاصة علاقاتها مع تركيا.

وهديًا بهذه الاعتبارات يمكن تصور سناريوهين لوضع تركيا الإقليمي والعالمي في المديين القصير والمتوسط (٣ – ٦ سنوات):

الأول: يفترض استمرار أردوغان وحزبه على قمة الهرم السياسي في تركيا، واستمراره في اتباع نهج/ سياسة التحركات الأحادية في شرق المتوسط، وفي التقارب مع روسيا، ومن ثم تعزيز دور أنقرة كقوة إقليمية تسعى للهيمنة على محيطها الإقليمي، لتقديم نفسها قطبًا دوليًا في عالم التعددية القطبية الذي تنادي به هي وروسيا والصين وعدد من القوى الإقليمية، كنسق مبني على قوى مهيمنة في أقاليمها، وتضطلع بدور متنامٍ في الصراعات الدولية والمؤسسات الدولية الكبرى.

الثاني: يشير إلى احتمالية تعرض نظام أردوغان وحزبه لهزة سياسية في الداخل تُفقِده السيطرة السياسية، وهنا تصبح تركيا أكثر حاجة لدعم الولايات المتحدة ورئيسها الجديد جو بادين، ومن ثم تفتر علاقاتها بدول التعددية القطبية وعلى رأسها روسيا، ومعها تفتر مساعيها للهيمنة الإقليمية، ويمكن أن نشهد مساومة إقليمية تندمج تركيا بموجبها في منتدى شرق المتوسط، وتنفتح علاقاتها على دول الإقليم وبخاصة مع مصر واليونان وإسرائيل.

ويبدو أن السيناريو المرجح –وفق الاعتبارات التي طرحناها– هو الأول، وفيه تستمر أزمة شرق المتوسط ولكن من دون التأجج أو الوصول إلى درجة الصراع المسلح أو الاستخدام الفعلي للقوة العسكرية بين دول منتدى شرق المتوسط وتركيا. وعليه، تستمر الأزمات الأخرى الدائرة على وضعها الراهن، مع بقاء ميزان القوة السائد من دون ميله لصالح طرف دون الآخر، واستمرار المساعي التركية للهيمنة في شرق المتوسط ومحاولات تدعيم نفوذها عالميًا، مع محاولة إدارة بايدن للتهدئة من النبرة التعديلية في السلوك التركي عبر كسبها أكثر في صفها وصف الناتو.

وما يزيد من ترجيح السيناريو الأول هو ما يميز نهج أردوغان القومي في منطقة شرق المتوسط بقبول سياسي وجماهيري واسع، سواء من مؤيدي نزعته المحافظة الدينية والحالمين بعودة الإمبراطورية العثمانية من جديد، أو من مؤيدي النزعة العلمانية التي أسسها –مع تأسيس الجمهورية– مصطفى كمال أتاتورك[٣٢] الذي قاد حربًا

---

(٣١) محمد نور الدين، الطموح التركي في غاز شرق المتوسط: أبعاده وتداعياته، شؤون عربية، جامعة الدول العربية – الأمانة العامة، القاهرة، العدد ١٨٠، شتاء ٢٠١٩، ص ٦٢،٦١.

(٣٢) مارك تشامبيون، استعراض تركيا لقوتها في المتوسط لا يتعلق فقط بالغاز، مركز سيتا، تاريخ النشر: ٨ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٨ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/37QB6M5

قومية للمطالبة بالأراضي التركية التي خسرتها تركيا في أعقاب اتفاقية لوزان ١٩٢٣ بعد الحرب العالمية الثانية.

بعبارة أخرى، فإن النزعة القومية متجذرة في الشخصية التركية، حتى من قبل قدوم أردوغان لسدة الحكم، غير أنه لعب دورًا محوريًا في تذكيتها، مستغلًا ثقله "الإسلامي" من جهة، ومعتمدًا على التقدم التركي العسكري والاقتصادي في تحويل تلك النزعة لواقع ملموس على الأرض.

*****



إقليمياً



تفجير مرفأ بيروت وأزمات لبنان الاقتصادية والسياسية

محمد علي إسماعيل(*)

مقدمة:

أَحْيا اللبنانيون الذكري الأولى لانتفاضتهم في ١٧ أكتوبر ٢٠٢٠، بمظاهرات أقل زخماً ولكنها أكثر عنفاً من تلك التي شهدتها المدن والبلدات اللبنانية قبل عام، وهي التظاهرات التي كانت قد شارك فيها مئات الآلاف من اللبنانيين من مختلف الطوائف والطبقات وبلورت مطلبها الرئيس في رحيل "العهد"؛ أي إسقاط كامل الطبقة السياسية الطائفية التي نتجت عن اتفاق الطائف. بعد عام على الانتفاضة اللبنانية تفاقمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأضيف لتلك الأزمات أزمة خطيرة ترافقت مع انتشار فيروس كورونا في العالم، وتوجت تلك الأزمات بانفجار مرفأ بيروت الذي يعد بمثابة أحد أكبر الانفجارات غير النووية في التاريخ والذي أعده البعض بمثابة "هيروشيما بيروت". عمق الانفجار من الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في لبنان، وفتح الباب واسعاً أمام التدخلات الخارجية في الشئون الداخلية اللبنانية، ما ينذر بعودة لبنان إلى قلب التنافس الإقليمي والدولي بين القوى الرئيسة في المنطقة والعالم.

تناقش هذه الورقة التداعيات السياسية والاقتصادية لانفجار مرفأ بيروت، والسيناريوهات المتوقعة لتلك التداعيات في المرحلة المقبلة.

(*) باحث في العلوم السياسية.

أولًا– انفجار المرفأ

في الرابع من أغسطس ٢٠٢٠، أدى انفجار (٢٧٥٠ طن) من مادة نترات الأمونيوم في العنبر رقم ١٢ في مرفأ بيروت، إلى مقتل ٢٢٠ مواطن، وجرح أكثر من ٦٥٠٠، وتشريد ٣٠٠ ألف آخرين، وتدمير قطاع كبير من المدينة، وقدرت الخسائر الاقتصادية الأولية تكلفة إصلاح الأضرار المباشرة الناجمة عن الانفجار بما يتراوح بين ٣–٥ مليارات دولار، أما التكاليف غير المباشرة وطويلة الأجل فتتراوح بين ١٠–١٥ مليار دولار[١].كما أدى الانفجار إلى استمرار وتفاقم الأزمة السياسية، حيث لم يقتصر الأمر على استقالة حكومة التكنوقراط التي كان يترأسها "حسان دياب"، وإنما تعدّتها لفشل ثلاثة محاولات لتشكيل حكومة سياسية أو تكنوقراط أو تكنوسياسية.

كانت الحكومة اللبنانية قد صادرت، في عام ٢٠١٤، شحنة من مادة نترات الأمونيوم –وهي مادة كيميائية شديدة الانفجار تستخدم كسماد زراعي– وقامت بتخزينها بشكل غير آمن في العنبر رقم ١٢ في مرفأ بيروت. على الرغم من الطلبات العديدة بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٧ من قبل كبار مسؤولي الجمارك إلى المحاكم والسلطات اللبنانية، سعيًا للتخلص من الشحنة والتحذير من المخاطر التي يشكلها "الاحتفاظ بهذه الشحنة في المستودعات في مناخ غير مناسب"، فإن المسؤولين اللبنانيين قد تجاهلوا تلك الطلبات[٢]. وسواء أكانت تلك الطلبات يشوبها شبهات فساد تتعلق بعمليات تربح رئيس الجمارك من بيع تلك

(1) Beirut explosion: Lebanon's government 'to resign' as death toll rises, BBC NEWS, August 10, 2020, Accessed, 27 October 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/Ts8H8

(2) Beirut explosion: How ship's deadly cargo ended up at port, bbc, August 07, 2020, Accessed, 27 October 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/OFoUa

الشحنة لشركات معينه أم كانت قصوراً من الجهات القضائية والرقابية كما عمل مسؤولي الجمارك على تصوير الأمر، وإلقاء المسؤولية من على كاهلهم وإلصاقها بأحد قضاة الأمور المستعجلة(٣)، فإن المحصلة النهائية كانت انفجار مدمر نتج عن سنوات من الإهمال والفساد السياسي.

في كلتا الحالتين، بقيت الشحنة المدمرة والتي كانت متجهة في الأصل إلى موزمبيق في ميناء بيروت على مدى السنوات الست الماضية باعتبارها قنبلة موقوتة على وشك الانفجار في أي لحظة. ومن المفارقات أنه في العام الذي يصادف الذكرى المئوية لتأسيس لبنان، جاء الانفجار ليرمز إلى فشل وتداعي النظام السياسي اللبناني.

الجدير بالذكر، أن ميناء بيروت، الواقع في وسط العاصمة اللبنانية، يعتبر محورًا أساسيًا من محاور الاقتصاد اللبناني، حيث أنه أكبر نقطة شحن في البلاد، وركيزة أساسية في عمليات الاستيراد والتصدير، بالإضافة إلى أنه يشكل ٧٣% من عمليات التبادل التجاري بين لبنان ودول العالم و٨٩% من مجمل عمليّات نقل الحاويات، ويحقق لخزينة الدولة دخلاً سنوياً قدره ٢٧٠ مليون دولار (وصلت إلى ٣١٣ مليوناً في العام ٢٠١٨)(٤). الأمر الذي ينذر بخسائر فادحة للاقتصاد اللبناني المتهالك أساساً.

على الرغم من تلك الأهمية الاقتصادية للمرفأ، إلا أنه يُعد من أكبر بؤر الفساد وإهدار المال العام في لبنان. فمنذ نهاية الحرب الأهلية اللبنانية، أدارت "اللجنة المؤقتة لإدارة واستثمار مرفأ بيروت" المرفأ، منذ مارس ١٩٩٣، وهو عرف لبناني في تأبيد المؤقت لأجيال(٥). وبالرغم من وقوع المرفأ تحت ولاية وزارة النقل والأشغال العامة ولكنها لا يخضع لصلاحيات الوزارة، برز ذلك في عدم قدرة الوزير "ميشال نجار" في تغيير الهيكل الإداري للمرفأ. كما أن للّجنة التي تدير المرفأ ميزانيتها المستقلة عن الموازنة العامة للدولة التي لا تخضع لأي من أجهزة الدولة الرقابية ولا تتبع قواعد التوظيف في الخدمة المدنية(٦).

ثانيًا: تداعيات كارثة المرفأ وجائحة كورونا على الأزمة الاقتصادية في لبنان

وقع الانفجار مخلفاً تدميراً لأحياء بكاملها صارت أطلالاً وفي ظل انتشار واسع لفيروس كورونا، وأزمة مالية وسياسية طاحنة، وفاقم من هذه الأزمة، أن عاصمة لبنان البحرية والتجارية صارت بلا مرفأ بعد توقفه بشكل كامل بعد الانفجار، وهو المرفأ الذي كان يوفر ما يقدر بـ ٦٠ % من واردات لبنان، في بلد يعتمد بشكل أساسي على الاستيراد، ويعد بمثابة المتنفس الرئيسي للاقتصاد اللبناني، كل ذلك دفع البنك الدولي إلى توقُّع انخفاض إجمالي الناتج المحلي الإجمالي في العام ٢٠٢٠ بنسبة تزيد على ١٠%.

قبل حلول الجائحة وانفجار المرفأ، كان الاقتصاد اللبناني على وشك الانهيار، حيث عانى من أزمة متعددة الأوجه (اقتصادية، مالية، نقدية)، وهي الأزمة التي أدت إلى الانتفاضة الشعبية. فابتداءً من ١٧ أكتوبر ٢٠١٩، نزل أكثر من مليون متظاهر في بلد يبلغ عدد سكانه حوالي ٦ ملايين شخص إلى الشوارع، احتجاجًا على تردي الأوضاع المعيشية، وسوء الخدمات والفساد السياسي والاقتصادي

---

(٣) نزار صاغية، تمويه المسؤولية غداة مجزرة بيروت: هذا القاضي الذي وثق بـ "الدولة"، ١٠ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "المفكرة القانونية"، تاريخ الاطلاع ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٠٨:١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/drU59

(٤) سعدى علوه، قصة بيروت ومرفئها: انهيار الاقتصاد وكورونا سبقا انفجار المرفأ إلى تقليص حركته، ٢٥ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "المفكرة القانوينة"، تاريخ الاطلاع ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ١٠:٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/8AgSB

(٥) هلا نهاد نصر الدين، إدارة مرفأ بيروت.. صلاحيات متضاربة وهيكلية متداخلة لم تعرف الحوكمة، ١٢ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "مهارات"، تاريخ الاطلاع ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ١١:٠٥ متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4U43k

(٦) فواز طرابلسي، أزمة الانفجار وانفجار الازمات اللبنانية، (في) فصلية بدايات لكل فصول التغيير، العدد السابع والعشرون، ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cS4eH

للنخب السياسية الحاكمة، وذلك في أعقاب قرار وزارة الاتصالات فرض ضريبة قدرها ٢٠ سنتًا أمريكيًا على استخدام اتصالات تطبيق "واتس آب"(٧).

أدت سنوات من الفساد وسوء الإدارة الاقتصادية والسياسية، إلى جانب عمليات الإغلاق –ابتداءً من ٢٦ مارس ٢٠٢٠– التي قامت بها الحكومة لوقف انتشار فيروس كورونا، إلى إغراق الطبقات الدنيا والمتوسطة في براثن الفقر؛ حيث تشير التقديرات إلى أن ٢٨,٥ في المئة من السكان اللبنانيين يعيشون تحت خط الفقر(٨)، وأن ٣٥٠ ألف شخص فقدوا وظائفهم، الأمر الذي زاد عدد العاطلين إلى ٥٥٠ ألف، وهو ما يعادل ثلث إجمالي القوى العاملة اللبنانية التي تبلغ حوالي ١,٨ مليون عامل(٩). أي أن واحداً من كل ثلاثة مواطنين لبنانيين أضحى عاطلاً عن العمل. وفقدت الليرة اللبنانية أكثر من ٨٠٪ من قيمتها منذ أن بدأت الأزمة المالية في أكتوبر ٢٠١٩. كما ارتفعت أسعار العديد من المواد الغذائية، من اللحوم إلى السكر، والخبز المدعوم بزيادة قدرها ٣٣٪(١٠).

(٧) محمد علي إسماعيل، الحراك في لبنان: المحركات والدلالات، (في) فصلية قضايا ونظرات، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث العدد السادس عشر، يناير ٢٠٢٠، متاح على الرابط التالي: https://cutt.us/AO8j6

(8) Lebanon's unemployment rate surges past 30% amid meltdown, Consultancy-me, June 30, 2020, Accessed, 29 October 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/a51lH

(9) Mark Abadi , Havovi Cooper , and Jacqui Frank, Lebanon's financial crisis is spinning out of control as bread prices rise for the first time in 8 years and people fall deeper into poverty, business insider, July 15, 2020, Accessed, 29 October 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/Vq1sd

تخلفت الحكومة اللبنانية عن سداد ديونها الخارجية في مارس ٢٠٢٠، وهي ديون تبلغ قيمتها ١,٢ مليار دولار قيمة سندات "يورو بوند"، وذلك بعد أن بلغت احتياطات البلاد من العملة الصعبة مستويات حرجة وخطيرة، وأرجع رئيس الحكومة حسان دياب ذلك القرار إلى تفضيل الحكومة "استخدام القليل المتبقي من احتياطيات البلاد لتأمين الحاجات الأساسية للشعب اللبناني"(١١).

يتجاوز الدَّين العام ٩٣,٤ مليار دولار في يونيو ٢٠٢٠، مقارنة بـ ٨٥,٧ ملياراً في الشهر يونيو ٢٠١٩ (و٩١,٦ مليار دولار في نهاية عام ٢٠١٩) (١٢). ومن الجدير بالذكر هنا، أنه منذ العام ٢٠٠٦، والإنفاق الحكومي في لبنان بدون موازنات عامة. إذ ينص الدستور اللبناني في حال تأخر إقرار الموازنة لفترة لا تتجاوز عدة أشهر، على قسمة رقم الإنفاق من آخر موازنة على ١٢ (عدد أشهر السنة) والصرف على أساس هذا الرقم، حتى إقرار الموازنة الجديدة(١٣). ووفقاً لتوقعات صندوق النقد الدولي عقب تفشي الجائحة بشهر، فإن الاقتصاد اللبناني سوف يشهد انكماشاً بنسبة ١٢% عام ٢٠٢٠، مع استمرار ارتفاع

(10) UNDP, UN Lebanon Annual Report 2018: Working Together for a Secure, Stable and Prosperous Lebanon (Beirut: 2019), p. 11, accessed on 11/8/2020, at: https://bit.ly/33NzHFV

(١١) لبنان يتخلف عن سداد الديون لأول مرة في تاريخه.. ماذا بعد؟، ٨ مارس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "العربية نت"، تاريخ الاطلاع ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٠٨:١٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/bnkbX

(١٢) "النشرة الشهرية، يوليو ٢٠٢٠"، مصرف لبنان المركزي، العدد ٣١٤، ص ٥، تاريخ الاطلاع ٥ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٠٥:٠٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Oolbv

(١٣) عبد الرحمن عرابي، لبنان.. ١٠ سنوات بلا موازنة، ١٧ مايو ٢٠١٥، الموقع الإلكتروني: "العربي الجديد"، تاريخ الاطلاع ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، الساعة ٠٧:١٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/M1X0D

أسعار المواد الغذائية الأساسية(١٤). كما تراجع معدل الواردات في لبنان بنسبة ٥٠ في المئة منذ أكتوبر ٢٠١٩، وسيزداد هذا الانخفاض بعد انفجار المرفأ.

تفاقم الطبيعة البنيوية للاقتصاد اللبناني من الأضرار التي سوف تلحق به جراء عمليات الإغلاق الحكومي الذي ترافق مع الموجتين الأولى والثانية من فيروس كورونا وتداعيات انفجار المرفأ. فالاقتصاد اللبناني قائم على قطاعات ضعيفة ومنخفضة الإنتاجية؛ مثل البنوك والسياحة، ويعاني من عجز تجاري بنيوي، مقترن بتراجع التحويلات المالية من المغتربين اللبنانيين وتراجع الدخل من السياحة وانخفاض الدخل من العملات الأجنبية. كما أنه يتحمل أعباء الحرب الأهلية السورية التي دفعت بحوالي مليون ونصف لاجئ سوري إلى لبنان.

يعاني الاقتصاد والمالية العامة في لبنان من مشاكل بنيوية. فالمشكلة الأساسية في السياسة المالية والنقدية تكمن في الفوائد المرتفعة التي تتكبدها الخزينة العامة. أدت الفوائد المرتفعة على الدين العام إلى وضع العوائق أمام حركة الاستثمار. مما هدد باستمرار حركة الركود الاقتصادي، وأسعار الفائدة تلك غير محكومة بقواعد السوق (العرض والطلب) بل يتحكم في تحديدها مصرف لبنان وجمعية المصارف بالاتفاق مع وزارة المالية. كذلك فإن انخفاض تحويلات اللبنانيين العاملين بالخارج وتقلص الإيرادات الحكومية وتباطؤ نمو قطاعي السياحة والعقارات الذي ترافق مع جائحة فايروس كورونا، وفي ظل حجب الداعمين الإقليميين والدوليين للمساعدات والقروض، سوف يؤدي كل ذلك إلى وصول الاقتصاد اللبناني طريق مسدود، وقد تعلن الدولة اللبنانية إفلاسها.

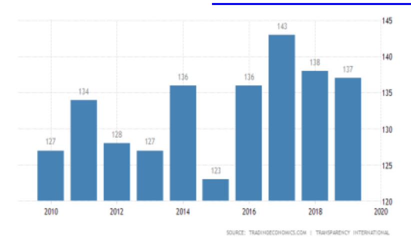
كما تفاقم الطبيعة البنيوية للنظام السياسي اللبناني القائمة على الزبائنية والطائفية السياسية من الأوضاع الاقتصادية، وتسهم في الافلات من العقاب وتضخيم الفساد. يحتل لبنان المركز ١٣٧ من أصل ١٨٠ دولة على مؤشر مدركات الفساد الصادر عن منظمة الشفافية الدولية لعام ٢٠١٩(١٥)، متقدمًا مركز واحد عن العام ٢٠١٨، ينتج هذا الفساد في لبنان عن البنى السياسية الطائفية السائدة منذ استقلال الدولة اللبنانية عام ١٩٤٣، والتي تشكل بمجملها أهم حاضنات الفساد السياسي والمالي في لبنان.

نشأ النظام السياسي اللبناني على تقسيمات ديموغرافية حادة، بهدف تحقيق تمثيل سياسي لكافة المكونات الطائفية اللبنانية. فعندما نال لبنان استقلاله في عام ١٩٤٣، وتم العمل على دمج هذه التقسيمات الطائفية في اتفاق سياسي شامل غير مكتوب، وجاءت "وثيقة الوفاق الوطني" المعروفة باتفاق الطائف عام ١٩٨٩ الذي أنهى الحرب الأهلية اللبنانية، والتي تعد بمثابة نص مكتوب لـ "ميثاق عام ١٩٤٣" كنص مستحدث عمل على دسترة الطائفية السياسية، بتخصيصه مناصب حكومية، وإدارية ومقاعد برلمانية، لجميع الطوائف الدينية اللبنانية بحسب أعدادها السكانية(١٦). أدت هذه الطائفية السياسية بدورها إلى تقسيم الوظائف السياسية والاقتصادية والإدارية في لبنان بين الطوائف، وانتجت شبكة من المحسوبية والفساد البنيوي غير القابل للإصلاح.

---

(١٤) IMF sees crisis-hit Lebanon's output shrinking 12% in 2020, Reuters, April 15, 2020, Accessed, 10 November 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/I4Luj

(١٥) لبنان-مؤشر مدركات الفساد، تاريخ الاطلاع ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، ٠٦:٠٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ECQFf



لبنان في مؤشر مدركات الفساد منذ العام ٢٠٠٩ وحتى ٢٠١٩.

(١٦) محمد علي إسماعيل، الحراك في لبنان.. المحركات والدلالات، مرجع سابق.

ثالثاً: الشلل السياسي: تداعيات الفساد الداخلي والنفوذ الخارجي

أدى الانفجار وما صاحبه من غضب شعبي، إلى استقالة حكومة "حسان دياب" في ١٠ أغسطس ٢٠٢٠، وفي بيان استقالته، ألقي دياب باللوم على الطبقة السياسية الفاسدة التي عرقلت مساعيه نحو الإصلاح، قائلاً: *"اكتشفت إن منظومة الفساد أكبر من الدولة، وأن الدولة مكبلة بهذه المنظومة ولا تستطيع مواجهتها أو التخلص منها.. وأحد نماذج الفساد انفجار بيروت"*. واصفاً من ينتمون إلى الطبقة السياسية بأنهم: *"لا يهمهم من كل ما حصل إلا تسجيل النقاط السياسية، والخطابات الشعبوية الانتخابية، وهدم ما بقي من مظاهر الدولة"*، مشددًا على كون تلك الطبقة اعتادت *"التغيير في مواقفهم لتزوير الحقائق، بينما المطلوب هو تغييرهم لأنهم هم المأساة الحقيقية للشعب اللبناني"* (١٧).

وفي خطابه الكاشف عن هول وحجم المأساة التي يعيشها لبنان، اتهم رئيس الوزراء المستقيل "حسان دياب" الطبقة السياسية اللبنانية بعدم الفهم وأنهم لم يقرأوا بشكل جيد "ثورة ١٧ أكتوبر ٢٠١٩"، التي كانت ضد كامل هذه الطبقة. قائلاً: *"استمروا في ممارساتهم وحساباتهم، وظنّوا أنهم يستطيعون تمييع مطالب اللبنانيين بالتغيير، وبدولة عادلة وقوية، وقضاء مستقل، وبوقف الفساد والهدر والسرقات، ووضع حدّ للسياسات المالية التي أفرغت خزينة الدولة، وأهدرت ودائع الناس، وأوقعت البلد تحت أعباء دين هائل، تسبّب بهذا الانهيار المالي والاقتصادي والاجتماعي والمعيشي"* (١٨).

كان انفجار المرفأ وتداعياته، قد استدعى تدخل الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، الذي زار بيروت في ٦ أغسطس ٢٠٢٠، وعمل على الاستفادة من ظروف الأزمة التي يواجهها اللبنانيين، في محاولة منه إلى إعادة فرض نوع من الوصاية على لبنان واللبنانيين. يتمثل دافع ماكرون من ذلك التدخل في محاولته تعزيز موقع باريس في الصراع الدائر في شرق المتوسط، وذلك بعد أن خسرت باريس موقعها في ليبيا لصالح أنقرة(١٩).

قام ماكرون بتقديم مبادرة للخروج من الأزمة السياسية والاقتصادية، ربط فيها المساعدات الدولية بتنفيذ إصلاحات اقتصادية ومكافحة الفساد وتشكيل حكومة اختصاصيين تحقق تلك الإصلاحات (٢٠). تلقى ماكرون وعدًا من الطبقة السياسية اللبنانية بتشكيل حكومة قبل الأول من سبتمبر بمناسبة مئوية تأسيس "لبنان الكبير". لكن لم يحدث أي من تلك الوعود، ولم يتم تشكيل أي حكومة أو تسمية رئيس جديد للوزراء منذ استقالة حكومة حسان دياب بعد انفجار المرفأ.

ذلك الشلل السياسي استدعي ضغط فرنسي على النخبة السياسية اللبنانية، أدت تلك الضغوط إلى ترشيح سفير لبنان لدى ألمانيا "مصطفى أديب" إلى منصب رئيس الوزراء، وفي ٣٠ أغسطس تم تكليف أديب بتشكيل الحكومة اللبنانية من قبل الرئيس اللبناني ميشيل عون، وذلك بعد أن حصل على دعم الأغلبية في مجلس النواب(٢١). وفي ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، قام ماكرون بزيارته

---

(١٧) كلمة رئيس الوزراء اللبناني السابق حسان دياب التي يعلن فيها استقالته، ١٠ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "العربي الجديد"، قناة الغد، تاريخ الاطلاع ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، ١٠:٠٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/BjnAQ

(١٨) كلمة حسان دياب، مرجع سابق.

(١٩) أين تتجه الأزمة السياسية في لبنان بعد انفجار مرفأ بيروت؟، ١٧ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "معهد الدوحة"، تاريخ الاطلاع ١٧ ديسمبر ٢٠٢٠، ١٠:١٥، متاح على الرابط التالي: https://cutt.us/cb8ro

(٢٠) Ellen Francis, Michel Rose, Macron promises angry Beirut crowds aid won't go to "corrupt hands", Reuters, August 06, 2020, Accessed, 09 December 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/MLqKp

(٢١) تكليف مصطفى أديب رسميا بتشكيل الحكومة اللبنانية، ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "بي بي سي"، تاريخ الاطلاع ٩

الثانية إلى بيروت معللاً تلك الزيارة بقوله: "عليَّ أن أتأكد أنه حقاً سيتم تشكيل حكومة مهمة لإنقاذ لبنان وإطلاق الإصلاحات لمكافحة الفساد وإصلاح ملف الطاقة وإعادة الإعمار"، مطالباً بـ "الإسراع بتشكيل الحكومة وبمهمة محددة"[٢٢].

لم يتول أديب بنفسه المشاورات مع القوى السياسية والكتل النيابية لتشكيل حكومته، ولكنه ترك تلك المهمة لـ "نادي رؤساء الوزراء السابقين" —سعد الحريري، نجيب ميقاتي، فؤاد السنيورة وتمام سلام. الراجح أن أديب وضع كامل ثقته وآماله في فاعلية الضغوط الفرنسية على الطبقة السياسية، التي في رأي أنها سوف تذعن للضغوط الفرنسية[٢٣]. لكن ذهبت تلك الآمال أدراج الرياح وتم عرقلة مشاورات تشكيل الحكومة بعد أن أصر —حزب الله وحركة أمل— على المطالبة بأن تكون وزارة المالية حصراً من نصيب الكتلة الشيعية والمشاركة في بقية التشكيل الحكومي.

أدت تلك العرقلة من قبل الثنائي الشيعي —حزب الله وحركة أمل— إلى اعتذار مصطفى أديب عن تشكيل الحكومة[٢٤]، في اليوم التالي على السابق على استقالة أديب، كان الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، قد عقد مؤتمر صحفي في باريس، في ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٠، اتهم خلاله القادة اللبنانيين "بخيانة" تعهداتهم وأمهلهم من ٤ إلى ٦ أسابيع إضافية لتشكيل حكومة في إطار المبادرة الفرنسية[٢٥].

استمر الفراغ الحكومي في لبنان ما يناهز الشهر، حتى خرج الرئيس اللبناني ميشيل عون في خطاب في ٢١ أكتوبر ٢٠٢٠، ألقى فيه باللوم على السياسيين الفاسدين. وفي ظل عدم وجود مرشح توافقي، كانت العودة إلى قواعد اللعبة القديمة بالاختيار من الطبقة التي ثار عليها الشارع اللبناني، وأعلن في اليوم التالي، تكليف سعد الحريري بتشكيل حكومة جديدة في إعلان واضح عن فشل كامل لمطالب الحراك الشعبي[٢٦].

إجمالاً، أحدث انفجار المرفأ سلسلة من التداعيات السياسية داخليًا ودولياً. داخلياً، أدى إلى تراجع قوى الثامن من آذار عن الانفراد بالمشهد السياسي واقصاء باقي الطبقة السياسية —تحديداً تيار المستقبل برئاسة الحريري، وهو ما بدا واضحاً في قبولهم لتكليف سعد الحريري لرئاسة الحكومة. أما دولياً، فقد أدى الانفجار إلى سلسلة من التدخلات الخارجية، كان أبرزها التدخل الفرنسي والأمريكي والإيراني والتركي، حيث توافد على لبنان مسئولين من تلك الدول؛ وذلك لمحاولة الدفع بلبنان في اتجاه الأجندة السياسية لتلك الدول، خاصة في ملف شرق المتوسط وتحجيم النفوذ الإيراني في المنطقة ضمن سياسية الضغط الأقصى التي تنتهجها إدارة الرئيس الأمريكي ترمب.

ديسمبر ٢٠٢٠، ٠٩:٥٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/As7eq

(٢٢) وصول ماكرون إلى لبنان في ثاني زيارة له بأقل من شهر، ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "روسيا اليوم"، تاريخ الاطلاع ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، ١٠:٠٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/glI8V

(٢٣) فواز طرابلسي، أزمة الانفجار وانفجار الازمات اللبنانية، (في) فصلية بدايات لكل فصول التغيير، العدد السابع والعشرون، ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cS4eH

(٢٤) مصطفى أديب رئيس الوزراء اللبناني المكلف يعتذر عن تشكيل الحكومة، ٢٦ سبتمبر ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "بي بي سي"، تاريخ الاطلاع ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، ١١:٠٥، متاح على الرابط التالي: https://cutt.us/9EaK0

(٢٥) ماكرون يتهم القادة اللبنانيين "بخيانة" تعهداتهم ويمهلهم ٤ إلى ٦ أسابيع إضافية لتشكيل حكومة في إطار المبادرة الفرنسية، ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٠، الموقع الإلكتروني: "فرانس ٢٤"، تاريخ الاطلاع ٩ ديسمبر ٢٠٢٠، ١١:٢٥، متاح على الرابط التالي: https://cutt.us/oaLY3

(٢٦) Chloe Cornish, Lebanon's Saad Hariri returns as PM a year after protests, financial times, 22 October 2020, Accessed, 09 December 2020, 11: 20, Available at: https://cutt.us/wGBxK

خاتمة: مآلات الأزمة

في مقدمة كتابه "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت"، يُعقب كارل ماركس على مقوله هيجل عن تكرار ظهور الشخصيات والأحداث لمرتين في تاريخ العالم، معتبراً أن هيجل نسى أن يضيف إلى مقولته تلك: "المرة الأولى كمأساة والمرة الثانية كمسخرة"[٢٧]. أما مأساة لبنان ومساخرها التي لا تنقضي أنها لا تمل من تكرار ظهور نفس الشخصيات التي أثبتت التجربة فشلها الذريع، ليس لمرتين بل لعدة مرات متعاقبة.

تنطبق مقوله ماركس على عملية تدوير الطبقة السياسية اللبنانية منذ نهاية الحرب الأهلية بشكل عام، وعلى عودة سعد الحريري كرئيس لوزراء لبنان بشكل خاص. فالحريري بعد أن استقال في ٢٩ أكتوبر ٢٠١٩، على أثر حراك ١٧ أكتوبر. يعود الحريري بعد ما يناهز العام، في ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، لتشكيل حكومته الثالثة منذ نوفمبر ٢٠٠٩[٢٨]، متعهدًا بتقديم أداء أفضل من المرات السابقة، وذلك في ظل أسوأ أزمة مالية يمر بها لبنان منذ عقود، ووباء فيروس كورونا، وانفجار مرفأ بيروت، وشلل سياسي تعاني منه لبنان منذ استقالة حكومة حسان دياب في ١٠ أغسطس ٢٠٢٠، وفقدان للدعم الإقليمي والدولي[٢٩].

على الرغم من الفرصة التاريخية التي مثلها حراك ١٧ أكتوبر، للطبقة السياسية وللبنان بشكل عام للخروج من الأزمات البنيوية، المتمثلة في الفساد والطائفية السياسية والتجاذبات الإقليمية والدولية، فإن تلك الطبقة لم تحسن اقتناص تلك الفرصة لكي تتنحى جانباً؛ لتجنب لبنان ويلات الدمار والفشل المتعاقب. تعاطت الطبقة السياسية اللبنانية وفق مصالحها الخاصة، وعملت على إنهاك الحراك والالتفات على مطالبه، حتى كان لها ما أرادت. ففي ذكرى الحراك يعود سعد الحريري رئيساً لوزراء لبنان، وهو المكتسب الوحيد الذي كان قد حققه الحراك.

حتى كتابه هذه الورقة، كان الحريري في مشاورات مستمرة منذ تكليفه بتشكيل الحكومة، وهي مشاورات شاقة خاصة في ظل تمسك الثنائي الشيعي بتولي حقيبة المالية، وإصرار جبران باسيل على اختيار سبعة وزراء مسيحيين –من أصل ١٨ حقيبة وزارية– على الأقل؛ وذلك لكي يضمن الثلث المعطل في الحكومة القادمة. على الجانب الدولي تصر باريس على تشكيل حكومة اختصاصيين، وهناك فيتو أمريكي على مشاركة حزب الله في الحكومة اللبنانية المقبلة، وذلك حتى يسمحا بتدفق المساعدات والقروض الخارجية.

وقد كشرت الولايات المتحدة عن أنيابها، بإظهارها عدم التسامح في مشاركة حزب الله في الحكومة اللبنانية، من خلال فرضها للعقوبات بحق زعيم التيار الوطني الحر جبران باسيل[٣٠]، الذي شغل منصب وزير الاتصالات والطاقة والشؤون الخارجية في عدة حكومات متعاقبة؛ حيث ترى واشنطن أن التيار الوطني الحر يوفر غطاءً مسيحياً لحزب الله. ترمي إدارة ترمب من تلك الخطوة إلى إظهار نفسها

---

(٢٧) كارل ماركس، الثامن عشر من بروميرلويس بونابرت"، في "مختارات ماركس انجلس" إلياس شاهين (مترجم) (دار التقدم: الطبعة الأولي موسكو، ١٩٨٧) الجزء الأول، ص ١٣٨.

(٢٨) Sarah Dadouch, Lebanon names Saad Hariri as prime minister, almost one year after he resigned, Washington post, 22 October 2020, Accessed, 10 December 2020, 05: 05, Available at: https://cutt.us/WTt47

(٢٩)REBECCA COLLARD, Why Is Saad Hariri Back in Charge of Lebanon?, Foreign policy, 22 October 2020, Accessed, 10 December 2020, 05: 20, Available at: https://cutt.us/No5qx

(٣٠) Pranshu Verma and Ben Hubbard, U.S. Imposes Sanctions on Lebanese Politician Allied With Hezbollah, nytimes, 06 November 2020, Accessed, 17 December 2020, 11: 05, Available at: https://cutt.us/8E03R

بمظهر الداعم للحراك الشعبي والرافض لفساد الطبقة الحاكمة، وفي نفس الوقت إلى دفع باسيل إلى قطع علاقاته بالحزب، في محاولة لفرض مزيد من العزلة على الحزب.

وبالتالي، ففي ظل الضغوط الخارجية والداخلية على رئيس الحكومة المكلف سعد الحريري والطبقة السياسية اللبنانية، فيتوقع أن تسير الأزمة الحالية باتجاه أحد السيناريوهات التالية:

السيناريو الأول: يفترض أنه نتيجة الضغوط الدولية من باريس وواشنطن أن تسمح القوى السياسية بتشكيل حكومة "تكنوقراط" يرأسها سعد الحريري لا تقوم على المحاصصة الطائفية وإنما على الكفاءات الوطنية التي تعمل على إحداث نقله نوعية في الاقتصاد.

السيناريو الثاني: يفترض هذا السيناريو المماطلة في عملية تشكيل الحكومة حتى ٢٠ يناير ٢٠٢١، أي حتى تسلم إدارة بايدن لزمام الأمور في الولايات المتحدة خلفاً لإدارة ترمب، وقيامها بتفاهمات مع القيادة الإيرانية ومن ثم حزب الله؛ وذلك للسماح لهم بالمشاركة في الحكومة اللبنانية أو مشاركة أحد ممثليهم.

ويرجح الباحث حدوث السيناريو الثاني، خاصة في ظل ضعف الضغوط الدولية في التأثير على القوى السياسية اللبنانية وخاصة فريق "٨ آذار" الذي يهيمن على الواقع السياسي اللبناني، والتي لن تثنيه الضغوط عن فرض إرادته. وكذلك في ظل حالة الاحباط العام التي أصابت الشارع اللبناني، خاصةً بعد سلسلة العنف التي تعرض لها الحراك سواء من قبل الميليشيات وأنصار الطبقة السياسية أو من قبل قوى الأمن اللبناني، وكذلك فإنه في ظل الأزمات الاقتصادية والمعيشية الطاحنة وأزمة جائحة كورونا، فليس من المستغرب أن همُّ المواطن اللبناني الوحيد أصبح في البحث عن سبيل لتجنب الجوع حتى الموت بدلاً من محاسبة السياسيين الفاسدين.

وحدوث أي من السيناريوهين سوف يفاقم من الأوضاع الاقتصادية للمواطنين اللبنانيين، حيث إن السيناريو الأول يفترض إحداث تغييرات هيكلية في الاقتصاد سوف تمس دعم السلع الأساسية والوقود، وقد لا تمس عمليات الهدر والفساد. والثاني سوف يعمل على استدامة الوضع الكارثي الحالي.

*****



حلقة جديدة في الأزمة الليبية: الاتفاق الليبي-الليبي

عبد الرحمن طارق فهيم(*)

مقدمة:

أخذت الحملة العسكرية "كرامة ليبيا" التي شنتها قوات اللواء المتقاعد خليفة حفتر على العاصمة "طرابلس" بالانحسار والتقهقر وتحول مسار الحرب لصالح "حكومة الوفاق الوطني" في طرابلس بعد الهجوم المضاد الذي شنته تحت اسم "بركان الغضب" بفضل الدعم التركي العسكري الذي مَكَّنها من تكبيد قوات حفتر خسائر كبيرة وإخراج قواته من محيط طرابلس ومن قاعدة الوطية الجوية في يونيو ٢٠٢٠، وألجأها إلى التراجع حتي بلغت مدينة "سرت" الساحلية وقاعدة "الجفرة" الجنوبية لتضرب قوات البركان عليهما حصارًا. منذ ذلك الحين تعالت نداءات وقف اطلاق النار من أطراف دولية متداخلة في الأزمة الليبية وكان أبرزها المصري والروسي لاعتبارات استراتيجية على رأسها الهزائم التي لحقت بحليفهم بشرق ليبيا. وقد بدا واضحا الغضب المصري من التقدم المحرز لصالح قوات الوفاق حتي هدد الرئيس المصري بأن "مدينة سرت" و"قاعدة الجفرة" خط أحمر النسبة لمصر وأن أي تقدم فيهما سيستدعي تدخلًا عسكريًا مصريًا، وظهر من اللقاء الذي جمع بين السيسي وحفتر وعقيلة صالح بالقاهرة حالة من الاضطراب والقلق حول تلك الهزائم المتتالية آنذاك، والتي نتج عنها تراجع مكانة حفتر العسكرية والسياسية وبروز نجم عقيلة صالح كطرف رئيسي في الأزمة الليبية.

وثبت من ذلك فاعلية التدخل التركي وقدرة حكومة الوفاق على تثبيت أركانها فعليا على الأرض، وأن النهج العسكري الذي كان يصر عليه حفتر كحل وحيد للأزمة الليبية وفرض هيمنته على كامل التراب الليبي كبده خسائر كبيرة وتراجع لصالح الحلول السياسية والدبلوماسية، ليمنح ذلك كافة مسارات التسوية الحالية والتي تعد امتدادا لمؤتمر برلين ومباحثات جنيف جدية وحافزا لتصبح أكثر فاعلية في حلحلة الأزمة الليبية والخروج من عنق المرحلة الانتقالية والاتفاق على كيفية إدارتها.

ونرصد بالتحليل في هذا التقرير آخر مستجدات مسارات تسوية الأزمة بين أطراف الصراع في ليبيا، ومحاور المفاوضات الحالية، وأهم تحديات تلك المسارات، والسيناريوهات المحتملة للأزمة الليبية في ظل الاتفاق "الليبي–الليبي" الجديد.

أولًا– مسارات تسوية الأزمة بين أطراف الصراع الليبي:

تأتي مسارات التفاوض الحالية كامتداد للمسارات الثلاثة (العسكري، والاقتصادي، والسياسي) التي انبثقت عن مؤتمر برلين المنعقد في أوائل العام الحالي، وتبناها مجلس الأمن بقراره ٢٥١٠، الذي دعا الطرفين للتوصل إلى اتفاق لوقف دائم لإطلاق النار. وقد دفعت الهزائم التي لحقت بقوات حفتر وتحقق توازن نسبي في الردع بين الطرفين بتلك المفاوضات إلى مزيد من الجدية خاصة من طرف حفتر الذي كثيرا ما انتهكت قواته كافة المحاولات السابقة لوقف اطلاق النار على نطاق واسع. ومنذ ٢١ أغسطس الماضي يسود في ليبيا وقف لإطلاق النار بعد هدنة أُبرمت بين رئيس حكومة الوفاق فايز السراج ورئيس البرلمان المجتمع بطبرق عقيلة صالح، تحولت لاحقا لوقف دائم لإطلاق النار والعمليات القتالية في عموم البلاد، والتوافق على جعل منطقتي سرت والجفرة منزوعتي السلاح تحت تأمين عناصر

(*) باحث في العلوم السياسية.

أمنية؛ بناء على محادثات أميركية مع الطرفين[١]، إضافة إلى إعادة تصدير النفط، والتمهيد لإجراء انتخابات رئاسية وبرلمانية في مارس المقبل. وقد أشارت عدة تقارير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي أقنعت أطرافاً وأجبرت أخرى على القبول بهذا الحل لمعضلة سرت والجفرة[٢]. وبالرغم مما ظهر من حديث المتحدث باسم قوات حفتر "المسماري" من تململ حفتر وعدم قبوله بالاتفاق بين السراج وعقيلة صالح إلا أن معسكر حفتر أعلن في النهاية قبوله باتفاق وقف اطلاق النار[٣]؛ لتبدأ عملية تفاوض شاملة بين لجان تمثل الحكومة الليبية وبرلمان طبرق.

وكان قد سبق هذه العملية الشاملة جولة أولى من الحوار الليبي ما بين ٦ و١٠ من سبتمبر الماضي، جمع وفدي المجلس الأعلى للدولة ومجلس نواب طبرق بالمغرب ولحقتها عدة لقاءات أخرى عقب اتفاق الهدنة بمدينة بوزنيقة المغربية وجنيف والقاهرة وتضمنت عدة ملفات رئيسية. فقد ركزت المفاوضات المغرب على تقاسم المناصب السيادية، وإدارة تشكيل حكومة انتقالية جديدة، والملف العسكري ووقف اطلاق النار ووجود المرتزقة، وملف الاقتصاد الليبي خاصة ملفات: الأموال الليبية بالخارج والمؤسسات الاقتصادية وملف النفط الليبي، وقد تعززت كافة المسارات وأصبحت أكثر جدية بالهدنة التي تحولت لاتفاق لوقف دائم لإطلاق النار بين الطرفين والتي دُعِمت بإجراءات بناء الثقة بينها. ونستعرض فيما يلي اتفاق وقف اطلاق النار والمسارات الثلاثة لحل الأزمة الليبية:

- **اتفاق وقف إطلاق النار:**

بعد مفاوضات استمرت خمسة أيام ضمن الجولة الرابعة من المحادثات في جنيف بين أعضاء اللجنة العسكرية الليبية المشتركة "٥+٥"؛ أبرم طرفا النزاع في ليبيا اتفاقا لوقف دائم لإطلاق النار في كل مناطق ليبيا برعاية الأمم المتحدة، وقد دخل الاتفاق حيز التنفيذ (الجمعة ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠). ومثل الوفدان الموقعان قوات حكومة الوفاق المعترف بها دوليا وقوات اللواء المتقاعد خليفة حفتر، وقد اتفقا على الانسحاب عسكريا من سرت والجفرة، وأن يغادر جميع المرتزقة والمقاتلين الأجانب ليبيا في غضون ثلاثة أشهر من توقيع الاتفاق، وتحديد المجموعات المسلحة الوطنية ودمجها في مؤسسات الدولة الليبية. ومن المقرر أن تبحث الاجتماعات المقبلة للجنة ٥+٥ توحيد المؤسسات العسكرية الليبية. كما طلب الطرفان رفع الاتفاق إلى مجلس الأمن الدولي لاعتماد قرار ملزم لكل الجهات بوقف دائم لإطلاق النار، وقد أكدت المبعوثة الأممية بالإنابة "**ستيفاني وليامز**" أن المجلس يدعم الاتفاق، وأنه سيستخدم العقوبات ضد من يعرقله[٤].

(١) محمود رفيدة، سرت والجفرة منزوعتا السلاح...هذا ما يريده ترامب وأردوغان وسط ليبيا، موقع الجزيرة نت، ١٣ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/32fQnUM

(٢) د.نزار كريكش، أمريكا تضغط بقوة لإنجاحه...هل ينهي اتفاق وقف إطلاق النار الأخير الصراعَ الليبي المستمر منذ ٦ سنوات؟، موقع عربي بوست، ٢٢ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3k4uGNr

(٣) للمزيد راجع التالي:

- علاء عبد الرحمن، المسماري يهاجم وقف إطلاق النار...هل انقسم "الشرق"؟ (فيديو)، موقع عربي ٢١، ٢٣ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2HVuB1M
- ليبيا...قوات حفتر ترفض وقف إطلاق النار وحكومة الوفاق تتهمها بالعودة إلى مربع الحرب، موقع الجزيرة نت، ٢٤ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3mEiAfG
- حسين دسوقي، المسماري: الجيش الليبي ملتزم باتفاق وقف إطلاق النار، أخبار اليوم، موقع أخبار اليوم، ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2THVit9

(٤) يقضي بسحب القوات من سرت والجفرة...فرقاء ليبيا يوقعون اتفاقا لوقف دائم لإطلاق النار، الجزيرة نت، ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/34wBy1U

وقد لاقى الاتفاق ترحيبا دوليا كبيرا، غير أن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان –الذي دعّم بقوة قوات حكومة الوفاق– كان له رأيٌ آخر، وقد أعرب عن اعتقاده بأن توقيع اتفاقٍ لوقف إطلاق نار دائم في ليبيا ضعيف المصداقية، وقال إن الاتفاق تم على مستوى مندوبيْن "أحدهما يمثل الانقلابي حفتر"، والآخر قائد عسكري من مصراتة يمثل حكومة الوفاق الوطني التي يرأسها فايز السراج، ولفت إلى أن اتفاق وقف إطلاق النار في ليبيا ليس اتفاقا على أعلى مستوى، وشكك في استمراره ونجاحه: "ستُظهر الأيام مدى صموده"، وأردف: "أتمنى أن يتم الالتزام بهذا القرار لوقف إطلاق النار".

وتحمل انتقادات الرئيس التركي لاتفاق وقف إطلاق النار عدة دلالات يشير بعضها إلى أن اتفاق وقف إطلاق النار في ليبيا لم يكن على مستوى تطلعات تركيا، خاصة أنه لم يستند إلى ما وصفتها الرئاسة التركية –في وقت سابق– بعودة خطوط الجبهة في ليبيا عام ٢٠١٥، وهو ما يستدعي انسحاب قوات حفتر من مدينة سرت المطلة على البحر المتوسط، والتي تعد بوابة العبور إلى حقول النفط في الشرق، وكذلك انسحابها من قاعدة الجفرة الجوية. ويشير ذلك إلى تخوف تركي من انتكاسة الجهود التي بذلتها تركيا مع قوات حكومة الوفاق لدحر قوات حفتر؛ حيث ترى أنقرة ضرورة تبني موقف قوي لإبعاد خليفة حفتر عن المشهد الليبي في الفترة المقبلة، فضلا عن أن الاتفاق لم يقدم حلولا واضحة لمشاكل عالقة كمسألة المقاتلين الأجانب الذين جلبهم الروس والإماراتيون وكيف سيتم سحبهم من ليبيا في غضون ثلاثة أشهر. ومن جهة أخرى تتخوف تركيا من تهميش دورها في المرحلة المقبلة بعد دورها الكبير في دعم حكومة الوفاق وما ترتب عليه من ترابط في المصالح بينهما، ومصير الاتفاقية الأمنية التي أبرمتها تركيا مع حكومة السراج؛ لأن أحد بنود الاتفاق ينص على "تعليق الاتفاقيات العسكرية التي أبرمتها أطراف الصراع في ليبيا"[٥].

ويواجه هذا الاتفاق اختبارًا حقيقيًّا من حيث التطبيق وآليات المراقبة المحلية والدولية له؛ وهو ما عبَّر عنه مراقبون أن الاتفاق قد ينزع فتيل الصراع العسكري للأزمة شريطة إبعاد أي أطراف محلية قد تعرقله. وصمود الاتفاق يتوقف على توافق ودعم دولي من الدول المعنيّة بالأزمة الليبيّة، وعلى رأسها: روسيا وتركيا، على ضرورة تطبيق كافة بنوده، ومن أهمها: انسحاب القوات الأجنبية والمرتزقة من ليبيا، وإبعاد شخصية حفتر من المشهد نهائيا، وضمان عدم خرقه أو تلاعبه بهذا الاتفاق[٦].

- **محاور المفاوضات**

أ. مباحثات اللجنة العسكرية المشتركة

تمثل أول مسارات حل الأزمة في: اللجنة العسكرية الليبية المشتركة (٥+٥)، تحت رعاية الأمم المتحدة بجنيف. وشارك بها خمسة من كبار الضباط ممثلين عن حكومة الوفاق وخمسة من كبار الضباط يمثلون قوات حفتر، والتي عقد منها أربع جولات حتى الآن؛ أُولاها كانت (الاثنين ٣ فبراير ٢٠٢٠)، وجرى الاتفاق حينها على ضرورة استمرار التفاوض وصولا لاتفاقية شاملة لوقف إطلاق النار في ليبيا، وبالرغم من تأكيد الطرفين على استمرار الهدنة التي بدأت حينها في ١٢ يناير الماضي وعلى أهمية احترامها وتجنب خرقها لكنها لم تستمر، وقد دعم الطرفان حينها عملية

(٥) زاهر البيك، لماذا لم ترحب تركيا باتفاق وقف إطلاق النار في ليبيا؟، الجزيرة نت، ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/37Ey92Z

(٦) انتقاد تركي وترحيب غربي وبيان مصري...أبرز ردود الفعل إزاء اتفاق وقف إطلاق النار بليبيا، الجزيرة نت، ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/34tMlK3

تبادل الأسرى وإعادة الجثامين، وضرورة الإسراع بعودة النازحين إلى منازلهم لا سيما في مناطق الاشتباكات[٧].

وكانت المرحلة الثانية؛ التي بدأت (الثلاثاء ١٨ فبراير ٢٠٢٠) قد توصلت فيها اللجنة العسكرية المشتركة «٥+٥» إلى مسودة اتفاق وقف مستدام لإطلاق النار وإعادة الأمن والاستقرار إلى المناطق المدنية، وذلك في نهاية الجولة الثانية من المحادثات؛ إذ اتفق الطرفان على عرض المسودة على قيادتيهما لمزيد من التشاور. على أن تلتقي اللجنة في جنيف لاستئناف المباحثات في شهر (مارس ٢٠٢٠)، واستكمال إعداد اختصاصات ومهام اللجان الفرعية اللازمة لتنفيذ الاتفاق المنشود، وعملت البعثة مع الطرفين خلال هذه الجولة على «إعداد مسودة اتفاق لوقف دائم لإطلاق النار وتسهيل العودة الآمنة للمدنيين إلى مناطقهم، مع وجود آلية مراقبة مشتركة تقودها وتشرف عليها كل من البعثة واللجنة العسكرية[٨]، إلا كل تلك التفاهمات ظلت حبيسة غرف المفاوضات ولم تحقق أي تغيير على حالة المعارك على الأرض.

وقد أحدثت الانتصارات التي حققتها قوات الوفاق حتى بلوغها مدينة سرت والجفرة فيما بعد هزة عنيفة في صلابة حفتر تجاه وقف إطلاق النار، ومع ضعف دور حفتر العسكري وبروز عقيلة صالح لقيادة مفاوضات مع حكومة الوفاق لإيقاف حالة الاحتراب الدائرة، برز دور اللجنة العسكرية المشتركة مجددا والتي انتهت اجتماعاتها بجنيف ٢٣ أكتوبر بتوقيع اتفاق لوقف اطلاق النار والتأكيد على إخراج المرتزقة من ليبيا، وقد انتهت اللجنة في اجتماع آخر لها بمدينة الغردقة المصرية إلى الاتفاق على تشكيل قوة شرطة ليبية مشتركة بسلاح خفيف ومتوسط؛ مؤلفة من عناصر أمنية من حكومة الوفاق والحكومة الموقتة للإشراف على أمن المدينة؛ تمهيداً لإخلاء المدينة من السلاح واحتضانها سلطة ليبية جديدة وموحدة بعد انسحاب قوات طرفي الصراع منها[٩].

وعقدت اللجنة اجتماعها الأخير –والجولة الخامسة لها– في مدينة غدامس (غرب)، موصيةً باستئناف الطيران إلى سبها وغدامس وتأهيل المطارات وفق الحاجة، وقد اتفقت أيضا على تشكيل لجنة عسكرية فرعية للإشراف على عودة القوات إلى مقراتها وسحب المرتزقة من خطوط التماسّ، وكذلك تدبير مراقبة وقف إطلاق النار بمشاركة مراقبين دوليين. وانتظار ما ستسفر عنه نتائج الاجتماع المقرّر في السادس عشر من الشهر الجاري في مدينة البريقة، من أجل التوافق على توحيد «حرس المنشآت النفطية»، وكان من المفترض أن تعقد لقاءات أخرى للجنة قبل هذا الموعد في مدينة سرت، التي اتُّخذت مقرّاً رئيسياً للاجتماعات خلال المرحلة المقبلة[١٠].

ب. المباحثات السياسية

عُقدت أولى جولات المسار السياسي (الأربعاء ٢٦ فبراير ٢٠٢٠) بهدف الوصول لأرضية سياسية مشتركة تؤول لاتفاق سياسي شامل؛ وكان من المفترض أن يضم الحوار السياسي ١٣ ممثلاً عن برلمان طبرق الداعم لقوات حفتر و١٣ ممثلاً عن مجلس الدولة الموالي لحكومة

(٧) جولة جديدة قريبا لمحادثات ليبيا بجنيف...هذه نقاط الاتفاق، عربي ٢١، ٨ فبراير ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٩ فبراير ٢٠٢٠، الساعة ١٤:٠٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2Th4uoT

(٨) بيان بعثة الامم المتحدة للدعم في ليبيا حول الجولة الثانية من محادثات اللجنة العسكرية المشتركة ٥+٥، بعثة الأمم المتحدة للدعم في ليبيا، ٢٤ فبراير ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٦ فبراير ٢٠٢٠، الساعة ١٤:١١، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/39kkoVd

(٩) محمد العربي، هل يمهد الاتفاق الليبي في القاهرة لحل نهائي لأزمة سرت؟، اندبندنت عربية، ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3oQSxEf

(١٠) ليبيا...تفاهمات غدامس تضع آليات تنفيذ اتفاق جنيف (تحليل)، وكالة الأناضول، ٦ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/38AfKF3

الوفاق[١١]، بالإضافة لشخصيات سياسية ليبية وزعماء أحزاب تلقت دعوة من غسان سلامة المبعوث الأممي لليبيا آنذاك[١٢]، إلا أنها تمت في أجواء ساخنة كان القتال محتدما حينها بين الطرفين، لتستأنف مفاوضات المسار السياسي قبيل الهدنة التي أعلنها السراج وعقيلة صالح في مدينة بوزنيقة المغربية، وجاء معها ملتقى الحوار الليبي بتونس ليكون استكمالا للجولات السابقة وعوضا عن الملتقي الجامع الذي كان مخططا له قبل هجوم حفتر على طرابلس في مارس من العام الماضي ٢٠١٩.

ويبحث المسار السياسي عدة قضايا جوهرية في مسألة التسوية السياسية خلال ثلاثة مسارات رئيسية، هي: المسار التنفيذي في جنيف، والمناصب السيادية في المغرب، والمسار الدستوري في مصر، تتضمن بمجموعها توحيد المؤسسات، ووضع رؤية وبرامج محددة لحلحلة الوضع المعيشي والمتأزم في ليبيا، وغيرها كمسألة التشكيلات المسلحة، وتتلخص في تشكيل مجلس رئاسي من رئيس ونائبين وحكومة منفصلة عنه، ثم وضع معايير شاغلي المناصب السيادية انتهاء بالمسار الدستوري. وفيما يلي إشارات إلى مضامين هذه الأمور:

- **اتفاق المناصب السيادية:**

عقدت جولتان من المباحثات بالمغرب بين الطرفين أولاهما كانت ما بين ٦ و١٠ من شهر سبتمبر الماضي بمدينة بوزنيقة الساحلية جنوبي العاصمة المغربية الرباط، والذي نتج عنه اتفاق وفدي المجلس الأعلى للدولة الليبي ومجلس النواب بطبرق على مسودة اتفاق بشأن معايير اختيار شاغلي المناصب السيادية في انتظار اعتماده من قبل المجلسين. وكان الطرفان أعلنا في ١٠ سبتمبر الماضي توصلهما لاتفاق شامل بشأن المعايير والآليات الشفافة والموضوعية لتولي المناصب السيادية بهدف توحيدها، ويتعلق الاتفاق بتطبيق المادة ١٥ من اتفاق الصخيرات السياسي، الموقع في ١٧ ديسمبر ٢٠١٥. ونظرا للانقسام الكبير في ليبيا بين شرقها وغربها، فإن أغلب هذه المؤسسات السيادية، إن لم يكن كلها، أصبحت منقسمة، وبرأسين. ومن بين المؤسسات الأخرى غير السيادية التي من الممكن إخضاعها لنفس آليات التعيين: المؤسسة الوطنية للنفط، والمؤسسة الليبية للاستثمار، بالنظر إلى ثقلهما الاقتصادي والمالي، والتنافس المحموم عليهما[١٣].

وقد استؤنفت مفاوضات الجولة الأولى في أواخر شهر سبتمبر، وقد أحرزت تقدما حول آلية اختيار المؤسسات السيادية والرقابية والقانونية، وعلى طرق وآليات الترشيح لهذه المؤسسات السيادية، إلا أن رئيس مجلس النواب المنعقد في طبرق عقيلة صالح قال في مقابلة تلفزيونية آنذاك إنه يشترط الاعتراف بمخرجات برلين وإعلان القاهرة من المجلس الأعلى للدولة ورئيسه خالد المشري قبل أي لقاء بينهما وقد كانت هناك مساعٍ مغربية لعقد لقاء رسمي بينهما، وأبدى المشري استعداده للحضور، لكن ظهر تردد من جانب عقيلة[١٤].

ثم انطلقت الجولة الثانية من المفاوضات أوائل شهر أكتوبر من أجل استكمال الإجراءات اللازمة التي تضمن تنفيذ وتفعيل هذا الاتفاق، وقد تُوِّجت بالتوصل إلى

---

(١١) الحوار السياسي حول ليبيا ينطلق في جنيف..."بمن حضر"، العربية نت، ٢٦ فبراير ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٥ فبراير ٢٠٢٠، الساعة ١٩:١٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2PLiZiB

(١٢) الكشف عن قائمة المشاركين في مباحثات ليبيا السياسية المتواصلة في جنيف، المغرب اليوم، ٢٨ فبراير ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٣٠ فبراير ٢٠٢٠، الساعة ١٠:٠٦، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2VQ8Bd0

(١٣) خالد مجدوب، المغرب...طرفا الحوار الليبي يوقعان مسودة اتفاق المناصب، وكالة الأناضول، ٦ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2TLgC0X

(١٤) الحوار الليبي...وفد مجلس الدولة يتوجه إلى الرباط وجهود مغربية لجمع المشري وصالح، الجزيرة نت، ١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jPSIvP

تفاهمات شاملة بشأن معايير اختيار المناصب القيادية للمؤسسات السيادية التي تحددها المادة الـ١٥ من الاتفاق السياسي الموقَّع في الصخيرات عام ٢٠١٥، وأنهما يضعان التفاهمات التي جرى الاتفاق بشأنها رهن إشارة مؤسستي المجلس الأعلى للدولة ومجلس النواب بطبرق للتصديق عليها[١٥].

- **حكومة جديدة ومقرها سرت**

كان من نتائج المباحثات بين أطراف الأزمة التوافق على اختيار مدينة "سرت" لتكون مقرا جديدا للسلطة التنفيذية المرتقب تشكيلها، كون كل الأطراف الليبية تستطيع أن تصل إلى هذه المدينة (التي يسيطر عليها حفتر الآن)، وتتوفر بها البنية التحتية التي تحتاجها السلطة المؤقتة، حسب ما صرح عقيلة صالح، إلا أن عضو لجنة الحوار عن مجلس الدولة، عبد القادر احويلي أكد أن "كل ما قاله رئيس البرلمان يعد حتى الآن مبادئ فقط، ولم يصل إلى مرحلة الاتفاقات، كون المخرجات المبدئية في مونترو وبوزنيقة والقاهرة تحتاج إلى اعتماد: إما من مجلس النواب مجتمعا ومجلس الدولة أيضا مجتمعا، أو لجنة الحوار السياسي الليبي المجتمعة في تونس"[١٦]. ويشترط عقيلة صالح جعل سرت والجفرة منزوعتي السلاح بجعل سرت مقرا للحكومة المؤقتة؛ وهو يثير تساؤلات حول قدرة عقيلة صالح على فرض قرار انسحابات المرتزقة الروس من سرت والجفرة وجعلهما منزوعتي السلاح حتى تصبح سرت مقرا للحكومة الجديدة المؤقتة.

- **المسار الدستوري**

استضافت القاهرة في ١١ أكتوبر الماضي وفدين من المجلس الأعلى للدولة ومجلس النواب بطبرق، للتباحث بشأن المسار الدستوري لحل الأزمة الليبية، وتتكون اللجنة من عشرة أشخاص، بينهم ثلاثة من أعضاء الهيئة التأسيسية لصياغة الدستور الليبي بصفة مستشارين، وستعمل البعثة الأممية في النهاية على جمع المشاركين بحوارات جميع المسارات في جلسة واحدة، لإجراء صياغة نهائية لما جرى التوصل إليه[١٧].

وقد خلصت اجتماعات طرفي النزاع الليبي في مصر حول المسار الدستوري إلى الاتفاق على عقد جولة ثانية من المباحثات، وفق ما جاء في البيان الختامي للاجتماعات. وأضاف البيان: "أجريت مُناقشات قانونية حول إمكانية الاستفتاء على مشروع الدستور الحالي من عدمه، وطُرِحت على طاولة المفاوضات آراء ومقترحات عِدة (لم يكشفها البيان)". وقد تمسك مجلس الدولة بضرورة إجراء استفتاء لليبيين على مشروع الدستور، فيما دعا برلمان طبرق إلى تعديله، وحثَّت البعثة الأممية الحاضرين على ضرورة الخروج باتفاق قانوني يضمن ترتيبات دستورية توافقية تسمَحُ بتفعيل الاتفاق السياسي الشامل، وفق ما جاء في البيان. وأفاد البيان بأن "الطرفين أبديا مرونة فائقة في الحوار، واتفقا على الاستمرار في المناقشات، وأعربا عن رغبتِهِما في عقد جولة ثانية في مصر لاستكمال المناقشات البناءة حول الترتيبات الدستورية"[١٨].

---

(١٥) تفاهمات جديدة باتجاه الحل السياسي...وفدا الحوار الليبي يوقعان في المغرب اتفاقا بشأن اختيار المناصب السيادية، الجزيرة نت، ٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2GuS8WI

(١٦) علاء فاروق، ماذا وراء حديث "عقيلة" عن مرحلة انتقالية ونقل الحكومة لسرت؟، عربي ٢١، ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3oSaZMw

(١٧) القاهرة تستضيف اليوم مباحثات ليبية حول المسار الدستوري، الجزيرة نت، ١١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/364mHem

(١٨) المباحثات الليبية بمصر تنتهي بالدعوة لجولة ثانية حول الدستور، عربي ٢١، ١٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3n1vogH

- **الانتخابات البرلمانية والرئاسية**

وفي نفس السياق جرت مشاورات بين الأطراف الليبية في مونترو السويسرية في الفترة من ٧ إلى ٩ سبتمبر الماضي، وكانت الأطراف الليبية التي اجتمعت في مونترو رفعت توصياتها إلى الحوار الشامل الذي سيعقد في الفترة القادمة في جنيف برعاية البعثة الأممية. ومن أهم هذه التوصيات: الذهاب إلى مرحلة انتقالية جديدة مدتها ١٨ شهرا، وتعديل المجلس الرئاسي، وإجراء انتخابات رئاسية وبرلمانية وفق قاعدة دستورية[١٩]. ووفق البيان الختامي للمشاورات ستبدأ هذه الفترة (الانتقالية) بإعادة تشكيل المجلس الرئاسي، وإنشاء حكومة وحدة وطنية تمثل الجميع وتكرس جهودها لتقديم الخدمات وتهيئة الظروف اللازمة لإجراء الانتخابات الوطنية، ويشمل ذلك تنفيذ قانون العفو الذي أقره البرلمان، وتسهيل عودة النازحين ومن يعيشون في الشتات، كخطوة ضرورية لتحقيق المصالحة الوطنية التي تشتد الحاجة إليها. كما ثمن البيان مقترح "نقل الوظائف والمكاتب الحكومية الرئيسية مثل السلطة التنفيذية ومجلس النواب، على أساس مؤقت، إلى سرت بعد تنفيذ الترتيبات الأمنية واللوجستية المناسبة[٢٠].

وفي لوزان السويسرية، جرت مباحثات أخرى بين ممثلين عن مجلسي النواب في طبرق والأعلى للدولة والمجلس الرئاسي لحكومة الوفاق، كاستكمال لمباحثات "مونترو"، ومهدت هذه المباحثات للملتقى السياسي الليبي المُنعقد في تونس من ٨ إلى ١١ نوفمبر ٢٠٢٠. وناقشت الوفود المجتمعة في لوزان آليات إعادة تشكيل المجلس الرئاسي، وإنشاء حكومة وحدة وطنية، ومعايير اختيار وزراء الحكومة وفصلها عن المجلس الرئاسي لحكومة الوفاق الوطني. وتوافقت الوفود في اجتماعات "مونترو" السابقة حول إجراء الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في نهاية فترة انتقالية تمتد إلى ١٨ شهرا وفق إطار دستوري يتم الاتفاق عليه[٢١].

وقد صرح عقيلة صالح أن فترة السلطة المؤقتة قسمت إلى ثلاث مراحل، الأولى– توحيد المؤسسات الليبية، وتوفير حاجات المواطنين الليبيين، والثانية– إقرار القواعد الدستورية والقانونية للانتخابات الرئاسية والبرلمانية، ثم الثالثة– الانتخابات، ويختار الشعب الليبي رئيسا ومجلس نواب جديدا"[٢٢].

- **ملتقى الحوار السياسي الليبي بتونس**

يأتي ملتقى الحوار السياسي الليبي بتونس كقناة جامعة لكافة المسارات السياسية السابقة، بهدف وضع ترتيبات الحكم والتمهيد لإجراء انتخابات في أقصر فترة ممكنة. وهدف الملتقى –بشكل عام– إلى تحقيق رؤية موحدة بشأن إطار وترتيبات الحكم، والتي ستفضي إلى إجراء انتخابات وطنية في أقصر إطار زمني ممكن من أجل استعادة سيادة ليبيا والشرعية الديمقراطية للمؤسسات الليبية، وسيأخذ الملتقى في الاعتبار توصيات مونترو، والتفاهمات التي توصل إليها الليبيون في محادثات بوزنيقة والقاهرة[٢٣].

وقد عقدت الممثلة الخاصة للأمين العام للأمم المتحدة بالإنابة ستيفاني وليامز أول اجتماع –عبر آلية الاتصال

---

(١٩) مباحثات ليبيا...توقيع اتفاق بشأن المناصب السيادية وتوصيات حول الانتخابات والفترة الانتقالية، الجزيرة نت، ١٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2JxPVuJ

(٢٠) سويسرا...اجتماع التشاور الليبي يوصي بفترة انتقالية ١٨ شهرا، وكالة الأناضول، ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3enMDFx

(٢١) مباحثات ليبيا...تفاهمات مبدئية بجنيف بشأن سرت والجفرة وملفات أخرى في مفاوضات بلوزان، الجزيرة نت، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2HzzA7U

(٢٢) علاء فاروق، ماذا وراء حديث "عقيلة" عن مرحلة انتقالية ونقل الحكومة لسرت؟، مصدر سابق.

(٢٣) بهدف ترتيبات الحكم ووضع إطار زمني للانتخابات...استئناف الحوار الليبي في تونس، الجزيرة نت، ١٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3867dcq

الافتراضي– في مسار ملتقى الحوار السياسي الليبي، والذي كان بمثابة لقاء تحضيري تم خلاله إطلاع أعضاء ملتقى الحوار السياسي الليبي على ما تم إنجازه مؤخرا في المسارات العسكرية والاقتصادية ومسار حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، وقد انطلقت الاجتماعات المباشرة بين أعضاء الحوار الليبي ابتداء من يوم ٩ نوفمبر في العاصمة التونسية.

واتفق المشاركون في ملتقى الحوار الليبي على إطلاق عملية سياسية سُميت "المرحلة التمهيدية للحل الشامل"، ونص الاتفاق على صون سيادة الدولة الليبية وتعهدِ أطراف النزاع بعدم ارتهان القرار الليبي ومقدرات البلاد لأي قوة خارجية، وتوحيد مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية. وبشأن السلطة السياسية، نصَّت الوثيقة على أنها تتكون من المجلس الرئاسي، الذي تُمثل فيه أقاليم البلاد الثلاثة بالتساوي، وحكومة الوحدة الوطنية، على أن تُنتخب الهيئتان بشكل متزامن من طرف ملتقى الحوار السياسي الليبي. وأشارت الوثيقة إلى أن المرحلة التمهيدية للحل الشامل تبدأ من منح الثقة للحكومة القادمة، على ألا تتجاوز ١٨ شهرا، وتنتهي بانتخابات رئاسية وبرلمانية.

ثانيًا– تحديات الاتفاق الليبي–الليبي:

على الرغم من الجهود المبذولة من البعثة الأممية وطرفي الأزمة الليبية خلال المباحثات السالف ذكرها بكافة مساراتها للوصول لاتفاق جامع حول إدارة المرحلة الانتقالية والوصول لسلطة تنفيذية وتشريعية منتخبة، وذلك بالتوازي مع محاولات الوصول لاتفاق حول إدارة ملفات جوهرية وأحد أكبر مسببات استمرار الصراع في ليبيا بالمرحلة الانتقالية، وآخرها التجهيزات الحالية للمؤتمر الجامع بتونس لتحديد مسارات مهمة تخص إجراء انتخابات ديمقراطية في ليبيا، إلا أن هناك عدة تحديات في إدارة المسارات السابقة بالمرحلة الانتقالية ستختبر مدى قدرة الطرفين على الإيفاء بمتطلباتها، وتتجسد تلك التحديات في ستة تحديات رئيسية:

١. إدارة الشأن العسكري وملف المليشيات الأجنبية

يأتي الملف العسكري كأحد أبرز التحديات التي تواجه أي جهود لحل الأزمة الليبية، خاصة مع تفاقم مسألة الإمداد العسكري من قبل حلفاء طرفي النزاع وعلى وجه الخصوص حفتر وحلفائه من الروس والإماراتيين بالأسلحة والمرتزقة؛ حيث لا تكاد شحنات الأسلحة والمرتزقة تتوقف حتى تتجدَّد عمليات الإمداد تلك من حين لآخر. وعلى الجانب الآخر، فإن حكومة الوفاق ليست بأفضل حال؛ حيث إنها تعتمد أيضًا في قوتها على مليشيات مسلحة غير نظامية، ولم تتمكن من إخضاعها لسلطتها بالكامل حتى الآن ووجود نزاعات بين الكتائب المصراتية والطرابلسية على النفوذ بالعاصمة طرابلس[٢٤].

ويعتبر ملف مليشيات المرتزقة أحد أهم التحديات التي يواجهها اتفاق وقف إطلاق النار بين الطرفين في ظل استمرار امتدادات الإمارات وروسيا لحفتر، وتركيا لحكومة الوفاق؛ حيث إن هناك ٣٥٠ رحلة إمداد عسكرية روسية وصلت ليبيا خلال الأشهر التسعة الأخيرة، وبمتابعة الجسر الجوي الروسي يُلاحظ أن الرحلات التي سُجِّلت في ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٩ وعددها ثمانية وصل عددها في يوليو/تموز ٢٠٢٠ إلى ٧٥ رحلة؛ وهي زيادة تُظهِر نيّات موسكو الجادة للغاية على الأراضي الليبية[٢٥]، وتقول مديرة استخبارات القيادة الأفريقية بالبنتاغون الأدميرال هايدي بيرغ أن مجموعة فاغنر لديها الآن ٣٠٠٠ عنصر و٢٠٠٠ مرتزق سوري هناك، بينما تمتلك تركيا ٥٠٠٠ مرتزق سوري خاص بها، حدّ تصريحها لـ"نيويورك تايمز"، وقد سبق أن

---

(٢٤) بلال عبد الله، أزمة الاحتجاجات في العاصمة الليبية طرابلس: الأبعاد وحدود الاحتواء، مركز الإمارات للسياسات، ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2I6To30.

(٢٥) حشد عسكري غير مسبوق...ما الذي تحضر له روسيا في ليبيا الآن؟، ميدان، الجزيرة نت، ١١ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jWwh8h.

أعلنت القيادة الأميركية في أفريقيا "أفريكوم" رسميًّا أن موسكو أرسلت مقاتلات عسكرية إلى ليبيا لدعم "فاغنر"، ونشرت في مايو المنصرم صورًا لمقاتلات ميج ٢٩ وسوخوي سو ٢٤ أُرسِلت إلى قاعدة الجفرة الجوية[٢٦].

وإلى جانب ملف المرتزقة فإن هناك شكوكًا حول إمكانية بناء جيش وطني موحد وجهاز شرطي موحَّد في ظل التباين والعداء بين قوات الشرق والغرب وقيادات كلا الجانبين لا تسيطر سيطرة كاملة على المليشيات، فضلا عن تباين الرؤى بين القيادات العسكرية والمليشيات، فمن جانب حفتر لا يمكن الجزم بقدرته على التحكم في ملف مرتزقة فاغنر، كما أن مليشيات كان قد أعلنت رفضها أكثر من مرة لكافة محاولات التهدئة السابقة، إلى أن ألجأتها الهزائم العسكرية هي ومجمل قوات حفتر على التراجع نحو سرت والجفرة.

وعلى الجانب الآخر في حكومة الوفاق هناك تنافس ومشاحنات قديمة بين المليشيات المصراتية والطرابلسية وحدها هجوم حفتر على طرابلس، فضلا عن التباين في الرؤى بين القيادة العسكرية والسياسية المشاركة في مفاوضات اللجنة العسكرية المشتركة مع القادة الميدانيين في حكومة الوفاق؛ والتي تميل نحو الاندفاع المسلح وعدم إبداء أي مظاهر للملاينة، ولا نعلم هل هو تبادل أدوار داخل حكومة الوفاق أم إنه اختلاف حقيقي في الرؤي؟ وهناك شواهد على هذا التباين؛ حيث اعتقلت كتيبة ثوار طرابلس المشاركة في عملية بركان الغضب المكلَّفَ بتسيير أعمال مؤسسة الإعلام محمد بعيو، الذي عيّن في منصبه بصلاحيات وزير قبل أسابيع قليلة، وبقرار من رئيس المجلس الرئاسي فايز السراج، وذكرت الكتيبة أن "قرار اعتقال بعيو اتخذ بعد أن أزال شعار عملية بركان الغضب العسكرية التابعة لوزارة الدفاع في حكومة الوفاق من الشاشة الرئيسية للقناة الرسمية للدولة، ووضع مكانه شعاراً جديداً باسم (إعلام السلام)"؛ لتهاجم القوة العسكرية مقر القناة وتعيد الشعار، قبل أن تحاصر بيت رئيس مؤسسة الإعلام وتعتقله[٢٧]. كما أنه على الرغم من ترحيبها باجتماعات اللجنة العسكرية بسِرت؛ أعلنت القوات المساندة بغرفة عمليات سرت–الجفرة رفضها فتح الطريق أو التواصل مع أي منطقة تحت سيطرة المرتزقة الأجانب؛ مشترطة خروج المرتزقة وانسحاب مليشيا خليفة حفتر[٢٨]. ولا يمكننا الجزم بوجود صلة بين الواقعتين أو كونهما تعبران عن حالة انقسام بدرجة كبير إلا أن هناك شواهد أخرى ستذكر لاحقا في رصد الخلاف داخل حكومة الوفاق.

وبالرغم من ذلك، فمن المؤكد وجود هشاشة في السيطرة على المليشيات من كلا الجانبين، وأن دمجهما في جيش موحد يواجه صعوبات جمة في صفوف طرفي الصراع، فضلا أن تتوحد قوات كلا الجانبين في جيش واحد في ظل العلاقات العسكرية المتباينة والمتنافسة بين حلفائهما وتحديدا مصر وتركيا، ومن المعلوم أن الطرفين قد تلقت قواتهما تدريبات عسكرية من مصر وتركيا، مما يطرح التساؤل حول قدرة كلا الجانبين على التوافق على سياسة دمج للقوات وفصل تحيزاتها القبلية والسياسية لبناء جيش احترافي حديث.

٢. جموح حفتر وحلفائه وجرائم الحرب في ليبيا

بالرغم من حالة الانكسار التي أحاطت بدور حفتر بالمشهد الليبي وخفوت بريق بنادقه على تخوم طرابلس إلا أن وجوده مازال نقطة لا ينفك الحديث عنها في مسار تسوية الأزمة الليبية. ففي ظل استمرار عملية تسليح قواته ودعمه بالمرتزقة من قبل روسيا والإمارات بالرغم من اتفاق

(٢٦) المصدر السابق.

(٢٧) زايد هدية، خلافات الداخل الليبي تثير شكوكاً في تفاهمات الخارج، اندبندنت عربية، ١٢ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٦ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/35hHFr5.

(٢٨) الجيش الليبي يشترط انسحاب حفتر لعقد مباحثات "٥+٥" بسرت، وكالة الأناضول، ٦ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2IpHj8G

وقف اطلاق النار، والذي شمل تفاهمات حول خروج المرتزقة من ليبيا، فضلا عن خرق قوات حفتر العديد من الاتفاقات السابقة؛ وهو ما عبّر عنه وزير الدفاع الليبي "صلاح الدين النمروش" حين طالب الأمم المتحدة بوضع ضمانات عملية بحيث لا يتم الانقلاب على بنود الاتفاق كما حصل أكثر من مرة[٢٩].

بالإضافة إلى ذلك فإن وجود حفتر في المشهد الليبي المقبل بات شائكا للغاية في ظل تصاعد الاتهامات الحقوقية له ولقواته بجرائم الحرب والتورط في المقابر الجماعية، حيث إنه في أعقاب تراجع قوات حفتر تم اكتشاف العديد من المقابر الجماعية ومقار تعذيب بمدينة "ترهونة"؛ الأمر الذي أثار صدمة في الأوساط الليبية والدولية وكان آخرها في أواخر أكتوبر الماضي والتي وصل عددها إلى ٢٥ مقبرة جماعية[٣٠]. وفي نفس السياق فقد قبلت محكمة أمريكية بفرجينيا دعوة قضائية ضد حفتر تتهمه بالمسؤولية عن مقتل مدنيين ليبيين خلال هجومه على بنغازي عام ٢٠١٤ بسبب امتلاك حفتر "الليبي–الأمريكي" الجنسية عقارات في المدينة اشتراها ما بين عامي ٢٠١٤–٢٠١٧ بقيمة ثمانية ملايين دولار[٣١]، ومن المتوقع أن يدفع ذلك نحو تأزيم أي دور لحفتر في المستقبل. وقد أكد السراج على عدم إهمال المساءلة أو التفريط حول جرائم الحرب من زرع ألغام بمنازل المدنيين والمقابر الجماعية المتورط فيها حفتر[٣٢].

بالتأكيد ليس من مصلحة حفتر مرور أي اتفاق ونجاح أي مبادرة سياسية تقصيه من المشهد وتجعله هامشيا في أي معادلة سياسية؛ لأنه كان يريد الاستحواذ على كل شيء وهذا ما برهنه من خلال حربه على طرابلس وتفضيله الحل العسكري على الحلول السلمية، كما أعرب هو أكثر من مرة عن رفضه خيار الانتخابات والديمقراطية كمسار لحل الأزمة الليبية. بالإضافة لكل ذلك فالأطراف الخارجية الداعمة لحفتر، مثل الإمارات والسعودية والأردن وروسيا ومصر، لا يبدو أنها ستتخلى سريعا عنه فهو إحدى ضمانات مصالحهم ورؤيتهم بالساحة الليبية.

٣. تردي الأحوال المعيشية وتظاهرات الشرق والغرب الليبي

كانت التداعيات الاقتصادية وتردي الوضع المعيشي وانهيار البنية التحتية في كثير من المناطق والمدن في ليبيا خاصة في المناطق القريبة من ساحات المعارك بين طرفي النزاع أحد النتائج الكارثية التي أدت لتفاقم حالة السخط العام لدى الليبيين. فقد خرجت عدة تظاهرات في شرق ليبيا بمدينة "بنغازي"[٣٣]، وفي "سبها" جنوب غربي البلاد، وفي الغرب بالعاصمة طرابلس؛ أي في المناطق التي يسيطر عليها كل من حكومة الوفاق وقوات حفتر وبرلمان طبرق؛

(٢٩) وزارة الدفاع تطالب بضمانات حتى لا يتم الانقلاب على الاتفاق، ليبيا أوبزيرفر، ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3ewrGsm

(٣٠) راجع التالي:

- مقابر جماعية جديدة في ترهونة.. والعدد يصل إلى ٢٠ (صور)، عربي ٢١، ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jZfGke.
- ليبيا.. اكتشاف ٥ مقابر جماعية في ترهونة، وكالة الأناضول، ٥ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/36qdKw2.

(٣١) راجع التالي:

- نيويورك تايمز: محكمة أمريكية تنظر في قضايا جرائم الحرب ضد حفتر، القدس العربي، ٢٣ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3eraIvn.
- محكمة أمريكية تقبل الدعوى القضائية ضد خليفة حفتر، قناة الجزيرة على اليوتيوب، ٢٩ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٦ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/32bnnO0.

(٣٢) أبرز ردود الفعل إزاء اتفاق وقف إطلاق النار بليبيا، مصدر سابق.

(٣٣) مظاهرات غاضبة شرق ليبيا لليوم الثالث (فيديو + صور)، روسيا اليوم عربي، ١٣ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3l1R23I.

للتعبير عن غضب قطاعات من الشعب من تدهور الظروف المعيشية والفساد في بلاد تشهد نزاعا مسلحا منذ سنوات. وعلى إثر تلك الاحتجاجات أعلن فايز السراج عن إجراء تعديلات في الوزارات الخدمية، خاصة بعد خروج مظاهرات احتجاجية في طرابلس ومصراتة، تنديدا بتدهور الأوضاع المعيشية والفساد(٣٤).

وتعاني مدن ليبية عدة وخاصة في مناطق الجنوب من نقص حادٍّ في الوقود والسيولة النقدية وانقطاع الكهرباء لساعات طويلة. ويرتبط ذلك التدهور على المدى القصير بأزمة الإغلاق النفطي التي نفذتها قوات تابعة لحفتر وأثرت سلبا على الاقتصاد الليبي وعلى المتطلبات المعيشية لليبيين من الطاقة. فقد تخطت خسائر إغلاق المنشآت النفطية التسعة مليارات دولار(٣٥)، وقد صرحت المؤسسة النفطية أنها لا تستطيع توفير احتياجات محطتي كهرباء الزويتينة وشمال بنغازي بسبب الإغلاق القسري للمنشآت النفطية، كما أكدت على استنزاف الميزانية المخصصة لاستيراد المحروقات؛ وذلك لتغطية العجز الناجم عن توقف إنتاج الغاز الطبيعي وتوفير المحروقات للسوق المحلي خلال الأشهر الماضية(٣٦).

وتضع تلك الأزمة طرفي الصراع الليبي أمام تحدي الإيفاء بالاحتياجات المعيشية التي تأثرت سلبا بشدة من الصراع السياسي والعسكري الدائر بين الطرفين، ويدفع أي استمرار للصراع بين الطرفين نحو مضاعفة الأزمات المعيشية وخسائر ليبيا بشكل عام، ومن ثم يمكن اعتبارها واحدا من اهم عوامل إزجاء مسارات التسوية الحالية، والتي سيكون أحد محكات اختبارها قدرتها على الوصول لسياسات وآليات عملية ومتفق عليها لإدارة ملف النفط أو يكون أحد أبرز أوجه الصراع بين الأطراف بالداخل والخارج.

٤ . ملف النفط الليبي

كان ملف النفط الليبي أبرز الملفات التي تم استهدافها وتوظيفها بالأزمة الليبية، فمن جهة سعى حفتر للسيطرة على الحقول والموانئ النفطية لاستخدامها كأداة ضغط. فحتى وقت قريب كانت قوات تابعة لحفتر قد فرضت حصارا على معظم المنشآت والحقول والموانئ النفطية في البلاد لمدة ثمانية أشهر وأوقفت الإنتاج فيها، مما تسبب في خسائر فادحة للاقتصاد الليبي. وقد أعلنت المؤسسة الوطنية للنفط أن خسائر الإغلاقات تجاوزت حاجز التسعة مليارات دولار، وكان أحمد المسماري الناطق باسم قوات حفتر قد أعلن قرارا بإغلاق كافة الحقول والموانئ النفطية حتى تحقيق عدة شروط، منها إيداع عوائد النفط في دولة أجنبية، ووضع آلية شفافة للإنفاق بضمانات دولية، ومراجعة حسابات مصرف ليبيا المركزي في طرابلس لمعرفة كيف وأين أنفقت عوائد النفط طوال السنوات الماضية(٣٧).

وقد حاول حفتر انتزاع موافقة أمريكية لتصدير النفط بعيدا عن المؤسسة الوطنية للنفط إلا الأمر لم يجر كما كان يرغب وواجه ضغوطا أمريكية لإنهاء الإغلاق النفطي؛ ليعلن في ١٩ أغسطس الماضي فتح حقول وموانئ النفط الخاضعة لسيطرة قواته، بعد فشله في فرض شروطه السابقة لإعادة ضخ النفط الليبي(٣٨). وقد أعلنت المؤسسة الوطنية للنفط

---

(٣٤) اتهم حفتر بإفشال مبادرات السلام...السراج يقرّ تعديلات وزارية ويحذر من "المندسين"، الجزيرة نت، ٢٤ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3p6Lbg3.

(٣٥) ليبيا...خسائر إغلاق المنشآت النفطية تتخطى الـ٩ مليارات دولار، روسيا اليوم عربي، ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التال: https://bit.ly/2TVsZY7

(٣٦) حكومة الوفاق تؤكد احترامها حق التظاهر بطرابلس وحفتر يواصل إغلاق حقول النفط، الجزيرة نت، ٢٤ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3k12Fqj.

(٣٧) ليبيا...إمدادات عسكرية من سوريا لحفتر واحتجاجات بالجنوب على الأوضاع المعيشية، الجزيرة نت، ١٦ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3l1vP9U.

(٣٨) محمد رفيدة، فشل مجددا في فرض شروطه...هل أجبرت الضغوط الدولية حفتر على تصدير النفط؟، الجزيرة نت، ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ١٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3k5nkcG.

أواخر أكتوبر الماضي رفع حالة القوة القاهرة عن حقل الفيل جنوب غربي البلاد، مؤكدة انتهاء الإغلاقات في كافة الحقول والموانئ الليبية(٣٩).

٥. الخلاف داخل معسكر الوفاق:

طفا على سطح الأزمة الليبية خلاف نشب داخل حكومة الوفاق بين رئيس المجلس الرئاسي بالحكومة فايز السراج ووزير داخليته فتحي باشاغا، فقد أصدر السراج قرارا بإيقاف وزير الداخلية فتحي باشاغا عن العمل، وإحالته إلى التحقيق(٤٠)، بشأن التصاريح والأذونات، وتوفير الحماية اللازمة للمتظاهرين، والبيانات الصادرة عنه حيال التظاهرات والأحداث الناجمة عنها، التي شهدتها مدينة طرابلس وبعض المدن الأخرى أواخر شهر سبتمبر الماضي، والتحقيق في أي تجاوزات ارتُكبت في حق المتظاهرين، وكلف وكيل وزارة الداخلية العميد خالد أحمد التيجاني مازن، بتسيير مهام الوزارة، وتعيين الفريق أول محمد الحداد (من مصراتة) رئيساً لأركان الجيش.

في المقابل، أعلن وزير الداخلية حينها امتثاله للقرار، مطالباً بأن تكون جلسة التحقيق علنية(٤١)، وبدا من هذا القرار أن هناك خلافات كبيرة بين باشاغا والسراج، أظهرت وكأن هناك صراع أجنحة داخل حكومة الوفاق أو تنازعا في الصلاحيات بين رئيس حكومة الوفاق وطاقمه الاستشاري والوزاري، وظهر ذلك في مناسبات عدة آخرها خلافه مع وزير داخليته على خلفية الاحتجاجات التي وقعت بين قوات الأمن ومتظاهرين في طرابلس، غير أن باشاغا عاد إلى منصبه بعد زيارة تركيا. وكان واضحا أن أنقرة عملت على احتواء الخلاف بين السراج وباشاغا في إطار التحالف الذي تدعمه، والذي يسيطر على مساحات واسعة من غرب ليبيا، وعلى أكبر مدينتين في الغرب الليبي، وهما طرابلس العاصمة ومصراتة(٤٢).

ويبدو أن الخلاف لا يتوقف عند مسألة تنازع السلطة والصلاحيات بل يمتد لإدارة الصراع مع حفتر من وجه نظر الأتراك حليف حكومة الوفاق؛ فهم يفضلون استمرار المعركة حتى تحرير سرت والجفرة ومنطقة الهلال النفطي من قبضة قوات حفتر(٤٣)، في حين أن السراج فاجأ الجميع بالهدنة المعلنة مؤخرا بالتوافق مع عقيلة صالح، وقد وردت أنباء عن ضغوط أمريكية لإبرام تلك الهندنة(٤٤)، وأشار تقرير استخباراتي بأن "باشاغا" يحظى بدعم تركي في مواقفه في حين يحظى السراج بدعم أمريكي في مواقفه أيضا تجاه الصراع مع حفتر وحلفائه(٤٥). وهذا الخلاف يحمل أيضا بصمات اختلاف الرؤى بين ما هو سياسي وما هو عسكري، فقد كان السراج يعول كثيرا على المفاوضات واللقاءات التي جمعته بحفتر أكثر من مرة وتعاهدات حفتر

---

(٣٩) رفع الحصار عن حقول النفط في ليبيا وحكومة الوفاق تتمسك بالتعاون العسكري مع تركيا، الجزيرة نت، ٢٦ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٨ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2TZriZT.

(٤٠) ليبيا...أعضاء بـ"الأعلى للدولة" يكشفون سبب الخلاف بين السراج ووزير الداخلية، وكالة سبوتينك، ٢٩ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/٣fY٢jtW.

(٤١) زايد هدية، الحراك الشعبي يكشف خلافات قيادات العاصمة الليبية، إندبندنت عربية، ٢٩ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/٣٧Jppsu

(٤٢) استعداد السراج لتسليم السلطة: استجابة للمتظاهرين أم تمهيد لحل سياسي في ليبيا؟، نقطة حوار، بي بي سي عربي، ١٨ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/٣٤ujuVT

(٤٣) بلال عبد الله، أزمة الاحتجاجات في العاصمة الليبية طرابلس: الأبعاد وحدود الاحتواء، مصدر سابق.

(٤٤) نزار كريكش، أمريكا تضغط بقوة لإنجاحه...هل ينهي اتفاق وقف إطلاق النار الأخير الصراعَ الليبي المستمر منذ ٦ سنوات؟، مصدر سابق.

(45)) [Sarraj-Bachagha split driven by US-Turkey spat over ceasefire, africaintelligence, ٣١August 2020, Link: https://bit.ly/2TX5jTm.

له، وتأني السراج في اتخاذ موقف من حفتر ورفض العديد من طلبات المواجهة من قادة عسكريين إبان الصراع حول منطقة الهلال النفطي وحملة حفتر على الجنوب حتى خان حفتر ثقته بمحاولة اجتياحه للعاصمة طرابلس.

وربما يفسر ذلك ما أعلنه فايز السراج في ١٦ سبتمبر الماضي استعداداه لتسليم السلطة قبل نهاية شهر أكتوبر الماضي، حيث من المرجح أن أسباب إعلان السراج استقالته مرتبطة بالمظاهرات التي شهدتها طرابلس مؤخرا احتجاجا على تدهور الأحوال المعيشية وانقطاع الكهرباء، وبصراع بين الأجنحة المختلفة التي تسيطر على طرابلس. ولعل الخلاف المعلن بين السراج ووزير داخليته، فتحي باشاغا يبرز ذلك، فعندما علق رئيس حكومة الوفاق، فايز السراج، عمل وزير الداخلية عن ممارسة مهامه في نهاية أغسطس، احتفلت بعض الميليشيات في طرابلس بإطلاق النار في الهواء، وعندما عاد فتحي باشاغا من زيارة لتركيا عبر الطائرة، استقبلته مليشيات أخرى استقبال الأبطال، وجابت المواكب شوارع العاصمة، ما يشير إلى أن إعادة باشاغا إلى منصبة بسرعة، تحت ضغط من الأمم المتحدة وتركيا والقوى الأجنبية الأخرى التي تدعم حكومة الوفاق الوطني؛ خوفا من تمرد الميليشيات الموالية له في مصراتة، وربما تبرز الزيارة التي قام بها كلٌّ من باشاغا والسراج للقاهرة على حدة محاولة كلاهما الانفتاح على الأطراف الدولية الفاعلة في المشهد الليبي لضمان دور سياسي مقبول إقليميا في المرحلة المقبلة(٤٦).

(٤٦) راجع التالي:

– وسط تكتم شديد...السراج في زيارة خاطفة إلى القاهرة، موقع ميديا مونيتور، ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3eLBIFT.

– وزير داخلية حكومة الوفاق فتحي باشاغا يصل القاهرة للقاء مسؤولين مصريين، روسيا اليوم، ٤ نوفمبر ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2IpLXn8.

وقد تندلع الخلافات داخل حكومة الوفاق وبين الميليشيات المؤيدة لها، بسبب غياب الخطر المحدق الذي وحد الميليشيات عندما حاول خليفة حفتر اجتياح طرابلس العام الماضي. ومن المؤكد أن الخلافات داخل حكومة الوفاق ستعقّد المشهد الليبي أكثر مما هو معقد الآن(٤٧). ومن المرجح أن تلويح السراج بالاستقالة وتسليم منصبه لحكومة جديدة كان بهدف تخفيف الضغط عنه من المنازعين له، فما إن أعلن ذلك حتى عبر الرئيس التركي عن عدم ارتياحه لمغادرة السراج في الوقت الحالي كما دعاه كل من المستشارة الألمانية ميركل ألمانية ورئيس المجلس الأعلى للدولة خالد المشري؛ إلى الاستمرار في منصبه منعا لحدوث فراغ سياسي في المجلس الرئاسي لحكومة الوفاق؛ وهو ما دفع السراج للتراجع عن قراره لحين التوافق على مجلس رئاسي جديد(٤٨).

٦. السياسة الخارجية ما بعد الاتفاق الليبي

يأتي ملف السياسة الخارجية الليبي كأحد الملفات المختلف عليها بشدة بين طرفي الأزمة، فعلى امتداد فترة الصراع بين الطرفين نسج كلٌّ منهما شبكة من التحالفات الدولية مع قوى إقليمية متصارعة فيما بينها أيضًا، فمن جهة تتحالف حكومة الوفاق مع تركيا ووقعتا عدة اتفاقيات كان أهمها اتفاقية الدعم العسكرية واتفاقية ترسيم الحدود

(٤٧) تقرير يحذر من "حرب" داخل حكومة الوفاق ويكشف سرّ الخلاف بين السراج وباشاغا، أصوات مغاربة، ١٥ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/٢Ts٠zEQ

(٤٨) راجع التالي:

– علاء فاروق، المشري يطالب السراج بالاستمرار بمهامه مع قرب انتهاء مهلته، عربي ٢١، ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/388z386.

– السراج يتخلى عن استقالته استجابة لدعوات متعددة، عربي ٢١، ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3oYCOmy.

البحرية بين البلدين، والتي جاءت في وقت يشتعل فيه التنافس والصراع بأزمة غاز شرق المتوسط بين تركيا واليونان وقبرص ومصر، في حين أنه هناك تنافس تركي فرنسي روسي مصري لحيازة أكبر نفوذ ممكن بليبيا؛ حيث تتمترس روسيا ومصر و(فرنسا خلف الكواليس) مع حفتر وبرلمان طبرق، وقد وقع برلمان طبرق اتفاقية دفاع مشترك مع مصر.

ويشير هذا الكم من العلاقات الخارجية المعقدة لدى طرفي الأزمة بين حلفائهما إلى احتمالية نشوب خلاف كبير حول تلك العلاقات عند تشكل حكومة انتقالية جديدة؛ خاصة مع حجم المصالح التي ربطها حلفاء كل منهما بوجوده بليبيا. فمن جهة نجد أن أنقرة تخشى أن يتهدد نفوذها بليبيا مع تشكل حكومة جديدة خاصة أن دورها كان حاسما في معركة طرابلس، فضلا عن أهمية اتفاقية ترسيم الحدود البحرية مع الجانب الليبي والتي أعلن برلمان طبرق رفضها وطالب بإعادة مراجعة كافة الاتفاقيات التي وقعتها حكومة الوفاق وعرضها على البرلمان أولا قبل اعتماد العمل بها.

ومن جهة أخرى، فإن التواجد الروسي في ليبيا عبر شحنات الأسلحة ومرتزقة الفاغنر في ازدياد بشكل يعزز قلق الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي من تأثير هذا التواجد الروسي وإمكانية أن تستغله موسكو لصالحها ضد الأوروبيين عبر التحكم في البوابة الجنوبية لأوروبا والضغط عليها في ملف الطاقة والمهاجرين وممارسة دور دولي مؤثر في الأزمة الليبية بما يضمن لها حضورا في المياه الدافئة في ليبيا مع حضورها الحالي في سوريا.

ومن زاوية ثالثة تبدو أهداف النظام المصري في ليبيا تتعلق بالأساس بمخاوف القاهرة من تسلل المسلحين الإسلاميين من ليبيا إلى مصر عبر الحدود الممتدة على طول ١١٥٠ كيلومترا بين البلدين، ورغبة مصر في الحصول على نصيبها من إعادة الإعمار، فضلا عن إعادة أكثر من ١,٥ مليون عامل مصري فروا من البلاد بسبب الحرب؛ بخلاف مقتضيات المنافسة الجيوسياسية التقليدية مع أنقرة[٤٩]، والذي تفاقم منذ الربيع العربي خاصة مع دعم أنقرة للتيارات الإسلامية والحالة الديمقراطية في المنطقة.

كل تلك التعقيدات الدولية تضع ترتيبات المرحلة الانتقالية في حالة اختبار صعب حول كيفية إدارة السياسة الخارجية في ظل هذا التباين بين أطرافها المحليين تجاه الأطراف الدولية الفاعلة في ليبيا والمتنازعة هي أيضًا فيما بينها.

خاتمة: سيناريوهان للمستقبل

أما سيناريوهات المرحلة المقبلة في الأزمة الليبية؛ ففي ظل المعطيات الحالية، فإننا أمام مسارين رئيسيين يحكمان مستقبل أي محاولة لتسوية الأزمة الليبية:

السيناريو الأول– استكمال محاولات التسوية السياسية؛ بالرغم من أجواء الفشل التي أحاطت بالمبادرات الدولية الثلاث سابقا، والتي استؤنفت عقب اتفاق الهدنة، أظهرت كافة محاولات التسوية السياسية السابقة وسنوات الصراع بين أطراف الأزمة الليبية أن أية إمكانية لإيجاد حل سياسي مرهونة بتدخل دولي كافٍ وفعالٍ بآليات على الأرض للفصل بين القوات وإيقاف تدفق الأسلحة والمقاتلين الأجانب لكلا الطرفين، وكبح اندفاع الفاعلين الدوليين والداخليين؛ إما بالترضية أو بالعقوبات؛ لذا فإن فرصة نجاح مساعي التسوية الحالية تعتمد على مدى التزام أطراف الصراع بمخرجات مسارات التفاوض الحالية والخروج منها باتفاق شامل مجمع عليه لإدارة المرحلة الانتقالية وفاعلية التدخل الأممي والدولي وآلياته العملية على الأرض.

السيناريو الثاني– العودة إلى الحلول العسكرية؛ مع فشل حفتر في هجومه على طرابلس واندحار قواته لتتمركز

(٤٩) محمد السعيد، دولة بالغرب ودولة بالشرق!...هل أصبح تقسيم ليبيا أمرا واقعا؟، ميدان، الجزيرة نت، ١٦ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3mTXFWf.

في سرت والجفرة وكفاءة الدعم التركي لحكومة السراج الذي مكن حكومته وحلفاءها من الصمود أمام هجمات قوات حفتر، ووفق المعطيات الحالية من المسارات والتحديات؛ فإن أحد أكبر التحديات أمام الليبيين ما إذا كان حفتر سيسحب فعلا مليشياته ومرتزقة شركة "فاغنر" الروسية من مدينة سرت ومحافظة الجفرة، بحسب ما نصّ عليه الاتفاق. وليس ذلك فقط، فالاتفاق ينصّ على مغادرة المرتزقة والمقاتلين الأجانب، من ليبيا كلها في غضون ٩٠ يوما من تاريخ توقيع الاتفاق. لكن المشكوك فيه، أن تتنازل روسيا بسهولة عن مشروعها لإقامة تواجد عسكري "دائم" في جنوب البحر المتوسط، لمحاصرة الجناح الجنوبي لحلف شمال الأطلسي "الناتو" من الجنوب، ردا على درعه الصاروخي قبالة حدودها الغربية[٥٠]، ومن ثم يبدو انسحاب مرتزقة فاغنر من ليبيا، يبدو أمرا مستبعدا جدا؛ لأن لديها أجندتها الخاصة، وثمة شكوك حول قدرة حفتر على إجبار "فاغنر" على الخروج من ليبيا إن قرر ذلك. فالمسألة معقدة أكثر مما تبدو في الظاهر، خاصة مع استمرار تعزيز "فاغنر" تواجد مرتزقتها في ليبيا شرقا وجنوبا، على عكس مسارات الحوار في جنيف، كما أن حفتر طالما تملص من اتفاقات سابقة، منها خرقه سبع مرات تفاهمات وقف إطلاق النار.

لكن من زاوية أخرى، يُعتبر ترسيم وقف إطلاق النار، أمرا جوهريا خاصة أنه يأتي في لقاء مباشر لوفدي الطرفين وجها لوجه، وليس عبر تفاهمات غير مباشرة بوساطة أممية. ويبدو أن طرفي الصراع قد وصلا إلى قناعة بعدم قدرة أي طرف على حسم المعركة عسكريا، خاصة مع دخول فاعلين دوليين لدعم كليهما، ووصول معركة عضّ الأصابع إلى درجة عدم قدرة أي طرف على التحمل أكثر، ما دفع الشعب الليبي، سواء في الشرق أو الغرب أو الجنوب، للخروج في مظاهرات عنيفة للاحتجاج على أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية التي لم تعد تُطاق. واستمرار المواجهة العسكرية في ليبيا، يعني انهيار الدولة ككل، ما يعرضها للانقسام أو التفتُّت، ما يفسر التنازلات التي يقدمها كل طرف رغم أنها قبل عام كانت أمرا مستحيلا[٥١].

ومع الزخم الدولي والإقليمي الحالي بالإضافة للتحرك الأمريكي؛ من المرجح خفوت صوت البنادق بين الطرفين لفترة، واستمرار ذلك يعتمد على التوافق بين الأطراف الفاعلة وقدرة طرفي الأزمة على الوصول لاتفاق شامل للمرحلة الانتقالية[٥٢].

*****

---

(٥٠) هاجر أحمد، شوكة بالخاصرة الأوروبية...ماذا تريد روسيا من التدخل في الصراع الليبي؟، مدونات الجزيرة، ٢٨ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3pdk2YF.

(٥١) هل انتهت الحرب في ليبيا بعد اتفاق وقف إطلاق النار؟ (تحليل إخباري)، وكالة الأناضول، ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر التالي: https://bit.ly/35VmHxl.

(٥٢) محمد السعيد، دولة بالغرب ودولة بالشرق!...هل أصبح تقسيم ليبيا أمرا واقعا؟، ميدان، الجزيرة نت، ١٦ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الزيارة: ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3mTXFWf.



أزمة الثورة في تونس: مواجهات البرلمان

رجب عز الدين(*)

تمهيد

يشهد البرلمان التونسي أزمات حادَّة متراكبة بعضها فوق بعض منذ انتخابه في نوفمبر ٢٠١٩، فلم يكد تمر أسابيع على أول انعقاد له، حتى اندلعت أزمة التشكيل الأول لحكومة (الحبيب الجملي) والتي انتهت بسقوطها في البرلمان بعد شهرين من مفاوضات ماراثونية هزلية غير مسؤولة مع كتلة التيار الديمقراطي (كما سيأتي تفصيله). احتدم الجدل بعد ذلك حول تشكيل الحكومة الثانية بعد أن كلَّف رئيس الجمهورية قيس سعيد شخصية من خارج ترشيحات الأحزاب الكبرى لتشكيلها (إلياس الفخفاخ)، لينتهي المطاف بعد شهرين آخرين من المفاوضات إلى تشكيل حكومة بالإكراه ابتلعتْها الأحزاب الكبرى خشية حلِّ البرلمان إذا تعثَّر مرورها. ولم تكد تمرُّ ستة أشهر حتى عاودت الأحزاب المكرهة على سحب الثقة من تلك الحكومة بعد الكشف عن شبهات تضارب مصالح طالت شركة يساهم فيها رئيس الحكومة.

انفجر الجدل مرة أخرى حول تشكيل الحكومة الجديدة بسبب تكليف رئيس الدولة لشخصية أخرى من خارج ترشيحات الأحزاب الكبرى (هشام المشيشي الذي شغل وزير الداخلية في حكومة الفخفاخ)، وقد زاد من حدة الجدل حول تشكيل الحكومة هذه المرة اضطراب أحوال جلسات انعقاد البرلمان بسبب تعطيل كتلة الحزب الدستوري الحر الذي ترأسه سيدة (عبير موسى) التي لا تخجل من التصريح بعدم اعترافها بثورة ٢٠١٠، كما لا تخجل من استقبال السفير الإماراتي في مقرِّ حزبها. افتعلت تلك السيدة أحداثًا مختلفة لتعطيل جلسات البرلمان من الانعقاد عنوة وعلانية ولأكثر من مرة تحت سمع وبصر كتل تبدو معارضة لأفعالها لكنها لا تؤيد عقابها (قلب تونس – التيار الديمقراطي – تحيا تونس – حركة الشعب)، كما قادت تلك السيدة حملة بالتحالف الضمني مع كتلة التيار الديمقراطي لسحب الثقة من رئيس المجلس راشد الغنوشي وانتخاب آخر لرئاسة البرلمان بالتزامن مع مفاوضات تشكيل حكومة (المشيشي). انتهت تلك الأزمة بإعلان الغنوشي طرح نفسه مرة أخرى على النواب رغم عدم استيفاء العريضتين المقدَّمتين (بشكل منفصل) لشرط العدد المطلوب لإثارة مسألة سحب الثقة. انطفأت هذه الأزمة بتجديد الثقة المتأرجحة في الغنوشي رئيسًا للبرلمان مرة أخرى، لكن كتلة عبير موسى لم تهدأ أو تتوقف افتعال أزمات تعطيل المجلس مرارًا وتكرارًا (أكثر من سبع مرات حتى ديسمبر ٢٠٢٠)، الأمر الذي دفع رئيس الجمهورية إلى التهديد أكثر من مرة بحلِّ البرلمان إذا استمرَّ على هذا الحال رغم شكوى رئيس البرلمان تلك السيدة أمام القضاء.

أمام هذه الحالة يبدو البرلمان التونسي مهدَّدًا من اتجاهين، أحدهما من داخله باستمرار التشويش على جلساته وتعطيلها وترذيل صورته العامة من قبل أنصار الثورة المضادة، والثاني من جهة رئيس الجمهورية الذي يكاد من كثرة تحذيراته أن يُقدم على تنفيذ تهديده بحلِّ البرلمان دون إدراك لعواقب ذلك بالنسبة لمكتسبات الثورة التونسية وبما يصبُّ في صالح قوى الثورة المضادة التي تدفع في هذا المسار لاستغلال أي حالة فراغ في البلاد لنشر الفوضى والتخريب تمهيدًا للاستيلاء على الحكم بطريقة أو بأخرى بما في ذلك الانقلاب العسكري، كما حاولوا من قبل (سيأتي تفصيله).

(*) باحث في العلوم الساسية.

اقتراب التناول:

تركِّز هذه الورقة على رصد أزمات البرلمان التونسي خلال العام الأول من انعقاده (٢٠٢٠)، من خلال تسكينها ضمن إطار عدد من المشاهد النموذجية المعبِّرة ثم تحليل دلالاتها بالنسبة للواقع السياسي في تونس والتجربة الديمقراطية الوليدة وصولًا إلى محاولة استشراف مآلاتها في ظل تحديات إقليمية واسعة تحيط بتونس من الجارة الشقيقة ليبيا التي انشطر إقليمها إلى قسمين متصارعين بدعم إقليمي ودولي متعارض الولاءات والمصالح (غالبه معادٍ للثورة في ليبيا وتونس).

المشهد الأول- برلمان الفرقاء المتشاكسون.. خريطة الكتل الحزبية المفتتة

لم تسفر نتائج الانتخابات البرلمانية عن حصول أي حزب على أغلبية مريحة تمكِّنه من تشكيل الحكومة منفردًا رغم تصدُّر حزب حركة النهضة للمركز الأول إلا أن حصته من المقاعد لم تتجاوز الربع إلا قليلا (٥٤ من أصل ٢١٧ مقعد)، يليه كتلة حزب التيار الديمقراطي الذي يعرِّف نفسه بطريقة تبدو يسارية في المركز الثاني بنحو (٣٨ مقعدًا)، يليهما كتلة حزب قلب تونس الذي يعرف نفسه بطريقة تبدو ليبرالية ويضم رجال أعمال بارزين على رأسهم نبيل القروي وشخصيات تنتمي للنظام القديم وحزب نداء تونس الذي أسَّسه الرئيس الراحل الباجي قايد السبسي كامتداد لحزب التجمُّع الدستوري المنحل بعد الثورة. حصل قلب تونس على المركز الثالث في الانتخابات بنحو (٣٠ مقعدًا)، يليه كتلة ائتلاف الكرامة التي تعرف نفسها بطريقة تبدو ثورية محافظة في المركز الرابع بنحو (١٨ مقعدًا)، بينما جاءت كتلة الإصلاح الوطني التي تضم خليطًا من بقايا نداء تونس وغيره في المركز الخامس بنحو (١٧ نائبًا). أما المركز السادس فقد شغلتْه كتلة الحزب الدستوري الحر التي لا تخجل من تكرار التصريح بعدم اعترافها بالثورة بنحو (١٦ مقعدًا). كما جاءت الكتلة الوطنية (تسمى حركة الشعب أيضًا) المؤلفة من أعضاء منشقِّين من حزب قلب تونس في المركز السابع بنحو (١٦ مقعدًا)، بينما جاءت كتلة حزب "تحيا تونس" الذي أسَّسه رئيس الحكومة السابق (يوسف الشاهد) من توليفة أعضاء منشقِّين عن حزب نداء تونس في المركز الثامن بنحو (١٠ مقاعد، أما المستقلين غير المنتمين لأحزاب فقد حصلوا على (١٨ مقعدًا).

تعني هذه التركيبة الانتخابية المفتَّتة حتمية التفاوض بين كتل تبدو كالفرقاء المتشاكسين المفتقدين لأي رابط جامع سوى كونهم منتخبين لإقامة تحالفات ضيقة من حزبين كبيرين أو واسعة من الأحزاب المتوسطة والصغيرة لتشكيل الحكومة وتمريرها في البرلمان (تحتاج ١٠٩ أصوات) وفقًا لقواعد النظام البرلماني المختلط الذي اختارته النخبة التونسية في الدستور ليكون نظام الحكم في البلاد[١].

المشهد الثاني- حكومة الجملي.. التفاوض الصبياني مع التيار الديمقراطي؟

تظهر أولى مشاهد المشاكسة مع أول تشكيل للحكومة تحت رئاسة شخصية الحبيب الجملي وهو شخصية مستقلة شغلت منصب وزير الفلاحة سابقًا، ورشَّحته حركة النهضة ضمن أسماء مختلفة وقع الاختيار بينها من قبل رئيس الجمهورية قيس سعيد الذي اعتمد بدوره أسلوب المراسلات الكتابية مع الكتل الحزبية بديلا عن المفاوضات المباشرة. اختارت النهضة (الحزب الأول) الدخول في تحالف واسع يضم كتلتين كبيرتين، الكتلة الديمقراطية (صاحبة المركز الثاني) وائتلاف الكرامة (صاحب المركز الرابع)، وحركة الشعب (السابعة)، وتحيا تونس (الثامنة)، متجاوزة حزب قلب تونس (صاحب المركز الثالث) استنادًا إلى تعهد انتخابي بجعل مسألة مقاومة الفساد على رأس الأولويات، وعدم التحالف مع نبيل القروي وحزبه لما يدور حولهم من شبهات فساد (غسيل

(١) للمزيد حول تركيبة البرلمان التونسي الحالي، راجع الموقع الإلكتروني للبرلمان، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/6hE44Nm

أموال) كانت سببًا في حبس القروي قبل الانتخابات الرئاسية بأسابيع (حاز القروي على المركز الثاني بالجولة الأولى وهو في الحبس الاحتياطي ثم خرج في الجولة الثانية بعد ضغوط شديدة على القضاء من الداخل والخارج[٢]، وانتهت الانتخابات بخسارته أمام قيس سعيد، وما زالت قضيته منظورة أمام المحاكم).

استغلَّ "التيار الديمقراطي" رغبة النهضة في تخطِّي "قلب تونس"، ورفع سقف مطالبه في تشكيل الحكومة حتى وصلت إلى اشتراط الحصول على وزارات جرى التعامل معها بشكل شبه حيادي منذ الثورة في كافة مفاوضات تشكيل الحكومات المتعاقبة وهي (الدفاع والداخلية والعدل والخارجية). هدَّد التيار بالانسحاب من المفاوضات ما لم يتمَّ إعطاؤه وزارات الداخلية والعدل والإصلاح الإداري مع حقِّه في الاعتراض (فيتو) على أي شخصية مرشَّحة من الأطراف الأخرى لشغل بعض الوزارات الأخرى. تدخَّل وسطاء أفراد من أصدقاء التيار الديمقراطي (جوهر بن مبارك – الحبيب بوعجيلة[٣]، لتقريب وجهات النظر بين الأطراف واستسمحوا رئيس الحكومة المكلَّف أن يُجروا بعض المفاوضات في منازلهم أو في بعض الأماكن العامة خارج مقر الحكومة وبدون حضوره، فطاب لهم نفسًا وانطلقوا في التقريب.

أصرَّ التيار الديمقراطي على وزارتي العدل والإصلاح الإداري ثم خفض السقف قليلًا بخصوص وزارة الداخلية التي تخلَّى عنها مقابل انتزاع وحدة تنفيذ الأحكام وضمها إداريًّا إلى وزارة العدل، مع حقِّ الفيتو في الاعتراض على أي شخصية تُطرح لتولِّيها إلى أن يتم التوافق على شخص بعينه، كما طالب التيار بضم بعض صلاحيات رئيس الوزراء فيما يتعلَّق بمتابعة قضايا الفساد والإصلاح الإدارى. وافقت النهضة على شروط التيار لدفع المفاوضات إلى الإمام مع ضغط الوقت وقرب انتهاء مدة التشكيل (٦٠ يومًا)، فاشترط التيار شرطًا آخر يختص بالحصول على تعهُّد كتابي منها، فاستجابت لذلك بطلب من الوسيطين، كما اشترط التيار على رئيس الحكومة التعهُّد بأن يتقدَّم بمشروع قانون لنقل شرطة تنفيذ الأحكام من الداخلية إلى العدل في غضون تسعين يومًا، فطلب مدَّ تلك المهلة قليلًا لأسباب فنية وزمنية، فأصرَّ التيار ثم وافق رئيس الحكومة مضطرًّا تحت ضغط من الوسيطين وضيق من الوقت. تنفَّس الجميع الصعداء بعد خروج الوسيطين على وسائل الإعلام معلنين التوصُّل لاتفاق نهائي لم يترك نقطة خلافية إلَّا وعالجها، ثم حدَّدوا موعد تشكيل الحكومة في مؤتمر صحفي جامع لكلِّ الأطراف في غضون أيام لم تنقضِ منها ٤٨ ساعة حتى

---

(٢) راجع في الضغوط التي تعرَّض لها القضاء للإفراج عن نبيل القروي، الآتي:

– اتحاد الشغل يهدد: إطلاق سراح نبيل القروي أو الطعن في نتائج الانتخابات، موقع "رصد التونسية"، ٢٨ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/FW4r1

– نبيل بفون: تهديدات اتحاد الشغل بالطعن في العَملية الانتخابية بسبب القروي قانونية، موقع "شبكة تونس الآن"، ٢٨ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/RN6Li.

– الهيئة العليا المستقلة للانتخابات تطالب القضاء بإطلاق سراح نبيل القروي، موقع" شبكة تونس الآن"، ٢٨ نوفمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/eEYHm

– الرئيس التونسي: وجود القروي بالسجن يؤثِّر بمصداقية الانتخابات، ٤ أكتوبر ٢٠١٩، موقع سكاي نيوز، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/onr4X

– نواب فرنسيون يطالبون السلطات التونسية بإطلاق سراح القروي، موقع ميدل إيست أون لاين، ٢٤ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/3FMRs

(٣) راجع تفاصيل مفاوضات تشكيل حكومة الجملي ودور الوسطاء في فيديو تحت عنوان "جوهر بن مبارك: ائتلاف الكرامة عبَّر عن روح عالية من المسؤولية"، يوتيوب، ٢٠ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/PhCDmVX

أعلن التيار الديمقراطي انسحابه بشكل صبياني فاجأ الوسيطين نفسيهما (وفقًا لشهادتيهما فيما بعد)[٤].

اضطرَّ الحبيب الجملي إلى تشكيل حكومة مستقلَّة في غضون الأيام المتبقية لكنها لم تحصل على الأغلبية في البرلمان، وكان من المفارقة تصويت التيار الديمقراطي ضدَّها ضمن تحالف واسع ضم قلب تونس وحزب عبير موسى وتحيا تونس وحركة الشعب (لم يصوِّت لها إلا النهضة وائتلاف الكرامة وبعض الكتل الصغيرة). هكذا انتهت أول محاولة لتشكيل الحكومة[٥] (ربما لا يستسيغ البعض استخدام كلمة صبياني في الوصف، لكنني بحثت عن مفردة أخرى لتوصيف ما جرى في هذه المفاوضات، فلم أجد أدقَّ منها).

ثمة دلالات مهمة يمكن استخلاصها من هذا المشهد، لعلَّ أبرزها ما يتعلَّق بحالة قسم كبير من النُّخب السياسية المنتخبة في تونس، إذ يبدو انعدام المسؤولية عليها طافحًا، كما تبدو روح المراهقة والمكايدة والابتزاز مهيمنة على أدائها السياسي العام، كما تبدو أولويات المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لملايين التونسيّين في ذيل اهتماماتهم لصالح قضايا أخرى ذات طابع ديني وثقافي، كما في إثارتهم لقضايا المرأة والجنس والشذوذ والزنا والإجهاض والميراث وغيرها من حين لآخر، دون أدنى اعتبار لأولويات القضايا والأزمات التي يعاني منها ملايين التونسيّين إضافة إلى تدهور الوضع الاقتصادي العام في البلاد، مع تفاقم الفقر والبطالة وضعف البنية التحتية في غالبية أقاليم تونس، وصولًا إلى عجز الموازنة وارتفاع الأسعار وتضخُّم الدين الداخلي والخارجي وانتهاء بسيل الإضرابات والاعتصامات التي لا ينتهي أحدها عن تعطيل البلاد حتى يبدأ آخر مشابه له في الوسيلة والمطالب التي تتركَّز في غالبها على زيادة الأجور، بما أدخل البلاد في حالة توقف شبه دائم وحركة متقطِّعة خلال السنوات العشر الماضية (أيَّد الاتحاد للمفارقة ترشيح وزير الدفاع السابق عبد الكريم الزبيدي للرئاسة[٦]، رغم وضوح رؤيته المناهضة لما يصفه بمظاهر الفوضى المنتشرة في البلاد منذ الثورة)[٧].

المشهد الثالث– حكومة الرئيس... الفخفاخ الذي لم يحصل حزبه على مقعد واحد

سقطت حكومة الجملي، وبدأ ماراثون جديد في تشكيل حكومة أخرى استهلَّت مفاوضاتها بمفاجأة تكليف الرئيس شخصية من خارج اقتراحات الأحزاب الكبرى (النهضة – الكتلة الديمقراطية – قلب تونس –ائتلاف الكرامة[٨]. اختار الرئيس (إلياس الفخفاخ)، وهو شخصية عامة شغلت منصب وزير المالية في إحدى حكومات ما بعد الثورة ثم ترشَّح للانتخابات الرئاسية عام ٢٠١٩ عن حزب التكتل الديمقراطي لكنه لم يحصل سوى على

(٤) راجع في تفاصيل فشل مفاوضات حكومة الجملي فيديو تحت عنوان "يحدث في تونس – الحبيب الجملي يعلن عن نيته تشكيل حكومة وطنية مستقلة عن كل الأحزاب"، يوتيوب، ٢٣ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/mhCDRn3

(٥) راجع تصريح سيف الدين مخلوف عضو ائتلاف الكرامة حول فشل مفاوضات تشكيل الحكومة في فيديو تحت عنوان "سيف مخلوف: ما وافق عليه الحبيب الجملي لصالح التيار غير قانوني والتيار أراد تأسيس دولة داخل الدولة"، يوتيوب، ٢٥ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/yhCFq79

(٦) لسعد اليعقوبي: اتحاد الشغل أضاع البوصلة بدعمه لعبد الكريم الزبيدي، موقع ألترا تونس، ١٦ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/uFq7w

(٧) وزير الدفاع التونسي السابق يقدم ٥ نقاط أولية لبرنامج ترشُّحه الرئاسي، روسيا اليوم، ١٥ أغسطس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/XlD3V

(٨) راجع في تفاصيل اختيار الفخفاخ رئيسا للحكومة: الفخفاخ.. هل يفكِّك الهدية – الفخ وينقذ تونس من انتخابات مبكرة؟، دويتشه فيله، ٢١ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/0hCJ44b

٠,٣٤% من الأصوات[٩]، كما فشل حزبه في الانتخابات البرلمانية الأخيرة بشكل ذريع ولم يحظَ حتى على مقعد واحد، بما يعني أن الرئيس قيس سعيد قد اختار راسبًا مفلسًا في الانتخابات بامتياز للتفاوض مع كتل كبرى منتخبة بنسب ضخمة من الأصوات والمقاعد، ممَّا صعَّب من مهمَّته قبل بدايتها، وجعل تكليفه أشبه بمحاولة إكراه لتلك الأحزاب الكبرى على قبول حكومة موالية لرئيس البلاد مباشرة أو رفضها وإفشال تمريرها في البرلمان بما يمكنه من حلِّه وإعادة الانتخابات بطريقة مبكرة وفقًا لصلاحيات رئيس الجمهورية في الدستور والتي ما دأبَ على التهديد باستخدامها علنًا أكثر من مرة في ظلِّ حالة من التناحر بين أعضاء البرلمان وصلت إلى حدِّ تعطيل أعمال المجلس أكثر من مرة على يد كتلة الحزب الدستوري الحر ورئيسته عبير موسى.

التفَّ التيار الديمقراطي (ثاني أكبر كتلة في البرلمان) حول إلياس الفخفاخ وجمع له عددًا من الكتل الصغرى التي تشجِّعه على المضيِّ قُدما في مفاوضاته على أمل التحاق النهضة طوعًا أو كرهًا في نهاية المطاف، وقد كان بالفعل، إذ لم تفلح النهضة في إقناع الفخفاخ بضم "قلب تونس" لمشاورات تشكيل الحكومة في ظلِّ حالة إصرار على استبعاده بإيعاز من رئيس الجمهورية الذي لا يُخفي عداءَه لقلب تونس ونبيل القروي ويتَّهمهما بالفساد، ما دفع النهضة إلى التصويت اضطرارًا مع الكتل الصغرى لضمان تمرير الحكومة، بينما صوَّت ضدَّها قلب تونس وكتلة عبير موسى وبعض الكتل الصغرى الأخرى إضافة إلى ائتلاف الكرامة الذي رفض طريقة الإكراه وحذَّر من تربُّص المكرَهين بالحكومة وإسقاطها في أقرب وقت.

لم تمرَّ شهور بالفعل حتى وقع الفخفاخ تحت ضروس الأحزاب التي أُكرهت على تمريره بعد فضيحة فساد وتضارب مصالح وصلت أطرافها إلى شركة تجارية خاصَّة يساهم فيها، وانتهت باستقالته وحكومته قبل ساعات من انعقاد البرلمان لسحب الثقة بدعوة من تحالف ثلاثة أحزاب كبرى (النهضة وقلب تونس وائتلاف الكرامة[١٠].

ثمة دلالات مهمَّة يمكن استخلاصها من هذا المشهد، لعلَّ أبرزها ضعف التقدير السياسي لرئيس الجمهورية في اختياره رئيس حكومة من خارج ترشيحات الأحزاب الكبرى وفرضه عليهم بطريقة ألجأتهم إلى الاضطرارا لا الاختيار، ما يمثِّل عاملًا من عوامل عدم استقرار الحكومات في النظم البرلمانية، إذ الأصل أن تتمتَّع أيُّ حكومة في نظام برلماني بحزام سياسي واسع من أكبر الكتل البرلمانية يمكِّنها من أداء عملها بشكل أكثر يُسْرًا وسهولة، ويساعدها على تمرير التشريعات والموزانات المالية وغيرها بطريقة أقلَّ حدَّة بسبب التناغم مع الكتل الرئيسية في الهيئة التشريعية خلافًا للحكومات التي تشكَّل من تحالف أحزاب صغيرة متنافرة لا تقوى على الصمود متماسكة لفترة طويلة أمام معارضة الأحزاب الكبرى.

عاند الرئيس قيس سعيد هذه القاعدة المحسوسة في عالم النظم البرلمانية، فلم تحابِه الظروف ولم تحابِه النتائج، ولم ينل تونس من ذلك العناد إلا اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية فوق اضطرابها الممتد لعشر سنوات مضت.

لم يتب الرئيس عن العناد في المحسوسات، فاختار شخصية أخرى قريبة منه (هشام المشيشي الذي شغل وزير الداخلية في حكومة الفخفاخ) خارج ترشيحات الأحزاب الكبرى أيضًا، وكلَّفه بتشكيل الحكومة الجديدة، إلا أن المشيشي كان ذكيًّا بما فيه الكفاية لتقديم نفسه بصورة توافقية للأحزاب الكبرى بما فيهم قلب تونس الذي يكره الرئيس سماع اسمه أو رئيسه في قصر قرطاج. كان ضم قلب

---

(٩) من هو إلياس الفخفاخ "مهندس" حكومة تونس المنتظرة؟، فرنسا ٢٤، ٢١ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/nhCJnnE

(١٠) راجع في تفاصيل استقالة حكومة الفخفاخ تقرير: "تونس: ما هي سيناريوهات المرحلة المقبلة بعد استقالة رئيس الحكومة إلياس الفخفاخ؟"، فرنسا ٢٤، ١٦ يوليو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/uhCJNc0

تونس للمشاورات كفيلًا بإغضاب الرئيس لدرجة شعوره بالخديعة إلى الحدِّ الذي دفعه للتفاوض سرًّا مع الغنوشي لإسقاط هذه الحكومة مقابل تنازلات من جانبه في الحكومة التالية والكف عن التهديد بحلِّ البرلمان. (ربما كان هذا التفاوض حقيقيًّا وربما كان مراوغة منفردة أو متَّفقًا عليها).

مرَّتْ هذه الحكومة بسهولة في البرلمان، كما حظيت منذ عملها بتسهيلات ومناقشات برلمانية أقل حدَّة من السابق، وفي هذا دلالة على ضعف تقدير الرئيس وحسن تصرُّف رئيس الحكومة الذي اضطرَّ إلى تهميش قيس سعيد قليلًا لضمان المرور من قصر قرطاج إلى قبة البرلمان.

المشهد الرابع– تعطيل جلسات البرلمان... الثورة المضادة مجسَّدة في امرأة؟!

على الجانب الآخر، ثمة تيار يمارس أسلوبًا مكشوفًا في ضرب البرلمان التونسي تتزعَّمه سيدة وثيقة الصلة بالنظام الإماراتي، لا تخجل من التصريح بعدائها للثورة والديمقراطية (عبير موسى رئيسة الحزب الدستوري الحر). تعتمد هذه السيدة وحزبها نهجًا مباشرًا في تعطيل جلسات البرلمان والتشويش على الأعضاء أثناء المناقشات (عطَّلت الجلسات العامة والمتخصصة أكثر من سبع مرات على مدار أول سنة برلمانية[١١]، وذلك من خلال أساليب فجَّة تشمل الاعتصام الجماعي داخل البرلمان أو احتلال منصَّته أو الجلوس مكان رئيسه (راشد الغنوشي رئيس حركة النهضة[١٢]، وصولًا إلى استفزاز نواب ائتلاف الكرامة وحركة النهضة على وجه الخصوص بهدف سحبهم إلى مناوشات جانبية تساعد في مسار تعطيل الجلسات (تعامل الأعضاء معها بالتجاهل في البداية ثم تفاعل أعضاء ائتلاف الكرامة معها بعد ذلك مع تكرارها لنفس الأسلوب[١٣].

كما نجحت هذه السيدة في حشد أصوات كتلة من النواب لدعم عريضة تطالب بسحب الثقة من الغنوشي كرئيس للبرلمان وانتخاب آخر مستغلة توتُّر العلاقة بين أكبر كتلتين (النهضة والتيار الديمقراطي)، لكن التصويت النهائي لم يفلح في تنحية الغنوشي عن رئاسة البرلمان وإن كاد يطيح به (بفارق عشر أصوات تقريبًا[١٤].

المشهد الخامس– صواريخ قيس سعيد المعدَّة للانطلاق... هل يقدم الرئيس على حلِّ البرلمان؟

لا يُخفي قيس سعيد كرهه لحزب قلب تونس الذي يتزعَّمه رجل أعمال (نبيل القروي[١٥] تحوم حوله شبهات فساد وتبييض أموال إضافة إلى شبهات حول علاقته بإسرائيل[١٦]. عبَّر الرئيس أكثر من مرة عن رفضه التحالف مع هذا الحزب سواء بشكل مباشر من خلاله أو غير مباشر (مشاورات تشكيل الحكومة) مذكرًا بأن مكانه

(١١) راجع بالفيديو نموذجًا من تعطيل عبير موسى للبرلمان تحت عنوان "عبير موسي تقتحم منصَّة رئيس البرلمان وتقطع كلام الغنوشي"، يوتيوب، ٤ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/bhCKdew

(١٢) النهضة تتهمها بتنفيذ مخطط انقلابي.. عبير موسى تحتل منصة البرلمان التونسي، الجزيرة نت، ١٦ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/OhCKy6D

(١٣) راجع نموذجًا آخر من تعطيل عبير موسى لجلسات البرلمان في فيديو تحت عنوان "عبير موسي تعطل الجلسة والغنوشي يتهمها بالسعي لإسقاط البرلمان"، يوتيوب، ٨ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/5hCKjbt

(١٤) تونس: دلالات فشل محاولة سحب الثقة من راشد الغنوشي رئيس البرلمان، بي بي سي عربي، ٣١ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/ohCKxpo

(١٥) ما الذي نعرفه عن الملف القضائي للمرشح لرئاسة تونس نبيل القروي؟، فرنسا ٢٤، ٩ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/yDbXQ

(١٦) راجع في علاقات نبيل القروي بإسرائيل، ما يلي:

– وثائق وزارة العدل الأمريكية تشير لتعاقد نبيل القروي مع ضابط موساد إسرائيلي، بي بي سي عربي، ٤ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rciSE

– وثيقة على موقع العدل الأمريكية تثير سجالا حول نبيل القروي، ميدل إيست أون لاين، ٣ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/svx0q

السجون (تلميحًا)، كذلك يبدو الرئيس غاضبًا من حركة النهضة لإصرارها على ضمِّ حزب قلب تونس في كل مشاورات تشكيل الحكومات السابقة باعتبارها حزبًا منتخبًا من الشعب في المركز الثالث مع ترك مسألة فساده للقضاء والمحاكم، كما عبَّر الرئيس أكثر من مرة عن استيائه ممَّا يجري في البرلمان من عمليات ترذيل وتعطيل ومناوشات جانبية من كتلة عبير موسى مهدِّدًا بحلِّ البرلمان (بتلميح قوي متصاعد اللهجة) يظهر بوضوح في استخدامه عبارات من قبيل (كل الوسائل الدستورية متاحة وهناك صواريخ معدَّة للانطلاق[١٧]، لن أقف مكتوف الأيدي، لن أتردَّد في حماية الدولة التونسية ممَّن يريدون إسقاطها من الداخل، لن أترك تونس للعابثين والخونة والفاسدين والمطلوبين للعدالة، أعرف مؤامراتهم وما يحيكونه في الظلام، سيأتي اليوم الذي أكشف فيه كل تفاصيل الخيانة، هناك خونة باعوا ضمائرهم بالعملات التي تتسرَّب من الخارج[١٨].

(١٧) قيس سعيد: كل الوسائل الدستورية متاحة لدي وهي كالصواريخ على منصة إطلاقها، فيديو منشور على موقع يوتيوب، ٢٠ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/ahCKPu2

(١٨) راجع نماذج من تصريحات الرئيس قيس سعيد حول المؤمرات والأحزاب والمأجورين والعملاء، على روابط الفيديوهات التالية:

- لقاء رئيس الجمهورية قيس سعيد مع الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل السيد نورالدين الطبوبي، يوتيوب، ١٨ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/ehCKn1d
- رئيس الجمهورية قيس سعيد يستقبل عددا من أعضاء مجلس نواب الشعب، يوتيوب، ٧ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/LhCKQbv
- كلمة ناريّة لرئيس الجمهورية قيس سعيد، يوتيوب، ٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/MhCKAA6
- كلمة رئيس الجمهورية قيس سعيد بمناسبة زيارته إلى الأكاديمية العسكرية بفندق الجديد، يوتيوب، ١٦ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/9hCKFuB

المشهد السادس- الحزب الثاني يطالب بحلِّ البرلمان والانقلاب العسكري

تحوَّل التيار الديمقراطي (ثاني أكبر كتلة في البرلمان) إلى المطالبة الصريحة بحلِّ البرلمان وتدخُّل الجيش لإنقاذ البلاد خلال الشهور الأخيرة من عام ٢٠٢٠، وخاصَّة بعد إسقاط حكومة الفخفاخ (التي شُكِّلَتْ على عينه بعيدًا عن الأحزاب الكبرى الأخرى).

يظهر هذا التحوُّل بوضوح في تحريض قادة التيار (محمد عبو) رئيس الجمهورية على استخدام صلاحية محل جدل في حلِّ البرلمان من خلال تأويلات بعيدة النطاق لمواد دستورية تتحدَّث عن حالات طارئة لا تنطبق على الوضع القائم (ليس في الدستور ما يعطي الرئيس الحق في حلِّ البرلمان إلَّا إذا فشلت الأحزاب في تشكيل الحكومة مرتين متتاليتين). طالب أكثر من نائب بحزب التيار الديمقراطي في شهر ديسمبر ٢٠٢٠ بحلِّ البرلمان رغم كونهم الحزب الثاني، كما طالب الأمين العام السابق للحزب (محمد عبو) بنشر الجيش في البلاد ووضع سياسيِّين تحت الإقامة الجبرية وفرض القوانين فرضًا ومنع الحوار مع أي حزب على الساحة[١٩]. لم يقتصر التحريض على الانقلاب العسكري على التيار فحسب بل انضم إليهم جنرالات متقاعدون[٢٠] إضافة إلى

(١٩) محمد عبو: يجب على رئيس الجمهورية أن ينشر الجيش، فيديو منشور على موقع يوتيوب، ٨ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/VhCKKks

وراجع فيديو آخر يؤكد فيه نفس التصريحات تحت عنوان "محمد عبو: لم أدعُ لانقلاب.. ولهذا دعوتُ إلى نشر الجيش والأمن"، يوتيوب، ١٦ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/JhCKCAX

(٢٠) راجع في دعوة بعض العسكريين للانقلاب، خبرا منشورا تحت عنوان "الأميرال المتقاعد كمال العكروت يعطي الضوء الأخضر للتدخل ويصف الحياد بالتخاذل والجبن"، موقع جريدة الحرية التونسية، ٨ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.ly/BhCK3xI

إعلاميّين وبعض الشخصيات العامة، بما يمثّل خطرًا داهمًا على مسار التجربة الديمقراطية التونسية الوليدة.

خاتمة: ماذا لو حُلَّ البرلمان... مآلات الثورة ومستقبل الرئيس؟!

يبدو الرئيس قيس سعيد –من شدَّة انفعاله– على وشك ارتكاب أكبر حماقة سياسية منذ الثورة التونسية (ديسمبر ٢٠١٠)، متمثلة في إقدامه على حلِّ البرلمان كما يتوعَّد ويهدِّد باستمرار، إذ لو فعل ذلك لكان صاحب أكبر فضل على الثورة المضادة وأنصارها الذين ما برحوا يدفعون في ذلك المسار بكل وسيلة، ويمنُّون أنفسهم بفارغ الصبر أملًا في الفرصة التاريخية التي ستضع البلاد في حالة فراغ عام تمكِّنهم من نشر حالة فوضى عارمة تتخلَّلها سلسة انفجارات واغتيالات وإضرابات (مشبوهة)، كما جرى بعد أحداث مصر في يوليو ٢٠١٣ بشهور (اغتيال شكرى بلعيد ومحمد البراهمي وإضرابات الاتحاد العام للشغل[٢١].

إذا أضفْنا إلى هذا المشهد ما يجري في الإقليم المجاور (ليبيا) ومحاولات قوى إقليمية خليجية ودولية حصار الجارة الليبيَّة عبر تونس، يمكننا تخيل حجم الحماقة السياسية التي يوشك الرئيس على ارتكابها بدافع الانفعال أو العاطفة، كما يمكننا مدُّ خيط التوقُّعات إلى أبعد من ذلك ليصل إلى احتمال تعرُّض الرئيس نفسه للاغتيال بعد قيامه بحل البرلمان بقليل في إطار خطة الثورة المضادة لاستكمال حالة الفراغ العام بالبلاد، بحيث لا يتبقَّى فيها رئيس ولا برلمان وربما ولا رئيس الحكومة أيضًا (يعزز هذه المخاوف عدم انتماء الرئيس لأي حزب في تونس).

كما يعزِّزها وجود ظهير حزبي مستعد لتغطية التدخُّل العسكري في المشهد، بل ويطالب بذلك علنًا ويحرِّض عليه، كذلك يعزِّز هذه النتيجة أيضًا حرية الحركة التي تتمتع بها شخصيات عسكرية سابقة فكَّرت في الانقلاب على البرلمان والرئيس زمن الباجي قايد السبسي (مثل وزير الدفاع السابق عبد الكريم الزبيدي الذي خطَّط لانقلاب في سبتمبر ٢٠١٩[٢٢]، ولطفي البراهمي وزير الداخلية السابق الذي أُقيل على خلفية لقاءات سرية مع مسؤولين إماراتيّين وسعوديّين[٢٣]، إذ يبدو هذان الشخصان أحرارًا طلقاء، الأمر الذي يشير إلى خطورة الأوضاع المحتملة التي قد تواجه الثورة التونسية خلال الشهور والأعوام القادمة.

فهل يدرك الرئيسُ الفخَّ الذي يُراد له الوقوع فيه، لتمكين أعداء الثورة من فرصة تاريخية يحضرون لاستثمارها بشكل أعنف من السابق، أم أنه ما زال يفكِّر بعقل أستاذ قانون ووجدان منفعل؟ هذا ما ستكشف عنه الأيام.

*****

(٢١) راجع في المواقف السياسية للاتحاد العام للشغل:
– كريم أسعد، الاتحاد التونسي للشغل: النقابة المعجونة بماء السياسة، إضاءات، ٩ يناير ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1gzsS
– أحمد محمد مصطفى، حياة اليعقوبي، الدور السياسي للنقابات العمالية العربية في ظل الثورات العربية: التجربتان المصرية والتونسية في العمل النقابي قبل وأثناء وبعد الثورات، من إصدارات منظمة فريدريش إيبرت، ٢٠١٥، ص ص ٢٨–٣٤.
– توفيق المديني، الاتحاد العام للشغل حزبًا معارضًا، من إصدارات جمعية هوية المقاومة، تونس، ٢٠١٩.

(٢٢) راجع تصريح وزير الدفاع السابق حول تخطيطه للانقلاب على البرلمان في حواره مع قناة حنبعل تحت عنوان "مع سماح مفتاح الحلقة ٢ عبد الكريم الزبيدي الجزء ٠١"، يوتيوب، ٣ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/olaQk
(٢٣) موند أفريك: وزير الداخلية التونسي المقال لطفي براهم خطط للانقلاب على الرئيس السبسي، موقع فرنسا ٢٤، ١٤ يونيو ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/317Wl



مستقبل السودان
في ظل التطبيع واتفاق السلام الداخلي والأزمة المعيشية

نبيل علي(*)

مقدمة:

في ظل وضع عالمي متأزِّم صحيًّا ومتعثِّر اقتصاديًّا، وظرف إقليمي شائك ومتحوِّل، وواقعٍ عربيٍّ يعجُّ بمشكلات متَّصلة ومتفاقمة، يحاول هذا التقرير تسليط الضوء على الحالة السودانية، فيتناول ثلاثة قضايا أساسية، هي: الأزمة المعيشية، واتفاق السلام الداخلي، والتطبيع، ومن خلال دراسة هذه القضايا الثلاث وباستحضار الوضع العالمي والظرف الإقليمي، يحاول التقرير وضع عدَّة سيناريوهات مستقبلية وما يدفع/ يمنع حدوث أيٍّ منها.

وبعرض سيناريوهات المستقبل يكون التقرير قد أجاب -فيما يخصُّ الحالة السودانية- عن الشقِّ الأول من سؤال هذا العدد؛ **ماذا ننتظر**؟ وفي الخاتمة يجيب التقرير على الشقِّ الثاني؛ **وماذا يمكن أن يقوم به المصلحون على نطاقات التوعية والإصلاح؟**

الأزمة المعيشية:

يتعرَّض التقرير للأزمة المعيشية التي يعانيها السودان اليوم بما يساعد في الإجابة على سؤال؛ ماذا ننتظر؟ أو بقول آخر يتعرَّض التقرير للأزمة المعيشية بالشكل الذي يُرجِّح/يستبعد أن تؤدِّي -كسببٍ رئيس- في سقوط الحكومة الحالية كما أسقطت حكومة البشير.

لا يكاد الباحث الناظر في تاريخ السودان الحديث يجد فترة لم يعش السودان فيها ضيقًا في عيشه، فما بين الاستعمار والفترات الانتقالية مرورًا بالحكومات المستبدَّة والحروب الطويلة يعيش الإنسان معاناة الفقر ومصيبة القتل وألم التهجير، ولكن هذه المعاناة تختلف من وقت لآخر ومن مكان لآخر داخل السودان، ولذلك فإن الحديث يجري بالأساس عن درجة المعاناة أو التأزُّم وليس عن وجود أو عدم وجود معاناة من الأساس.

التنوُّع السكَّاني الكبير الذي يتمتَّع به السودان وامتداد إقليم الدولة لا يمكن أن يؤدِّيا لرفاه أو مجرد استقرار اقتصادي إلَّا إذا وُجدت دولة قوية قادرة على السيطرة على كامل الإقليم بدون نزاعات مسلَّحة تعطِّل التنمية، وعادلة من حيث كونها قادرة على استيعاب كلِّ الفصائل والتعبير عنها، هذه الدولة القوية العادلة لم تَقُمْ في تاريخ السودان الحديث الموزَّع بين حكومة انقلابية مستبدَّة أو حكومة ائتلافية قصيرة العمر، ولذلك لم يَخْلُ السودان من معاناة معيشية منذ استقلاله.

كانت حكومة الإنقاذ (١٩٨٩-٢٠١٩) واحدة من الحكومات الانقلابية المدعومة حزبيًّا من قبل الحركة الإسلامية، والتي استكمَلت وبوتيرة أسرع الحرب الدائرة بين شمال السودان وجنوبه حتى تمَّ انفصال الجنوب باتفاق رسمي في ٢٠١١، ودخلت في دائرة العقوبات الاقتصادية الأمريكية عام ١٩٩٧ بعد أن صُنِّفت كدولة راعية للإرهاب عام ١٩٩٣، وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب في الجنوب لا تزال دائرة والعقوبات قائمة افتُتحت دائرة جديدة للحرب بين الحكومة وعدد من الفصائل المسلحة في دارفور والنيل الأزرق وجبال النوبة وجنوب كردفان، كلُّ هذه الحروب بالإضافة لانفصال الجنوب الغني بالثروات النفطية زادتْ من درجة المعاناة المعيشية التي يعيشها المواطن، بل يمكن القول إن الدولة أصبحت تعيش هي الأخرى معاناة مالية شديدة لم تجد سبيلًا لحلِّها إلَّا على حساب المزيد من

(*) باحث في العلوم السياسية.

معاناة المواطن، فقامت على خلفية الاحتجاجات والمطالبات بوضع خطة للتقشُّف.

ثلاثة أسباب رئيسية للأزمة الاقتصادية خلال حكم البشير هي؛ الحروب الداخلية المتواصلة، وانفصال الجنوب وضياع ثرواته النفطية، والعقوبات الاقتصادية الأمريكية، وفي ظل إدارة سيئة للاقتصاد من قبل الحكومة، أدَّى ذلك لمعاناة في ثلاثة ملفات هي الخبز والوقود والسيولة النقدية، فمع غياب أو شحِّ العملة الصعبة وصعوبة الوصول إليها في بلد يحارب بعضه بعضًا في الداخل ويُحاصَر من الخارج، لم تستطع الحكومة أن تستورد الكميات اللازمة من القمح بالسعر المدعوم، والأمر مثل ذلك في الوقود، فلم تكن استجابة الحكومة سوى في التقشُّف الذي يشمل بالأساس تقليل النفقات الحكومية عن طريق تقليل عدد الوزراء كأحد الآليات، ولذلك تمت إقالة حكومة الوفاق الوطني على إثر الاحتجاجات الشعبية ضدَّ الغلاء في ٢٠١٨ بعد حوالي عام من تشكيلها، ورفع الدعم عن السلع وتحرير سعر الصرف وهي حلول تأتي على حساب المزيد من معاناة الناس.

ولما كانت الحلول الحكومية غير ناجزة وتأتي بالمزيد من معاناة الناس، فإن الدولة وإن كانت استطاعت أن تتجاوز احتجاجات غلاء المعيشة بإزاحة حكومة الوفاق الوطني وإعلان خطة للتقشُّف تقلَّص بها عدد الوزراء ودُمجت فيها بعض الوظائف تقليلًا للنفقات، إلَّا أن الاحتجاجات عادت أقوى في ديسمبر ٢٠١٨ بعدما عجزت الحكومة الجديدة عن توفير الخبز أو الوقود أو تجاوز شُحِّ السيولة، وانتهى الأمر بسقوط دولة الإنقاذ الوطني في أبريل ٢٠١٩.

بعد سقوط حكومة البشير زادت معاناة الناس، فبعد أن تحسَّن سعر الدولار قليلًا لم يلبث أن عاد ليرتفع بأكثر ممَّا كان عليه حتى في وقت مأزوميَّته أواخر عهد البشير، ومع حكومة حمدوك تحلحل الأمر قليلًا في أزمة السيولة، نتيجة المساعدات الخارجية الخليجية بالأساس، ولكن بقيت الأزمة في الملفات الثلاثة (الخبز والوقود والسيولة) قائمة وتتفاقم يومًا بعد يوم.

واللافت في سياسات حكومة حمدوك في معالجة الأزمة الاقتصادية أنها لم تختلف كثيرًا عن تلك التي تبنَّتْها حكومة معتز موسى الأخيرة في عهد البشير والتي قامت عليها الثورة، ولا عن محاولات سابقة من قبل أطراف في حكومة البشير، ولكن لأن مستقبل الحكومة يتوقَّف على أدائها خلال هذه الفترة وبالتحديد في ملف الأزمات المعيشية اليومية، لهذا السبب سيتعرَّض التقرير بشيء من التفصيل للسياسات الاقتصادية للحكومة الحالية حكومة عبد الله حمدوك، والتعرُّف على ما أنجزتْه حتى يصبح ممكنًا معرفة ما ينتظر الحكومة وبالتالي السودان في المستقبل القريب.

خلال أول اجتماع لمجلس الوزراء الحالي بعد تشكيله في سبتمبر ٢٠١٩ وعدَ بتنفيذ ١٠ أولويات خلال المئتي يوم الأولى من عمر الحكومة الانتقالية، حيث أوجز وزير الإعلام فيصل محمد صالح الملفات العشرة في: تشكيل لجنة تحقيق مستقلَّة بشأن مجزرة فض اعتصام القيادة العامة خلال أقل من شهر، والتحضير للمؤتمر الدستوري، ومكافحة الفساد، وفك الأموال المجمَّدة لتسيير دولاب العمل، والعمل على إنهاء الحرب ومعالجة الأزمة الاقتصادية وإلغاء القوانين المقيِّدة للحريات، وتحقيق العدالة الانتقالية ووضع سياسة خارجية متوازنة، وتعزيز حقوق النساء واتِّخاذ إجراءات لضمان مشاركتهنَّ فعليًّا وإصلاح أجهزة الدولة وعلاقة المركز بالولايات لضمان استقلاليَّتها وقوميَّتها لتؤدِّي عملها بشكل جيِّد، مع مراعاة موضوع الكفاءة والتأهيل(١).

(١) خطة الـ ٢٠٠ يوم في السودان.. ١٠ ملفات تضع "حكومة الثورة" تحت الاختبار، بوابة الشرق، ١٢ سبتمبر ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/uLz3A

وعلى مستوى وزارة المالية الأقرب للأزمة المعيشية، ثمة محاور خمسة تحدَّث عنها وزير المالية كبرنامج إسعافي خلال المئتي يوم الأولى من عمر الحكومة، وتشمل هذه المحاور: تثبيت الاقتصاد الكلِّي وهيكلة الموازنة، وتنفيذ إجراءات إسعافية وناظمة وجزائية لتثبيت الأسعار وتخفيف الضائقة المعيشية، ومعالجة أزمة بطالة الشباب، والانتقال من العون الإنساني إلى التنمية المستدامة في مناطق الصراع، وبناء القدرات وبناء مؤسَّسات إدارة الاقتصاد[٢]. غير أن الواقع لم يسعف الحكومة لتنجز ما وعدت به في الوقت الذي حدَّدته فقام وزير المالية الدكتور ابراهيم البدوي في مارس ٢٠٢٠ بالاعتذار للشعب السوداني عن عدم قدرة وزارته على كبح جماح التضخُّم وتثبيت سعر الصرف[٣].

وإجمالًا تسير سياسات الحكومة تجاه الأزمة المعيشية في مساريْن متوازييْن متكامليْن: مسار هيكلي، ومسرحه الخارج ويتوجَّه نحو أمريكا والمؤسَّسات الدولية المانحة والدول الصديقة، ويستهدف تجاوز الأزمات الهيكلية في الاقتصاد السوداني، وأهم إجراءات الحكومة في ذلك هو السعي لدى الولايات المتحدة الأمريكية لرفع اسم السودان من قائمة الدول الراعية للإرهاب وكذلك الاقتراض من المؤسَّسات الدولية، وطلب الدعم من أصدقاء السودان في الإقليم والعالم، وهو مسار سبق إليه وزير الخارجية قبل الأخير في عهد البشير (إبراهيم غندور) وحقَّق فيه شيئًا من النجاح قبل أن يُقيله البشير، إلَّا أن محاولات حكومة حمدوك الخارجية لم تنجح بعد وأصبحت مؤخَّرًا مرتبطة بشكل كبير بما يتم إنجازه في ملف التطبيع مع إسرائيل[٤].

ومسار جزئي مسرحه الداخل، ويستهدف تجاوز الأزمات المعيشية، ويتَّخذ رفع الدعم كإجراء أساس لتوفير تكلفته من ناحية ولاستيفاء شروط المؤسَّسات المانحة من جهة أخرى، وهي خطوة قامتْ بها الحكومة في ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٠، والتحرير التدريجي لسعر الصرف، وطلب الدعم من المواطن نفسه، فقد أطلق رئيس الوزراء مبادرته "القومة للسودان– الحملة الشعبية للبناء والتعمير" وهي دعوة للتبرُّع الجماعي الذي سيُساعد السودان على مواصلة إرث الثورة، وهذه الإجراءات شبيهة بتلك التي قامت بها حكومة معتز موسى الأخيرة في عهد البشير، غير أن محاولتي إبراهيم الغندور في الخارج ومعتز موسي في الداخل لم يتزامنا من ناحية كما لم تتوفَّر لأيٍّ منهما البيئة الكاملة التي ترعى النجاح أو تساعد عليه، ما يجعلهما محاولاتان جزئيَّتان أو فرديَّتان، ولكن حكومة حمدوك تتهيَّأ لها ظروف ثورية أفضل وإن لم تَخْلُ مسيرتها من معوقات حقيقية.

يبقى أن إجراءات الحكومة في الداخل تجاه المواطن وأزماته المعيشية لا تزال لا تختلف كثيرًا عن تلك التي اتَّخذتها حكومة معتز موسى، وحجم التحسُّن في الظروف المعيشية ضعيف، وبعض جوانب المعاناة تتفاقم، والإصلاحات الهيكلية الخارجية باتت مرتبطة بملف خارجي آخر وهو التطبيع، ولذلك يمكن القول إنه إذا لم تتقدَّم الحكومة بملف التطبيع للدرجة التي تستقبل عندها منح المؤسسات الدولية وتُرفع بها من قائمة الدول الراعية للإرهاب نهائيًّا وتُعفى من العقوبات الاقتصادية الأمريكية بكلِّ مستوياتها، فلن تُحَلَّ مشكلتُها الاقتصادية على مستوييْها الهيكلي والجزئي،

(٢) انظر: وزير المالية السوداني يكشف عن برنامجه الإسعافي الاقتصادي، المصري اليوم، ٨ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3ovsORd

(٣) أسماء الحسيني، وزير المالية السوداني يعتذر عن الفشل بكبح التضخم، صحيفة الاتحاد السودانية، ٦ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4yBoM

(٤) انظر على سبيل المثال: البرهان قال إن هناك فرصة يجب اغتنامها لرفع السودان من قائمة الإرهاب.. حمدوك: التطبيع يحتاج نقاشًا مجتمعيًّا، الجزيرة نت، ٢٦ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/HOZPg

وبالتالي يتعجل سقوطها، وإن كان هناك سيناريوهات كثيرة ستؤدِّي لسقوط الحكومة الحالية أنجزت التطبيع أو عطَّلته، حلَّت الأزمة الاقتصادية أو تعثَّرت فيها.

اتفاق السلام الداخلي:

في الذكرى السنوية الأولى (٣١ أغسطس ٢٠٢٠) لتوقيع اتفاق تقاسم السلطة (٣١ أغسطس ٢٠١٩) وقَّعت الحكومة السودانية (ممثلة في مجلس السيادة الانتقالي ومجلس الوزراء) وتحالف الجبهة الثورية –الذي يضم مجموعة من القوى السياسية والحركات المسلَّحة– اتفاقًا للسلام بالأحرف الأولى، في جوبا عاصمة جنوب السودان، لإنهاء قرابة عقدين من النزاع المسلَّح.

يأتي هذا الاتفاق كحلقة ثانية في عملية الانتقال السياسي التي يمرُّ بها السودان، فبعقد اتفاق تقاسم السلطة بين المجلس العسكري الانتقالي وقوى إعلان الحرية والتغيير تكوَّنت الحكومة السودانية من شقَّين مدني وعسكري، وبذلك يكون الوضع السياسي قد رجع لما قبل الثورة حيث توجد حكومة مستقرَّة وحركات مسلَّحة تتمرَّد، وبعقد هذا الاتفاق القاضي بتقاسُم السلطة والثروة بين الحكومة والحركات المسلَّحة المتمرِّدة يصبح التقسيم ثلاثيًّا بين المجلس العسكري وقوى إعلان الحرية والتغيير والحركات المسلَّحة/تحالف الجبهة الثورية.

يضمُّ تحالف الجبهة الثورية الذي وقَّع الاتفاق مع الحكومة السودانية بعد مفاوضات استمرَّت نحو عام، قوى مسلَّحة من مختلف مناطق النزاع تم الاتفاق على تنظيم التفاوض بينها وبين الحكومة من خلال مسارات خمسة يتم تقسيمها على أساس جهوي/جغرافي مراعاة لخصوصية كل مسار ومشكلاته. وتشمل المسارات الخمسة مسار دارفور (حركة العدل والمساواة، وجيش تحرير السُّودان، وتحرير السُّودان – المجلس الانتقالي، وتجمع قوى تحرير السُّودان)، ومسار الشرق (مؤتمر البجة المعارض)، ومسار الشمال (كيان الشمال وحركة تحرير كوش السُّودانية)، ومسار الوسط (الحزب الاتحادي الديمقراطي المعارض)، ومسار النيل الأزرق وجنوب كردفان (الحركة الشعبية لتحرير السُّودان – شمال)[٥].

كما أن الاتفاق لم يكن واحدًا، فقد شمل اتفاقًا خاصًّا بالقضايا القومية وعدَّة اتفاقات خاصة بالمسارات الجهوية المشار لها[٦]، وإن كان تمَّ توقيعها معًا في اتفاق واحد للسلام بعد ذلك تمَّ توقيعه نهائيًّا في ٦ أكتوبر ويقع فيما يزيد على ٢٥٠ صفحة. ومن أهم المواد التي جاءت في اتفاقية القضايا القومية، المادة (٢) التي نصَّت على فترة انتقالية، تكون مدتها ٣٩ شهرًا، "يبدأ سريانها من تاريخ التوقيع على اتفاق السلام". وبموجب هذه المادة، سوف يتم تعديل الوثيقة الدستورية، وتمديد الفترة الانتقالية لعام إضافي. واستثنت المادة (٣) ممثلي الأطراف الموقِّعة على اتفاقية القضايا القومية من نص المادة (٢٠) من الوثيقة الدستورية، والذي يسقط حق أعضاء مجلس السيادة والوزراء في الفترة الانتقالية من الترشُّح في الانتخابات العامة التي سيتم إجراؤها في نهاية الفترة الانتقالية. ويعطي هذا الاستثناء شاغلي المناصب الدستورية المشار إليها في الفترة الانتقالية حقَّ الترشُّح في الانتخابات العامة، بشرط "أن يقدِّموا استقالاتهم قبل ستة أشهر من نهاية الفترة الانتقالية المتَّفق عليها، ولتنظيماتهم الحق في اختيار من يخلفهم في تلك المواقع". كما اقتضت المواد (٤) و(٥) و(٦) إجراء التعديلات التالية على الوثيقة الدستورية: أولًا– تمثيل الأطراف الموقعة على اتفاقية جوبا بثلاثة أعضاء إضافيّين في مجلس السيادة، وتمثيلهم في مجلس الوزراء بخمس وزارات،

(٥) مزدلفة عثمان، شمل ٥ مسارات وغابت عنه حركتان.. ٨ أسئلة تشرح بنود اتفاق الحكومة السودانية والجبهة الثورية، الجزيرة نت، ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٥ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/YLR53

(٦) للمزيد حول هذه الاتفاقيات ونصوصها راجع وكالة السودان للأنباء (سونا) من خلال الرابط التالي: https://bit.ly/2XqGmBp

وفقًا للإجراءات المعمول بها في الوثيقة الدستورية، أي ما يعادل ٢٥% من أعضاء مجلس الوزراء، وتمثيلهم في المجلس التشريعي بنسبة ٢٥%، أي أن يحصلوا على ٧٥ مقعدًا من مقاعد المجلس المنصوص عليها في الوثيقة الدستورية بـ ٣٠٠ مقعد. وعلى مستوى الحكم الولائي (الولايات)، نصَّت الاتفاقية على تخصيص ١٠% من الوظائف القيادية العليا لممثِّلي أطراف الاتفاقية في الولايات التالية: الشمالية، ونهر النيل، سنار، الجزيرة، النيل الأبيض، شمال كردفان، وغرب كردفان. أما بقية المواد الخاصَّة باتفاقية القضايا القومية فقد تناولت القضايا الإجرائية المتعلِّقة بإنفاذ العدالة الانتقالية، والتعداد السكَّاني، والإعداد للانتخابات العامة، وتشكيل المفوضيات المتخصِّصة، وانعقاد مؤتمر نظام الحكم، والمؤتمر الدستوري وكتابة الدستور، ووضع آليات مراقبة الاتفاقية وتنفيذها على أرض الواقع[٧].

أما اتفاقيات المسارات الفرعية، فقد كانت اتفاقية مسار دارفور أكثرها تعقيدًا؛ لأنها قامت على ثمانية بروتوكولات شائكة ومتشعِّبة، تشمل تقاسُم السلطة والثروة، وحيازات الأرض والحواكير (الحيازات التقليدية)، والعدالة الانتقالية، والتعويضات (جبر الضرر)، وتنمية قطاع الرُّحَّل والرعاة، والنازحين واللاجئين، والترتيبات الأمنية الخاصَّة باستيعاب قوَّات الحركات المسلَّحة في أجهزة الدولة، واستند بروتوكول تقاسُم السلطة في الإقليم إلى المادة (٢/١٠) من اتفاق القضايا القومية، والتي نصَّت على إعادة نظام الأقاليم القديم خلال ستين يومًا من تاريخ التوقيع النهائي على اتفاقات جوبا. وتقضي الإعادة بتوحيد ولايات دارفور الخمس في إقليم واحد في ظلِّ نظام حكم فيدرالي. ويكون تمثيل الأطراف المكوِّنة لمسار دارفور في إدارة الإقليم ٤٠%، وتمثيل الحكومة الانتقالية ٣٠%، والحركات الموقِّعة الأخرى ١٠%، وأصحاب المصالح المحلِّية ٢٠%[٨]. كما نصَّت الاتفاقيات الفرعية على تحقيق الحكم الذاتي لولايتي النيل الأزرق وجنوب كردفان وتقسيم الثروة بحيث تحصل الحكومة الفيدرالية على ٦٠% من إيراد المنطقتين، ويتمُّ تخصيص ٤٠% لصالح السلطات المحلية في تلك المناطق[٩]. ويكفل الاتفاق أيضًا لها حقَّ التشريع وتأسيس نظام تشريعي استنادًا على دستور ١٩٧٣ القائم على الاعتراف بالدينين الإسلامي والمسيحي، ويكفل المساواة في الحقوق والحريات لجميع مواطنيه. كما ستؤسَّس بموجب هذا الاتفاق مفوضية قومية للحريات الدينية لها أفرع في المنطقتين، لإنصاف المسيحيّين السودانيّين الذين يشكِّلون مجموعة مقدَّرة من سكان المنطقتين[١٠].

أما برتوكول الترتيبات الأمنية فقد نصَّ على ضرورة إعادة هيكلة القوات المسلَّحة وقوات الكفاح المسلَّحة في جيش مهني واحد يؤسَّس على عقيدة جديدة تهدف إلى حماية الوطن والمواطنين والدستور. كما أقرَّ البرتوكول إنشاء قوات مشتركة باسم "القوى الوطنية لاستدامة السلام في دارفور"، تتشكَّل من القوات المسلَّحة (الجيش)، والشرطة والدعم السريع، وحركات الكفاح المسلَّحة. وشدَّد البرتوكول أيضًا على الترتيبات الأمنية الخاصة بمعاملة "شهداء" الحركات المسلَّحة خلال فترة الحرب في دارفور حسب قوانين ونظم القوات المسلَّحة السُّودانية من حيث التعويضات المادية والرعاية الصحية، كما نصَّ على تشكيل لجنة خاصَّة للإشراف على ملف أسرى الحركات المسلَّحة ومفقوديها،

---

(٧) اتفاق جوبا للسلام في السُّودان.. تحدِّياته وفرص نجاحه، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٥ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QbKzk

(٨) اتفاق جوبا للسلام في السُّودان .. تحدّياته وفرص نجاحه، مرجع سابق.

(٩) محمد الدابولي، "تفاؤل حذر".. ماذا بعد توقيع اتفاق السلام في جوبا؟، مركز فاروس للاستشارات والدراسات الاستراتيجية، ١ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٧ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://pharostudies.com/?p=5299

(١٠) مزدلفة عثمان، شمل ٥ مسارات وغابت عنه حركتان.. ٨ أسئلة تشرح بنود اتفاق الحكومة السودانية والجبهة الثورية، مرجع سابق.

ومعالجة مشكلاتهم وقضاياهم حسب اللوائح والنُّظم القانونيَّة المعمول بها(١١).

يبقى التساؤل قائمًا حول مستقبل الحياة السياسيَّة في السودان في ظلِّ الاتفاق على تقاسُم السلطة والثروة، وجبر الضرر، وجيش مهني واحد، ومشاركة قادة التمرُّد في الحكم الانتقالي، هل سيصبح تقاسم السلطة نافذًا والجيش المهني واقعًا؟ أم إن وقائع الأمس (التاريخ) وظروف اليوم (الواقع) تنبئ بنتائج أخرى؟

في سبيل التعرُّض لهذا التساؤل يمكن الإشارة لعددٍ من النقاط التي تؤدِّي لنتائج أقرب للصواب، وهي على النحو التالي:

– الاتفاق يواجه مشاكل وإشكالات قانونية كثيرة؛ منها على سبيل المثال أنه ينصُّ على أنه في حالة تناقض أحكام الاتفاق الخاص بالسلام مع أحكام الوثيقة الدستورية تسود أحكام الاتفاق، بينما الصحيح قانونًا هو أن تسود أحكام الوثيقة الدستورية لأنها الدستور الحاكم، واللافت في ذلك أن الأطراف معًا مستعدةٌ اليوم لنقض ما اتَّفقت عليه بالأمس، وهو ما يفتح الباب أمام حالة من السيولة قد لا يكون لها حد(١٢)، ولا يستطيع الاستفادة منها إلَّا القوى الصلبة وأهمها الجيش.

– ومثل ذلك إطالة الفترة الانتقالية؛ فالاتفاق الجديد أضاف سنة جديدة للفترة الانتقالية المتَّفق عليها في اتفاق تقاسم السلطة السابق بين المجلس العسكري وقوى إعلان الحرية والتغيير، والأهم أن الاتفاق نقضَ ما أقرَّته الوثيقة الدستورية من حرمان أعضاء مجلس السيادة والوزراء من الترشُّح في الانتخابات العامة التي تلِي الفترة الانتقالية.

– إنجاز الاتفاق هذه المرة من خلال وساطة جوبا عاصمة جنوب السودان والمرة السابقة عن طريق المساعي الإثيوبية يؤكِّد عجز القوى السياسية والهيئات الوطنية السودانية عن إدارة خلافها الداخلي بأي طريقة غير النزاع.

– جرت العادة السياسية في السودان أن يُفتح الحوار وأن يتم الاتفاق على مُخرجات له شبيهة بتلك التي تمَّ الاتفاق عليها هذه المرة، وألَّا يتمَّ تنفيذ شيءٍ من ذلك، فيعود كل طرف لما في يده بما في ذلك العنف واستخدام السلاح، ولسنا في حاجة هنا لتتبُّع مآلات الحوارات السياسية التي خاضها نظام البشير ولا تلك التي كانت خلال فترات الديمقراطية الثلاث، يكفي أن يتمَّ التأكيد على أن الاتفاق الوحيد تقريبًا الذي تمَّ تنفيذه بالفعل هو الذي قضى بتقسيم السودان لشمال وجنوب، وما عدا ذلك لم يكن إلَّا نوعًا من المماطلة السياسية وكسب الوقت من جانب النظام الحاكم أو أحد القوى السياسية تجاه غيرها.

– خلال التحضير للاتفاق الجديد لعب المكون العسكري في الحكومة الحالية الدور الأكبر على حساب المكون المدني (قوى إعلان الحرية والتغيير) وهو ما يجعل محصلة الاتفاق بين شقَّين كلاهما عسكري، ويمثِّل خطورة كبيرة على المكون المدني في حال اتفاق المكونين العسكريَّيْن –الرسمي والمليشياتي– على إزاحته وهو احتمال غير مستبعد.

– بعقد هذا الاتفاق تصبح السلطة في السودان مقسَّمة على عددٍ كبير جدًّا من الأحزاب والقوى السياسية (تحالف قوى إعلان الحرية والتغيير) والجماعات المسلحة (كل الجماعات المسلحة ما عدا حركتين يجري التفاوض معهما) وهيئات الدولة (على رأسها الجيش مُترئِّسًا مجلس السيادة) ولا يغيب عنها إلَّا القليل، وبذلك فإن الغالبية تحكم والقليل جدًّا تمَّ إقصائه أو امتنع هو عن المشاركة، وتاريخ السودان الحديث منذ الاستقلال وحتى اليوم لا يشهد حكومة ائتلافية قامت واستمرَّت، وحتى الحكومات الديمقراطية الائتلافية لم تستطع أن تنجز مهمتها في ظل عدد أقل بكثير ممَّا يشترك اليوم في الحكومة، ولذلك فإن

---

(١١) اتفاق جوبا للسلام في السُّودان.. تحدِّياته وفرص نجاحه، مرجع سابق.

(١٢) عمار عوض، عقبات قانونية تواجه اتفاق السلام في السودان... وتنافس على ٣ مقاعد في السيادي، القدس العربي، ١٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/SC0bq

شواهد الماضي القريب من تاريخ السودان لا تفترض نجاح الحكومة بل تعني أن عمرها قصير كغيرها من الحكومات الائتلافية في السودان.

– الحكومات الائتلافية في تاريخ السودان لم تكن عرضة للفشل فحسب، بل كانت أيضًا سمة من سمات فترات عدم الاستقرار ومقدِّمة لانقلاب عسكري، يقوم به الجيش باستدعاء أو مساعدة أو تخطيط أحد الأحزاب السياسية الرئيسية لتُنهي مرحلة الائتلاف وتنفرد بالحكم أو على الأقل تحرم غيرها من الاشتراك فيه.

ومن خلال ما سبق وبالجمع بين تجارب الخبرة السودانية ممثَّلة في فترات الديمقراطية الثلاث ومتغيِّرات الواقع الراهن المحيطة بالاتفاق ونصوص الاتفاق نفسه، لا يتَّضح أنها تُشير إلى أن الاتفاق سيتمُّ تنفيذه أو أنه سيؤدِّي لنتائج أفضل.

التطبيع مع إسرائيل:

منذ أواخر حكم البشير لم يعُد التطبيع مع إسرائيل مستبعدًا كحلٍّ لعزلة السودان التي فرضَها وضعُه في القائمة الأمريكية للدول الرَّاعية للإرهاب وفرض عقوبات اقتصادية أمريكية عليه، ولكي يتَّضح الأمر اليوم تلزم الإشارة إلى أن السودان قاتل إسرائيل إلى جانب الدول العربية عام ١٩٤٨، وله تاريخ طويل في مقاومتها بداية من المؤتمر الذي عُقد في أغسطس ١٩٦٧ وأعلنت فيه الدول العربية "اللاءات الثلاثة": (لا اعتراف بإسرائيل، لا مفاوضات معها، لا سلام معها)، ومرورًا بكونه كان حليفًا لأهم نظامين معاديَيْن لإسرائيل في المنطقة (إيران وعراق صدام حسين) بالإضافة إلى أنه ما يزال واحدًا من أهم داعمي المقاومة المسلَّحة في الداخل الفلسطيني ويقع على خط تهريب السلاح لها، وله علاقات جيدة معها أغلب الوقت. وفي المقابل إسرائيل لها سجل طويل في الاعتداء على السودان من خلال اختراق أجوائه وإصابة أهداف محدودة في ٢٠٠٩ و٢٠١١ و٢٠١٢ و٢٠١٥[١٣]، مُضافًا إلى ذلك دعم الانفصاليّين في الجنوب والمتمرِّدين في مواقع التمرُّد في دارفور وجبال النوبة والنيل الأزرق وجنوب كردفان.

ماذا تريد إسرائيل من السودان؟ وماذا ستستفيد السودان؟

هذا التاريخ الطويل من العداء يجعل الاهتمام الإسرائيلي بالسودان أمنيًّا بالأساس، "فالسودان يقع على شواطئ البحر الأحمر (ويشرف) على مسار تهريب البشر والسلاح والتجارات من الشمال إلى الجنوب. وموقع السودان بإمكانه أن يساعد في خفض خطر تموضع جهات معادية على طول خط الملاحة الأساسي لـ"إسرائيل"، وعلى المدى البعيد، هناك إمكانيَّة لعمليات أمنية مشتركة في المنطقة". ويمكن للسودان المساعدة في منع تهريب السلاح في خطِّ (السودان – مصر – غزَّة)، ومنع تموضع جهات تجهِّز لعمليات تخريبيَّة معادية على أراضيه، وإمكانية إحباط إقامة قواعد بحرية لجهات معادية مثل إيران وتركيا على شواطئ البحر الأحمر. وهو ما يمنح إسرائيل قطاعًا طويلًا على حدود البحر الأحمر، بفضل علاقاتها الحالية مع إثيوبيا وإريتريا ومصر، والآن مع السودان، ومن الناحية الاقتصادية، ستكون السودان بمنزلة سوق متطوِّرة للبضائع الإسرائيلية، وستستفيد إسرائيل من الإمكانيات الكبيرة للسودان في مجال الزراعة.

بينما الجانب الاقتصادي يأتي أولًا بالنسبة للسودان الذي سيستفيد من التطبيع من جانبين: أولهما وأهمهما هو رفع اسمه من القائمة الأمريكية للدول الراعية للإرهاب، وهو ما يتيح له الاقتراض من المؤسَّسات الدولية وتدفُّق الاستثمارات الخارجية والحصول على مساعدات مالية بما يساعد في حلِّ مشاكله الداخلية وهذا هو الجانب الثاني.

(١٣) للمزيد انظر؛ الغارات الأجنبية على السودان، الجزيرة، ٩ فبراير ٢٠١٦، تم الاطلاع في ٢٠ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ScI2B

ولكون التطبيع سيأتي بمنافع متبادلة رضي بها الطرفان ويلبّي أهداف الوساطة الأمريكية ويتوافق مع رؤى بعض القوى الإقليمية الدافعة نحوه، أعلن القادة الأربعة؛ رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ورئيس مجلس السيادة السوداني عبد الفتاح البرهان ورئيس مجلس الوزراء السوداني عبد الله حمدوك والرئيس الأمريكي دونالد ترامب، في بيان ثلاثي يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠ تطبيع العلاقات بين السودان وإسرائيل ونصَّ البيان على عدَّة التزامات وتعهُّدات على النحو التالي:

– تطبيع العلاقات بين السودان وإسرائيل، وإنهاء حالة العداء بين البلدين.

– بدء العلاقات الاقتصادية والتجارية، مع التركيز مبدئيًّا على الزراعة.

– اجتماع الوفود في الأسابيع المقبلة للتفاوض بشأن اتفاقيات التعاون في تلك المجالات، وكذلك في مجال تكنولوجيا الزراعة والطيران وقضايا الهجرة، وغيرها من المجالات لصالح الشعبيْن.

– أكد البيان أن القادة عقدوا العزم على العمل معًا لبناء مستقبل أفضل، وتعزيز قضية السلام في المنطقة.

– اتفقت الولايات المتحدة وإسرائيل على الشراكة مع السودان في بدايته الجديدة، وضمان اندماجه بالكامل في المجتمع الدولي.

– ستتَّخذ الولايات المتحدة خطوات لاستعادة الحصانة السياديَّة للسودان، وإشراك شركائها الدوليّين لتقليل أعباء ديون السودان.

– كما التزمت أيضًا بدفع المناقشات حول الإعفاء من الديون بما يتَّفق مع مبادرة البلدان الفقيرة المثقلة بالديون.

– كما التزمت الولايات المتحدة وإسرائيل بالعمل مع شركائهما لدعم شعب السودان في تعزيز ديمقراطيَّته، وتحسين الأمن الغذائي، ومكافحة الإرهاب والتطرُّف، والاستفادة من إمكاناته الاقتصادية[(١٤)].

وقد يأخذ تطبيع العلاقات خلال الفترة الانتقالية المستوى الجزئي بحيث تكون القضايا التي تأسَّس عليها لقاء البرهان–نتنياهو هي مضامين العمل الرئيسية حتى نهاية المرحلة الانتقالية، وبالتالي لن يكون هناك تطبيع سياسي كامل، ولا فتح سفارات، ولا تمثيل دبلوماسي مباشر، وربما سيكون هناك وجود فني غير مستقر؛ وقد تلجأ إليه الحكومة الانتقالية السودانية بإعلان الموافقة على التطبيع، وتأخير المصادقة عليه حتى تأسيس المنظومة التشريعية.

وربما يصبح تطبيعًا كاملًا؛ وهو ما تلحُّ عليه الإدارة الأمريكية وتتطلَّع إليه حكومة نتنياهو، وتضغط واشنطن بقوة للوصول إلى هذا المستوى، وتستند في ذلك إلى مستوى ابتزاز سياسي يتعلَّق بتعدُّد مستويات العقوبات الأمريكية، ولا سيَّما تلك المتعلِّقة بعقوبات الكونجرس، بحيث يتم رفع بعض العقوبات وإبقاء بعضها ليتم إلغاؤها تدريجيًّا بحسب التجاوب السوداني.

وقد يتجمَّد مشروع التطبيع فما تزال قوى أساسية في قوى إعلان الحرية والتغيير وأحزاب رئيسية ترفض التطبيع، وتعتبر ما جرى تجاوزًا غير مقبول من طرف الحكومة والقيادة العسكرية، وأنهم لا يملكون تفويضًا من الشعب ولا من اللجنة المركزية لقوى إعلان الحرية والتغيير، كما أن القوى الإسلامية وحلفاءها التي نشطت مؤخَّرًا على خلفية التدهور الاقتصادي، ستعمل على تصعيد خطابها المعارض، وتحشيد الشارع ضدَّ هذا التطبيع.

وعند الترجيح بين الاحتمالات فإنه يصعب الحديث عن تطبيع كامل خصوصًا في المرحلة الانتقالية، وعدم اكتمال المؤسَّسات الدستورية في السودان، ولذلك فغالبًا

---

(١٤) اتفاق التطبيع بين السودان وإسرائيل.. معلومات عن البنود والوسطاء والخطوات اللاحقة، الجزيرة نت، ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٥ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/SExYm

سيكون التطبيع جزئيًّا. وسيظل مُعرَّضًا للتجميد بسبب تصاعد المعارضة ضدَّه، خصوصًا إذا لم تنعكس نتائجه الاقتصادية على حياة السودانيِّين[١٥].

كيف سيؤثر التطبيع في مستقبل السودان؟

لما كان السؤال عن المستقبل (ماذا ننتظر؟) هو هدف التقرير بالأساس تلزم الإشارة إلى أن التطبيع سيكون واحدًا من محددات شكل السلطة في السودان من الآن فصاعدًا حتى لو تمَّ تعطيله، فإنفاذ التطبيع بمستوياته يعني إزالة العقوبات الاقتصادية الأمريكية على السودان بمستوياتها، وفتح الباب أمامه ليقترض ويتلقَّى المساعدات كونه أصبح حليف إسرائيل وصديق الولايات المتحدة الأمريكية، كما يعني أن إسرائيل ومعها المحور المعادي لثورات الربيع العربي (الإمارات–السعودية–مصر) ستساند الفصيل الموافق على التطبيع في حال تعرَّضَ لأيِّ معارضة داخلية تستهدف إزاحته من السلطة، وهذا يعني أن السودان في ظلِّ التطبيع يدور في هذا المحور، وفي حال قرَّرت بعض الأحزاب الخروج من الحكومة الحالية كاعتراض على التطبيع –وهذا لم يحدث حتى الآن– فهذا لن يؤدِّي سوى لزيادة نفوذ القوى الموافقة على التطبيع ويُصعب مهمة الأخرى في إزاحتها بعد ذلك.

أما إذا تعطَّل التطبيع فهذا يعني أن تعود الولايات المتحدة الأمريكية لخنق السودان بالعقوبات أو ما يتبقى منها وتفرض عليه عزلة من جديد حتى يطوِّر أبناءه أجندة تفاوضية تجعله يتمكَّن من الدخول في علاقة عادلة مع مختلف دول العالم بعيدًا عن إجباره على التطبيع أو غيره كثمن لذلك، ويعني أيضًا أن تقوم إسرائيل بدعم تشتيت وتفتيت السلطة وتكتُّلاتها بالشكل الذي يغذِّي أجواء الاحتراب وعدم الاستقرار الداخلي، وهذا إن لم تعالجه القوى السياسية بسياسات اقتصادية عاجلة يتحسَّن بها حال المواطن وتوافقات سياسية تقطع الطريق على التدخُّلات الخارجية، إن لم تفعل ذلك سيؤدِّي لوضع أقرب للفوضى.

سيناريوهات المستقبل:

السيناريو الأول– استيلاء العسكر على السلطة

وفي الغالب لن يكون الجيش وحده بل ستشترك معه الجماعات المسلَّحة التي أصبحت شريكًا في السلطة بعد اتفاق جوبا لسلام السودان، إذ يتَّحد طرفان لإزاحة الثالث، ويدعم هذا السيناريو كون الجيش أو المكون العسكري في مجلس السيادة هو من مهَّد للتطبيع وأنجز ما تمَّ إنجازه منه حتى الآن، وهذا يخلق له داعمين إقليميِّين ودوليِّين يساعدونه ويحافظون على وجوده لارتباط مصالحهم بوجوده أو لكونه يدور في محورهم وبالتالي هو الأفضل والأسهل بالنسبة لهم عند التعامل مع السودان، ويدعمه أيضًا اتحاد القوى العسكرية النظامية والمليشياتية معًا في السلطة؛ فتجتمع قوة الجيش وإلى جانبه قوات الدعم السريع وإلى جانبهم الحركات المسلَّحة، ما يجعل المعارضة المتوقَّعة فقط مدنية سلمية وهذه يسهُل إجهاضها وإخمادها ويتوفَّر غطاء دولي لذلك من جانب القوى الإقليمية الدافعة نحو التطبيع.

كما يدعم هذا السيناريو أيضًا تشرذم القوى المدنية وعدم اتفاقها على رأي واحد حول التطبيع أو حول طبيعة السياسات الاقتصادية الواجب اتخاذها لتجاوز الأزمة المعيشية، فلو أن القوى المدنية التي رفضت التطبيع خرجت من الحكومة لما أدَّى ذلك إلَّا إلى زيادة قوة العسكر وسيطرتهم على السلطة في ظلِّ وجود قوى أخرى مدنية توفِّر لهم الغطاء السياسي اللازم، وعدم اعتراضها وخروجها من السلطة يمرِّر عملية التطبيع حتى الآن، ويمنح العسكر المزيد من الوقت لتوفيق أوضاعه داخليًّا وخارجيًّا حتى يصبح الوقت مُواتيًا للانفراد بالسلطة.

---

(١٥) التطبيع السوداني – الإسرائيلي وأثره على القضية الفلسطينية، المركز الفلسطيني للإعلام، ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EYFJ4

طول الفترة الانتقالية وتمديدها مع كلِّ اتفاق جديد في ظلِّ سوء الأحوال المعيشية يزيد من ملل المواطن السوداني، ما يجعله في وقت ما يقبل سيطرة العسكر على الحكم كونهم قادرين على فرض النظام والأمن ولديهم قدرة على حلحلة الوضع المعيشي داخليًّا من خلال توظيف الشركات التي يسيطر عليها الجيش والأجهزة الأمنية بعيدًا عن سيطرة وزارة المالية، بالإضافة للدعم المالي المقدَّم من الحلفاء الذين يهمُّهم أن يظلَّ السودان تحت حكم العسكريّين.

ويمنع حدوث مثل هذا السيناريو درجة الوعي الكبيرة بين الثوار بالعسكر ومخطَّطاتهم وحالة التوافق بين القوى السياسية على الهدف الأكبر المتمثِّل في إزاحة العسكر[١٦]، وهو ما يجعلها قادرة على تنفيذ عصيان مدني يعيد الأمور للحظات التفاوض الأولى بين المجلس العسكري وقوى الشارع، بالإضافة لصعوبات كبيرة تعترض قدرة العسكر على تجاوز الأزمة المعيشية رغم استحواذاهم على بعض الثروات خارج سيطرة وزارة المالية.

السيناريو الثاني– الفوضى العامة

يحدث سيناريو الفوضى العامة إذا استطاعت القوى المدنية الفاعلة على الأرض التحرُّك ضدَّ سيطرة العسكر على السلطة، بالشكل الذي يصاحب السيطرة عليه من جانب العسكر سقوط شهداء وإسالة دماء يتحرَّك بعدها الشارع بشكل أكبر، فيتقوَّض اتفاق تقاسم السلطة بين المجلس العسكري الانتقالي وقوى إعلان الحرية والتغيير وتسقط الوثيقة الدستورية ويتعثَّر اتفاق السلام الداخلي، فتخرج الحركات المسلَّحة من السلطة وتعود الأوضاع لنقطة الصفر في ظلِّ أزمة معيشية خانقة تزيد من هذه الفوضى.

ولكن يعوق حدوث هذا السيناريو أن ثمة عدد من القوى الإقليمية ستدعم العسكر سياسيًّا واقتصاديًّا بالشكل الذي يساعدهم على تجاوز الأزمة والاستمرار والاستقرار في الحكم.

السيناريو الثالث– تسليم السلطة وفق جدولها الزمني

وهو السيناريو الأقرب للحدوث فيما لو استمرَّت الأحداث تسير بنفس الطريقة المتَّفق عليها في اتفاق تقاسم السلطة والوثيقة الدستورية واتفاق السلام الداخلي، ويدعم حدوثه كون القوى المدنية لا تزال تملك العصيان المدني كأداة ضغط في وجه المجلس العسكري، وأن القوى المدنية متَّفقة على هدف أكبر يتمثَّل في إزاحة العسكر عن الحكم بعد المعاناة الطويله من الانقلابات العسكرية منذ الاستقلال وحتى الآن.

وتعترض هذا السيناريو صعوبتين رئيسيتين: الأولى– اقتصادية تتعلَّق بتجاوز الأزمة الموجودة وإحداث تحسُّن حتى لو جزئي وبسيط، في ظل سيطرة العسكر على الذهب الذي يمثِّل أهم مصادر العملة الصعبة، والأخرى– سياسية تتعلَّق بالضغط على شركاء الثورة لإنجاز الأهداف المرحلية

---

(١٦) رغم تنوُّع واختلاف القوى السودانية إلَّا أن ثمة توافقًا تامًّا على ضرورة إزاحة العسكر من الحكم ظهر في محطات تاريخية منها ثورة أكتوبر ١٩٦٤ وظهر بعدها ضدَّ نظام نميري وظهر مجدَّدًا خلال عملية إسقاط البشير وبعدها، فمثلًا الترابي العدو اللدود للحزب الشيوعي عاد وتحالف معه في ٢٠١٠ ضمن تحالف قوى الإجماع الوطني في إطار مناهضة الحكم العسكري، وكذلك لم يطالب عموم الإسلاميِّين في المعارضة من القوي متصدِّرة المشهد الآن سوى عدم الإقصاء، وكذلك مليونية الشريعة التي شهدها السودان في ١٩ مايو، والتي رفعت نفس شعار الثورة "حرية.. عدالة.. سلام" ولم تتجاوز العتاب للكراهية وأكَّدت على الشراكة وليس الاستقطاب رغم حجم الاختلاف الكبير مع القوى التي تتصدَّر المشهد، إلَّا أن هذه الحالة من التوافق مرهونة بعدم الإقصاء الذي يوفر قدرة على الاستقطاب من جانب المجلس العسكري ستفسد هذا التوافق بالضرورة وتفتح الإمكانية لوقوع انقلاب عسكري.

للمزيد حول جدلية الاستقطاب والتوافق بين القوى السياسية السودانية منذ الاستقلال وحتي أحداث الثورة الآن، انظر:

– وسام فؤاد، ثورة السودان بين مشروع الخوف وسياسات الاستقطاب، المعهد المصري للدراسات، ٢٨ يونيو ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٢٧ نوفمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TINAn

وتقديم تنازلات تقود لتوافقات تسير بالثورة إلى الأمام وتؤمّن الجبهة الداخلية من أي محاولات للتآمر، وذلك في ظلّ اتّساع الخلاف حول الكثير من النقاط، منها على سبيل المثال تأخُّر تشكيل المجلس التشريعي لعام كامل، وفي ظلّ وجود قوى إقليمية تعادي الثورات ومخرجاتها وعلاقة قوية بين حميدتي والاتحاد الأوروبي بسبب قضية الهجرة غير الشرعية.

السيناريو الرابع– انقلاب من داخل الجيش

العدد الكبير من الانقلابات والمحاولات الانقلابية في تاريخ السودان ما بعد الاستقلال يجعل سيناريو انقلاب عدد من ضباط الجيش على الجيش والسلطة السياسية معًا مُحتملًا طوال الوقت خاصَّة في فترات التحوُّل، فقد ينقلب الجيش نفسه خلال الفترة الانتقالية بدعوى الأمن والاستقرار، وعندها سيبحث عن دعم بعض القوى المدنية، وقد ينقلب مجموعة من ضباطه بمشروع سلطوي جديد يبحث أيضًا عن دعم أيٍّ من القوى المدنية، ويدعم مثل هذا السيناريو خبرة الجيش الطويلة في الانقلابات العسكرية فضلًا عن المحاولات الانقلابية، وكذلك القوى السياسية المختلفة التي تلجأ للعسكر لفرض وجودها مرة بعد مرة، إلَّا أنه يبدو من المستبعد طبقًا لنفس الأسباب أن ينقلب بعض ضباط الجيش لحساب البشير، لأن العسكري لا ينقلب لحساب غيره سواء كان مدنيًّا أو عسكريًّا، كما أنها لم تُطرح من قبل في تاريخ السودان فضلًا عن أن تُنفذ، ولكن يمنع وقوع مثل هذا السيناريو تمكُّن قادة الجيش الآن من مفاصل السلطة بشكل جيد، وتمكُّن الشارع من أدواته الضاغطة والتي يمثل العصيان المدني أقواها وأسرعها فاعلية.

السيناريو الخامس– تسليم السلطة للمدنيّين ثم إفشالهم والانقلاب عليهم

وهنا سيعمل المجلس العسكري على خلق حالة من الاستقطاب الحاد بين القوى السياسية الفائزة في الانتخابات، وعرقلة تكوين حكومة قوية والعمل على زعزعة التحالف المكوِّن للحكومة بالشكل الذي يجعل الاستقرار السياسي مطلوبًا حتى لو أصبح العسكر هم البديل، ولكن ذلك مرهون بعدم فوز حزب أو مجموعة أحزاب متجانسة بالأغلبية واتّساع هُوَّةِ الخلاف بين الأحزاب بالشكل الذي يجعل التوافق فيما بينها صعبًا وتبدو ملامح ذلك واضحة الآن، وعندها سيحصل المجلس العسكري على دعم سياسي واقتصادي كبير من محور القوى المعادية للثورات (مصر – السعودية – الإمارات – إسرائيل)، يدعم ذلك تمتُّع العسكر بإمكانيات مالية كبيرة (مصادر الذهب) والقوة العسكرية اللازمة للقمع ودعم بعض القوى الإقليمية لهم.

ويمنع وقوع مثل هذا السيناريو استفحال الأزمة المالية والاقتصادية التي أشعلت الثورة والتي يصعُب على العسكر إنهاؤها وإلَّا كانوا أنقذوا أنفسهم والبشير، وكذلك كون الرجل الأقوى الآن (حميدتي) يأتي من خارج الجيش وبالتالي احتمالات التنازع واردة وحقيقية في حال صعود أحد العسكريّين للسلطة[١٧].

خاتمة: ماذا يمكن أن يقوم به المصلحون على مستويات التوعية والإصلاح؟

من خلال ما تقدَّم يمكن أن يقوم المصلحون بعدَّة واجبات، منها:

على مستوى الوعي العام، إبقاء القضايا حاضرة في ذاكرة الناس ومطروحة في أحاديثهم بعيدًا عن شرود الحكومات، عن طريق النشر المتواصل والمتنوّع والمتعدِّد عن هذه القضايا والتبصير بها، بما يجعل خباياها معروفة لعموم الناس بالشكل الذي يعيق قنوات السلطة عن التضليل بشأنها.

وعلى المستوى السياسي، تطوير أجندة تفاوضية تحفِّز الولايات المتحدة الأمريكية والمؤسَّسات الدولية

(١٧) للمزيد حول هذا السيناريو، انظر: نبيل علي، السودان: اتفاق تقاسم السلطة الطبيعة وسيناريوهات المستقبل، فصلية قضايا ونظرات، العدد ١٦، يناير ٢٠٢٠، المرجع السابق، ص ص ٥٦ و٥٨.

ومختلف دول العالم على بناء علاقات عادلة مع السودان، بعيدًا عن ربط ذلك بمزيد من الضغوط التي تجعله يتنازل عن شيء من حقوقه، أو يُقيم تحالفات أو سياسات بعيًدا عن رغبة أبناءه.

وعلى المستوى الاقتصادي: طرح حلول اقتصادية تجعل من مصلحة الغير (دول ومؤسسات العالم) إقامة علاقات اقتصادية كبيرة مع السودان يتحسَّن بها المعاش اليومي للمواطن حتى لو ببطء، وينمو بها اقتصاد السودان، بدون ارتهان بالتطبيع مع إسرائيل، وهذا لن يكون سهلًا أو عابرًا، ولذلك يجب ربط الناس بقيمهم الحضارية وتذكيرهم بإيمانهم الديني، وما يفرضانه من خيارات تستلزم الصبر، حتى يتم إنجاز التنمية بالشكل الذي يكفل حياة كريمة للناس بعيدًا عن التطبيع.

*****



تطور صفقة القرن، وآفاق ترتيب الصفوف الفلسطينية

طارق جلال(*)

مقدمة:

تعيش أمتنا أياما عصيبة في ظل تدهور النظام الإقليمي العربي؛ نتيجة حدة الاستقطاب بين قواه، بصورة أظهرت تحولات استراتيجية كبرى، تتجلى تداعياتها بوضوح على القضية الفلسطينية بصفة خاصة، والشعوب العربية بصفة عامة.

ويبدو أن حالة الاصطفاف الداخلي الفلسطيني، التي أحدثتها القرارات الهوجاء التي صدرت من إدارة الرئيس الأسوء في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية دونالد ترامب، في طريقها للتراجع نتيجة الردّة التي تحققت جراء قرارات رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس أبو مازن بعودة التنسيق الأمني مع الاحتلال، وتداعيات هذا القرار على طابور التطبيع العربي.

ويسعى هذا التقرير، إلى تقديم صورة أوسع للمشهد الفلسطيني، لا تقلل من حجم الخسائر والانكسارات التي نتجت عن التطبيع العربي، ولكنها لا تقع أسيرة لليأس والشعور بالمظلومية؛ حيث يبحث هذا التقرير تداعيات عودة التزام السلطة الفلسطينية باتفاقاتها مع الاحتلال الإسرائيلي، مع مناقشة آفاق الاصطفاف وفقًا لعدد من القضايا المرتبطة بملف المصالحة، وسبل دعم القضية الفلسطينية من بوابة الأسرى والوعي الجمعي العربي، وأخيرًا باستشراف مستقبل مشروع المقاومة ومراحل تطوره ومآلاته المنتظرة.

أولًا- ما وراء عودة التنسيق الأمني بين السلطة والاحتلال:

لم تتاونَ السلطة الفلسطينية في تقديم قرابين الولاء لإدارة جو بايدن الديمقراطية، في محاولة منها لكسب ودها للضغط على إسرائيل للتراجع عن بعض هزائمها في فترة الرئيس المنتهية ولايته دونالد ترامب، رغم أن قرار السلطة الأخير ينسف محاولات التقارب الفلسطيني-الفلسطيني الذي تمت مؤخرًا في القاهرة، وثمة نتائج من قرار عباس هذا، وهي:

أ- أن سيل التطبيع العربي الإسرائيلي المتدفق من موانئ دبي وأبراج أبوظبي إلى عواصم عربية وإسلامية كثيرة، يحظى بدعم فلسطيني رسمي؛ لذلك سارع عباس بُعيْد الإعلان عن استئناف التعاون الأمني إلى إعادة سفيريه في كل من الإمارات والبحرين. وأظهرت السلطة الفلسطينية نيتها هذه عندما عبرت بعض أبواقها الإعلامية عن حالة ترحيب غريب بقرار حل الدولة الواحدة الذي سينتج بصورة فعلية عن إجراءات الضم الإسرائيلي للضفة، على اعتبار أن التعداد الفلسطيني في تلك المناطق، سيمكن الفلسطينيين من الوصول للحكم بسهولة، في حالة عقد أي انتخابات. وتبدو غرابة هذا الطرح من يقينية أصحابه وتأكيدهم على أن الحكومة الإسرائيلية ستمنح المواطنة الإسرائيلية للفلسطينيين لمنحهم حق المشاركة في العمل السياسي، رغم أن رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو نفسه، صرح بأنه لن يمنح الفلسطينيين الموجودين في المناطق التي ستضمها حكومته حق المواطنة الإسرائيلية. وبالتالي فعودة التنسيق الأمني توضح أن السلطة لا ترى خطورة ما يحدث في الإقليم وحتى ما يتغير على الأرض من حقائق جغرافية وتاريخية[1].

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) صالح النعامي، ما وراء حماس البعض لحل "الدولة الواحدة"، وكالة شهاب للأنباء، ٢٠٢٠/٦/٢، تاريخ الدخول

ب- أن موقف الرئيس الفلسطيني هذا لا يعني في حقيقة الأمر أن جو بايدن سيتراجع عن شيء مما قام به ترامب، لاسيما أنه أعلن أكثر من مرة عن دعمه لكثير من مستجدات الصراع العربي الإسرائيلي؛ لذلك ما الذي سيدفع لخسارة مكاسب تمت بالفعل، بل ولم يحاول أبو مازن حتى الضغط على الإدارة الأمريكية الجديدة، بمطالبتها بضرورة الحفاظ على صورتها في المنطقة العربية كوسيط محايد(٢).

ج- يرسخ أبو مازن الانقسام الفلسطيني أكثر وأكثر، بل يعزل بذلك حركة فتح والمنتمين لها عن باقي عناصر الشعب الغاضب من إجراءات الضم، ومواكب التطبيع العربي، ويعيد الأمور إلى سياق الحرب الأهلية في ٢٠٠٧، خاصة بعد عودة التصعيد الخطابي بين فصائل المقاومة ومنظمة التحرير. وفي هذا الإطار اتهمت حركة حماس، اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بأنها تعيش في حالة من "التيه السياسي" لإرضاء الولايات المتحدة الأمريكية(٣). وردًا على ذلك، قامت السلطة بشن حملة اعتقالات واسعة في الضفة الغربية ضد عناصر حركة حماس؛ وهو الأمر الذي وجده البعض تأكيدا من عباس على التزامه باتفاقيات التنسيق الأمني(٤).

د- تقترب الأوضاع في الضفة الغربية أكثر نحو الانفجار، وحينها لن يكون هناك أمام السلطة إلا السقوط والزوال(٥)، لاسيما في ظل وجود حالة غضب حقيقي بين أوساط شباب حركة فتح؛ نتيجة استمرار الاستيطان وسياسة التهويد، وغياب أي أفق للحل السياسي. وما العمليات الفردية المستمرة من وقت لآخر من الشباب الفلسطيني تجاه القمع الإسرائيلي، إلا تمهيدا لمثل ذلك الانفجار؛ ولذلك أقدم شباب من حركة فتح على طرد وفد أمريكي من بيت لحم وقام نشطاء فلسطينيون بإحباط مشاركة وفد آخر في مؤتمر بحثي نظم في رام الله. إن كثيرا من الدلائل تشير إلى أن إستراتيجية السلطة القائمة على المراوحة في المكان تلفظ أنفاسها(٦). ومثال على ذلك وأمام القمع المتصاعد قتلت مستوطنة صهيونية في شمال الضفة ما دفع الاحتلال للشعور بالخطر، وقرر إرسال تعزيز من قوات الفرقة العسكرية في الضفة الغربية لتقييم الوضع، ومن أجل حراسة المستوطنات والطرق في المنطقة، بل منع الإجازات لحين استقرار الوضع(٧).

ثانيًا- آفاق ترتيب الصفوف الفلسطينية: ما بعد نخبة عباس

في هذا الجزء نناقش عددا من القضايا الخلافية التي تمثل في أجزاء منها بعض العقبات أمام إتمام ملف المصالحة الفلسطينية؛ وهي: قضية الانتخابات الفلسطينية، وقضية

٢٠٢٠/١٢/٢٤، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/y61do

(٢) صالح النعامي، " حتى لا تكونوا شركاء عباس في جرائمه"، الرسالة، ٢٠٢٠/١١/٢٦، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TmSNV

(٣) " حماس: قيادة منظمة التحرير تعيش حالة من التيه السياسي لإرضاء واشنطن"، وكالة شهاب للأنباء، ٢٠٢٠/١٢/٢١، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٨ ، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/iRPTg

(٤) "حماس تدين اعتقال أجهزة أمن السلطة لكوادرها بالضفة الغربية"، وكالة شهاب للأنباء، ٢٠٢٠/١٢/٢١، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٦، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/My7GF

(٥) صالح النعامي، "فرص حماس في المصالحة"، وكالة شهاب للأنباء، ٢٠١٧/١٠/١١، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/١٧، متاح عبر الرابط التالي:https://cutt.us/KcPmC

(٦) صالح النعامي، " نقل السفارة يجرد عباس من أوراقه نهائيا"، وكالة شهاب للأنباء، ٢٠١٨/٢/٢٧، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/lzFKI

(٧) " الاحتلال يعزز قواته في الضفة"، وكالة شهاب للأنباء، ٢٠٢٠/١٢/٢٢، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/١٩ ، متاح عبر الرابط التالي:https://cutt.us/VJjah

الصراع حول جدوى أي المسارين: التسوية السياسية، أم المقاومة العسكرية؟

١. الانتخابات الفلسطينية آلية للانقسام!

تعد مسألة الانتخابات واحدة من المسائل التي تتناولها وسائل الإعلام المهتمة بالشأن الفلسطيني، كما أنها إحدى النقاط التي توضع عادة على طاولة المصالحة بين الفرقاء، كآلية لتجاوز حالة الانقسام الفلسطيني-الفلسطيني.

ورغم كثافة دعوات لعقد جلسات الحوار بين فتح وحماس، إلا أن الجلسة الأخيرة التي كانت في اسطنبول أظهرت فيها الفصائل جدية أعلى نسبية مما سبقها من اجتماعات؛ لعقد انتخابات تمهد لتوحيد الصف الفلسطيني، بصورة جعلت الكثير من المنتمين للمقاومة يفرحون بقرار الإعداد للانتخابات، كآلية تأسيسية لمواجهة صفقة القرن، وبناء توافق وطني يعوّض حالة الانكشاف العربي. ولكن هل تحتاج القضية فعلا لملف الانتخابات؟ أو بالأحرى كيف يكون هناك نتائج إيجابية من ملف الانتخابات؟

الظاهر أن السياق الذي أسهم في الانقسام الفلسطيني في ٢٠٠٧، وجرد حماس من شرعيتها، لم يتغير كي يمكن القول بأن الانتخابات ستحدث فارقا إيجابيا هذه المرة. بل على العكس، فالأوضاع حاليًا أسوء بمراحل مما كانت عليه في السابق؛ فالانتخابات لن تسهم فقط في تفاقم الانقسام الفلسطيني، بل إنها ستوفر مسوغات لفرض مزيد من الحصار على غزة والضفة معا؛ حيث إن أحدا ليس بوسعه أن يضمن ألا تسفر هذه الانتخابات عن فوز لحركة حماس مجددا؛ وهي النتيجة التي لن تقبلها إسرائيل والولايات المتحدة ونظم التطبيع العربية[٨]. فماذا يمكن أن يكون ساعتها؟

ربما من المجدي أكثر أن يكون الحديث عن أمور أكثر فعالية من الانتخابات؛ ليس لأن الأخيرة غير مهمة في ذاتها، ولكن خشية أن تكرس صعوبة الحل الفلسطيني أكثر ربما إلى درجة الاستحالة وذهاب فكرة تأسيس دولة فلسطينية مستقلة بلا رجعة. ومن ثم يمكن الاستعاضة عنها بالنقاش ومراجعة السنوات الماضية، وأن يأخذ كل طرف خطوة للوراء فيما يخص رؤيته لنفسه وللآخر؛ بحيث يكون هناك تقدير متبادل لموقف كل طرف، ويكون هناك مراعاة لحساباتهما معًا.

ويمكن أن يكون هناك تركيز على طريقة للتعاطي مع الضفة الغربية كسياق جغرافي محتل على مستوياته الكلية من العمران إلى الاقتصاد والسياسة، مرورًا بتجريف الوعي المقاوم، وقتل روح الصمود نتيجة التمدد الاستيطاني.

من هذه الزاوية فلعل انضمام حماس وفصائل غزة تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطنينة، بتشكيل قد يكون بدرجة أقل من تشكيل فتح وفصائل الضفة، أفضل بكثير من انتخابات لن يعترف أحد بمصير نتائجها، في حال قررت حماس الدخول بقائمة في الضفة. ف"بداهة فإنّ النقد لا يطال الحوارات، ولا مبدأ الاتفاق، فهو أمر محلّ تثمين وتقدير وإيمان بضرورته. والحوار بدلا من تصعيد الخصومة الداخلية هو أدنى ما يمكن فعله، وإنما يتجه النقد إلى النتائج والمقرارات والاتجاه العامّ الذي تشير إليه الحوارات"[٩].

وبناء عليه يمكن أن يكون هناك حديث حول ضرورة اعادة بناء منظمة التحرير، ومراجعة رؤيتها ووسائلها

---

(٨) صالح النعامي، " انتخابات فلسطينية مصلحة صهيونية؟!"، الخليج الجديد، ٢٠٢٠/١٠/١٣، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٨ ، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Yjlqh

(٩) ساري عرابي، " هل المخرج في انتخابات تشريعية فلسطينية؟"، عربي ٢١، ٢٠٢٠/٩/٢٩، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٤ ، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/5tMcY

وادواتها، وأن تراعي فصائل المقاومة المسلحة بصورة خاصة، أن هدف حمايتها من الاستهداف الأمني للاحتلال، والاستهداف السياسي والاقتصادي من الإقليم هدف محوري على الأقل في المرحلة الحالية؛ انتظارًا لحين حدوث تحولات في المشهد المحلي والإقليمي. لتكون المحصلة: "بقاء كلّ منهما في سلطته، مع الامتناع الكامل عن أي مناكفات أو خصومات أو تفرد باتخاذ أي خطوة سياسية، وحلّ الملفات الصغيرة والمتوسطة، وإرجاء ملفات الانقسام الكبرى، والسماح لكلّ منهما بالعمل المتفق عليه في مجال سلطة الآخر دون استهداف أمنيّ، والاتفاق على خطوات نضالية متدرجة، والتمثيل المشترك في الوفود السياسية، ومنح أهمية خاصة لانعقاد دائم لمجلس الأمناء العامين. وبالرغم من أنّ هذا الخيار شديد التواضع فإنّه أفضل من إعادة إنتاج الانقسام على أرضية أوسلو، في حال امتنع الاتفاق على البدء في إعادة بناء منظمة التحرير"(١٠).

٢. الخيار الوحيد للقضية: المقاومة في مقابل التسوية:

لقد أحدث الصراع حول ماهية الدفاع عن القضية الفلسطينية شرخًا وجوديًا وتقسيمًا فعليًا للمجتمع الفلسطيني وأنصار القضية في العالم العربي والإسلامي قبل لحظة الانقسام النهائي في ٢٠٠٧؛ ولذلك يمكننا القول إن تلك اللحظة كانت نتيجة لما سبقها ومؤسسة لما سيأتي بعدها. وقد أحدثت ثنائية (المقاومة في مقابل التسوية) رؤية نهائية تنظيرية غير مرتبطة بالواقع، ولا تؤمن بها الفصائل ممارسة وواقعًا، حتى لو ادعت عكس ذلك خطابًا ورؤيةً، وهو ما سنشير إليه لاحقًا.

لقد رسخت الثنائية الحدية بين الفصائل الفلسطينية كمعسكرين متقابلين في كل شيء لدى الجمهور، ثم أخذ كل طرف يرمي الآخر بالخيانة والتبعية. فالمسار الأول يرى أن الطريق السياسي هو الحل النهائي الأكثر جدوى وفعالية، بل ويحمل فصائل المقاومة في غزة مسئولية ما آلت إليه الأوضاع، ويرى أن فشل التسوية السياسية سببها طريقة إدارة ترامب باعتباره وسيطا تخلى عن النزاهة(١١)؛ أي إنه لا يحاكم اتفاقية أوسلو وما أنتجته.

وعلى الجهة الأخرى، يرى معسكر المقاومة أن الطريق السياسي هو الخيانة بعينها، وأنه ليس ثمة تحرير للأراضي المحتلة بدون الحسم العسكري. ويغفل أصحاب هذا التوجه غياب مقومات نجاح هذا المسار؛ بداية من العناصر العسكرية الحربية التي تحقق هذا الحسم، مرورًا بالبيئة الإقليمية الداعمة للمشروع العسكري، نهاية بوجود بيئة محلية قادرة على الصمود من الأساس، وليست مستهلكة ومستنزفة بصورة تامة جراء سنوات من التدمير المادي والمعنوي، ناهيك أن الجناح الثاني لاستكمال هذا التصور، مرتبط بالسلطة الفلسطينية وما تملكه من أدوات لإشعال الضفة الغربية(١٢).

فقد أنتجت ثنائية المقاومة والتسوية سيلا من من الثنائيات المتناقضة؛ فالحرب في مقابل التفاوض، والبارود في وجه السياسة، والنضال في وجه المحادثات، فكانت المحصلة أن اصبحت السلطة الفلسطينية في وجه المجتمع، والنخبة المنتفعة نقيضا للأسرى، والفتحاوي ضد الحمساوي. ولذلك فقد أبعد هذا الصراع القطاع الأوسع من الشعب نفسه عن القضية ومفرداتها، التي وجدتها لا تعبر في كثير من أحيانها عنه؛ نتيجة تحول الصراع من شعب ضد سلطة احتلال، إلى فصائل متناحرة تبحث عن بعض مصالحها، في ظل بيئة محاصَرة تئن من صعوبة الظروف، بل انعكست

(١٠) المرجع السابق

(١١) ايسر العيس، " مسؤول فلسطيني للأناضول: عباس رفض تلقي اتصالاً من ترامب"، وكالة الأناضول، ٢٠٢٠/١/٢٧، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٤، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QOOkI

(١٢) ساري عرابي، " اجتماع الأمناء العامّين للفصائل الفلسطينية.. مسافات مملوءة بالخطابة!"، عربي ٢١، ٢٠٢٠/٩/٨، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٤ ، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Rk80f

تلك الأوضاع حتى على حياة الأسرى في سجون الاحتلال وذويهم، وهو ما سنشير إليه لاحقًا.

ويمكن مشاهدة حالة الانقسام الشديدة للمجتمع في مرآة النخبة المستقلة غير الفصائلية، التي من المفترض أن تعبر عن رؤيتها الذاتية؛ حيث "تبدو النخبة المعارضة من خارج الفصائل في الساحة الفلسطينية مشلولة وبلا تأثير، مجرّد أشخاص يكتبون مقالات ودراسات هنا وهناك. ويبقى كل شيء على حاله من دون تغيير؛ نتيجة ارتباطهما بصورة فيزيائية ومعنوية بطرفي الصراع، وأصبح القطاع الأعظم منهم رهينَ لُقمة عيشه لكل أجندة؛ حيث "تفتقد التجربة الفلسطينية المؤسسات المستقلة التي تجعل القدرة على التأثير في واقع حالها وتغييره يكاد يكون معدوماً، وإذا كانت الحالة الفلسطينية قد حافظت على هامش استقلاليةٍ في اللعب على التناقضات العربية–العربية، خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، إلا أن هذا الهامش قد انعدم تماماً مع توقيع اتفاق أوسلو الذي حكم السلطة الفلسطينية بالمانحين. هذا الواقع، جعل السلطة الفلسطينية مرهونةً للاحتلال من جانب، وللدول المانحة من جانب آخر؛ وهو ما أفقد الفلسطينيين حتى الهامش الذي كانوا يناورون به قبل أوسلو. وهذا الهامش لم يضِق على السلطة فحسب، بل ضاق أيضاً على النخبة المعارضة من خارج الفصائل".

تعبر الصورة السابقة عن معسكرين متناقضين، ولكن في حقيقة الأمر لا يبدو الواقع بهذه الصورة القاتمة، بل على العكس تمامًا فقد توصلت الفصائل الفلسطينية جميعها بصورة مباشرة وغير مباشرة، إلى أن أساس تأسيس دولة فلسطينية مستقلة، سيبدأ من وحدة الصف الداخلي قبل أي شيء؛ حيث "إنّ الفلسطينيين فعلا اعترفوا بإسرائيل على ثلثي فلسطين، وأنّهم لم يتلقوا مقابلا إسرائيليّا يعترف بحقهم في تقرير مصيرهم على ما تبقى من فلسطين. وهذا المتبقي من فلسطين؛ أي الضفّة الغربية، مهدّد بالضم الإسرائيلي، بعد الضمّ الفعلي الجاري برعاية إدراة ترامب وسكوت عربي مطبِق هو أقرب للموافقة منه للرفض، لو أخذنا بعين الاعتبار مظاهر التطبيع العلني، وعلاقات التحالف التحتي، وحملات التشهير بالفلسطينيين.. ولك أن تدرك أن هذا المسار، الذي اختطته منظمة التحرير؛ أي الاعتراف بإسرائيل، والسعي لإحراز ما تبقى من فلسطين، هو مسار فلسطيني شامل بالفعل والواقع، بغضّ النظر عن الموقف النظري والأيديولوجي. فكلّ معارضي التسوية قبلوا إمّا سياسيّا بالسلطة الفلسطينية، كحركة حماس وبعض قوى اليسار، أو تعاملوا معها باعتبارها باتت واقعا فلسطينيّا يعبّر عن وجهة نظر سياسية حتّى لو كانت مرفوضة، كالجهاد الإسلامي، ولم يرفع أحد السلاح في وجه السلطة المنبثقة عن الاعتراف بإسرائيل"(١٣).

ما نود قوله هنا هو أن ما يبدو للعيان اختلافًا جذريًا يستحيل معه بناء أرضية مشتركة تؤسس لوحدة وطنية بين الفصائل الفلسطينية، هو غير حقيقي وفقًا لوقائع فعلية، وأن فصائل المقاومة المسلحة تسعى بكل جهدها لتوفير أي هامش من التوافق، رغم نتائج أوسلو الكارثية على القضية، إلا أن هناك نخبة متنفعة ولدت في أحضان السلطة الفلسطينية، ومن منح ومعونات أوسلو، وترفض التخلي عن تلك المصالح في حال تقاربت مع حماس، رغم أن صفقة القرن وما واكبها من أحداث كانت فرصة ذهبية لحدوث ذلك.

والمستهدف من ذكر تلك الحقائق نوعان من الجمهور: أولهما الجمهور الذي يخوِّن فصيلا على حساب آخر؛ وهو ما ينتج شيطنته واستباحة دمه وعرضه وحريته، والجمهور الثاني هم قطاعات من المتأثرين بخطاب الثورة المضادة والمحور العربي الصهيوني الذي يحمل الفلسطينيين وتعتنهم مسئولية ما آلت إليه الأحداث، رغم أنهم قدموا كل

(١٣) ساري عرابي، " شحوم القضية الفلسطينية ولحومها.. وحازم صاغية!"، عربي ٢١، ٢٠٢٠/٨/٤، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/nalau

شيء وتنازلوا عن ثوابت كثيرة في سبيل الحصول على الفتات، ولم يحصلوا عليه أيضًا.

انطلاقًا من النقطة السابقة، يمكننا القول إن ثنائية التسوية والمقاومة يمكن أن تكون في سبيل القضية، وليست معول هدم لها، وذلك من خلال توزيع الأدوار بين الفصائل والقوى الفلسطينية. فحقيقة التطبيع العربي الإسرائيلي تجاوزت سطوع الشمس، وأصبح الأمر علنيا وتقوده قوى تستهدف تحقيق واقع عربي جديد، بمفاهيم وعناصر جديدة، تشكلت من رؤية وهوية مغايرة لما طبع عليه التاريخ العربي الحديث. ولذلك فهناك مساران: أولهما الهجوم الكامل على الدول العربية التي ستطبع مع الاحتلال واتهامها بالخيانة، وحينها ستنتج تعرية كاملة للظهير العربي المساند ولو صوريًا للقضية. والمسار الثاني هو التراخي الكامل في التعامل مع هذا الملف كما لو أنه لم يكن؛ وهو أيضًا تجاهل لحقائق جديدة ستنتج وقائع مغايرة لما حدث في السابق. لذلك فالأحرى أن يحدث توزيعٌ للأدوار بين من يندد بما يحدث، ويخلق وعيا جماهيريا مضادا للضغط أكثر على تلك الدول، ويشحن أنصار القضية الفلسطينية لدعمها بشتى السبل، وبين آخر لا يقطع الاتصال، ويحاول الحفاظ على أي مكتسبات حتى لو كانت قليلة جدا، أو يسعى لكسب محاور جديدة، كتمويل بسيط يقدم للأسرى وذويهم. ما أقصده أن يتم استخدام الدور الدبلوماسي للسلطة الفلسطينية في دعم صمود الفلسطينيين محليًا، بدلًا من اللاشيء، في مقابل كل شيء، وأن يتم التعامل بهذا المنطق في تلك المرحلة الصعبة من عمر الأمة؛ انتظارًا لقدر ما يغيّر المسار.

ثالثًا– وسائل دعم الصمود الفلسطيني:

إن التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي من منظور رياضة ملاكمة تنتهي بضربة قاضية، هو نوع من الخيال؛ لأنها قضية أجيال تؤثر فيها وتتأثر بها، تتقدم حينًا وتتراجع أحايين، ولذلك فتوفير بيئة صامدة تتمكن من مواجهة التحديات الكبرى والمتجددة التي يخلقها الاحتلال لطرد أبناء فلسطين وإجبارهم على الهجرة، لإعادة إنتاج الشتات الذي كان يعاني منه اليهود في الماضي، لهو أمر مصيري في مشروع التحرير. ولذلك تعد قضية دعم صمود الفلسطينيين من أهم وسائل دعم القضية الفلسطينية؛ ليس لأن الشعارات والشحن الإعلامي وحده ليس كافيًا فحسب، ولكن لأن الوجود الفلسطيني هو الحامي الأول للأرض والتاريخ والمستقبل العربي في تلك الجغرافيا.

ونشير في هذا الجزء إلى نقطتين من نقاط هذا الدعم للقضية الفلسطينية، ونحن نستشرف العام المقبل بسؤال ما العمل وكيف يمكننا دعمها؟ أولاهما محلية وهي دعم الأسرى في سجون الاحتلال، والثانية خارجية خاصة بحماية وإحياء الوعي العربي تجاه القضية.

١. الصمود الفلسطيني يبدأ من دعم الأسرى:

إن الاعتماد على قوة الإرادة وحدها في تحقيق الأحلام أمر غير واقعي في كثير من الأحيان، ولكن وجود بيئة حاضنة لتلك الأحلام، يجعل تحقيقها أقرب للتطبيق، وبالقياس على حرب طويلة المدى، تحتاج إلى دماء وأعمار، فهذا أدعى لتوفير تلك البيئة الحاضنة.

تبدأ مهمة حماية حالة المقاومة والنضال لدى الشعور الفلسطيني، من اطمئنان المقاوم على أسرته وذويه في حالة تعرضه للأسر في أيدي سلطات الاحتلال. وفي الحقيقة، لقد قدمت الحالة الفلسطينية تجربة ملهمة في دعم الأسير وتكريم وحماية ذويه من الفقر والاحتياج، بصورة حررت الكثير من المقاومين من الضغوط النفسية التي تفرض على قلوبهم من باب المسئولية تجاه ذويهم، وذلك بعدما تم تشييد مؤسسات مستقلة ترعى الأسير وتحمى له وجوده المادي والمعنوي، وتوفر له حياة كريمة، كوزارة الأسرى ونادي الأسير وغيرهم من الكيانات؛ وهو الأمر الذي خلق لدى الوعي الجمعي الفلسطيني حالة من الامتنان تجاه الأسرى، باعتبارهم مناضلين لهم مكانة رفيعة في مشروع الدولة

الفلسطينية، بما يرسخ فكرة المشروع السياسي والهوية الوطنية الكفاحية للشعب[(١٤)].

أدرك الاحتلال سريعًا أن مساعيه في فرض الرعب والقلق في نفوس الفلسطينيين ستبوء بالفشل نتيجة ارتياح الأسرى من أوضاعهم في سجون الاحتلال وأحوال ذويهم في الخارج. لذلك عمل الاحتلال على الفتك بأوضاع الأسرى في السجون، وتجريد ذويهم من الاستقرار الاقتصادي؛ للضغط أكثر عليهم، وبالفعل "بدأت ملاحقة مخصّصات الأسرى التي تصلُ حساباتِ ذويهم البنكيّة من تنظيماتهم وفصائلهم، من بعد انتفاضة الأقصى، والذي تعامل معها بدوره بجدّية بالغة عدّها فيها امتداداً لحرب الاستقلال.. ومصادرة إنجازاتِ الأسرى في السجون التي من شأنها أن تخفّف من الآثار الاعتقالية على إراداتهم النضاليّة. ولم يكن إخراج المعتقلات التي بلغت فيها إنجازاتُ المعتقلين ذروةً غير مسبوقة، من مسؤولية الجيش إلى مسؤولية مصلحة السّجون، إلا خطوةً في اتجاه السحب المكثّف لإنجازات المعتقلين، ومعالجة إشكالية عودة المعتقلين أنفسهم إلى السجن؛ بمعنى اكتشاف الاحتلال أنّ السجن لم يعد رادعاً لشريحة واسعة من منتسبي بعض الفصائل الفلسطينيّة، ولاسيما فصائل المقاومة. واستغل في ذلك حالة الانقسام بقوة، ليعززه في السجون أكثر... وخارجيًا، بدأ الاحتلال باستهداف حوالات فصائل المقاومة لحسابات أهالي منتسبيها من الأسرى. ومنذ ذلك الوقت، صارت مخصّصات أسرى فصائل المقاومة من فصائلهم قضيّةً بالغة الخطورة والصعوبة، وتحوّلت إلى مهمّة نضاليّة سرّية محفوفة بالقلق والخوف، من حيث تنفيذها، فإدخال مخصّصات أسرى فصائل المقاومة شبه محال. ومع الانقسام الفلسطيني زادت الجهات التي تلاحق مخصّصات الأسرى في الضفّة الغربيّة، وبات الأسير المحرّر أو أهل الأسير يدفعون ثمناً مُكلفاً بالاعتقال والغرامات جرّاء محاولتهم إدخال مخصّصات الأسير. كما استثمر الاحتلال أحداثَ ١١ سبتمبر المتزامنة مع انتفاضة الأقصى، والأنظمة العالميّة الصارمة في مراقبة الحوالات الماليّة بحجّة "الحرب على الإرهاب"، في الفتك بالعصب الاقتصاديّ للأسرى وذويهم. واستجابت البنوك العاملة في مجال السلطة الفلسطينيّة لذلك، ودخل الفلسطينيّون بدورهم في منظومةٍ قاسيةٍ من الرقابة الماليّة تُضعِفُ من صمود الفلسطينيّين عموماً... كما عمل الاحتلال على تحطيم الروافد الاقتصاديّة للأسرى، والتي منها الرواتب المقدّمة من السلطة الفلسطينيّة، بالضغط المباشر على السّلطة بابتزازها بأموال الضرائب التي يجبيها لصالح السلطة (المقاصّة)، واقتطاع قيمة مخصصات الأسرى وعوائل الشهداء منها. كما استهدف الاحتلال البنوك مباشرةً، وهو استهدافٌ أخذ أشكالاً متعدّدة متدحرجة من الاقتحام المباشر والمصادرة، إلى المقاضاة"[(١٥)].

ولذلك فإذا كنا تحدثنا في مساحات العمل الممكنة بين شتى الفصائل الفلسطينية، فيجب أن تكون قضية دعم الصمود الفلسطيني واحدة من أهم أولويات العمل السياسي، لاسيما بعدما "أكد قطاع فلسطين والأراضي العربية المحتلة بجامعة الدول العربية أن عام ٢٠٢٠ يعد الأكثر انتهاكاً بحق الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي؛ إذ أمعن الاحتلال في الإهمال الطبي المتعمد بحق الأسرى، وتجاهل توصيات المنظمات الدولية بالإفراج عنهم تخوفاً من تفشي فيروس كورونا في ظل اكتظاظ السجون، بالإضافة إلى الاعتقالات الإدارية بدون لائحة اتهام، مضيفًا أن الاحتلال الإسرائيلي سعى خلال

---

(١٤) "فلسطينيو الخارج" يوجه رسالة دعم للأسرى في سجون الاحتلال"، المركز الفلسطيني الإعلامي، ٤/٤/٢٠٢٠، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/tDNgA

(١٥) ساري عرابي، " الحرب على رواتب الأسرى.. القصة أكبر من حسابات بنكية!"، متراس، ٢٠٢٠/٥/١٠، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٥، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/kTGKg

عام ٢٠٢٠ إلى إعادة أوضاع الأسرى للمربع الأول من تجربة الاعتقال في بداية الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة"[١٦].

الاهتمام بقضية الأسرى، بدلًا من التركيز على قضايا أخرى قد تكون نتائجها السلبية أكثر من الإيجابية، ناهيك عن اهتمام الفصائل بقضية الصمود، سينقل هذا إلى مشاعر الجماهير ويجبرها على احترام الفصائل والانتماء لها، والشعور بأنها تمثلها وأن مشروعهم واحد. بينما أن يكون كل الحديث حول قضايا سياسية أغلبها يمس الفصائل نفسها، فسوف يؤدي ذلك لعزل عامة الناس، وارتمائهم في أحضان السلام الاقتصادي الذي يقدمه الاحتلال مقابل تدمير المشروع الكفاحي لتحرير فلسطين، وليس هناك أدل من النتائج التي وصل إليها الحال في الضفة الغربية، نتيجة تركها فريسة سهلة في يد الصهاينة، بدون حماية سياسية واقتصادية أو حتى اجتماعية.

٢. حماية الوعي العربي تجاه القضية الفلسطينية:

لا يموت التاريخ مادام هناك قلوب تحيي عليه، ولا يمكن قتل الحقيقة إلا إذا توجهت الرصاصة لوعي صاحبها، وتهميشه لعدالة قضيته، ولذلك يحارب الاحتلال بقوة في الفترة الماضية لتجريف الوعي العربي، بمحو آثار القضية الفلسطينية من حاضره، وهو ما تجتهد فيه بقوة هذه الأيام بعض الدول التي تقدم الصهاينة باعتبارهم دعاة سلام، والمقاومة باعتبارها فصائل إرهابية بطبيعة الحال.

لذلك فمن المهم أن يكون هناك وعي بأن حضور القضية الفلسطينية في الوعي العربي المعاصر لدى مجتمعاتنا؛ لأنه من نقاط دعم الصمود الفلسطيني ذاته، شعوره بأنه هناك حماية شعبية لظهره من جانب إخوانه.

وهنا يجب الفصل بين دور الشعوب والحكومات، فالمعروف أن الدولة العربية تعاني اليوم تآكلًا غير مسبوق في مستوى شرعيتها، وجدوى وجودها؛ لدرجة جعلت من وعي قادتها السياسيين أن تقوية الدولة العربية أضحى هدفًا أهم وأخطر من القضية الفلسطينية ذاتها؛ باعتبار أن سقوط الدول العربية سيعني لا محالة سيطرة تل بيب على الإقليم. كما أن حرص القادة السياسيين العرب على تحقيق نجاحات تمنحهم الشرعية، يدفعهم للهرولة خلف إسرائيل نظرًا للفوائد والمنافع التي تعود عليهم من هذا الأمر، وليس هناك أدل من النموذجين المغربي والسوداني[١٧]. و"الأحداث المتلاحقة منذ الثورات العربيّة وحتّى الآن، لا ينبغي أن تترك مجالاً للحديث في ما هو أولى، فلسطين، أم القضايا العربية الداخلية وفي طليعتها الاستبداد والارتهان للخارج، ولا ينبغي أن تسمح بذلك الهذر حول امكانية التخلي عن فلسطين ، فالقضية الفلسطينية هي قضية العرب، لأن الاستعمار الصهيوني يستهدف إبقاء البلاد العربية ضعيفة، وهشة، وذليلة، وتابعة، ويستهدف سحق الرأي العام العربي؛ لأنّ استمراره (أي الاحتلال) محال دون ذلك، كما أنّ هذه وظيفة أريدت منه أساساً. فيكفي الحديث في سبب واحد عمليّ واقعي، يمس العربي بقدر ما يمس الفلسطيني، فإذا كان الفلسطيني يعاين الجندي الإسرائيلي، فإنّ العربي بات يعاين وكلاءه، أو يعاين تخلّفه وهشاشة دولته وتبعيتها وارتهانها وتخلّفها عن تحقيق شيء ذي بال من وعودها، والإسرائيلي سبب أساس في ذلك"[١٨].

---

(١٦) " الجامعة العربية: ٢٠٢٠ الأكثر انتهاكاً بحق الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي"، العربي الجديد، ٢٠٢٠/١٢/١٦، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jr0tE

(١٧) خالد سلامة، " أوراق الفلسطينيين وخياراتهم "المحدودة" لمواجهة "صفقة القرن"، ٢٠٢٠/١/٢٧، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٤، DW، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NhzJi

(١٨) ساري عرابي، " سياقات التطبيع مع "إسرائيل".. هشاشة المشروعية والتناقضات البينية "، عربي ٢١، ٢٠٢٠/١٢/١٥، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/lJcxd

تدرك الدول الخليجية –وفي مقدمتها الإمارات– هذا الأمر؛ لذلك تقدم أن تحالفها مع إسرائيل يسهم في تقويتها وليس العكس كما يدعي أنصار القضية الفلسطينية، حيث تستبدل هذا الخطر بعناصر أخرى تتقدمها الجماعات الإسلامية فتركيا وإيران، باعتبارهم دعاة فوضى وخراب[١٩].

كما يحمل أنصار هذا الرأي الفلسطينيين أنفسهم فشل ما يسمى بعملية السلام، بدعوى أنهم رفضوا كل المحاولات السابقة لمنحهم دولة، ورغم عدم صحة هذا الأمر، وهو ما وضحناه سلفًا، فيمكننا استدعاء حادثة أخرى لتأكيد كذب هذا الادعاء. وإذا كان الحديث في الفترة الماضية دائرًا حول قضية الضم، والذي قدمت فيه الإمارات تطبيعها باعتباره يحمي أرض فلسطين من الاستيطان، فالحقيقة أن الضم حدث بالفعل، وما يدور هو شرعنة للواقع الجديد؛ لمنحه صفة القانونية، وتجريد الفلسطينيين من المزيد من أوراقهم التفاوضية. علاوة على أن الحكومة الإسرائيلية أعلنت أنها أرجأت الضم ولم تلغه تمامًا كما زعم وزير دولة الإمارات للشئون الخارجية أنور قرقاش. "ففي النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي، أخذ الاحتلال يشقّ طريقاً يفصل به قرية رافات عن مدينة رام الله. تقع القرية شمال محافظة القدس، وتلتصق بجنوب مدينة رام الله. كذلك، يفصلُ هذا الطريق مدينةَ رام الله عن معسكر عوفر. ويمتدّ الطريق ذاته من بوابة المعسكر الشماليّة إلى حيّ "عين أم الشرايط"، فيفصل أجزاءً من هذا الحيّ عن مدينة البيرة التي يتبع لها. يمتد الطريق فاصلاً فيما يبدو قرية "كفر عقب" كذلك. فيما بعد، أصبح هذا الطريق داخليّاً للفلسطينيين، ولم تكن قد اتضحت بعد أهداف الاحتلال من شقّه ثمّ إهماله. كان هذا طريق الفصل الأوّل". "بانت نوايا الاحتلال لاحقاً، مع نهاية التسعينيات، حينما بدا أنه تنازل عن الطريق الأوّل (الفاصل بين رافات ورام الله) وعاد ليقطع قرية رافات عن فضائها المقدسيّ هذه المرّة، بفصلها عن مجمّع "شمال غرب القدس" الذي يضمّ عدداً من القرى الفلسطينية لا يحمل سكانها، في الغالب، هويات المقدسيين الزرقاء. مع انفجار انتفاضة الأقصى، وعملية السور الواقي، فصل الاحتلال قرية رافات تماماً عن ذلك الفضاء من خلال مصادرة الأراضي، وفرض الجدار المتنوع ما بين سلك شائك وجدار إسمنتيّ، وشقّ طرق بديلة، ونَصَبَ جسراً يعلو نفقاً يفصل تماماً قريتي قلنديا ورافات عن منطقة "شمال غرب القدس"؛ ليكون هذا النفق "مَعْبراً" للمنطقة، تمكن السيطرة عليه أمنيّاً بكلّ سهولة، وليتألّف بهذا محور فصلٍ ثانٍ، بديل عن طريق الفصل الأوّل[٢٠]؛ وهي الهندسة الاستعمارية التي يعلن الاحتلال اليوم عن نيته لضمها!

نستنتج من ذلك، أن مسار التسوية السياسية يعاني منذ اللحظة الأولى، لغياب النية لمنح الفلسطينيين دولة، وأن الاحتلال كان يحاول فقط الالتفاف على مكاسب الانتفاضة الأولى، لكسب الوقت لمزيد من قضم الأراضي، والأهم من ذلك، أن تلك الحادثة تؤكد كذب مزاعم أنصار الإمارات الذين يتهمون الفلسطينيين بأن دمويتهم في انتفاضة الأقصى هي سبب إجراءات الضم اليوم.

ولذلك يجب تزكية بعض الجهود في مساحات إحياء وحماية الوعي العربي الجمعي تجاه فلسطين، وحماية أهلها من اتهامات الخيانة والبيع وغيرها من الأساطير الصهيونية.

رابعًا– سلاح الردع الفلسطيني وتأثيره: الاغتيالات الإسرائيلية نموذجًا

(١٩) ساري عرابي، " تحريف الأمن القومي العربي.. تحطيم أنظمة لشعوبها!"، عربي ٢١، ٢٠٢٠/٧/٨، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٣ ، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/vV8AS

(٢٠) ساري عرابي، " الضّم: "إسرائيل" تُهندس الأرض، السُلطة تُهندس الصمت"، متراس، ٢٠٢٠/٦/٣٠، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٨ ، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/7SUjz

ربما المتأمل لما آلت إليه أحوال القضية الفلسطينية مؤخرًا، يشعر للوهلة الأولى أن هناك هيمنة إسرائيلية كاملة، ومحوا كاملا للوجود الفلسطيني بصورة فيزيائية ومعنوية. ورغم أن ذلك في جزء منه حقيقي، ولكنه ليس كل الحق، فهناك صعود فلسطيني قائم ومستمر منذ سنوات، بل يتزايد يومًا بعد يومًا.

عانت إسرائيل عقب نكسة ١٩٦٧، من عمليات التسلل خلف الحدود التي استهدفت المستوطنين وعناصر جيش الاحتلال، وزادت تحدياتها بحرب الاستنزاف المشتعلة مع الجبهة المصرية والسورية، "وبتعليمات مباشرة من قائد المنطقة الجنوبية في جيش الاحتلال في ذلك الوقت، أرئيل شارون، تم تشكيل وحدة خاصة لتنفيذ الاغتيالات ضد قادة الخلايا الفلسطينية، أُطلق عليها وحدة ريمونيم، والتي قادها مائير دغان، الذي تولى فيما بعد رئاسة جهاز الموساد. وقد نجحت الوحدة في غضون ثلاث سنوات في القضاء على خلايا المقاومة بشكل تام"[٢١]. تم ذلك بصورة أدت لتوقف العمل العسكري لسنوات، نتيجة اغتيال أي عنصر يحتمل أنه قادر على تشكيل خطر على عناصر الاحتلال، واستمر الأمر هكذا حتى اشتعال الانتفاضة الأولى، التي أنجبت معها حركة المقاومة الفلسطينية "حماس"، حيث عاد العمل العسكري الفلسطيني بقوة، رغم الاختناق الكامل الذي كانت تعيشه فلسطين جراء هيمنة الاحتلال على قطاع غزة والضفة الغربية، ولذلك ارتفع عدد من اغتالتهم إسرائيل إلى ١٩٥ شهيدا[٢٢].

انتهت الانتفاضة الأولى رسميًا بالوصول إلى اتفاق أوسلو ١٩٩٣، والذي سعت فيه إسرائيل لاستغلال كل الجهود الممكنة، وهنا نقصد حتى الجهود الفلسطينية لتحييد القوة العسكرية للمقاومة سواء القائمة أو المحتملة مستقبلًا، واستبدالها بالفصائل السياسية التي تقودها حركة فتح ومنظمة التحرير، "حيث قادت السّلطة الفلسطينية بعد دخولها قطاع غزة في العام ١٩٩٤ عمليةً واسعةً وعميقةً لإقصاء حركة حماس، فبعد ستة شهور فقط على دخول قوات السّلطة الفلسطينية قطاع غزّة، اصطدمت تلك القوات بجماهير حركة حماس في مسيرة نظمتها الأخيرة، الأمر الذي أدّى إلى استشهاد سبعة عشر مصلّياً كانوا خارجين من مسجد فلسطين فيما عُرف بمجزرة مسجد فلسطين"[٢٣].

وفي ١٩٩٦ اغتالت عناصر الاحتلال يحيي عياش، وهو ما أثر بقوة على الجهاز العسكري لحماس ولكنه لم ينته، فقد شنت المقاومة عمليات انتقامية في العامين التاليين، وهو ما استفز السلطة الفلسطينية التي شعرت بأن حماس تحرجها أمام الشعب واقعيًا، وبأنها تقدم مشروعا ليحل محلها نظريًا، ولذلك تحالف الاحتلال مع قيادة السلطة، لتشن حملة اجتثاث كامل في الضفة الغربية وقطاع غزة، بعدما "تمكّن الاحتلال من تفكيك الجهاز العسكريّ للحركة، والإمساك بأرشيفه ومراسلاته وشيفراته، وقتل قادته محيي الدين الشّريف وعادل عوض الله، ومن اكتشاف البنية التنظيمية الإداريّة للحركة في كامل الضّفة الغربيّة"[٢٤].

اندلعت الانتفاضة الثانية في ٢٠٠٠ في سياق مقتول عسكريًا بدون أي أنياب، مجرد بقايا متناثرة من المقاومين الذين تمكنوا من الاختباء، أو لم يفتضح أمرهم أمام الاحتلال والسلطة. ولكن ما حدث كان مذهلا في حقيقة الأمر، فالعمل العسكري يحتاج إلى تنسيق وجهود ووقت زمني طويل لصعوبة التواصل في بيئة أمنية محكمة،

---

(٢١) صالح النعامي، "غزة وسياسة الاغتيالات في الاستراتيجية الإسرائيلية"، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٩/١١/٢٠، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢١، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/yImPu

(٢٢) مصعب البريم، "الأبعاد السياسية لسياسة الاغتيال الإسرائيلية على القضية الفلسطينية (١٩٧٣-٢٠١٧)"، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر/ فلسطين، ٢٠١٨، ص ٣٥.

(٢٣) ساري عرابي، " هل تأخّرت "حماس" عن الالتحاق بالانتفاضة الثانيّة؟، متراس، ٢٠١٩/١/٩، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٤، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/HVjXC

(٢٤) المرجع السابق

ورغم ذلك انتشرت العمليات الاستشهادية في كل مكان، لتضيف زخمًا شعبيًا على الانتفاضة، وتنقلها إلى مستوى جديد من الفعالية.

وعادت سياسة الاغتيالات الإسرائيلية للظهور بقوة في قطاع غزة بصفة خاصة، باعتباره الحاضنة الأهم لحركة حماس، ومثلت لحظة اغتيال زعيم حماس ومؤسسها الشيخ أحمد ياسين في ٢٠٠٤ ذروة هذا التوجه[٢٥].

عقب الانتفاضة، سعت حماس بقوة لحماية جهازها العسكري من الاستنزاف الناتج عن العمليات الاستشهادية من جهة، واستمرار الاغتيالات الإسرائيلية من جهة أخرى، وأخذت تتطور من أدواتها القتالية. وبالفعل أنتجت مقذوفات بدائية الصنع سميت بالقسّام، وقد حاولت الانتقام للشيخ ياسين بإطلاق ثلاث منها، لم يتجاوزن منطقة غلاف غزة، إلا أن المرحلة التي تلت الانقسام الفلسطيني وسيطرة حماس على قطاع غزة، شهدت تطورًا كبيرًا في الجهاز العسكري لحماس، ليصبح بالفعل قوة لا يستهان بها، وهو ما ظهرت بوضوح في العدوان الإسرائيلي على غزة أواخر ٢٠٠٨، والذي شهد تطورا نوعيا أربك الاحتلال الذي شن هجومًا مفاجئًا بمئات الغارات التي تقودها أكثر من ٨٠ طائرة، وظن الاحتلال أنه سيتمكن من إسقاط حماس وتدميرها، إلا أنه فوجئ بسقوط أكثر من ٦٠ صاروخا على المستوطنات الصهيونية؛ وهو ما لم يحدث من قبل، ثم تقوم بعمل كمين لقوات إسرائيلية خاصة أثناء الاجتياح البري لغزة، بل وأسر عنصر من الجيش، ثم إسقاط طائرة بدون طيار، وقصف القاعدة الجوية حتسريم، وتعريض آلاف المستوطنين للصواريخ المباشرة، حيث وصلت عدد الصواريخ التي سقطت على إسرائيل إلى ٩٨٠ صاروخًا وقذيفة، وهو ما أجبر الاحتلال نفسه على إعلان وقف العملية العسكرية من جانب واحد، وانسحابه من غزة، بعدما وصلت الخسائر لأكثر من ٢,٥ مليار دولار[٢٦].

وقد تزايدت قوة سلاح الردع الفلسطيني بفضل زيادة قوته العسكرية عدة وعتادًا، جندًا وقادة، واليوم نجد أن قطاع غزة مليء بالفصائل المقاومة المسلحة، بصورة دفعتها لتشكيل غرفة عمليات مشتركة لتنسيق الجهود بينهم. ويمكننا تخيل حجم قوة المقاومة في الوقت الحالي، إذا ذكرنا رد فعل تنظيم صغير نسبيًا كتنظيم الجهاد الإسلامي، الذي شن هجومًا بأكثر من ٤٥٠ صاروخًا في عمق الأراضي المحتلة، عندما اغتال الاحتلال قائد عسكريًا عنده وهو بهاء أبو العطا، رغم أن تنظيم الجهاد وحده هو من قام بالردّ، وليس كل الفصائل، فقد اضطر الجيش الإسرائيلي إلى إغلاق جميع المرافق التعليمية والاقتصادية الواقعة على مسافة ٨٠ كلم شمال قطاع غزة؛ حيث لم يتمكن مليون طالب إسرائيلي من التوجه إلى مدارسهم. وقد قُدِّرت الكُلفة الاقتصادية لتعطيل المرافق الإنتاجية في كل يوم من يومي المواجهة الأخيرة بخمسة مليارات شيكل ما يعادل مليارا و١٥٠ مليون دولار[٢٧].

خاتمة:

نستنتج من هذا السرد التاريخي الموجز نتيجتين: أن توافر الحد الأدنى من الشروط الطبيعية للمقاومة ينتج وقائع قادرة على قلب المشهد بدون مبالغة. والنتيجة الثانية أن قوة المقاومة الفلسطينية تزداد يومًا بعد يوم، وقد نجد جهازا عسكريًا يتشكل في أيام في الضفة من بقايا متناثرة بصورة مقصودة، عندما ينفجر الوضع.

لقد حاولنا في هذا التقرير استشراف العام المقبل من عمر القضية الفلسطينية، برؤية واقعية، نتجت من تحليل المشهد الداخلي الفلسطيني بوجهيه: العبثي الذي يقوده

(٢٥) " اغتيال الشيخ أحمد ياسين"، الجزيرة، ٢٠٠٤/١٠/٣، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/B4ggQ

(٢٦) "الرصاص المصبوب.. عدوان على غزة فشل بإخضاعها"، الجزيرة، ٢٠١٦/١٢/٢٧، تاريخ الدخول ٢٠٢٠/١٢/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/0hRYN

(٢٧) صالح النعامي، مرجع سابق

رئيس السلطة الفلسطينية الذي منح صفقة القرن قُبلة الحياة من جديد بعودة التنسيق الأمني، والمثمر الذي يحدث على الأرض من تطوير وزيادة مساحة المشتركات بين الفصائل الفلسطينية وتكامل أدوارها بصورة كبيرة. كما آثرنا إلقاء الضوء على ضرورة دعم الصمود الفلسطيني، وعدم ترك عامة الناس يواجهون مصائر مجهولة لأسرهم، وضرورة توجيه الجهود نحو الوعي العام العربي، فيما يخص القضية الفلسطينية ليكون هو الحاضنة الأوسع لحماية ظهور الفلسطينيين التي تعرت بسبب سياسات التطبيع العربي، واختتمنا الدراسة بسرد تاريخي يمنح الأمل، ويوضح أن القضية مازالت فتية وقادرة على إثبات حضورها، بل إن الخذلان العربي، يدفع الفلسطينيين أكثر نحو الإيمان بأنفسهم وبعدالة قضيتهم نحو استثمار شتى الوسائل الممكنة.

*****



إيران واستمرار الضغوط الأمريكية، واختبار العلاقات الأمريكية الأوروبية

شيماء بهاء(*)

مقدمة:

تعد الأزمة النووية الإيرانية منذ عقود مضت واحدة من أكثر القضايا الإقليمية إثارة للجدالات وللمخاوف (الأمنية، والسياسية، والاقتصادية)، ليس على مستوى فاعلي الشرق الأوسط وقواه الإقليمية وحسب، وإنما على مستوى القوى الكبرى كذلك. ذلك نظرًا لما تمثله إيران من مصدر للنفط عالميًا، فضلا عن نفوذها السياسي والعسكري الذي تستطيع من خلاله ضرب الاستقرار الإقليمي والإضرار بمصالح قوى عدة (وهكذا تفعل عبر سياسات تصعيدية متواصلة)، لاسيما إذا تلاعبت بالممرات المائية.

وقد اتسم عام ٢٠٢٠ بتكثيف سياسة الضغوط القصوى التي تتبعها إدارة ترمب إزاء إيران، والتي تضمنت عقوبات اقتصادية، وقيودَ سفر على كبار الدبلوماسيين الإيرانيين في الأمم المتحدة، فضلا عن تصعيد عسكري وصل إلى اغتيال قائد «فيلق القدس» في الحرس الثوري، قاسم سليماني (والمعروف بمكانته الاستراتيجية) في أوائل ٢٠٢٠، إضافة إلى مقتل عالمها النووي محسن فخري زاده في آخر العام(١).

نعم ليس خفيًا أن إيران قد تعايشت مع العقوبات طوال عقود مضت، لا بل إنها بنت قوتها العسكرية والنووية والاقتصادية في ظلها. وقد نجحت في التغلغل إقليميًا والاستحواذ على عواصم عربية وهي تحت العقوبات، إلا أنه لا شك في أنه مع مرور الوقت تتفاقم الخسائر.

وكانت إيران قد وجدت الفرصة في توقيع الاتّفاق النووي عام ٢٠١٥، حيث تحررت من عزلتها؛ إذ اكتسبت شرعية دولية كشريك في اتّفاق متعدد الأطراف أنهى أزمتها النووية مع المجتمع الدولي، واعتُمِد هذا التحول من خلال القرار الأممي رقم ٢٢٣١، ومن خلال جملة من البنود كان أهمها رفع العقوبات. وقد سعت حكومة روحاني إلى تكريس الاتّفاق كغطاء واسع تشرعن من خلاله سلوك إيران وطموحاتها ونفوذها بما يتجاوز جوانب الاتّفاق الفنية المتعلقة بمعالجة أزمة ملفها النووي، مستفيدة من تزامن توقيع الاتّفاق مع اتساع نطاق دورها الإقليمي(٢).

وفي حين أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن إيران ملتزمة بالاتفاق المبرَم، كان مجيء إدارة ترامب الذي قال واصفًا الاتفاق النووي أنه: "أسوأ اتفاق جرى التفاوض عليه على الإطلاق" لينسحب منه في عام ٢٠١٨ لتصبح إيران ثانيةً أمام عقوبات أمريكية متراكمة تهدد بانهيار الاقتصاد، على نحو عمّق من أزمتها السياسية الداخلية المتمثلة في سلسلة متتالية من الاحتجاجات الشعبية، تتقدم على خط متواز مع احتجاجات في العراق ولبنان تهدد وكلاء وأدوات الجمهورية الإسلامية "ومكتسباتها" في البلدين.

وقد قوبلت سياسات ترامب تجاه إيران بمعارضة شديدة من أطراف الاتفاق الأخرى؛ أكبر ثلاث قوى أوروبية، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وكذلك من الاتحاد الأوروبي ذاته، هذا إضافة إلى روسيا والصين.

(*) باحثة بمركز الحضارة للدراسات والبحوث.

(١) خبراء يثبتون فاعلية الضغوط الأمريكية على إيران، الوطن، ٢٦ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/VRdOK

(٢) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، ١٨ أكتوبر ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/5SmtF

ومن ثم اتجهت إيران إلى التحصن بحلفائها الإقليميين والدوليين، وكانت تجد دعمًا من الاتحاد الأوروبي، دعمًا ليس لسياسات إيران (حيث استراتيجية التصعيد القصوى التي قابلت بها سياسات ترامب، والتي حدث خلاف بشأنها مع أوروبا كما سنرى في تفاصيل التقرير)، وإنما حرصًا على بقاء الاتفاق النووي، وحفاظًا على توازنات بعينها مع الولايات المتحدة، خاصة أن العلاقات الأمريكية—الإيرانية كانت وما زالت علامة أساسية على تقاطعات الشرق الأوسط، وهي أحد العوامل المحورية لتحديد التوازنات في المنطقة.

ذلك الدعم الذي مثل تحديًا للعلاقات الأمريكية الأوروبية (المتأزمة حول العديد من القضايا خاصة في ظل إدارة ترامب). ولا يعني ذلك أن ثمة دعما أوروبيا مطلقا لإيران، لاسيما أن الموقف من الأزمة النووية يتشابك مع محددات أخرى تتعلق بالمواقف الأوروبية إزاء عدة قضايا أمنية وسياسية على المستوى الإقليمي (والتي خالفتها إيران كثيرا بصددها)، وفي هذا الإطار يمكن تفسير ما وصف بأنه تغير في الموقف الأوروبي في الفترة الأخيرة جراء رفض توجه السياسات الإقليمية الإيرانية، على نحو اعتبر معه البعض بأن هناك تحولا تاما ضد إيران وتقاربا مع الولايات المتحدة في بعض الأحيان. بينما يمكن القول إن الاتحاد الأوروبي قد اتخذ مسارين يواجه بهما التصعيد على الجانبين، مع الأخذ في الاعتبار أثر الضغوط الأمريكية أحيانًا.. فأي الرأيين أقرب إلى الواقع؟

وسط تلك التشابكات والمعادلات الملتبسة، تتباين التوقعات حول مآل الاتفاق النووي بعد فوز جو بايدن بالانتخابات الرئاسية الأمريكية، فهل سيستمر الخلاف الأوروبي الأمريكي، أم تتجه الأمور إلى التنسيق؟

تساؤل الدراسة:كيف تفاعلت إيران مع استراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية؟ وما موضع الاتحاد الأوروبي في هذا الإطار من استراتيجيات الجانبين (الضغوط القصوى، التصعيد)؟ وكيف مثل موقفه من الاتفاق النووي تحديًا لعلاقاته مع الولايات المتحدة؟ وما التوقعات مع مجيء بايدن؟وللإجابة عن تلك التساؤلات يتناول هذا التقرير النقاط التالية: القسم الأول- معالم استراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية والتفاعلات الإيرانية (استراتيجية التصعيد)، القسم الثاني- التفاعلات الأوروبية واختبار العلاقات الأوروبية —الأمريكية

القسم الأول- معالم استراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية، والتفاعلات الإيرانية:

أولًا- معالم الاستراتيجية الأمريكية تجاه إيران في عهد ترامب:

بداية تجدر الإشارة إلى أبرز نقاط الخلاف بين الولايات المتحدة وإيران: انزعاج الولايات المتحدة من المشروع الإيراني الإقليمي (عقب الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩) بمختلف مستوياته السياسية والاقتصادية والعسكرية؛ وكان النشاط النووي الإيراني هو بؤرة تركيز هذا الرفض، ولتوسيع دائرة المعارضة الدولية لهذا المشروع دفعت واشنطن بالملف إلى مجلس الأمن الدولي واستغلت نفوذها في إصدار عدة قرارات دولية عبر المجلس؛ لحمل إيران على وقف هذا البرنامج، فضلا عما ارتبط بذلك من عقوبات هدفها التضييق على حركة أموال الشركات الإيرانية.

ذلك إلى جانب التنافس الأمريكي الإيراني على النفوذ الإقليمي؛ تحديدًا في العراق، وخاصة بعد غزو الولايات المتحدة لبغداد وإسقاط نظامها السياسي؛ ليتحول العراق إلى نقطة رخوة وساحة للتنافس بين الطرفين، وقد وظّف كلّ جانب منهما القوى السياسية الموالية له في الساحة العراقية لصالحه. ومع وجود التنافس بين إيران والولايات المتحدة في الساحة العراقية إلا أنه يمكننا أن نلحظ وجود توافق غير مباشر بين الجانبين، يتمثّل في رغبة كليهما بعدم عودة العراق إلى سابق عهده. أما نقاط التضاد بين الجانبين فهي كثيرة؛ منها على سبيل المثال:

الصراع حول النطاقات العسكرية والاقتصادية (وكان لذلك موضعه في التصعيد حول الاتفاق النووي)[٣].

ذلك فضلا عن الصراع حول عدد من الملفات الإقليمية الأخرى مثل: أفغانستان، القضية الفلسطينية. ويمثل الملف النووري ورقة كلا الطرفين في ضغط كل منهما على الآخر في مختلف القضايا الصراعية، فالإشكالية النووية ليست منفصلة بحال عن غيرها من الملفات الإقليمية.

واتصالا بذلك، وبالعودة إلى الموقف الأمريكي من المشروع النووي الإيراني في المرحلة الراهنة، فقد تمثلت اعتراضات "ترامب" على الاتفاق النووي وفقاً لما صرح به، في أنه رفع العقوبات الاقتصادية المعطلة عن إيران، في مقابل فرض قيود ضعيفة على نشاطها النووي، ولم تضع أي حدود لسلوكها في المنطقة، وفشل في معالجة تطوير منظومة صواريخها الباليستية[٤].

ذلك أن الاستراتيجية الأمريكية الراهنة المعروفة بـ "استراتيجية الضغوط القصوى"، تنطلق من رؤية ترامب أن الاتّفاق يجب ألا يقتصر على المعالجة النووية المفروغ منها بالأساس، بل إنه حتما –ووفقا للرؤية الأمريكية ولرؤية بعض حلفائها الإقليميين (إسرائيل على جانب، ودول الخليج على جانب آخر) ومصالحهم- يجب أن يشمل تفاوضا حول برنامج الصواريخ الباليستية والدور الإقليمي، بما يحدّ من مصادر تهديد مصالح الولايات المتحدة ومصالح حلفائها الاستراتيجيين في المنطقة، فضلًا عن ضمان عدم الوصول للعتبة النووية في المستقبل، من خلال تغيير ما يعرف ببند الغروب في الاتّفِاق النووي (والمفترض أن ينتهي في ٢٠٢٥ ويمكن لإيران بعدها زيادة عمليات التخصيب، وهو ما كان أحد العيوب في الاتفاق من وجهة نظر ترامب ودفعته للانسحاب منه)[٥].

في هذا الإطار تتكون استراتجية الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" تجاه طهران من مجموعة من المرتكزات يتمثل أبرزها في: السعي لتحقيق مصالح الولايات المتحدة الأمريكية بشتى الطرق ولاسيما القضايا التي تتعلق بالأمن القومي، تكثيف الضغوط على النظام الإيراني من خلال العقوبات الاقتصادية، الاستعداد للدخول في مفاوضات مع الخصوم بما يحقق مصلحة واشنطن (ووفق رؤيتها الأحادية)، الكشف عن جرائم الأنظمة الخارجة عن القانون (الدول المارقة) ولاسيما أمام شعوبهم، فضلا عن التعاون مع الحلفاء. أي إن ساحات هذه المواجهة تشمل ثلاث ساحات رئيسة يتحرك فيها صانع القرار الأمريكي للضغط والتأثير على صانع القرار في إيران وهي: الساحة الدولية، والساحة الإقليمية، والداخل الإيراني[٦].

يقول وزير الخارجية الأمريكي بومبيو في مقال له موضحًا معالم استراتيجية بلاده إزاء إيران: تعد كوريا الشمالية وإيران من أهم الدول التي توصف بالخارجة عن القانون (المارقة)؛ حيث يشتهر كلا النظامين بقضاء فترات طويلة في صنع برنامج نووي ينتهك المعايير الدولية. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها واشنطن في مجال الدبلوماسية، كسرت بيونج يانج كل الاتفاقيات الدولية، وبالمثل فشلت الصفقة –خطة العمل المشتركة الشاملة- التي وقعتها إدارة أوباما مع إيران في عام ٢٠١٥ لإنهاء طموحات إيران النووية... لقد كان الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" واضحاً خلال الحملة الانتخابية حول ضرورة وجود قيادة أمريكية جريئة، لوضع المصالح الأمنية لواشنطن على قائمة الألويات الأمريكية، بعكس مبدأ إدارة "أوباما" المتمثل في

(٣) مستقبل النفوذ الإيراني في منطقة الشرق الأوسط في ظل العقوبات الأمريكية، رؤية تركية، السنة ٨، العدد٢، مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/i8Eme

(٤) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، المعهد المصري للدراسات الاستراتيجية، ١١ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/madCF

(٥) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

(٦) المرجع السابق.

"القيادة من الخلف"؛ استراتيجية تسويقية خاطئة عملت على تقلص النفوذ والهيمنة الأمريكية(٧).

وبشأن إيران خاصة يوضح بومبيو(٨): تسعى واشنطن لفرض أقصى قدر من الضغوط على تمويل المؤسسات الإيرانية للجماعات الإرهابية، ولاسيما "الحرس الثوري" بالتعاون مع "حزب الله" في لبنان وحركة "حماس" الفلسطينية، نظام الأسد في سوريا، "الحوثيون" في اليمن، الميليشيات الشيعية في العراق، ووكلائها للتآمر بشكل سري على مصالح واشنطن في جميع أنحاء العالم.

ويقدم بومبيو تفسيرًا للانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي(٩): في مايو ٢٠١٨، انسحب الرئيس "ترامب" من خطة العمل المشتركة مع طهران، على خلفية عدم حمايتها لمصالح الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها؛ ففي يوليو لعام ٢٠١٨ تم إلقاء القبض على دبلوماسي إيراني مقيم في فيننا وبحوزته مواد متفجرة كان من المقرر إلقاؤها وسط مسيرة سياسية بفرنسا. أي إنه في الوقت الذي تحاول فيه إيران إقناع الدول الأوروبية بالبقاء في الاتفاق النووي، تخطط سراً لشن هجمات إرهابية في قلب القارة ذاتها.

ويفصل بومبيو في الاستراتيجية الأمريكية إزاء إيران(١٠): بعد الخروج من الاتفاق النووي، بدأ "ترامب" حملة ضغوط متعددة الجوانب تشمل؛ **العقوبات الاقتصادية**، على أن يتمحور الهدف الأهم من هذه العقوبات حول ما إذا كانت إيران ستستمر أو تتوقف عن الأعمال التي أدت لفرض العقوبات؛ حيث إن التدخل المكثف من جانب "الحرس الثوري" تحت غطاء الخصخصة يجعل الاستثمار في إيران عديم الفائدة، فلا يعرف المستثمرون الأجانب ما إذا كانوا يقومون بتنشيط حركة التجارة أم دعم الإرهاب. ويؤكد بومبيو كيف أنه أيضًا تؤثر العقوبات على موارد النفط، لذا، يعتبر الضغط الاقتصادي هو المحدد الأبرز في حملة الضغوط الأمريكية على إيران، مستشهدا بحالة كوريا الشمالية، إذ يقول: من الواضح أن الرئيس "كيم" شعر بهذا الخطر؛ ولذلك لجأ إلى طاولة المفاوضات في قمة سنغافورة(١١).

كما يتحدث بومبيو عن آلية أخرى تتعلق **بالداخل الإيراني**؛ إذ يقول: يعد الالتزام بكشف وحشية النظام الإيراني عنصرا حاسما داخل حملة الضغوط الأمريكية، فالأنظمة الاستبدادية لا تخشى شيئا سوى إظهار الأعمال الحقيقية التي تقوم بها. في الإطار ذاته، تعمل الإدارة الأمريكية على إيضاح مصادر الدخل غير المشروع للنظام؛ دعم الإرهاب واضطهاد الأقليات، فضلا عن أن الشعب الإيراني ذاته يجب أن يعرف حجم الدخل الحكومي وفيما ينفق(١٢).

وفي هذا السياق يشير بومبيو إلى التظاهرات التي خرجت إلى شوارع طهران، وغيرها من المدن الأخرى، من أجل الدعوة إلى حياة أفضل، في المقابل ردّ النظام بالاعتقالات والقتل. وعليه، أوضح "ترامب" أن الضغط سيزداد فقط إذا لم ترقَ النتائج إلى المستوى الذي تريده الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها، فضلاً عن طلب واشنطن القيم بتغيرات جوهرية في مجال حقوق الإنسان.

---

(٧) مايك بومبيو، المواجهة .. استراتيجية إدارة "ترامب" تجاه إيران، ترجمة: مرڤت زكريا، المركز العربي للبحوث والدراسات، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/q5nnN

المقال الأساسي بعنوان:

- Michael R. Pompeo, Confronting Iran: The Trump Administration's Strategy, Foreign affairs, December 2018, available at: https://cutt.us/Enuhw

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) المرجع السابق.

ويؤكد بومبيو على محورية الدور الأوروبي بالنسبة للولايات المتحدة في استراتيجيتها تجاه طهران[١٣]: يفضل "ترامب" **التعاون مع الحلفاء** في إطار تنفيذ خطة الضغوط المتزايدة على إيران، لاسيما تلك التي تشارك واشنطن القلق من تداعيات تمدد النفوذ الإيراني؛ ويستشهد بتصريحات لمسئولين أوروبيين، حيث قال الرئيس الفرنسي "إيمانويل ماكرون": من المهم أن نظل منتبهين لأنشطة إيران الإقليمية وبرنامجها النووي"، وقالت رئيسة الوزراء البريطانية ساعتها "تيريزا ماي": لابد من وضع التهديد الإيراني في دول الخليج والشرق الأوسط نصب أعيننا. ومن هنا فلن تدخر الدول الاوروبية جهداً في الانضمام للحملة العالمية لتغيير السلوك الإيراني. إلا أن بومبيو كان شديد الاختزال في تقديره للموقف الأوروبي، الذي –وإن اتفق في ضرورة تغيير السلوك الإيراني– إلا أن تصوره لسبل ذلك اختلف عن نظيره الأمريكي في معظم الأحيان، كما سنرصد لاحقًا.

ولوضع الاستراتيجية موضع التنفيذ، أعلن بومبيو عن **تشكيل مجموعة عمل بشأن إيران في ١٦ أغسطس ٢٠١٨، برئاسة براين هوك**، الذي أصبح الممثِّل الخاصّ لوزارة الخارجية الأمريكية حول إيران، وهذه المجموعة تولَّت مهمَّة تنفيذ إستراتيجية «الضغوط القصوى»، من أجل تغيير سلوك إيران. وكان ضمن أهداف هذه المجموعة، تنسيق أنشطة وزارة الخارجية الأمريكية المتعلِّقة بإيران، والتنسيق بين الولايات المتحدة وحلفائها بشأن العقوبات على إيران، ومتابعة الدول التي تواصل علاقاتها التجارية مع طهران. وكان هوك يرى أنّ الضغط الاقتصادي والعُزلة الدبلوماسية والتهديد الموثوق باستخدام القوّة العسكرية من شأنه أن يجبر إيران على العودة إلى طاولة المفاوضات بشروطٍ أمريكية.

إلا أن ما كان موضع تساؤل مؤخرًا، إعلان بومبيو في ٦ أغسطس ٢٠٢٠، أنّ براين هوك المبعوث الأمريكي الخاصّ لإيران سيتنحَّى عن منصبه دون تحديد سببٍ لذلك، وكتب في تغريدةٍ بعد هذا الإعلان أنّ هوك سينتقل إلى القطاع الخاصّ؛ وقد اكتسب هذا الإعلان أهمِّيةً خاصّة؛ باعتباره تنحّيا غير متوقَّعٍ في مرحلةٍ حسَّاسة من المهمَّة التي كان يقوم بها هوك في إدارة الرئيس ترمب، من شأنه أن يكون له تأثيره على إستراتيجية الضغوط القصوى، التي صاغها وقام على مباشرتها منذ تولِّيه مهمَّته في ٢٠١٨[١٤].

وقد دعم اختيار إليوت إبرامز تحديدًا كمبعوث خاص لإيران وجود تغييرٍ محتمل سيطرأ على التوجُّهات الأمريكية تجاه إيران، باتجاه أكثر راديكاليةً، رُبّما تصل إلى تبنّي تغيير النظام؛ لأنّ إبرامز واحدٌ من الصقور المسيَّسين والمتشدِّدين تجاه إيران، وهو مخضرٌم وله سجلٌّ حافل بين المحافظين الجُدُد، وقد كان أحد الداعين لغزو العراق عام ٢٠٠٣، وهو يؤيِّد هجومًا عسكريًا إسرائيليًا على المنشآت النووية الإيرانية.

إلا إنّ الوقت الضيِّقٌ بالنسبة لترمب، وانشغاله بالسباق الانتخابي، وتركيزه على احتواء الأزمة الداخلية المتفاقمة، بعد تفشِّي وباء كورونا، لم يدع مساحة للدخول في مغامرات، هذا فضلًا عن أنّ ترمب لا يريد تصعيدًا عسكريًّا مع إيران (وإنما يريد أقصى ضغط)، وسبق أن أقال مستشاره للأمن القومي جون بولتون في سبتمبر ٢٠١٩م؛ بسبب الخلاف حول هذا التوجُّه، ورجَّح في حينها توجُّهات هوك. إضافةً إلى ذلك، صادقت لجنة التخصيصات المالية بمجلس النوّاب الأمريكي على تعديل الميزانية الدفاعية لعام ٢٠٢١، بما يمنع تمويل عملياتٍ عسكرية ضدّ إيران في حال بدئها دون موافقة «الكونجرس»[١٥].

ولا شكّ أنّ ثمَّة رسائل ضمنية من هذا التغيير المفاجئ للمسؤول عن ملفّ إيران. ربما تكون رسائل موجهة لروسيا

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) أثر رحيل هوك على مسار الضغوط الأمريكية على إيران، المعهد الدولي للدراسات الإيرانية، ١٢ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/UGD0Z

(١٥) المرجع السابق.

والصين والأطراف الأوروبية التي كانت رافضة لتمديد حظر السلاح المفروض على إيران من خلال مجلس الأمن؛ وهي أنّ بديل تمديد حظر السلاح هو الاتّجاه للتصعيد العسكري؛ ومن ثمّ هي نوعٌ من الضغط لتغيير مواقف هذه الدول[١٦].

وبشكل عام، سيتناول الجزء التالي أبرز المؤشرات على استراتيجية الضغوط القصوى الأمريكية على إيران، والتي تنوعت وفق ما سبق بين الاقتصادي والعسكري والسياسي وغير ذلك.

ثانيًا- مؤشرات الضغوط الأمريكية:

تتعدد المؤشرات على تفعيل الولايات المتحدة استراتيجيتها تجاه إيران:

التصعيد العسكري: على سبيل المثال في عام ٢٠١٩ أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» أنها أرسلت حاملة طائرات هجومية، وقاذفات استراتيجية إلى منطقة القيادة الوسطى الأمريكية في الشرق الأوسط، لمواجهة التهديدات الإيرانية للقوات الأمريكية، وإغلاق مضيق هرمز. وقد صرح وزير الدفاع الأمريكي، باتريك شاناهان، أن إرسال حاملة طائرات وقاذفات للشرق الأوسط بسبب «تهديد جاد من القوات الإيرانية»، وأضاف: «ندعو النظام الإيراني لوقف جميع الاستفزازات، سنحمل النظام الإيراني مسؤولية أي هجوم على قوات أمريكية أو مصالحنا». وفى بيان لاحق قال «البنتاجون» إن التحرك جاء استجابة «لمؤشرات على تعزيز الاستعداد الإيراني لشن عمليات هجومية على القوات الأمريكية ومصالحنا»[١٧].

وفى المقابل، صرح كيوان خسروي المتحدث باسم المجلس الأعلى للأمن القومي بقوله «إن ما أعلنته واشنطن استخدام أخرق لحرب نفسية مستهلكة». ورد «خسروي» على بيان لمستشار الأمن القومي الأمريكي، جون بولتون، حول إرسال حاملة الطائرات، قائلا: «إن بولتون يفتقر للخبرة العسكرية والأمنية، وإن تصريحاته لأغراض استعراضية»[١٨].

في أبريل ٢٠٢٠ تصاعدت حدة التحذيرات والتهديدات بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران، تزامنا مع الزيارة التي قام بها قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني إسماعيل قآني إلى بغداد، يأتي هذا التصعيد بعد إعلان واشنطن تسليم عدد من القواعد العسكرية التي كانت تتواجد فيها إلى القوات العراقية وتجميد مهامها في التحالف الدولي للحرب على تنظيم "داعش"، وتركيز تواجدها في عدد من القواعد الحدودية، بجانب نشرها بطاريات صواريخ باتريوت على الحدود وإرسال الفرقة ١٠١ ذات الطابع الخاص إلى العراق. وسوغت الولايات المتحدة تلك الإجراءات خوفا من وباء كورونا، علاوة على أن تنظيم داعش لم يعد يشكل خطراً. إلا أن مسألة نشر صواريخ باتريوت أثارت قلق إيران التي حذرت الولايات المتحدة من خطر جرّ الشرق الأوسط إلى "وضع كارثي" في خضمّ أزمة فيروس كورونا. ذلك لاسيما أن هذه الخطوة اعتبرت موجهّة ضد إيران في ضوء إعلان واشنطن اكتشاف "خطط إيرانية" رامية إلى جر الولايات المتحدة إلى حرب استنزاف طويلة الأمد على الأراضي العراقية[١٩].

كذلك لجأت واشنطن إلى الضربات العسكرية بالوكالة، وهذا من خلال دعم الضربات الإسرائيلية للميليشيات الإيرانية في لبنان وسوريا والعراق، وبالأخص في

---

(١٦) مرفت زكريا، مأزق حظر السلاح... والصراع الأمريكي – الإيراني، مختارات إيرانية، العدد٢١٢، نوفمبر –ديسمبر ٢٠١٩.

(١٧) التصعيد الأمريكي ضد إيران ينتقل من العقوبات إلى الحشد العسكري، المصري اليوم، ٧ مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4chwV

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) التصعيد الأمريكي الإيراني... هل يتحول لمواجهة مفتوحة على أراضي العراق؟، شفق نيوز، ٨ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/9iiHk

الأخيرة، التي لا تتم دون موافقة أمريكية، لسيطرتها على المجال الجوي العراقي. ففي ٢٢ أغسطس ٢٠١٩، أقرّ "نتنياهو"، بقصف قواعد عسكرية إيرانية في العراق، وأن بلاده لن تعطي إيران حصانة في أي مكان تقيم فيه قواعدها الموجهة ضد إسرائيل، سواء في العراق أو اليمن أو سوريا أو لبنان(٢٠).

وتأتي الاغتيالات في إطار التصعيد العسكري: في إطار التصعيد الأمريكي ضد إيران رصدت إدارة الرئيس الأمريكي ترمب خلال السنوات الماضية مبالغ مالية كبيرة لمن يدلي بمعلومات عن قيادات بالحرس الثوري الإيراني وعن النظام المالي للحرس الثوري الإيراني ولحزب الله اللبناني.

على سبيل المثال في ١٩ أغسطس ٢٠١٩ عرضت الخارجية الأمريكية مكافأة تصل إلى ٧ ملايين دولار لمن يدلي بمعلومات عمن وصفته بالعضو البارز بحزب الله سلمان رؤوف سلمان والذي اتهمته بالتخطيط لتفجير مركز الجالية اليهودية في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس عام ١٩٩٤. كما عرضت الخارجية الأمريكية مكافأة تصل إلى ١٥ مليون دولار للحصول على معلومات تؤدي إلى الوصول لعبد الرضا شهلائي رجل الحرس الثوري في صنعاء أو تؤدي إلى تعطيل الآليات المالية للحرس الثوري الإيراني في اليمن والمنطقة (٢١).

وقد مثل مقتل "قاسم سليماني" في يناير ٢٠٢٠ علامة بارزة على هذا المسار الأمريكي، فهو بمثابة ضربة فاصلة لأنّه لا يمكن استبداله على المدى القصير. فقد كان مفكّراً استراتيجياً مهمّاً وقائدًا عسكريًا بارزًا يقوم على استراتيجية إيران الإقليمية. ومن ثم لاشك أن ذلك قد ترك أثره على «الحرس الثوري الإسلامي» الإيراني ووكلائه الإقليميين(٢٢).

أيضًا الأداة السيبرانية: فعلى سبيل المثال نفذت الولايات المتحدة في يونيو ٢٠١٩ هجوما إلكترونياً استهدف نظم تسليح إيرانية، وقد أدى الهجوم إلى تعطيل نظم لتوجيه وإطلاق الصواريخ(٢٣).

الأداة الاقتصادية (العقوبات): حيث استراتيجية ترامب القائمة على أن سلاح العقوبات الاقتصادية هو الأكثر فاعلية والأقل تكلفة، خاصةً على ضوء خبرة التورط الأمريكي في العراق(٢٤). وكانت من أبرز محطات العقوبات الأمريكية، المجموعة الأولى من العقوبات التي فرضتها الإدارة الأمريكية بتاريخ ٧ أغسطس ٢٠١٨، وشملت صادرات النفط والشحن والمصارف المالية وحظر التعاملات التجارية وتبادل الدولار مع الحكومة الإيرانية، وكل القطاعات الأساسية في الاقتصاد الإيراني بالإضافة إلى حظر استيراد أو تصدير التكنولوجيا ذات الاستخدام المزدوج المدني والعسكري.

---

(٢٠) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٢١) محمد مصطفى العمراني، أهداف التصعيد الأمريكي الجديد ضد إيران، رأي اليوم، ٧ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ZEmLQ

(٢٢) انظر الآتي:

- مايكل ت، كوري شيك، ديفيد ديبتولا ، الاستراتيجية الأمريكية تجاه إيران: إعادة إحلال الردع وتمكين الدبلوماسية ، معهد واشنطن، ١٤ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/vReYE
- قاسم سليماني: لماذا استهدفته الولايات المتحدة؟، بي بي سي عربي، ٣ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/9Db4j

(٢٣) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٢٤) المرجع السابق.

كما أنه في نوفمبر ٢٠١٨ كانت مرحلة جديدة من المواجهة بين إيران والولايات المتحدة بفرض حزمة جديدة من العقوبات[٢٥].

أيضًا خلال سبتمبر ٢٠١٩ فرضت الولايات المتحدة على إيران عقوبات اقتصادية في ثلاث مناسبات مختلفة[٢٦]: ففي ٣ سبتمبر ٢٠١٩، فرضت الولايات المتحدة عقوبات على ثلاث وكالات فضائية إيرانية، بدعوى أن طهران تستخدمها لتطوير برنامج الصواريخ الباليستية. وفي اليوم التالي، فرضت عقوبات على شبكة واسعة من الشركات والسفن والأفراد؛ انطلاقًا من أن الحرس الثوري الإيراني يديرها، وخصصت مكافأة مالية ١٥ مليون دولار لمن يبلغ عن أنشطة ميليشيات الحرس الثوري. وفي ٢٠ سبتمبر٢٠١٩، أعلن "ترامب" فرض عقوبات جديدة على المصرف المركزي الإيراني، بعد أيام من استهداف شركة أرامكو (الذي سنشير إليه لاحقًا)[٢٧].

وفي ديسمبر ٢٠١٩ صادق مجلس الشيوخ الأمريكي على "قانون قيصر لحماية المدنيين السوريين"، وأقره الرئيس الأمريكي مطلع عام ٢٠٢٠، ليدخل حيز التنفيذ في يونيو. وينص القانون على فرض عقوبات على النظام السوري، وداعميه الإيرانيين والروس، وكل شخص أو جهة، أو دولة تتعامل معه. وبموجب قانون قيصر تم فرض عقوبات على أكثر من ١١٠ كيانات وأفراد داعمين لنظام الأسد[٢٨].

وقد أكد المبعوث الأمريكي الخاص لشؤون سوريا جويل ريبيرن أن "أمريكا مستمرة في ممارسة الضغوط على إيران عن طريق فرض العقوبات، من أجل الانسحاب من سوريا"[٢٩].

كما أعلن "ترامب" سعيه لتصفير الصادرات النفطية الإيرانية، ضمن استراتيجية الضغوط القصوى، وبينما لم تصل هذه الصادرات لمستوى الصفر فعليًا، فقد انخفضت بشكل قياسي. ففي ١٢ سبتمبر ٢٠١٩، أعلنت وكالة الطاقة الدولية أن إنتاج إيران من النفط الخام خلال أغسطس ٢٠١٩، تراجع لأدنى مستوى منذ ٣٠ عاما، وذلك بواقع ٤٠ ألف برميل يومياً؛ مقارنةً مع أزيد من ٢,٢ مليون برميل في يوليو، و٣,٨٥ ملايين برميل قبل فرض العقوبات، كما هبطت صادرات إيران النفطية بواقع ١٧٠ ألف برميل يومياً في أغسطس ٢٠١٩، إلى ٢٠٠ ألف برميل[٣٠].

ولكن بالتوازي مع ذلك، وفي محاولة أمريكية لطمأنة المستهلك العالمي، أعلن البيت الأبيض في بيان رسمي أن الولايات المتحدة والسعودية ودولة الإمارات: "ستلتزم العمل بما يتيح بقاء الأسواق النفطية العالمية مزودة بما يكفي من كميات النفط المطلوبة". وردت إيران على هذه التصريحات؛ إذ أبلغت منظمة أوبك أنه ينبغي عدم السماح لأي عضو في المنظمة الاستحواذ على حصة عضو آخر من صادرات النفط، وقال وزير النفط الإيراني، بيجن زنكنة،

(٢٥) د.نورا الحفيان، مسارات الموقف الأمريكي من الملف النووي الإيراني، المعهد المصري للدراسات الاستراتيجية، ٥ أغسطس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/12r5Z

(٢٦) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) انظر حول قانون قيصر:

- رابحة سيف علام، قانون قيصر: من الصراع العسكري إلى الاقتصادي، مختارات إيرانية، العدد ٢١٢، نوفمبر – ديسمبر ٢٠١٩، ص١٧.

- جويل ريبيرن لـ "الوطن": ضغوط أمريكية على إيران حتى الانسحاب من سوريا، الوطن، ٢٣ ديسمبر ٢٠٢٠: https://cutt.us/ISs3W

(٢٩) جويل ريبيرن لـ "الوطن": ضغوط أمريكية على إيران حتى الانسحاب من سوريا، مرجع سابق.

(٣٠) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

متحديا: "إن الولايات المتحدة لن تكون قادرة على تقليص صادرات النفط الإيرانية إلى الصفر مهما فعلت"[٣١].

هذا علمًا بأنه لا يبدو أن عدم وصول هذه الصادرات لمستوى الصفر يزعج "ترامب"؛ لإدراكه أن وصولها لمستوى الصفر سيدفع إيران لإحداث مزيد من التصعيد في مياه الخليج، لتحولها لمعركة صفرية؛ لأنها حينها لن تكون لديها ما تخسره. وبالتالي كان ضرورياً ترك منفذ صغير لصادرات النفط الإيرانية[٣٢].

سياسيًا (توظيف الأوضاع المتأججة في الداخل الإيراني): رغم أن المسؤولون الأمريكيون، خلال تأكيداتهم العلنية يقولون إنهم لا يعملون على تغيير النظام السياسي في طهران، لكن في الوقت ذاته يشيرون إلى دعمهم السياسي والمعنوي للمتظاهرين الإيرانيين، وكذلك إلى مساعدتهم الالكترونية للمتظاهرين التي تسهل عليهم الاتصال ببعضهم البعض، ذلك اتساقًا مع القول بالرغبة في كشف الحقائق للشعوب (وقد سبقت الإشارة لهذا المعنى في تناول بومبيو لاستراتيجية الضغوط القصوى). على سبيل المثال: يقول المسئولون الأمريكيون إن سياسة "الضغوط القصوى" التي فرضتها إدارة الرئيس ترامب بعد انسحابها من الاتفاق النووي الدولي مع إيران، ساهمت في انفجار الاحتجاجات الشعبية التي عمت المدن الإيرانية. وفي أحد التصريحات قال وزير الخارجية مايك بومبيو في مقابلة مع شبكة فوكس التلفزيونية "هذه الاحتجاجات هي نتيجة مباشرة للانهيار الاقتصادي، وغياب الحريات السياسية، وبسبب سياسة نظام يرسل شبابه للقتال في الخارج والعودة كموتى، نظام لم يستخدم أمواله لتحسين نوعية حياة الشعب الإيراني. التظاهرات التي ترونها هي نتيجة هذه السياسات"[٣٣].

وقبيل الانتخابات الرئاسية الأمريكية، حدث بعض تغير في التكتيك (على نحو يوحي وكأن الولايات المتحدة تتجه صوب تهدئة)، دون أن يعني تبدل في الاستراتيجية، حيث إن استمرار التصعيد ضد إيران دون إجبارها على التنازل، وعدم القدرة على التوصل لاتفاق نووي جديد، سيحسب فشلاً لإدارة "ترامب"، وهو ما سينعكس على احتمالات فوزه بهذه الانتخابات (وهو ما قد حدث بالفعل). وهو ما يفسر طلب "ترامب" من رئيس الوزراء الباكستاني "عمران خان"، التوسط لدى إيران لخفض حدة التوتر، وإمكانية عقد اتفاق نووي جديد. أيضًا ما لوحظ من قرارات وتصريحات أمريكية متناقضة بعضها يدفع نحو التهدئة والآخر نحو التصعيد. وهذا بهدف تشجيع إيران على العودة للتفاوض، في نفس الوقت لا يجعلها تستقبل هذه الإشارات على أنها ضعف أمريكي، بما يدفع إيران للتمادي أكثر في التصعيد[٣٤].

بشكل عام، حققت الإستراتيجية التي صاغها هوك لتعديل سلوك إيران على مدى سنتين نجاحاتٍ مهمَّة، حيث قوَّضت بعض وأهمّ مكاسب الاتفاق النووي؛ إذ حرمت إيران من الاستفادة من فوائده الاقتصادية عبر توسيع نطاق العقوبات بصورةٍ غير مسبوقة، وفرضت قيودًا على العديد من قيادات النظام ومؤسَّساته والشركات المتورِّطة في أنشطته، وقلَّلت من دعم النظام للميليشيات في الخارج، وكل ذلك أسفر عن تراجع شعبية النظام في الداخل، وبيَّن الحواضن الشيعية في عددٍ من دول المنطقة كالعراق، ولبنان.

---

(٣١) الأوروبيون وعقوبات ترامب على إيران، مركز الروابط، ٥ مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/1uDGq

(٣٢) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٣٣) هشام ملحم، سياسة الضغوط القصوى الأمريكية والانتفاضة الإيرانية، معهد دول الخليج العربي بأمريكا، ٦ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cx0PC

(٣٤) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

وإن كان على جانب آخر، لم يتمّ تقويض الاتفاق النووي بصورةٍ كاملة، ويظلّ بقاؤه انتكاسةً لوعود ترمب الذي وعد بإنهاء آثاره، كما أنّ الإستراتيجية لم تبتكر آليات أو لم تنسِّق سياساتٍ فاعلة للحدّ من نفوذ إيران الإقليمي(٣٥). ولا شك أن إيران لم تقف صامتة، بل تفاعلت عبر عدة مسارات لتقليل الخسائر وتحقيق مكاسب قدر الإمكان، وهو ما سيتطرق إليه التقرير فيما يلي.

ثالثًا- التفاعلات الإيرانية تجاه الضغوط الأمريكية (استراتيجية التصعيد):

تبنت إيران استراتيجية لتحصين الاتِّفاق النووي وحماية المكتسبات التي حققها المشروع الإيراني في الخارج من احتمال التعرض لأي انتكاسة تعود بالنظام إلى مربع العزلة والمواجهة، فقد اتبعت إيران استراتيجية تصعيد قصوى في مواجهة استراتيجية الضغط القصوى، ساعيةً لرفع تكلفة أي مجهود لاحتوائها وسياساتها الإقليمية. بالاعتماد على عدة مرتكزات: كسب دعم القوى الدولية لتقليل فاعلية العقوبات والعزلة الأمريكية، فضلا عن توظيف الكيانات الإقليمية التي تدين بالولاء لإيران، ذلك إلى جانب العمل فيما يعرف بالمنطقة الرمادية، التي تكمن ما بين الحرب والسلام؛ من أجل تحدي الوضع الراهن، وإدارة المخاطر في الوقت نفسه. من أهم المؤشرات على العمل الإيراني في المنطقة الرمادية، بشكل يمكنها من إنكار عملياتها العسكرية، الضربة العسكرية لمصافي شركة أرامكو السعودية (فقد تضاربت التقارير حول الجهة المسئولة كما سنرى)(٣٦). وبشكل عام تتفاعل إيران وفق تلك المرتكزات عبر عدة مسارات:

المسار الأول- تكثيف العلاقات الخارجية الاقتصادية

لتعزيز وجود إيران كشريك دولي طبيعي لا سيما مع الدول المؤثرة في النظام الدولي (وكان لهذا المسار أولوية)، وتحديدًا أعضاء الترويكا الأوروبية الشركاء في الاتِّفاق (إنجلترا وألمانيا وفرنسا) بجانب روسيا والصين، إضافة إلى تعزيز العلاقة مع القوى الصاعدة والشركات متعددة الجنسيات في مجالات صناعة النفط والصناعات الثقيلة ونقل التكنولوجيا، أيضًا وقعت طهران العديد من مذكرات التفاهم والعقود مع الحكومات والشركات الكبرى، وزادت بالتالي معدلات تجارة إيران مع الدول الأوروبية وعدد من الدول الآسيوية وروسيا من أجل كسب المزيد ليس فقط من الفوائد الاقتصادية وإنما أيضًا من النفوذ الدبلوماسي في مواجهة الجهود الأمريكية لفرض عقوبات جديدة، في الوقت نفسه الذي ظلت فيه متحفظة على فتح المجال أمام علاقة متطورة مع الولايات المتحدة؛ سواء على الجانب السياسي أو الاقتصادي؛ لأن إيران ترى أن أحد أهم نقاط قوة نظامها هو استقلالية قرارها بعيدًا عن ضغوطات العلاقة مع الولايات المتحدة(٣٧).

كما عززت إيران علاقاتها الاقتصادية مع حلفاء الولايات المتحدة بدول الخليج كوسيلة للضغط، على سبيل المثال وصل حجم التبادل التجاري مع الإمارات إلى ١١ مليار دولار في عام ٢٠١٧ (الإمارات من أكثر المتضررين من تصاعد الأزمة خاصة أن الإمارات تستضيف عدداً هائلاً من الإيرانيين يقدر بنحو ٨٠٠ ألف شخص يستثمر الكثير منهم مليارات الدولارات)(٣٨).

إلى جانب العراق الذي وصل حجم التبادل التجاري بينه وبين إيران سبعة مليارات دولار خلال عام ٢٠١٨ (فضلا عن أن العراق بحاجة إلى إيران على مستوى الطاقة والغاز والسلع والتبادلات المصرفية ولذلك حصل على استثناء من العقوبات الأمريكية على الدول المتعاونة مع

---

(٣٥) أثر رحيل هوك على مسار الضغوط الأمريكية على إيران، مرجع سابق.

(٣٦) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

(٣٧) المرجع السابق.

(٣٨) التصعيد الأمريكي-الإيراني.. أي مخاطر تواجهها دول الخليج؟، دويتشه فيليه، ٨ مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4hxvI

إيران)، كما ترتبط كل من قطر والكويت بعلاقات سياسية واقتصادية قوية مع إيران[٣٩].

وبشأن المسار النفطي على وجه الخصوص، فقد خاضت إيران ما عرف بـ "حرب الناقلات النفطية"، في ظل إصرارها على تصدير النفط (بدوافع سياسية لإمداد حلفائها به، وأخرى اقتصادية). على سبيل المثال في ٤ يوليو ٢٠١٩، تم احتجاز ناقلة النفط الإيرانية "أدريان داريا١"؛ لأنها كانت محملة بالنفط ومتجهة لسوريا، في تحدٍّ للعقوبات، وذلك قبل الإعلان عن الإفراج عنها في ١٤ أغسطس ٢٠١٩. وفي ٧ سبتمبر ٢٠١٩، نشر مستشار الأمن القومي الأمريكي "جون بولتون"، صورة للناقلة "أدريان" في ميناء طرطوس السوري. وفي اليوم التالي، أعلنت إيران عن وصول الناقلة إلى وجهتها وبيع النفط. وكانت إيران قد ردت على احتجاز ناقلتها باحتجاز ناقلة النفط البريطانية "ستينا إمبيرو" في مضيق هرمز في ١٩ يوليو. وبينما أعلن مالك الناقلة في ٥ سبتمبر٢٠١٩ عن إفراج إيران عن سبعة من أفراد طاقمها، أعلن المتحدث باسم الحكومة الإيرانية "علي ربيعي" في ٢٣ سبتمبر٢٠١٩ أن بلاده أفرجت عن الناقلة البريطانية[٤٠].

وفي يوليو ٢٠٢٠، صادرت الولايات المتحدة حمولات أربع ناقلات بنزين إيرانية وهي في طريقها إلى فنزويلا، وقد علق وزير النفط الإيراني بيجن زنكنه قائلا: إن "حمولة الوقود التي أعلنت الولايات المتحدة احتجازها، هي عمل تجاري، لا ينبغي تبديله إلى نزاع سياسي"[٤١].

وسعيًا وراء تأمين عمليات التصدير، أعلن الرئيس الإيراني حسن روحاني أن إيران عملت بالفعل على بناء خط أنابيب يمتد من منطقة غور القريبة من ميناء غناوة شمال الخليج العربي إلى ميناء جاسك على ساحل بحر عمان، ذلك بهدف تصدير النفط عبر بحر عمان ومن ثم الاستغناء عن تصدير النفط من خلال مضيق هرمز، مؤكدًا أنه تم بناء ٤٠٤ كم من ذلك الخط الذي تم بدء الإعلان عنه في سبتمبر ٢٠١٨ ويبلغ طوله ١٠٠٠ كم[٤٢].

ورغم تلك التحركات، لا يمكن تجاهل الأثر العميق الذي تركته العقوبات في الاقتصاد الإيراني، فعندما يصف وزير النفط الإيراني بيژن زنگنه العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية على إيران بأنها "حرب بلا دماء"، فإنه يشير بوضوح إلى عمق التأثيرات التي أنتجتها تلك العقوبات على بلاده، خاصة على صعيد تقليص حجم الصادرات النفطية الإيرانية، وهي المصدر الأساسي للدخل الإيراني، بشكل كبير، على نحو أسهم في ارتفاع معدلات التضخم والبطالة وانهيار العملة الوطنية[٤٣].

وهناك اعتراف رسمي إيراني آخر بذلك، فقد ذكر روحاني في كلمة ألقاها في اجتماع لمجلس الوزراء، بنهاية أغسطس ٢٠٢٠، أن العقوبات الأمريكية تسببت في تراجع إيرادات البلاد بمقدار ٩٠٠ تريليون ريال إيراني (٢١٤ مليار دولار)، منذ تطبيقها في مايو ٢٠١٨[٤٤].

المسار الثاني- تعزيز القدرات العسكرية، حيث بدت إيران بداية الأمر على وشك التحرُّر من الحظر المفروض على السلاح وتعزيز قدراتها الدفاعية، من خلال صفقاتٍ عسكرية مع روسيا والصين، هذا ناهيك عن تطوير برنامج

(٣٩) المرجع السابق.

(٤٠) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٤١) وزير النفط الإيراني يؤكد أن أمريكا احتجزت ٤ ناقلات ويكشف التفاصيل، روسيا اليوم، ١٧ أغسطس ٢٠٢٠: https://cutt.us/WVQS0

(٤٢) د.أشرف محمد كشك، حول إنشاء قاعدة بحرية إيرانية في المحيط الهندي، أخبار الخليج، ٦ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/XqAxA

(٤٣) انظر: د.محمد عباس ناجي، "العقوبات والحرب: المسارات المحتملة للتصعيد الإيراني- الأمريكي بين إرث ترامب وتوجهات بايدن"، كراسات استراتيجية، ٣١١، نوفمبر ٢٠٢٠.

(٤٤) عقوبات أمريكية ساحقة ضد إيران.. "سناب باك" في مهمة خاصة، العين، ٨ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/VYyR1

صواريخها البالستية (أحد أهم أسباب المواجهة مع الولايات المتحدة)، ومؤخّرا صاغت الصين اتفاقية استثمار بقيمة ٤٠٠ مليار دولار مع إيران يُعتقَد أنّها تحتوي على صفقات تسليح، فضلًا عن الاتّجاه لاتفاق إستراتيجي مع روسيا[٤٥].

وقد كانت مناورات «الرسول الأعظم» في منطقة الخليج في أغسطس ٢٠٢٠ والتدريب على تدمير نموذجٍ مجسَّمٍ لحاملة طائراتٍ أمريكية، أبرز رسالةٍ للردع خشية اتجاه ترمب نحو عمليةٍ عسكرية قبل الانتخابات لتحسين وتعزيز فُرصِه[٤٦]. أيضًا أعلنت القوات البحرية الإيرانية في ١٨ يونيو ٢٠٢٠ عن اختبار صواريخ كروز قصيرة وبعيدة المدى خلال مناورات أجرتها في مياه بحر عمان وشمال المحيط الهندي[٤٧]. وفي ٢٢ يونيو ٢٠٢٠ أعلن قائد القوات البحرية في الحرس الثوري الإيراني أن إيران لديها خطة لإقامة قاعدة بحرية دائمة في المحيط الهندي، مؤكدًا أن ذلك يأتي ضمن تعزيز الوجود البحري الإيراني في خليج عمان ومدخل المحيط الهندي، وأن الدوافع وراء ذلك القرار تتمثل فيما اسماه «تحقيق أهداف المرشد الأعلى» وأن تلك القاعدة من شأنها «توفير حضور خاص للصيادين ووحدات الصيد الصناعي في المحيطات في ظل تعرض سفن الصيد الإيرانية للقرصنة في تلك المنطقة»، مشيرًا إلى أن تلك القاعدة سوف تكتمل بحلول مارس ٢٠٢١. وأهم ما في مضمون تلك الخطوة هو بدء إيران استراتيجية جديدة مفادها التواجد الدائم في مياه المحيط الهندي في توجه مغاير لسياسات سابقة كانت تعتمد على إرسال قطع بحرية في مهام محددة[٤٨].

المسار الثالث– تدعيم النفوذ الإقليمي، وتوظيف ما سبق إنجازه على الصعيدين الاقتصادي والعسكري، حتى يمكن القول إن النجاح النسبي الاقتصادي لسياسة الضغوط القصوى الأمريكية، لم يصاحبه نجاح "سياسي" أمريكي، بمعنى إرغام طهران على تعديل أو تغيير سياستها في المنطقة[٤٩]، فقد عمدت إيران إلى توظيف الجغرافيا والعمق الاستراتيجي وتوظيف البُعد الديني والمذهبي بخوض معارك نوعية، تعتمد على القوة الصاروخية والطائرات المسيرة والميليشيات المسلحة التابعة لها في دول المنطقة، باستخدام استراتيجية غير مباشرة "حرب العصابات"[٥٠]. بل تبين مختلف المؤشرات والنشاطات الإيرانية أن إيران ردت على الضغوط الأمريكية، بتصعيد ضغوطها العسكرية ضد أهداف تخص الولايات المتحدة مباشرة[٥١]، ولاشك أن إيران أرادت بذلك امتلاك أوراق إقليمية يمكن أن تساوم بها لتحقيق مصالحها وحماية مكتسباتها، فضلًا عن أن هذا النفوذ عبر التأثير خارج الحدود يُبْقِي مشكلة إيران مع العالم خارج حدودها[٥٢].

ولتحقيق ذلك قامت إيران بما يلي:

- تعزيز خريطة تحالفاتها: على سبيل المثال، الروس لديهم تحالف استراتيجي مع إيران في الساحة السورية، والحكومتان العراقية والسورية حليفتان رئيستان لإيران ولا يمكنهما فك الارتباط معها سياسيًّا ومذهبيًّا، وتركيا تقاطعت مصالحها مع إيران بصورة رئيسة في عدد من

(٤٥) أثر رحيل هوك على مسار الضغوط الأمريكية على إيران، مرجع سابق.

(٤٦) إيران تعتمد القوة القصوى في المناورات البحرية السنوية للحرس الثوري الإيراني، الحرة، ١١ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/uMEu8

(٤٧) د.أشرف محمد كشك، حول إنشاء قاعدة بحرية إيرانية في المحيط الهندي، مرجع سابق.

(٤٨) المرجع السابق.

(٤٩) هشام ملحم، سياسة الضغوط القصوى الأمريكية والانتفاضة الإيرانية، مرجع سابق.

(٥٠) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

(٥١) هشام ملحم، سياسة الضغوط القصوى الأمريكية والانتفاضة الإيرانية، مرجع سابق.

(٥٢) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

الملفات المشتركة، فضلا عن حزب الله في لبنان، وهو قوة عسكرية لديها مرونة في التحرك خارج الحدود[٥٣].

- استغلال الفوضى السياسية بالعراق، مع اندلاع المظاهرات، وانشغال القيادة السياسية في بغداد بقمعها، وكثفت من تعزيز وجودها العسكري في العراق من خلال نشر المزيد من الصواريخ الباليستية ذات المدى المتوسط (٦٠٠ ميل) التي يمكن أن تستخدمها إيران في أي مواجهة مع الولايات المتحدة[٥٤].

وفي هذا السياق أيضًا وظفت إيران ما لديها من علاقات شخصية وثنائية ممتازة مع معظم الجهات الفاعلة السياسية والأمنية في العراق، مشجعةً في الوقت نفسه الانقسامات الداخلية في السياسة العراقية. ولتحقيق هذا الهدف، لا تتعامل إيران رسميًا مع مؤسسات الدولة أو المنظمات السياسية في العراق، بل تقوم الاستراتيجية الإيرانية بدلًا من ذلك على تقسيم المنظمات على مكوناتها الفردية وتتعامل مع رؤسائها على انفراد وبشكل مستقل؛ ما ساعد على المساهمة في عدم الاستقرار في العراق واعتماد السياسيين فيه على التوجيهات الإيرانية[٥٥]. وفي هذا الإطار عملت طهران على توجيه الحكومة العراقية وفق أهدافها في الحوار الاستراتيجي المنعقد بين الجانبين الأمريكي والعراقي في ١١ يونيو ٢٠٢٠[٥٦].

- القيام بعمليات تستهدف الولايات المتحدة وحلفائها، كما يتبين من إسقاط طائرة استطلاع أمريكية دون طيار في يونيو ٢٠١٩ [٥٧]، أيضًا تفجير ناقلات ومنشآت نفطية سعودية وإماراتية، وبالفعل كان هجوم "أرامكو" الأكثر إثارة للجدل (المنطقة الرمادية)، ففي ١٤ سبتمبر ٢٠١٩ أعلنت وزارة الداخلية السعودية استهداف معملين تابعين لشركة أرامكو بمحافظة بقيق وهجرة خُرَيص شرقي البلاد بطائرات مسيرة.

واتهم "بومبيو" إيران بتنفيذ الضربات، وحينها وصفت الخارجية الإيرانية هذه الاتهامات بأنها واهية، وفي حين كشف الحوثيون في بيان عن مسؤوليتهم عنها فإن شبكة "سي إن إن" الأمريكية الإخبارية ذكرت بأن الهجوم نفذ من العراق وليس اليمن، في حين أشارت وكالة "الغد برس" أن الهجوم شاركت فيه عشر طائرات، ثمانٍ انطلقت من اليمن، واثنتان من العراق. وفي ٢١ سبتمبر ٢٠١٩، أعلنت السعودية حينها أنها على يقين بأن الهجوم على أرامكو لم يكن من اليمن. وحينها أعلن "ترامب" أن هناك العديد من الخيارات للتعامل مع إيران، بما يشمل الخيار العسكري. بينما هدد "روحاني" بحرب شاملة، في حال توجيه ضربة عسكرية ضد إيران[٥٨].

وبشكل عام مثلت العملية نقلة نوعية لأنها انتقلت من ضرب تجارة النفط في الممرات المائية، لضربها في ومنابع إنتاجها، لتزيد من تكلفة الضغوط الموجهة ضدها بقيادة أمريكا، خاصة أن السعودية تعد الدولة التي تعوض السوق بالنفط، الناتج عن تراجع صادرات إيران النفطية بسبب العقوبات، وبالتالي تراجع حجم إنتاج وتصدير السعودية لفترة ما، يصب في صالح إيران، بحيث يزيد من التكلفة الناتجة عن منع إيران من تصدير نفطها[٥٩]؛ ذلك النفوذ

---

(٥٣) المرجع السابق.

(٥٤) هشام ملحم، سياسة الضغوط القصوى الأمريكية والانتفاضة الإيرانية، مرجع سابق.

(٥٥) بعد تأزم الملف النووي.. الموقف الأوروبي بين المطرقة الأمريكية والسندان الإيراني، المصري اليوم، ١٨ يوليو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/OLOuX

(٥٦) صافيناز محمد أحمد، إيران والحوار الاستراتيجي الأمريكي – العراقي، مختارات إيرانية، العدد ٢١٢، نوفمبر –ديسمبر ٢٠١٩، ص٢٢.

(٥٧) هشام ملحم، سياسة الضغوط القصوى الأمريكية والانتفاضة الإيرانية، مرجع سابق.

(٥٨) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٥٩) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

الذي وظفته إيران أيضًا لأجل الانتقام لمقتل كلّ من سليماني وزعيم ميليشيا «كتائب حزب الله» أبو مهدي المهندس[٦٠].

فقد أعلن التحالف الدولي بالعراق في يناير ٢٠٢٠ عن وقوع هجومين قرب قاعدتين عراقيتين تستضيف قواته، كما أعلن أن قوات التحالف تتعرض لنيران غير مباشرة بالمنطقة الخضراء ببغداد خارج منشآت تابعة للتحالف، كما كشف التحالف بقيادة أمريكا عن سقوط صواريخ قرب قاعدة بلد الجوية، ردا على ذلك أعلن ترامب أنه تم تحديد ٥٢ موقعا إيرانيا سيضربها الجيش الأمريكي إذا استهدفت إيران أي أمريكيين أو أصول أمريكية، كما ألغت الولايات المتحدة خطتها لإجراء تدريبات بحرية لسفينة برمائية هجومية على متنها آلاف من جنود مشاة البحرية في أفريقيا، لتتوجه بدلًا من ذلك إلى الشرق الأوسط في ظل تصاعد التوترات مع إيران[٦١].

المسار الرابع- التخفيف التدريجي للالتزامات النووية، تخلَّت إيران عن بعض قيود الاتفاق، وخفَّفت من التزاماتها النووية تدريجيًا، وشرعت في تعزيز قدراتها على التخصيب، وتخزين المياه الثقيلة، وتطوير أجهزة الطرد المركزي، وأخفت عن الوكالة الدولية بعض أنشطتها، وذلك في وضعٍ يعتبره البعض أسوأ ممّا كان عليه قبل الاتفاق النووي[٦٢].

على سبيل المثال: في يوليو ٢٠١٩ كانت قد أعلنت إيران عن المرحلتين الأولى والثانية من تقليص هذه الالتزامات، تمثلت في تخصيب اليورانيوم بنسبة ٤,٥ %، وهو ما يتجاوز الحد الأقصى المنصوص عليه في الاتفاق البالغ ٣,٦٧%. في ٧ سبتمبر ٢٠١٩، أعلنت إيران بدء المرحلة الثالثة من تقليص التزامها بالاتفاق النووي، حيث بدأت في تشغيل أجهزة طرد مركزي متقدمة وسريعة لتخصيب اليورانيوم عالي الجودة، تمثلت في ٢٠ جهاز طرد من طراز "IR4" و ٢٠ جهاز من طراز "IR6"، وبموجب الاتفاق النووي، يسمح لإيران بتشغيل ما لا يزيد عن ٥٠٦٠ من أجهزة الطرد من طراز "IR1" أقدم وأقل الطرز كفاءة وذلك حتى عام ٢٠٢٦[٦٣]. وفي الخامس من يناير ٢٠٢٠، كشفت طهران عن "المرحلة الخامسة" من برنامجها القاضي بالتخلي عن التزاماتها الدولية بشأن النووي (كرد فعل على اغتيال سليماني)[٦٤].

وبينما تندد الولايات المتحدة والقوى الأوروبية بمثل هذه الخطوات، وتتخذ بشأنها الإجراءات (مع الاختلاف بين الجانبين)، نجد الدعم الصيني والروسي لإيران في الملف النووي والمطالب بضبط النفس وعدم التهويل[٦٥].

المسار الخامس- العمل على التوظيف الإنساني لجائحة كورونا (توجيه الاتهام للولايات المتحدة بالمسئولية): لما كان الاقتصاد الإيراني يترنح تحت وطأة ضغوط الوباء والعقوبات الأميركية وانخفاض أسعار النفط رغم سياسات إيران للتغلب على الأمر، فقد ساءت الأوضاع كثيرًا مع تفشي الوباء، خاصة في ظل تقاعس النظام الإيراني وتغليب حساباته السياسية الداخلية والخارجية، وكان التوظيف على الصعيد الإنساني: حيث تصريحات مسئولين إيرانيين عن مسئولية العقوبات الأمريكية عن تفشي الوباء في بلادهم وإن تلك العقوبات الأمريكية عرقلت جهود طهران

(٦٠) مايكل ت، كوري شيك، ديفيد ديبتولا ، الاستراتيجية الأمريكية تجاه إيران: إعادة إحلال الردع وتمكين الدبلوماسية ، مرجع سابق.

(٦١) الصراع الأمريكي الإيراني يشتعل.. صواريخ مجهولة تضرب محيط سفارة أمريكا بالعراق.. ترامب يهدد إيران بضربة غير مسبوقة.. ، اليوم السابع، ٥ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/tycYZ

(٦٢) أثر رحيل هوك على مسار الضغوط الأمريكية على إيران، مرجع سابق.

(٦٣) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٦٤) مساع دبلوماسية أوروبية لإلزام إيران بالاتفاق النووي دون فرض عقوبات عليها، فرنسا ٢٤، ١٤ يناير ٢٠٢٠: https://cutt.us/BGS3f

(٦٥) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

لمكافحته، لاسيما أن إيران أشد بلدان الشرق الأوسط تضررا، على سبيل المثال صرح الرئيس الإيراني حسن روحاني أن الضغوط الأمريكية على إيران في ظل تفشي وباء كورونا المستجد غير إنسانية. كما قال روحاني خلال مكالمة هاتفية مع رئيس الوزراء الإيطالي جوزيبي كونتي: "في هذه الظروف الصعبة، الضغط الأمريكي على شعب إيران غير إنساني أكثر من أي وقت آخر، واستمراره جريمة همجية ضد شعب عظيم وضد جميع المبادئ الإنسانية والقوانين الدولية"[٦٦].

وهو الاتهام الذي نفاه وزير الخارجية الأمريكي الذي صرح أن "القنوات الإنسانية مفتوحة من جانبنا وإن كانت سياسة أقصى درجات الضغط التي نتبناها لا تسمح بمنح أموال لإرهابيين". كما أعلنت الولايات المتحدة أنها قد اتصلت بإيران في فبراير ٢٠٢٠ عن طريق الحكومة السويسرية لتقول إنها "مستعدة لمساعدة الشعب الإيراني في مواجهة فيروس كورونا"[٦٧].

كما كان توجيه الاتهام للجانب الأوروبي أيضًا، حيث نقل موقع الرئاسة على الإنترنت عن روحاني قوله: "الآلية المالية التي صممتها أوروبا لم تتمكن مع الأسف من اتخاذ خطوة ملحوظة وفعالة أو تلعب دورا"[٦٨]. وإن كان الأمر لم يخل من بعض الإشارات الإيرانية في الرغبة في التهدئة على سبيل المثال، طرح وزير الخارجية الإيراني "جواد ظريف" عام ٢٠١٩ مبادرة للتصديق على البرتوكول الإضافي الذي يتيح لمفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية أكبر عدد من الطرق للتأكد من سلمية البرنامج النووي الإيراني مقابل رفع العقوبات الاقتصادية المفروضة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية[٦٩].

لا شك أن الفاعل الأوروبي كان حاضرًا وسط تلك التطورات، وكان هدفه الأساس الحفاظ على الاتفاق النووي، فما منطلقات تفاعله، وما مساراته، وإلى أي مدى كانت طبيعة علاقته بالولايات المتحدة (سلبية أو إيجابية) موجهة لسياساته؟ هذا يتناوله التقرير في القسم الثاني منه.

القسم الثاني– التفاعلات الأوروبية واختبار العلاقات الأوروبية –الأمريكية

يتناول هذا القسم منطلقات ومحددات الموقف الأوروبي من الأزمة الأمريكية الإيرانية، وبينها طبيعة علاقته بالإدارة الأمريكية، وكيف انعكس ذلك على سياساته تجاه الأزمة، تلك السياسات التي اعتبرت في أغلبها داعمة للموقف الإيراني ومناهضة للسياسات الأمريكية، حتى أشهر ماضية، لتوصف مؤخرًا بأنها قد حدثت بها استدارة تجاه الموقف الأمريكي.

إلا أن التدقيق في الأمر بعض الشيء يكشف وكأن السياسة الأوروبية تجاه الأزمة تتخذ مسارين؛ أحدهما لتخفيف حدة الضغوط القصوى الأمريكية على إيران، والآخر تحذيري وتهديدي إزاء سياسة التصعيد الإيرانية (وقد برز مؤخرًا، بسبب تصاعد الاضطرابات الإقليمية، فضلا عن التهديدات الأمريكية للقوى الأوروبية)... وتريد القوى الأوروبية من ذلك ضمان الحفاظ على الاتفاق النووي من

---

(٦٦) روحاني: الضغوط الأمريكية على إيران أثناء تفشي كورونا غير إنسانية، الوطن، ٢١ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EBTK8

(٦٧) جوناثان ماركوس، فيروس كورونا: هل يصلح الوباء بين الولايات المتحدة وإيران؟، بي بي سي العربية، ١٩ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/hOXyY

(٦٨) روحاني: الضغوط الأمريكية على إيران أثناء تفشي كورونا غير إنسانية، مرجع سابق.

(٦٩) انظر الآتي:

- مرفت زكريا، مواقف متصاعدة ... إيران بين المبادرة الروسية والتحالف الأوروبي الأمريكي في الخليج، المركز العربي للبحوث والدراسات، ٣ أغسطس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dTBuz
- تحديات عديدة: لماذا طرحت طهران التصديق على البرتوكول الإضافي؟، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ٢٨ يوليو٢٠١٩، متاح على الرابط التالي: https://cutt.us/lK43v

جانب، وضمان عدم جر الإقليم الشرق أوسطي إلى مغامرات غير محسوبة تضر بمصالحها المتضررة بالأساس نتيجة الصراعات الداخلية بدول المنطقة، ومن ثم تخسر المزيد من توازنها أمام القوة الأمريكية. ويفصل التقرير في كل من المنطلقات والمسارات فيما يلي.

أولا- منطلقات الموقف الأوروبي من الأزمة الأمريكية – الإيرانية:

بداية تجدر الإشارة إلى أن الموقف الأوروبي الرافض لهذه الدرجة من التصعيد الأمريكي والداعم لبقاء الاتفاق النووي لا ينفصل عن مواقف دولية أخرى كروسيا والصين والهند واليابان (وإن اختلفت تفاصيل الدوافع والمنطلقات وتصور حلول الأزمة)[٧٠].

وبشأن الطرف الأوروبي محل التناول، تعد طبيعة العلاقة بين الطرف الأوروبي والإدارة الأمريكية محددًا أساسيًا في مدى القدرة الأوروبية على رسم وتنسيق السياسات بشأن الملف الإيراني. لقد كانت السياسات الأوروبية فى عهد الإدارات الأمريكية السابقة انعكاس لدرجة التوافق بينهم خصوصًا الملفات المتعلقة بالأمن، وقد انعكس وجود درجة كبيرة من التوافق للإرادات الأوروبية والأمريكية في توقيع الاتفاق النووي الإيراني فى صيف ٢٠١٥ في ظل إدارة أوباما. ومن ثم فى ظل حالة التمايز الواضح بين الرؤى والتصورات الأوروبية ونظيرتها الأمريكية تجاه إيران بعد وصول ترامب للبيت الأبيض، اختلف الأمر[٧١].

فهناك خلاف في استراتيجية التعامل مع إيران بين الطرفين الأوروبي والأمريكي، فبينما تسعى الولايات المتحدة إلى تعديل سلوك إيران من مدخل صفقة شاملة تتضمن تعديلا في الجوانب الفنية للاتِّفاق النووي، فضلا عن إلزام إيران بإدخال تعديلات على سياساتها العسكرية واستراتيجيتها الخارجية، فإن الطرف الأوروبي (خاصة أعضاء الترويكا) كانت لديهم استراتيجية للتعامل مع قضايا الخلاف كل على حدة. ذلك لاسيما مع إدراك أن ما تريده الولايات المتحدة جملة واحدة يعدّ بالنسبة لصانع القرار الإيراني خسارة استراتيجية فادحة قد تنهي شرعية النظام وتقلص نفوذ إيران الإقليمي سياسيًا واقتصاديًا[٧٢].

ومن ثم –وكما أشير– فقد كان لدى الأوروبيين تحفُّظ كبير على الانسحاب الأمريكي من الاتِّفاق النووي، بل كان العمل على وضع آليات يمكن من خلالها تقليل أثر هذا الانسحاب الأمريكي، وتضع وسائل لمواجهة العقوبات المتوقعة التي قد تطال بعض شركاء إيران الأوروبيين سواء من الدول أو الشركات (وسنفصل في ذلك في الجزئية التالية)[٧٣].

من ثم وعلى جانب آخر، لا يمكن تجاهل طبيعة العلاقات بين الجانبين الأوروبي والأمريكي والنظام الإيراني كمحدد، فلم تكن العلاقات الثنائية بين إيران والاتحاد الأوروبي علاقة تصادمية فى معظمها بل إنها كانت مغايرة فى الكثير من الأحيان للسياسة الأمريكية؛ حيث فيما كانت السياسة الأمريكية تعمل بصورة كاملة فى اتجاه يتسم بالمقاطعة الاقتصادية والحصار والعزلة لإيران، فقد بذل الاتحاد الأوروبي جهودًا ملحوظة لإحداث مزيد من التقارب مع إيران، (ولذلك أسبابه التي تنقلنا لمجموعة أخرى من المحددات تتعلق بالمصالح الأوروبية الإقليمية)[٧٤].

ولا يعني ذلك إغفال التمايزات الأوروبية النسبية فيما يتصل بمدى التقارب مع الجانبين الأمريكي والإيراني، على سبيل المثال: تميل الحكومة الألمانية تقليدياً نحو موقف

(٧٠) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

(٧١) مصطفى محمد صلاح، إيران بين التقارب الأوروبي والقطيعة الأمريكية، المركز العربي للبحوث والدراسات، ١٣نوفمبر٢٠١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/2h6Ss

(٧٢) محمود حمدي أبو القاسم، الرهان الأمريكي على أزمات الداخل في إيران، مرجع سابق.

(٧٣) المرجع السابق.

(٧٤) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

مُستقِل عن الولايات المتحدة، كما لا يمكن تجاهل دور اللوبي الإيراني المتمثل في نواب من أصول إيرانية في البرلمان الألماني في رأب الصدع بين إيران وألمانيا، ومحاولة إنتاج موقف ألماني لا يضرب المصالح الإيرانية. ووفق ذلك يفسر عدم اتخاذ الحكومة الألمانية موقف قوي من النظام الإيراني على غرار الموقف البريطاني والفرنسي فيما يتعلق بالتعامل مع الاحتجاجات الشعبية[٧٥]. ذلك بخلاف الموقف البريطاني الذي يميل أغلب الأحيان للسياسات الأمريكية، سواء فيما يتصل بإيران أو غيرها (الحرب على العراق خير مثال). وإن كان الموقف البريطاني ظل طوال فترة حكم تريزا ماى قريبا من الموقف الفرنسي والألماني وبعيدا عن الولايات المتحدة، حيث رفضت لندن الخروج من الاتفاق النووي (حتى رغم البريكست)، وشاركت بريطانيا في كل الاجتماعات حول تفعيل آلية "أنستكس" الاقتصادية، إلا أنه مع تولي بوريس جونسون رئاسة الحكومة حدث تحول نسبي ضد إيران؛ حيث قامت لندن بعدد من الخطوات ضد طهران، أبرزها دعم الحملة الأمريكية على مليشيات إيران في العراق[٧٦].

وبشأن المصالح الأوروبية السياسية والاقتصادية بالشرق الأوسط ومع إيران، والتي يتولد عنها رغبة القوى الأوروبية في الحفاظ على الاستقرار، فالاتحاد الأوروبي علاوة على الاستفادة من مصادر الطاقة الإيرانية (النفط الإيراني، عالي الجودة ومنخفض التكلفة) وتحقيق بعض المصالح الاقتصادية والاستثماراتها مع إيران[٧٧] وتعزيز صادرات سلعه الصناعية من خلال توسيع العلاقات الاقتصادية مع إيران في وقت سجّلت معدّلات النموّ الأوروبية أرقاماً منخفضة على مدى العقد المنصرم[٧٨]، فضلا عن ذلك يستطيع الاستفادة من مكانة إيران الجغرافية والسياسية والاستراتيجية لإقامة نوع من توازن النفوذ في منطقة الشرق الأوسط مع الولايات المتحدة[٧٩].

على جانب آخر تخشى أوروبا عدد من التهديدات التي قد يرتبها انهيار الاتفاق النووي، على سبيل المثال، أولاً تهديد الممرات المائية، التي يصل من خلالها النفط إليها. فبخلاف الولايات المتحدة، تعتمد أوروبا في جزء كبير من احتياجاتها للطاقة على الخارج. ثانياً، تخشى من أن يؤدي انهيار الاتفاق لامتلاك إيران سلاحاً نووياً، دون القدرة على التوصل لاتفاق جديد. كما تخشى من أن تؤدي الأزمة لحرب أو تصعيد عسكري، يزيد من معضلة اللاجئين في الداخل الأوروبي[٨٠].

وفي هذا الإطار، أيّد تقرير الاستراتيجية العالمية للاتحاد الأوروبي الصادر بعد عام واحد على توقيع خطّة العمل الشامل والمشترك، التزاماً متوازناً: بمعنى أنه سيتابع الاتّحاد الأوروبي التعاون مع مجلس التعاون الخليجي والبلدان الخليجية منفردة. وانطلاقاً من الاتّفاق النووي الإيراني وعملية تنفيذه، سيُشرك الاتّحادُ الأوروبي أيضاً تدريجياً إيران في مجالات مثل التجارة والأبحاث والبيئة والطاقة ومكافحة الاتّجار والهجرة والتبادلات المجتمعية. ذلك بما يعزّز الحوارَ مع إيران وبلدان مجلس التعاون الخليجي حول الصراعات الإقليمية وحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب، سعياً لتفادي

---

(٧٥) تعارُض المواقف الأوروبية من تطبيق آلية فضّ الخلاف مع إيران: الأسباب والسيناريوهات، مركز الإمارات للسياسات، ١٩ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cjiIE

(٧٦) د.أيمن سمير، إيران والاستدارة الأوروبية الكاملة.. أسباب وتداعيات، العين، ١٢ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/6EkcQ

(٧٧) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٧٨) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران: التعامل مع أزمة ثنائية، بروكنجز، ٢٢ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/IRYFG

(٧٩) مصطفى محمد صلاح، إيران بين التقارب الأوروبي والقطيعة الأمريكية، مرجع سابق.

(٨٠) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

انتشار عدوى الأزمات القائمة ومعزّزاً التعاون والدبلوماسية[٨١].

لكن هل يعني ذلك ثبات المواقف المطلق؟ إن تلك المنطلقات ذاتها التي تجعل أوروبا تتخذ مواقفة هادئة إزاء إيران هي التي تدفع إلى العكس أحيانًا، كما بدا مؤخرًا (وسنفصل فيما بعد في السلوك الأوروبي في المسارين). إن الأمر يتوقف على مدى استجابة السياسة الإيرانية للمتطلبات الأوروبية، خاصة فيما يتعلق بالتأثير في السياسات الإقليمية وتوازنات القوى؛ لذا فكما أن الاتحاد الأوروبي عمل على تقليص حدة الضغوط الأمريكية على إيران وجعل علاقته مع إيران أكثر حضورًا، إلا أنه لا يخفى أن الاتحاد الأوروبي في بعض الأحيان تبنّى سياسة أكثر حدة من التي تتبناها الولايات المتحدة خاصة فيما يخص البرامج النووية الإيرانية[٨٢].

وهو ما نلاحظه في المرحلة الراهنة؛ نظرا لبعض الحسابات الأوروبية والسياسات الإيرانية، حيث الطريقة التي تتعامل بها إيران إقليميًا كدعم القصف الحوثي لدول الخليج المستمر، والخطورة التي تسببها إيران لدول المنطقة والعداء المستمر لها. وشن الهجمات المتكررة وكذلك الاستمرار في دعمها للميليشيات بحزب الله، إلى جانب الطائفية التي تؤسس لها إيران في العراق، ونهب الثورات الخاصة بالعراق[٨٣]؛ بما يعني أن السياسات الإيرانية لم تعدّ متوائمة مع ما سبق الإشارة إليه من منطلقات وجهت المواقف الأوروبية الرافضة للتعنت الأمريكي. ذلك فضلا عن أنه من الأساس لا يمكن تجاهل اختلاف بين مواقف القوى الأوروبية بين متشدّد تمثله بريطانيا وفرنسا، وموقف متفهم للموقف الإيراني تمثله ألمانيا.

ثانيًا- مسارات الاستراتيجية الأوروبية (التقارب والتباعد مع الولايات المتحدة):

وقفت أوروبا موقفًا حرجًا بين طرفي الأزمة، واللذان عولا عليها في استراتيجيتهما. فبينما عولت إيران على الدور الأوروبي في إجهاض استراتيجية ''ترامب''، وتقليل فاعلية العقوبات، فقد عوّل الأخير على الدور الأوروبي في كبح جماح إيران، ومنعها من تطوير قدراتها النووية، في ظل العقوبات التي يفرضها عليها. لكن ما حدث أنه لم تستطع دول أوروبا تجاوز العقوبات الأمريكية، ودعم إيران اقتصاديا بالشكل الذي يرضيها، وهو ما ترتب عليه فشلها في منع إيران من تطوير قدراتها النووية، بعد أن واصلت تقليص التزاماتها النووية[٨٤]. وبشكل عامّ فالأمر أصبح في حدّه الأدنى؛ محاولة الأوروبيين تجنب الاصطدام بإدارة ترامب المتشدّدة من ناحية، لكنهم من ناحية أخرى يبعثون بالتطمينات للإيرانيين ويحثونهم على التمسك بالاتفاق النووي بالرغم من ضغوطات إدارة ترامب، وفي الوقت نفسه ردعهم في حال تجاوز التصعيد[٨٥].

وقد قامت الاستراتيجية الأوروبية الداعية للتهدئة على ما يلي:

المسار السياسي: منذ بداية التغير في الموقف الأمريكي مع مجيء ترامب حث الاتحاد الأوروبي أعضاء الكونجرس الأمريكي على عدم العودة لفرض العقوبات على طهران. وقال وزراء خارجية الاتحاد المجتمعون في لوكسمبورج عام ٢٠١٧ إن عدم احترام اتفاق دولي دعمه مجلس الأمن

(٨١) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران: التعامل مع أزمة ثنائية، مرجع سابق.

(٨٢) مصطفى محمد صلاح، إيران بين التقارب الأوروبي والقطيعة الأمريكية، مرجع سابق.

(٨٣) باحث يكشف عوامل تحول الموقف الأوروبي تجاه الاتفاق النووي مع إيران – فيديو، ٦ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TuqIS

(٨٤) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٨٥) الأوروبيون وعقوبات ترامب على إيران، مرجع سابق.

قد يكون له عواقب وخيمة على السلام الإقليمي، وقد يقوض جهود كبح الطموحات النووية لكوريا الشمالية[٨٦].

أيضًا قامت الأطراف الأوروبية بجهود للوساطة، على سبيل المثال: في يوليو ٢٠١٩، أكدت المفوضة العليا لشؤون الأمن والسياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي فيديريكا موغيريني في زيارة لها إلى بغداد، بعد أن التقت مع رؤساء البرلمان والجمهورية والحكومة العراقية، ، فيما يتعلق بالتصعيد، بعد أن أبلغت القيادة العراقية دعم الاتحاد الأوروبي للدبلوماسية العراقية، في مساعيها لاحتواء هذا التصعيد بين إيران والولايات المتحدة محذرة من عواقب حدوث مغامرة خطيرة، وذلك على خلفية احتجاز الناقلة النفطية الإيرانية التي تهرب النفط إلى سوريا[٨٧].

أعلنت ألمانيا في ٣٠ أغسطس ٢٠١٩ أن الدول الأوروبية ستكثف الجهود الدبلوماسية لإنقاذ الاتفاق النووي، وذلك بعد إجراء محادثات مع فرنسا وبريطانيا.

أيضًا جهود الوساطة التي قامت بها فرنسا، من أجل إنقاذ الاتفاق النووي ومنع إيران من الخروج منه من ناحية، ودفع الطرفين الإيراني والأمريكي لطاولة الحوار من ناحية أخرى[٨٨]؛ ذلك أن فرنسا تدرك أن الرئيس الأمريكي لن يخوض مغامرة عسكرية في سنة انتخابية، كما تدرك فرنسا أن إيران لا تريد، بدورها، مغامرة عسكرية، ستكون كارثية بالنسبة لها على كافة المستويات[٨٩]. حيث إنه في عام ٢٠١٩ وحتى خلال فترة التوتر التي عقبت إسقاط طائرة الاستطلاع الأمريكية، طرح ترامب خيار عقد اجتماع مع الرئيس الإيراني حسن روحاني خلال زيارته إلى الأمم المتحدة في سبتمبر للمشاركة في أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة. وعلى خط متوازٍ طرح الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إمكانية توسطه لجمع ترامب وروحاني بشكل غير رسميّ خلال وجودهم في الأمم المتحدة. ولكن هذه الطروحات وصلت إلى طريق مسدود لأكثر من سبب من بينها معارضة المرشد الإيراني علي خامنئي، وإصرار إيران على تراجع واشنطن عن بعض العقوبات، وهو ما رفضته إدارة ترامب. وقد زالت احتمالات عقد مثل هذا اللقاء بسبب ضربة أرامكو، واستبعاد الطرفين هذا الخيار من حساباتهما[٩٠].

كذلك إعلان رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون في ٢٣ سبتمبر ٢٠١٩، خلال الجلسة الـ ٧٤ للجمعية العامة للأمم المتحدة، ضرورة التوافق حول الخلافات الأمريكية الإيرانية ووضع حد للتوترات المتزايدة بين الولايات المتحدة وحلفائها من جانب وإيران من جانب آخر حول أنشطتها النووية ودورها الإقليمي في المنطقة العربية، وعلى الرغم من ذلك فقد أكد رئيس وزراء بريطانيا جونسون، إنه بغض النظر عن آراء الجميع بشأن الاتفاق النووي بين إيران والقوى العالمية فقد حان الوقت للتفاوض على اتفاق جديد[٩١].

---

(٨٦) للمزيد، انظر:
- مصطفى محمد صلاح، إيران بين التقارب الأوروبي والقطيعة الأمريكية، مرجع سابق.
- الاتحاد الأوروبي يدافع عن الاتفاق النووي الإيراني رغم موقف ترامب، رويترز، ١٦ أكتوبر ٢٠١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/90c1g

(٨٧) ما هو الموقف الأوروبي الحقيقي من التصعيد الإيراني الأمريكي؟، إذاعة مونتكارلو الدولية، ١٤ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/J1RvX

(٨٨) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٨٩) ما هو الموقف الأوروبي الحقيقي من التصعيد الإيراني الأمريكي؟، مرجع سابق.

(٩٠) هشام ملحم، سياسة الضغوط القصوى الأمريكية والانتفاضة الإيرانية، مرجع سابق.

(٩١) مصطفى صلاح، تجاذبات متعددة .. الاتحاد الأوروبي ومستقبل الاتفاق النووي، المركز العربي للبحوث والدراسات، ٢٩ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/akIZi

كذلك اتبعت أوروبا سياسة الصبر الاستراتيجي والاحتواء مع إيران، على سبيل المثال: لم تتهم الدول الأوروبية الثلاث صراحة الحكومة الإيرانية بالوقوف وراء الهجمات الخطيرة التي شهدتها منطقة الخليج قبالة ميناء الفجيرة في ١٢ مايو ٢٠١٩، وبعدها التحرش الإيراني بالسفن التجارية في ١٣ يونيو ٢٠١٩، وتعاملت بريطانيا والدول الأوروبية "بصبر استراتيجي" مع خطف السفينة البريطانية "ستينا إمبيرو" رداً على احتجاز سفينة إيرانية خرقت الحظر المفروض على بيع النفط للحكومة السورية، وقد سبقت الإشارة إلى تلك الوقائع"(٩٢).

وكان التحذير من المخاطر ومحاولة استباقها سمة أساسية للسياسة الأوروبية، فقد عقد وزراء خارجية فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا اجتماعاً، في بروكسل لبحث الملفّ الإيراني بحضور وزير خارجية الاتحاد الأوروبي جوزيب بوريل، بعد أربعة أيام على اغتيال قاسم سليماني لمناقشة التوتر بين الولايات المتحدة وإيران عقب الاغتيال(٩٣).

في هذا الإطار وذات التوقيت أيضًا صرح مسؤول السياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي جوزيب بوريل إنه يأسف لإعلان إيران التخلي عن التزامات بموجب الاتفاق النووي المبرم عام ٢٠١٥ (كردّ فعل على حادث الاغتيال). وقال بوريل إن الاتحاد الأوروبي سيعتمد على تقييم الوكالة الدولية للطاقة الذرية للتدقيق في التزام إيران بالاتفاق؛ ليؤكد أن "التطبيق الكامل للاتفاق النووي من الجميع الآن أهم من أي وقت مضى من أجل الاستقرار الإقليمي والأمن العالمي"(٩٤).

المسار الاقتصادي: تجدر الإشارة إلى أنه بمجرد توقيع الاتفاق النووي الإيراني والبدء فى رفع العقوبات على إيران بدأت تتوافد على طهران ممثلي العواصم الأوروبية، وكان تدفق الاستثمارات والتبادل التجارى بين إيران والدول الأوروبية. وجاء التبادل الاقتصادى بين إيران وأوروبا بفائدة للجانبين؛ وذلك في محاولة لمعالجة التعثّر الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها أوروبا منذ الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨، وعلى الجانب الآخر رغبة إيران فى الحصول على فرص أكبر للتبادل التجاري (كما سلف الذكر) خاصة بعد الإفراج عن الأموال المجمّدة لها فى البنوك الأوروبية، كما تعتبر إيران صاحبة ثالث أكبر احتياطي للغاز، ورابع أكبر احتياطي نفطي في العالم. وتحرص أوروبا على الحصول على إمدادات من إيران كبديل للواردات من روسيا(٩٥).

أما عقب الانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي، فقد استمرت السياسة الاقتصادية الأوروبية على النهج ذاته، حيث تمسك الاتحاد الأوروبي باستمرار علاقاته الاقتصادية مع ايران التي حققت معدلات نمو سريعة خلال الفترة ٢٠١٥ –٢٠١٧ بلغت ٥,٨ في المئة(٩٦).

وكان بحث استخدام قنوات دفع جديدة بعيدا عن نظام الدفع الأمريكي، وكان الإعلان عن آلية "إنستكس" المالية، وقد أنشأتها كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا نهاية يناير ٢٠١٩، وهي تقوم على تسهيل التبادلات التجارية مع إيران وتفادي العقوبات الأمريكية عبر الاستغناء عن استخدام الدولار في تسوية الصفقات، أو المرور عبر شبكة التحويلات المالية "سويفت"، ذلك فضلا عن حماية الشركات الأوروبية العاملة في إيران من العقوبات

(٩٢) د.أيمن سمير، إيران والاستدارة الأوروبية الكاملة.. أسباب وتداعيات، مرجع سابق.

(٩٣) ما محددات الموقف الأوروبي بعد التصعيد الأمريكي–الإيراني؟، التركية العربية، ٧ يناير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/JzRM5

(٩٤) المرجع السابق.

(٩٥) مصطفى محمد صلاح، إيران بين التقارب الأوروبي والقطيعة الأمريكية، مرجع سابق.

(٩٦) المرجع السابق.

الأمريكية[٩٧]، والاسم هو اختصار لما يعرف بـ "أداة دعم المبادلات التجارية مع طهران"[٩٨].

وقد انعكس التخوف الأمريكي من الإجراءات الأوروبية في عدد من التصريحات الرسمية وغير الرسمية؛ إذ ذكر مستشار غير رسمي لإدارة ترامب لوكالة "أسوشيتد برس" أن لدى البيت الأبيض عدة نقاط مقلقة بخصوص الآلية المالية الجديدة، وهي تتعلق بإمكان أن تكون قادرة على التنافس بشكل فعال مع الآلية المصرفية الدولية الحالية ''سويفت'' كما يقلقها كذلك أن تستخدم دول أخرى خارج أوروبا الآلية الجديدة للحفاظ على تعاونها مع طهران. أما النقطة الثالثة فتعود إلى احتمال استغلال الآلية لتنفيذ عمليات خارج المجال الإنساني، رغم الوعود الأوروبية[٩٩].

ولضمان الفاعلية حدّث الاتّحاد الأوروبي معايير الإقراض الخارجي التابع لبنك الاستثمار الأوروبي من خلال منح إيران أهليّة القيام بأنشطة استثمارية. غير أنّ السياسيّين الأوروبيّين لا يتمتّعون بالقوّة الكافية لإجبار الجهات الفاعلة الاقتصادية الأوروبية على القيام بأنشطة تجارية مع إيران نظراً إلى تهديد العقوبات الأمريكية. وقد سبق أن أوقفت الكثير من الشركات الأوروبية أنشطتها مع إيران خوفاً من الغرامات الأمريكية. ومن ثم فمن أجل أن يستمرّ الالتزام الاقتصادي الأوروبي مع إيران، على الاتّحاد الأوروبي أن ينشئ قنوات تسديد معزولة عن الدائرة المالية التي تخضع للهيمنة الأمريكية[١٠٠].

ورغم تلك الصعوبات، لم تكن هذه الآلية أبدا مرضية للطرف الإيراني منذ البداية حين أعلن البنك المركزي الإيراني، أنه سيعمل على تأسيس كيان للتعاون مع الآلية

(٩٧) طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.

(٩٨) الأوروبيون وعقوبات ترامب على إيران، مرجع سابق.

(٩٩) المرجع السابق.

(١٠٠) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران، مرجع سابق.

المالية الأوروبية، مؤكدا في الوقت ذاته، أن هذه الآلية هي: "أقل بكثير من الالتزامات الأوروبية لمنع انهيار الاتفاق النووي"؛ وهو الأمر الذي أعاد التأكيد عليه مسئولون إيرانيون مع تفشي كورونا في بلادهم[١٠١]. بل إن إيران عرقلت هذه الآلية برفضها وقف تمويل مليشياتها في المنطقة، خاصة حزب الله والحوثيين ومليشيا الحشد الشعبي في العراق، علما أن هذه المليشيات خاصة حزب الله موجودة على اللائحة الأوروبية للمنظمات الإرهابية[١٠٢].

كذلك هناك **المبادرة الفرنسية** المتمثلة في قرض أوروبي لإيران بقيمة ١٥ مليار دولار، مقابل الالتزام بتعهداتها تجاه الاتفاق النووي وتقديم ضمانات بشأن مضيق هرمز، وأنها تقبل بذلك فقط مقابل بيع نفطها. وفي ١٢ سبتمبر، أعلنت صحيفة "ديلي بيست" الأمريكية عن انفتاح "ترامب" على المقترح الفرنسي. وفي ١٥ سبتمبر، أعلنت إيران عن موافقة الدول الأوروبية على إيداع ١٥ مليار دولار في آلية "أنستكس" على ثلاث دفعات؛ لتجارة النفط[١٠٣].

وكان تفسير تلك التوجهات الفرنسية أن الهامش الضيق الذي تحاول الدبلوماسية الفرنسية التحرك في إطاره هو موافقة أمريكية على بعض الاستثناءات في تسويق النفط الإيراني، مقابل عودة الإيرانيين عن بعض التجاوزات التي قاموا بها للاتفاق النووي، والمساعي الفرنسية لا تنبع من النوايا الطيبة وإنما الرغبة في علاج بعض الاختلالات التي أصابت أوروبا سياسيًا واقتصاديًا جراء نظام العقوبات

(١٠١) الأوروبيون وعقوبات ترامب على إيران، مرجع سابق.

(١٠٢) د.أيمن سمير، إيران والاستدارة الأوروبية الكاملة، مرجع سابق.

(١٠٣) انظر الآتي:

- طارق دياب، تطورات الأزمة الإيرانية واستراتيجيات الأطراف الفاعلة، مرجع سابق.
- ١٥ مليار دولار وضمانات بشأن هرمز.. هذه أبرز بنود المبادرة الفرنسية بشأن إيران، الجزيرة، ٤ سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/IMf5Q

الأمريكي[١٠٤]. كذلك تجدر الإشارة إلى أن أوروبا قد قامت بدور رئيس في تحديث البنية التحتية الصناعية لإيران[١٠٥].

على الجانب المقابل، يمكن رصد بعض المؤشرات على تخوف الموقف الأوروبي في كثير من الأحيان إزاء السلوك الإيراني –على نحو ما ذكر– حتى بدا مؤخرا أن هناك شيئا من التحول في الموقف الأوروبي:

- التصريحات الرافضة للسياسة الإقليمية الإيرانية وتجاوزاتها وما تسببه من خلل أمني_ على سبيل المثال، رغم التخوف الأوروبي من تداعيات اغتيال سليماني، إلا أن ذلك لم يخف موقفها إزاءه، حيث كان لافتاً أن ألمانيا التي لها علاقات خاصة مع إيران هي أول دولة في الاتحاد الأوروبي تؤيد قتل قاسم سليماني، بل اعتبرت برلين سليماني مصدرا لعدم الاستقرار في الشرق الأوسط. وهو ما دفع الحكومة الإيرانية لاستدعاء القائم بالأعمال الألماني في طهران. "كما وقف وزير الخارجية الفرنسي جان إيفل ودريان بجانب الولايات المتحدة في قتل سليماني واتهم إيران ومليشياتها وسليماني بأنهم وراء عدم الاستقرار في الشرق الأوسط، كما اتهم إيران بتقويض الحرب على الإرهاب في المنطقة"[١٠٦].

ولا شك أن هذا الموقف يعود لأن الحرس الثوري الإيراني لم يهاجم القوات الأمريكية فقط في قاعدتي عين الأسد وحرير في كردستان العراق، بل استهدف قوات التحالف الدولي بالكامل، وهو ما دفع بريطانيا لإرسال

(١٠٤) ما هو الموقف الأوروبي الحقيقي من التصعيد الإيراني الأمريكي؟، مرجع سابق.

(١٠٥) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران، مرجع سابق.

(١٠٦) د.أيمن سمير، إيران والاستدارة الأوروبية الكاملة، مرجع سابق.

مزيد من القوات للعراق والمنطقة، في حين قلصت ألمانيا عدد مستشاريها العسكريين، وقامت فرنسا بإجراءات احترازية جديدة لحماية قواتها وقواعدها العسكرية في المنطقة[١٠٧].

- أعلنت الترويكا الأوروبية في فبراير ٢٠٢٠ في بيان لها أنها تقوم بتفعيل آلية فض الخلاف، والتي ينص عليها الاتفاق النووي في حال تنصَّل أحد الجانبين عن التزاماته. وجاء ذلك تحت وطأة التصعيد الإيراني (الهجمات العسكرية، والتنصل من الالتزامات النووية) والتهديد الأمريكي. حيث كان وزير الدفاع الألماني أكد أن لجوء الثلاثي الأوروبي إلى تفعيل آلية فض الخلاف جاء بعد أن هدّد الأمريكان الجانب الأوروبي بفرض رسوم جمركية بنحو ٢٥ في المائة على السيارات الأوروبية في حال لم يقم الثلاثي بتفعيل الآلية. وقد أكدت فرنسا على لسان الرئيس إيمانيول ماكرون أن العالم لن يقف مُتفرِّجاً إزاء التهور النووي الإيراني، وأن هناك حاجة إلى اتفاق يتضمن زوايا جديدة، على رأسها البرنامج الصاروخي الإيراني.

وفي ظل هذا التصعيد الأوروبي، أظهرت إيران سَخَطاً من الموقف الأوروبي؛ إذ أعلن وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف أن الاتحاد الأوروبي باع استقلاليته ومكانته وخضع لابتزاز من الولايات المتحدة[١٠٨]. رغم ذلك أعلن ممثل الاتحاد للشؤون الخارجية، الإسباني جوزيب بوريل، أن الاتحاد الأوروبي الذي قام بتفعيل "آلية فض الخلاف" قرر منحها مهلة مفتوحة تفاديًا لإحالة الملف الإيراني إلى مجلس الأمن مما يعني "نهاية الاتفاق النووي"[١٠٩].

- الموقف من تمديد حظر الأسلحة على إيران: ومثل هذا الأمر تحديداً المحور الأساسي للخلافات الأمريكية–الأوروبية في التعامل مع إيران خلال الفترة

(١٠٧) المرجع السابق.

(١٠٨) تعارُض المواقف الأوروبية من تطبيق آلية فضّ الخلاف مع إيران، مرجع سابق.

(١٠٩) المرجع السابق.

الماضية. إذ لم تؤيد الدول الأوروبية بادئ الأمر مشروع القرار الذي تقدمت به الولايات المتحدة الأمريكية في مجلس الأمن في ١٥ أغسطس ٢٠٢٠، وسعت من خلاله إلى تمديد الحظر المفروض على إيران في مجال الأسلحة الثقيلة، والذي لم تدعمه سوى جمهورية الدومينيكان فقط، كما رفضت قيام واشنطن في ٢٠ سبتمبر الفائت، بتفعيل آلية "الزناد" أو العودة التلقائية للعقوبات الدولية التي كانت مفروضة على إيران قبل الوصول للاتفاق النووي ورفعت بمقتضى القرار ٢٢٣١.

اللافت في هذا السياق أنه بالتوازي مع رفض أوروبا تمديد الحظر الأمني المفروض على إيران في مجال الأسلحة الثقيلة، كان هناك إصرار من جانبها على استمرار العمل بحظر توريد الأسلحة الذي يفرضه الاتحاد الأوروبي حتى عام ٢٠٢٣ [١١٠]. وطبقاً لتلك الرؤية، إيران ليست لديها السيولة المالية الكافية لإبرام صفقات عسكرية نوعية مع روسيا أو الصين[١١١]. أيضًا تعتبر أوروبا أن الاستحقاق الأهم من الأسلحة الثقيلة، يتمثل في الحظر المفروض على الصواريخ الباليستية، الذي من المتوقع، وفقاً للاتفاق النووي، رفعه في عام ٢٠٢٣، باعتبار أن هذه الصواريخ هى القادرة على تهديد المصالح الأمريكية والأوروبية بشكل مباشر[١١٢].

كما حاولت أوروبا عبر هذه السياسة تأكيد أنها ما زالت ملتزمة باستمرار العمل بالاتفاق النووي، وهي رسالة تحاول الدول الأوروبية توجيهها إلى إيران تحديداً، ومفادها أن الالتزام بالاتفاق هو الشرط الأساسي لمواصلة تطبيقه، وذلك في إطار محاولاتها إقناع طهران بالعدول عن خطواتها التصعيدية المتتالية. لكن هذه المحاولات لم تحقق نجاحاً يذكر في دفع إيران إلى تغيير موقفها[١١٣].

الأمر الذي دفع الترويكا الأوروبية مؤخرا إلى إعلان معارضتها رفع حظر الأسلحة عن إيران، موجهة تحذيراً لطهران من أن "عدم التراجع عن خروقاتها للاتفاق النووي قد يعرض هذا الاتفاق للخطر". وكتب وزراء الخارجية الثلاثة في إعلان مشترك، نرى أن رفع الحظر المقرر في أكتوبر ٢٠٢٠ الذي تفرضه الأمم المتحدة على الأسلحة التقليدية والذي وضع بموجب القرار ٢٢٣١، يمكن أن تكون له آثار كبيرة على الأمن والاستقرار الإقليميين"، علما أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية أيضًا قد تبنّت مؤخرًا قراراً ينتقد إيران بشأن برنامجها النووي[١١٤].

- انتقادات بشأن حقوق الإنسان: على سبيل المثال، ساءت العلاقات بين طهران والاتحاد الأوروبي، بسبب إعدام الصحفي روح الله زام، الذي سبق أن مُنح حق اللجوء السياسي في فرنسا. تجدر الإشارة إلى أن إعدام زام ليس أول عمل مزعج للاتحاد الأوروبي من هذا النوع تقوم به سلطات الجمهورية الإسلامية في السنوات الأخيرة. فقد حكم على الباحث في علم الاجتماع، البريطاني من أصل إيراني، كميل أحمدي، بالسجن تسع سنوات. وقد كان أحد مصادر المعلومات للمنظمات الدولية حول أوضاع حقوق الإنسان في إيران. (من التفسيرات أنه ربما قررت السلطات الإيرانية التشدد إزاء الاتحاد الأوروبي من أجل التعبير عن عدم رضاها بشأن الدعم السياسي والاقتصادي الأوروبي)[١١٥].

---

(١١٠) مرفت زكريا، مأزق حظر السلاح... والصراع الأمريكي – الإيراني، مختارات إيرانية، العدد٢١٢، نوفمبر –ديسمبر ٢٠١٩، ص٢٩.

(١١١) كيف تتعامل أوروبا مع رفع حظر الأسلحة على إيران؟، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ١١ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rW1K

(١١٢) المرجع السابق.

(١١٣) المرجع السابق.

(١١٤) محمد الجنون، الدول الأوروبية تقترب من سياسة أمريكا اتجاه إيران.. هل من خطوات مُقبلة؟، أخبار الآن، ٢٣ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ZHyfw

(١١٥) الاتحاد الأوروبي سيعاقب إيران على إعدام الصحفي، روسيا اليوم، ١٦ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QEKYD

● وفي تقييم عام للسياسات الأوروبية إزاء الأزمة الأمريكية الإيرانية، نجد أنها لم تتمكن من تحقيق كل أهدافها، وإن لم يسقط الاتفاق النووي حتى هذه اللحظة، فثمة تحديات سياسية واقتصادية تتعلق في جانب ليس بقليل منها باختلال موازين القوى لصالح الولايات المتحدة، فليس بمقدور الاتّحاد الأوروبي أن يتجاهل سياسة الولايات المتّحدة على الرغم من أنّ هدفه المعلَن هو أن يشقّ مساره الخاصّ في ما يتعلّق بسياسة إيران.

مثلا: من الناحية الاقتصادية، قللت العقوبات الأمريكية المعاد فرضها من جدوى الالتزام الأوروبي الاقتصادي مع إيران، نظراً إلى الهيمنة الأمريكية في النظام المالي الدولي (فاليورو لا يمكن أن يكون بديلا موثوقا عن الدولار بصفته عملة للاحتياطي الأجنبي حتى تُجرى إصلاحات جذرية له، ومن دون عملة احتياطي موثوق بها فلن تستطيع القوة المالية لأوروبا أن تتنافس مع القوة المالية للولايات المتحدة)[١١٦]. وإلى صغر حجم علاقات الاتّحاد الأوروبي التجارية مع إيران مقارنة بتلك التي تربط الاتّحاد بالولايات المتّحدة[١١٧].

ومن الناحية الجيوسياسية، تشكّل سياسة الضغط الأقصى الأمريكية تحدّياً هائلاً بالنسبة إلى الاتّحاد الأوروبي خاصة مع ما ترتبه من ضربات انتقامية إيرانية، وعليه لم يتمكن الاتحاد من المساعدة بفعاليّة في تخفيض العداوة الإقليمية الإيرانية السعودية، أو تحقيق تقدمً في ساحات صراع متعدّدة في أنحاء المنطقة، خاصة مع التعنت التصعيدي الإيراني على الجانب الآخر، والمستند على منطلقات أيديولوجية جامدة[١١٨].

كما لا يجب إغفال أثر الانقسامات الداخلية في الاتحاد الأوروبي بشأن السياسة الخارجية، خاصة بعد تصويت بريطانيا عام ٢٠١٦ على مغادرة الاتحاد، وما يعنيه ذلك من تفتت وتشتت في عناصر القوة والتأثير.

لذا فإن الفاعل الأوروبي رغم دقته في تحديد الأهداف ورسم المسارات واستدعاء أيا منها عند الحاجة، يجد نفسه مضطرًا بعض الأحيان إلى الرضوخ لتهديدات وضغوط أمريكية (كما ذُكر)، كما أن القوى الأوروبية ستقدم دائما علاقاتها مع الولايات المتحدة على علاقتها مع إيران، نظرا لتشابك المصالح الاقتصادية والأمنية في كثير من جهات العالم [١١٩]. لكن هل يحمل فوز "بايدن" جديدًا للثلاثي الأمريكي الإيراني الأوروبي؟

خاتمة: إيران.... بايدن.. أوروبا: ما مستقبل المعادلة؟

بداية، هناك توجه عام للتفاؤل عقب فوز بايدن الديمقراطي بانتخابات الرئاسة الأمريكية بشأن عدة ملفات إقليمية وبينها الملف الإيراني، وذلك نظرًا لاختلاف الخلفيات الفكرية والاستراتيجيات عن الجمهوري ترامب وتوجهاته الصدامية. لكن لا شك أن الأمر ليس بتلك السهولة؛ فثمة متغيرات أخرى وتعقيدات يجدر أخذها في الاعتبار. وفي الحالة الإيرانية نحن في هذا التقرير بصدد معادلة من ثلاثة أطراف أساسية: إيران، أوروبا، الولايات المتحدة.

نعم إن جوزيف بايدن الذي أصبح رئيسا منتخبا، أكد أن الولايات المتحدة ستعود إلى خطة العمل الشاملة المشتركة، بشأن البرنامج النووي الإيراني. وهذا يعني أنه ربما يجري تخفيف العقوبات الأمريكية ضد إيران. ولكن ثمة احتمالات وتعقيدات:

هل تشير الأمور أنه سيحدث تنسيق أمريكي أوروبي (لاسيما أن كلاً من ألمانيا وفرنسا دعت إلى مقاربة مشتركة

---

(١١٦) القوى الأوروبية والملف الإيراني.. عجز في مواجهة أمريكا، أخبار الخليج، ١٠ يوليو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/X727G

(١١٧) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران: التعامل مع أزمة ثنائية، مرجع سابق.

(١١٨) المرجع السابق.

(١١٩) القوى الأوروبية والملف الإيراني.. عجز في مواجهة أمريكا، مرجع سابق.

مع الرئيس الأمريكي المنتخب جو بايدن حول الاتفاق النووي الإيراني[١٢٠]، كما أن بايدن صرح أن ترامب لم يكن يعرف أصدقاء الولايات المتحدة، وأن أوروبا الموحدة الديمقراطية أمر حيوي للولايات المتحدة[١٢١]؟ وهل من الممكن أن يعاد ترتيب أوراق اللعبة وتقسيم الأدوار؛ بمعنى أنه في حين ترجع الولايات المتحدة خطوة للخلف، يمكن للاتحاد الأوروبي أن يفعل العكس. خاصة أن إنزال عقوبات بحق إيران على انتهاكها حقوق الإنسان سيعود إلى جدول أعمال دول الاتحاد الأوروبي[١٢٢]؟ علمًا أن بايدن قال إنه "سيواصل استخدام العقوبات الموجهة ضد انتهاكات إيران لحقوق الإنسان ودعمها للإرهاب وبرنامج الصواريخ الباليستية"[١٢٣].

أم إن التنسيق على هذا النحو أو غيره بين الجانبين الأوروبي والأمريكي أمرٌ تواجهه المصاعب؛ حيث إن سبب الفجوة القائمة بين الاتّحاد الأوروبي والولايات المتّحدة في شأن إيران لا تقتصر على الرئيس ترامب وحده، وإنما هناك خلاف في الرؤى بين الطرفين حول عدد من الملفات الإقليمية التي هي في الوقت نفسه ذات الصلة بطهران[١٢٤]؟

ويزيد من التعقيد التصريحات الإيرانية، حيث تصريحات مسؤولين إيرانيين أن أي محادثات يجب أن تتم بعد الانتخابات الرئاسية في إيران في منتصف عام ٢٠٢١ والتي من المتوقع أن يفوز فيها متشددون مناهضون للولايات المتحدة[١٢٥].

بشكل عام من غير المتوقع أن يحدث تغير جذري بين عشية وضحاها، فرغم أن تقديم تنازلات جزئية يبقى محتملا، مثل تحرير أرصدة إيرانية مجمدة، إلا أنه لا نية لدى الولايات المتحدة وأوروبا لرفع العقوبات قبل حل جميع القضايا العالقة، وأخطرها البرنامج الصاروخي، الذي تعتبره إيران مسألة سيادية لا تخضع للتفاوض أبدا[١٢٦]. بل إن الخصوم المتشككين سيرغبون في التزامات إضافية من بعضهم البعض[١٢٧].

على سبيل المثال، فإن عودة بايدن للاتفاق النووي لن تعني العودة له على ما كان عليه، فبايدن مع تعديل الاتفاق الحالي بصيغة جديدة تشمل ضمانات صارمة لمنع إيران من امتلاك السلاح النووي، وذلك بتعديل البند المتعلق بمدة الاتفاق، بند الغروب؛ ولذلك سيتفاوض بايدن على جعل التزام إيران بعدم زيادة التخصيب بشكل دائم.

في المقابل ترفض إيران إجراء أي تعديل على الاتفاق النووي وتصر على الاتفاق الحالي بكل بنوده، ورغم أنها قد تبدي مرونة فيما يتعلق بتمديد مدة الاتفاق فإنه من الصعب عليها تقديم تنازلات فيما يتعلق ببرنامجها الباليستي وهو أهم سلاح تمتلكه، فقد صرح وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف أنه يريد عودة الولايات المتحدة للاتفاق

---

(١٢٠) موقف إدارة جو بايدن لن يكون مختلفاً عن موقف أوروبا المتشدد تجاه إيران، العربية، ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/21t4F

(١٢١) د.دلال محمود، قضايا السياسة الخارجية للمرشح الديمقراطي جو بايدن، السياسة الدولية، العدد٢٢٢، أكتوبر ٢٠٢٠، ص١٠٢.

(١٢٢) الاتحاد الأوروبي سيعاقب إيران على إعدام الصحفي، مرجع سابق.

(١٢٣) ايران اكثر ارتياحا الآن في التعامل مع الشيطان الأكبر.. تقرير: انتهى عهد ترامب.. هل تنتهي الضغوط الامريكية على إيران؟، اليوم الثامن، ٨ نوفمبر ٢٠٢٠، متح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/bl77N

(١٢٤) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران: التعامل مع أزمة ثنائية، مرجع سابق.

(١٢٥) ايران اكثر ارتياحا الآن في التعامل مع الشيطان الأكبر، مرجع سابق.

(١٢٦) صابر كل عنبري، أوروبا توجه سياسة بايدن تجاه إيران، عربي ٢١، ٢٦ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/8uIQG

(١٢٧) ايران اكثر ارتياحا الآن في التعامل مع الشيطان الأكبر، مرجع سابق.

مرة أخرى، لكنه قال إن "العودة للاتفاق لا تعني إعادة التفاوض"؛ لأنه "إذا أردنا القيام بذلك (إعادة التفاوض)، لكنا فعلنا ذلك مع الرئيس ترامب قبل أربع سنوات"[١٢٨]. كما أن إيران تتنازل عن دعم أذرعها العسكرية فى المنطقة، وهو ما يمثل أيضا عقبة أمام الحوار مع إدارة بايدن[١٢٩].

أما أوروبا، ففضلا عن التحديات السابق الإشارة إليها بصددها، فإنها ربما تحاول تلمس سبيل مختلف مع إدارة بايدن رغم نقاط الخلاف حول الأوضاع الإقليمية، وذلك بما يحقق مصالحها المتعثرة، لاسيما أن إدارة بايدن من المنتظر أن تكون أكثر مرونة، فيمكن لأوروبا أن تتواصل بشكل أعمق مع مجموعة العمل بشأن إيران التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية. كما أن ذلك لا يشترط أن يكون على حساب الاستقلال الأوروبي، فالاتحاد الأوروبي بإمكانه تعزيز استقلاليته من خلال تأسيس قنوات دفع مستقلّة عن الولايات المتّحدة، مثل صندوق نقد أوروبي [١٣٠].

وعلى ضوء ذلك، يمكن الإشارة إلى مسارين متتاليين ومتوازيين لإدارة للأزمة للمرحلة المقبلة:

المسار الأول، يتمثل في تأسيس قنوات تواصل سرية تساعد في تهيئة المجال أمام إجراء مفاوضات رسمية بعد ذلك، هذا بما قد يقلص من مساحة الخلافات ويسهم في تنفيذ مقاربة "العودة مقابل العودة".

والمسار الثاني، ينصرف إلى مزيد من التفعيل لدور الوسيط بين الطرفين الأمريكي والإيراني من أجل تسوية الخلافات بينهما. وهنا، فإن الدول الأوروبية وروسيا هي المرشحة لممارسة هذا الدور، وإن كان ذلك لا ينفي أن ثمة عقبات قد تحول دون ذلك. إذ إن من المنتظر من إيران معاودة التشكيك في مدى حيادية الدول الأوروبية[١٣١].

*****

(١٢٨) المرجع السابق.

(١٢٩) صابر عنبري، أوروبا توجه سياسة بايدن تجاه إيران، مرجع سابق.

(١٣٠) علي فتح الله نجاد، أوروبا ومستقبل سياستها إزاء إيران، مرجع سابق.

(١٣١) د.محمد عباس ناجي، مرجع سابق.



المفاوضات بين طالبان والحكومة الأفغانية: ثنائية السلام والأمن

محمد الديب(*)

مقدمة:

منذ قرابة قرنين من الزمان لا تخلو أفغانستان من أن تكون مطمعًا وأرضًا للصراع بين القوى العظمى، وفيها تتقاطع الأجندات الأمنية والسياسية لتلك القوى، منذ صراعات الإمبراطوريتين الروسية والبريطانية، وخلال الحربين العالميَّتين الأولى والثانية، ومع الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانت أفغانستان من المناطق النشطة في الصراع بين القطبين.

خرجت قوات الاتحاد السوفيتي[(١)] بعد حرب دامت عشر سنوات إلَّا أن الصراع بين الفصائل المقاتلة لم يتوقَّف، إلى أن سيطرت حركة طالبان على مقاليد الحكم عام ١٩٩٦، ظهرت أفغانستان على الساحة العالمية من جديد في أعقاب ضربات الحادي عشر من سبتمبر، فقادت الولايات المتحدة تحالفًا دوليًّا ضمَّ أكثر من أربعين دولة واحتلَّت أفغانستان وأسقطت نظام طالبان، ولا تزال القوات الأمريكية تتواجد هناك إلى الآن.

مع مرور السنوات صار التدخُّل العسكري في أفغانستان معضلة بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وصارت الحرب في أفغانستان هي أطول الحروب التي تخوضها الولايات المتحدة الأمريكية، وبناء عليه فقد سعى الرئيس الأسبق أوباما لتخفيض عدد القوات الأمريكية تمهيدًا لسحبها بالكلية، ثم جاء دونالد ترامب وسعى لسحب القوات الأمريكية بالكلية أيضًا، واتَّخذ الوساطة بين الحكومة الأفغانية وحركة طالبان -التي كانت إرهابية فيما سبق- طريقًا إلى الانسحاب الكامل للولايات المتحدة وحلفائها.

تسعى هذه الورقة للتطرُّق إلى الاتفاقية التي عُقدت بين الحكومة الأفغانية وحركة طالبان وما الذي تضمَّنته هذه الاتفاقية من بنود وشروط، ولما كانت هذه الاتفاقية قد سبقتها الكثير من الأحداث المتشابكة التي بدأت مع الغزو الأمريكي لأفغانستان في أكتوبر عام ٢٠٠١، فكان لازمًا التعرُّض بالسرد والتحليل للأوضاع السابقة التي أوصلت لهذه المرحلة البارزة.

كذلك يصعب التنبُّؤ بمستقبل تلك الاتفاقية وإمكان تطبيقها في الواقع بدون النظر إلى الأطراف الفاعلة في أفغانستان، والتي يسعى كل منها لتحقيق مصالحه، ومن ثم تعرضنا لمصالح عدد من الأطراف الإقليمية والدولية في أفغانستان، وموقفهم من الانسحاب الأمريكي والتسوية السياسية والقبول بحركة طالبان كفاعل شرعي، ومستقبل أفغانستان على ضوء هذا التنافس.

وعلى هذا جاءت الورقة في ثلاثة محاور، هي:

- المحور الأول- الخلفية التاريخية للمفاوضات (ماذا حدث في أفغانستان بعد التدخل من أجل بناء الديمقراطية؟)
- المحور الثاني- الطريق إلى توقيع اتفاقيات التسوية السياسية

(*) باحث في العلوم السياسية

(1) Andrey Kazantsev and Thomas F. Lynch III, ch 3 "Afghanistan in the Regional Security Interplay Context", (in): "Terrorism in Afghanistan: A Joint Threat Assessment", East West Institute (EWI), available at: http://bit.ly/2X5Orez

○ المحور الثالث– المركب الأمني الإقليمي في جنوب آسيا وتأثيره على مستقبل أفغانستان

المحور الأول– الخلفية التاريخية للمفاوضات (ماذا حدث في أفغانستان بعد التدخل من أجل بناء الديمقراطية؟)

نتعرَّض في هذا المحور لكشف الأوضاع التي مرَّت بها أفغانستان بعدما تدخَّلت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها تحت مظلَّة حلف شمال الأطلنطي، من أجل محاربة الإرهاب، وإسقاط نظام طالبان والقضاء على تنظيم القاعدة، وبناء دولة ديمقراطية على النمط الغربي الحديث، ويمكن أن نحدِّد أبرز ملامح هذه المرحلة كما يلي:

١– غياب التخطيط المتكامل لمرحلة ما بعد الحرب

شنَّت الولايات المتحدة هجومها على أفغانستان في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ولم تكن لديها خطط مسبقة بخصوص ما ينبغي فعله في المرحلة التي ستلي إسقاط نظام طالبان[٢]، ولم يكن هناك تصوُّر بشأن التحديات الرئيسية في مجالات الأمن والسياسة والدفاع التي ستواجهها الولايات المتحدة بعد ذلك، واستمرَّ هذا الحال بعد سقوط طالبان، فلم تطرح أجهزة صنع القرار الأمريكية تصورات ناجحة للمرحلة الجديدة.

كان جورج بوش قد أعلن رفضه خلال حملته الانتخابية سياسة إعادة بناء الدول التي انتهجتها إدارة كلينتون، ولم تكلَّل بالنجاح المأمول في كل من الصومال وهايتي والبوسنة وكوسوفو، وبناء عليه فقد لجأ بوش إلى صيغة "الائتلاف الدولي" لكي لا تتورَّط الولايات المتحدة وحده في أفغانستان، وعمَّق من قصور الرؤية الأمريكية قلة عدد المتخصصين الأمريكيّين في الشأن الأفغاني نتيجة تراجع الاهتمام الأمريكي بأفغانستان في أعقاب انسحاب الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩.

٢– اتفاق بون وإخفاق عملية التسوية السياسية

أشرفت الأمم المتحدة على إقامة مؤتمر عُقد في مدينة بون الألمانية في الخامس من ديسمبر ٢٠٠١ يهدف إلى وضع قواعد التسوية السياسية في أفغانستان بعد الحرب، وانتهى بتوقيع "اتفاق الترتيبات المؤقَّتة في أفغانستان لإعادة تأسيس المؤسسات الحكومية الدائمة"، وعُرف اختصارًا ب"اتفاق بون"، وقد قسَّم الاتفاق مرحلة ما بعد الحرب إلى ثلاث مراحل[٣]؛ الأولى تبدأ من ديسمبر ٢٠٠١ وتنتهي في ٢١ يونيو ٢٠٠٢، وتهدف إلى تشكيل سلطة مؤقتة لإدارة البلاد، والمرحلة الثانية تستمر لمدة عامين وتُدار البلاد خلالها عبر "إدارة انتقالية" يتم تشكيلها عبر مجلس أعيان القبائل "لويا جيرغا"، والمرحلة الثالثة تشكيل حكومة أفغانية منتخبة، كما نصَّ الاتفاق على تشكيل لجنة دستورية خلال ١٨ شهرًا من تأسيس السلطة الانتقالية، وخلال هذه الفترة الانتقالية يسري العمل بدستور ١٩٦٤.

ضم المؤتمر أربعة فصائل أفغانية[٤] أولها مجموعة الجبهة المتحدة، والتي تمثل تحالف الشمال، وجاء تمثيلها قويًّا منذ البداية انطلاقًا من سيطرتها العسكرية على كابول، والثانية مجموعة "روما" بقيادة ملك أفغانستان السابق ظاهر شاه المخلوع منذ ١٩٧٨ قبل الانقلاب الشيوعي في أفغانستان، والذي يملك أنصاره تأييدًا ملحوظًا من الشعب الأفغاني وبعض قادة تحالف الشمال، والثالثة مجموعة قبرص التي تمثل قبائل شيعية تُسمى الهزارة ومجموعة اللاجئين الأفغان في

(٢) محمد فايز فرحات، الاحتلال وإعادة بناء الدولة: دراسة مقارنة لحالات اليابان وأفغانستان والعراق، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٥)، ص ٢٦٤.

(٣) يمكن الإطلاع على اتفاق بون بالكامل عبر الرابط التالي: http://bit.ly/35nkiMD

(٤) محمد حسن، مقال بعنوان "مستقبل أفغانستان بعد مؤتمر بون: مؤتمر بون أعطى أنصار الشاه: رئاسة الحكومة والبرلمان وثلث الإدارة المؤقتة وتحالف الشمال: الإدارة العسكرية والأمنية في البلاد، صحيفة الجزيرة السعودية، ٦ ديسمبر ٢٠٠١، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3rP3Dem

الخارج وهي مجموعة مؤيَّدة من إيران نظرًا للتقارب المذهبي، ورابع تلك المجموعات هي مجموعة بيشاور التي تمثل الأغلبية البشتونية (أكثر من ٥٠% من سكان أفغانستان).

شاب اتفاق بون عدد من المشكلات التي حالت دون إتمام عملية التسوية السياسية كما رسم الاتفاق، ومن أبرز هذه المشكلات[٥] أن الاتفاق لم يكن يمثل "عملية إحلال سلام" بقدر ما هو "اتفاق" بين المنتصرين، فقد تم إقصاء الطرف المهزوم المتمثِّل في حركة طالبان في مقابل تمييز تحالف الشمال الذي تحالف مع الولايات المتحدة ضد طالبان، وكذلك تهميش الأكثرية البشتونية، في مقابل تمييز الطاجيك الأقلية، علاوة على عدم وضوح آليات تحقيق الهدف النهائي للاحتلال الدولي لأفغانستان، فالهدف المعلن هو وضع أساس لعملية سياسية وبناء مؤسسات حكم، لكن واقعيًّا لم تكن ثمة برامج وآليات محدَّدة للتعامل مع المشكلات الضخمة التي تعاني منها أفغانستان.

أدَّت الطريقة التي وُضعت بها قواعد التسوية السياسية وآليات تنفيذها إلى إحساس البشتون بأن مشروع إعادة بناء الدولة تحت الاحتلال سينحاز للطاجيك، وقد انعكس هذا سلبًا على مسار التسوية السياسية نظرًا للعداء التاريخي بين البشتون والطاجيك، وإزاء تعثر التسوية السياسية ظهرت على السطح مسألة الحوار مع حركة طالبان للمرة الأولى سنة ٢٠٠٤ من جانب الرئيس الأفغاني حامد قرضاي.

٣- استدعاء طالبان على طاولة المفاوضات

اتَّجهت الإدارة الأمريكية في عهد أوباما إلى دعوة طالبان إلى طاولة المفاوضات، وعُقد أول لقاء بين مسؤولين أمريكيّين وممثِّلين لحركة طالبان في نوفمبر ٢٠١٠ في مدينة ميونخ الألمانية عبر وساطة ألمانية وقطرية، ثم عُقد اللقاءان

(٥) محمد فايز فرحات، الاحتلال وإعادة بناء الدولة، مرجع سابق، ص ص ٢٦٧، ٢٧٠.

الثاني والثالث في العاصمة القطرية في فبراير ويوليو ٢٠١١[٦]، وبدأ التواصل بشكل رسمي بين الطرفين.

شكَّل افتتاح حركة طالبان في يونيو ٢٠١٣ مكتبًا سياسيًّا لها بالدوحة خطوة مهمة تمهيدًا لبدء مفاوضات بينها وبين الحكومة الأفغانية، وأعلن بيان الحركة وقتها أنه "سيدعم التوصُّل لحلٍّ سلمي وسياسي من شأنه ضمان إنهاء غزو أفغانستان وتعزيز نظام مستقل وإسلامي، بالإضافة لتحقيق أمن حقيقي هو الأمل للبلد بأكمله"[٧]، وكانت هذه الخطوة محل ترحيب من كل من الحكومة الأفغانية؛ فأعلن الرئيس الأفغاني أنه سيُرسل ممثِّلين إلى دولة قطر من أجل عقد مفاوضات مع الحركة. رحَّب كيري وزير الخارجية الأمريكي آنذاك بالخطط الخاصَّة بإجراء مفاوضات مباشرة بين حركة طالبان والحكومة الأفغانية.

خلاصة هذا المحور أن الولايات المتحدة أقدمت على خوض حرب في بلاد أطلق عليها "مقبرة الإمبراطوريات"، ولم تُفلح إلَّا في تنحية طالبان عن الحكم، لكنها لم تقضِ عليها بالكلية، كذلك فشلت في إعادة ترتيب الأوضاع في أفغانستان وإنشاء نظام سياسي مستقر أو شبه مستقر، كما ظلَّت طالبان قادرة على البقاء كطرف فاعل في السياسة الأفغانية، إلى أن صارت الإدارة الأمريكية مجبرة على استدعائها إلى طاولة المفاوضات، ولم تجد الإدارة الأمريكية بديلًا أمامها في مواجهة الأمن-السلام إلَّا مطالبة طالبان بالجلوس على طاولة المفاوضات، فالحركة التي تسيطر على مساحات كبيرة من أفغانستان لا يمكن أن يتحقَّق أيُّ أمن بدونها، فصارت طالبان أداة لترسيخ الأمن والسلام!

(٦) رامي أبو زبيدة، حركة طالبان: تكتيكات القتال والتفاوض، المعهد المصري للدراسات، ١٢ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3hGuq88

(٧) افتتاح مكتب طالبان بقطر يمهد الطريق لمفاوضات مباشرة مع واشنطن، دويتشه فيله، ١٨ يونيو ٢٠١٣، متاح عبر الرابط التالي: https://p.dw.com/p/18sX6

المحور الثاني– الطريق إلى توقيع اتفاقيات التسوية السياسية

جاءت الاتفاقية بين الولايات المتحدة وحركة طالبان بعد أكثر من ثمانية عشر شهرًا وتسع جولات من محادثات السلام[٨]، شارك فيها زلماي خليل زادة وممثلون عن طالبان ووفود من الحكومة الأفغانية، والعديد من الممثلين أو المبعوثين الخاصين الآخرين من الدول المجاورة أو الإقليمية والمنظمات الدولية.

ثمة تساؤل مهم عن سبب إتمام المفاوضات[٩] في هذا التوقيت، وقد تضافرت عدد من الأسباب والدوافع، وهي كما يلي:

- رغبة ترامب في تحقيق نصر في ملف أفغانستان التي تعدُّ أطول حرب في تاريخ الولايات المتحدة، وكانت بداية سعي ترامب لهذا قبل خوضه الانتخابات الرئاسية التي خسرها أمام المرشح الديمقراطي جو بايدن، ومن ناحية أخرى إنهاء الملف الأفغاني يتيح التفرُّغ للمنافس الأكبر وهو الصين، لأن ترامب كان مدركًا أن الاستنزاف الأمريكي في أفغانستان سيكون علي حساب التفرُّغ للصعود الصيني بشكل كبير.

- التحول في موقف حركة طالبان، بعدما رفضت في البداية فكرة الحوار من حيث المبدأ، وامتنعت عن الدخول في مفاوضات مع الحكومة الأفغانية، إلَّا أن الوساطة الروسية[١٠] بين الطرفين أحدثت تحوُّلًا نوعيًّا، واجتمع الطرفان في موسكو في مايو ٢٠١٩، كما مثل طالبان خلال المفاوضات شخصيات غير متهمة بالتشدُّد.

- دعم العديد من القوى الإقليمية التي ارتأت أن مصالحها تكمن في استقرار أفغانستان، وهذا لا يتحقَّق إلَّا عبر التسوية السياسية التي تقرُّ بشرعية تواجد حركة طالبان في المستقبل السياسي لأفغاستان، وبالتالي هناك توافق إقليمي علي نجاح الحوار.

اتفاقية الولايات المتحدة وطالبان

في التاسع والعشرين من فبراير ٢٠٢٠ وقع المبعوث الأمريكي لإرساء السلام في أفغانستان زلماي خليل زادة والنائب السياسي لطالبان ورئيس المكتب السياسي الملا عبد الغني برادار اتفاقية بين كلٍّ من الولايات المتحدة وحركة طالبان من أجل "إحلال السلام في أفغانستان"، في العاصمة القطرية الدوحة، وحدَّدت الاتفاقية بين الطرفين أربعة أهداف، يعتمد آخر هدفين على حالة الهدفين الأولين، ونصت على ما يلي[١١]:

١– سيتم منع الجماعات المسلحة (من قبل طالبان وقوات الأمن الأفغانية) من استخدام أفغانستان كقاعدة لأعمال ضد الولايات المتحدة وحلفائها.

وقد وافقت طالبان على أنها لن تهدِّد الولايات المتحدة أو حلفاءها، كما أنها ستمنع الجماعات المسلَّحة وغيرها في أفغانستان من فعل الشيء نفسه، كما التزمت بالتأكيد على أنها لن تتعاون مع من يقوم بمثل هذه الأنشطة.

---

(٨) طالبان وأمريكا يستعدان للتوقيع على اتفاق سلام في الدوحة، بي بي سي، ٢٩ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bbc.in/3rSjHMa

(٩) تقرير ندوة أقامها المجلس المصري للشؤون الخارجية بعنوان "عملية السلام وإعادة البناء في"أفغانستان"، موقع المجلس المصري للشؤون الخارجية، ٤ مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/358kKxV

(١٠) نيويورك تايمز: روسيا تسعى إلى الفوز على أميركا في أفغانستان.. هذه المرة، ترجمة: عوض خيري، موقع الإمارات اليوم، ١٥ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3pJ6xzp

(11) What to Know About the Afghan Peace Negotiations, The Council on Foreign Relations (CFR), last updated 11 September 2020, available at: http://on.cfr.org/3b4tQ2H

٢- انسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان بما في ذلك القوات الأمريكية وقوات التحالف، إذ ألزمت الولايات المتحدة نفسها بسحب جميع قواتها العسكرية -وكذلك قوات الحلفاء وأفراد الأمن المدنيّين- في غضون أربعة عشر شهرًا من توقيع الاتفاقية، وتعهَّدت أيضًا بسحب قواتها وخفضها إلى ٨٦٠٠ فرد، والانسحاب من ٥ قواعد عسكرية في غضون ١٣٥ يومًا.

٣- كان من المقرر -آنذاك- أن تبدأ المفاوضات بين الأطراف الأفغانية في ١٠ مارس ٢٠٢٠.

وكان بدء المفاوضات مرهونًا بقدرة طالبان والحكومة الأفغانية على إطلاق سراح ألف سجين وخمسة آلاف سجين على التوالي، بهدف نهائي هو إطلاق سراح جميع السجناء السياسيِّين بعد ثلاثة أشهر من بدء المحادثات.

٤- أن تشمل أجندة المفاوضات بين الأطراف الأفغانية مناقشة كيفية تنفيذ وقف إطلاق نار دائم وشامل، والعمل على وضع خارطة طريق لمستقبل أفغانستان السياسي.

وقد أفادت صحيفة نيويورك تايمز أن الاتفاقية تتضمَّن أيضًا ملاحق سرية في الاتفاقية تشير على الأرجح إلى الشروط الخاصة بسحب القوات الأمريكية، وقد تعرَّض ترامب لانتقادات داخلية[١٢] ومطالبات بالكشف عن تلك الشروط غير المعلنة.

في اليوم نفسه اجتمع في العاصمة الأفغانية كابول عقد كلٌّ من وزير الدفاع الأمريكي -وقتها- مارك إسبر والأمين العام لحلف شمال الأطلنطي (الناتو) اتفاقية بين الحكومة الأفغانية والولايات المتحدة مع الرئيس الأفغاني أشرف غني[١٣]، وأعلنوا عن عقد اتفاقية تضمَّنت التزام الحكومة الأفغانية والولايات المتحدة بالعمل معًا للتوصُّل إلى اتفاق سلام شامل ودائم يُنهي الحرب في أفغانستان لصالح جميع الأفغان، ويسهم في تحقيق الاستقرار الإقليمي والأمن العالمي.

وتضمَّنت الاتفاقية أربعة بنود أساسية مماثلة للبنود المكتوبة في الاتفاقية بين طالبان والولايات المتحدة، إلا أنها ذكرت صراحة كلًّا من تنظيم القاعدة وداعش عندما تعرَّضت لالتزام الحكومة الأفغانية بمنع استخدام أراضيها ضد الولايات المتحدة الأمريكية[١٤].

كان من المقرر أن تبدأ المفاوضات بين الحكومة الأفغانية وطالبان في مارس ٢٠٢٠، لكنها تأجَّلت أكثر من مرة بسبب الخلاف بشأن عملية تبادل الأسرى التي تمَّت الموافقة عليها في الاتفاق الموقَّع في فبراير، فضلًا عن استمرار العنف في البلاد[١٥]، ثم التقى الطرفان في ١٢ سبتمبر ٢٠٢٠، ومن المقرَّر أن تُستأنف المفاوضات في الخامس من يناير الجاري.

إذن فقد نجحت الولايات المتحدة في جلب الطرفين المتنازعين إلى طاولة المفاوضات، وصارت طالبان رأسًا برأس أمام الحكومة الأفغانية، وهو ما يُعد انتصارًا للحركة باعتراف الولايات المتحدة والمجتمع الدولي من خلفها، بعد سنوات من محاربتها ووصمها بالإرهاب، والآن صارت طرفًا سياسيًّا لا بدَّ من مشاركته في تشكيل الخارطة السياسية لمستقبل أفغانستان.

---

(١٢) هشام ملحم، ترامب والانسحاب الأمريكي الطويل من أفغانستان، موقع قناة الحرة، ٢ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://arbne.ws/3b3Udpj

(١٣) غني وستولتنبرغ وأسبر يلتقون في كابل بالتزامن مع اتفاق الدوحة، وكالة الأناضول، ٢٩ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2X65Gwp

(14) Joint Declaration between the Islamic Republic of Afghanistan and the United States of Americafor Bringing Peace to Afghanistan, available at: https://bit.ly/3nd3DRP

(١٥) الحرب الأفغانية: بدء محادثات سلام "تاريخية" بين الحكومة الأفغانية و طالبان في قطر، بي بي سي، ١٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bbc.in/3hM4kR6

ثمة تساؤلات هنا حول إمكانية نجاح المفاوضات، ولعل أبرز العقبات[١٦] التي تواجهها هي الخلافات الداخلية في الحكومة الأفغانية بين الرئيس أشرف غني ومنافسه السابق في انتخابات الرئاسة عبد الله عبد الله، وكذلك الاختلافات التي حدثت داخل حركة طالبان، حيث اعتبر البعض أن إخراج أمير خان متقي من وفد المفاوضات وإقالة شير محمد ستانكزي من رئاسة الوفد المفاوض مع الحكومة وتعيين المولوي عبد الحكيم حقاني ينم عن خلافات في صفوف الحركة، وقد صرَّح مصدر داخلها أن "تعيين المولوي عبد الحكيم حقاني على رأس المفاوضات مع الجانب الحكومي جاء خشية تمرُّد القادة العسكريّين، لأنه شخصية مؤثِّرة على بعض القادة في الميدان"، علاوة على قدرة قادة الحركة على تنفيذ الشروط التي جاءت في الاتفاقية مع الولايات المتحدة، وعلى رأسها منع استخدام أفغانستان كموطن لتوجيه التهديدات للولايات المتحدة، هذا إذا كانت طالبان تقر وتريد ذلك بالفعل!

المحور الثالث– المركب الأمني الإقليمي في جنوب آسيا وتأثيره على مستقبل أفغانستان

يعتبر باري بوزان أول من استخدم مصطلح المركب الأمني الإقليمي Regional Security Complex وذلك لفهم التحليل الأمني على مستوى النطاق الإقليمي، واعتبار المستوى الإقليمي كوحدة تحليل أساسية تنطلق من خلال القضايا الأمنية من منطلقات إقليمية وليس عالمية، مع بقاء تعاملها مع القضايا العالمية طبعًا، أو الأطراف الخارجية الفاعلة ومختلف القوى المؤثِّرة على المركب الأمني[١٧].

يمكن استخدام مستويات التحليل الأربعة التي تقدِّمها نظرية مركب الأمن الإقليمي من أجل فهم طبيعة الصراع في أفغانستان[١٨]، وهي كما يلي:

١- المستوى الداخلي أو المحلي: يقصد به الظروف المحلية للدول المشكلة لمركب الأمن الإقليمي، مع التركيز على نقاط الضعف المتولِّدة بالداخل، وبالنظر إلى أفغانستان نجد أنها تعاني من ضعف الحكومة المركزية، وعدم قدرتها على فرض سيطرتها وإنفاذ سياساتها في أنحاء البلاد، حيث تسيطر حركة طالبان على مناطق متعدِّدة في البلاد، ومن ناحية أخرى تعاني من تنوعات عرقية كانت ولا تزال من أسباب اندلاع الصراعات فيما مضى.

٢- مستوى العلاقات البيني بين دول الإقليم: أي علاقة دول الإقليم مع بعضها، والتي تحدد ملامح الإقليم في حدِّ ذاته، وهنا نجد أن أفغانستان منخرطة في علاقات مع كل من باكستان والهند وإيران ودول آسيا الوسطى، كما أن لها حدودًا مشتركة مع الصين، وكل هذه العلاقات لها سمات كما سنذكر لاحقًا.

٣- تفاعل الإقليم مع الأقاليم الأخرى خاصة المجاورة: تشابك الدول المكوِّنة لهذا الإقليم (أفغانستان – باكستان

---

(١٦) حميد الله محمد شاه، السلام بين الحكومة الأفغانية وحركة طالبان: مفاوضات طويلة ومعقدة، مركز الجزيرة للدراسات، ٧ أكتوبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://studies.aljazeera.net/ar/article/4800

(١٧) مركب الأمن الإقليمي - Regional Security Complex، موقع الموسوعة السياسية، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2KWxalH

(١٨) لمزيد من الاطلاع على فهم وتفسير التفاعلات في إقليم جنوب آسيا وفق نموذج مركب الأمن الإقليمي، انظر: Barry Buzan, The South Asian Security Complex in a Decentring World Order: Reconsidering Regions and Powers Ten Years On, International Studies, Vol. 48, January 2011, available at: https://doi.org/10.1177/002088171204800101

– الهند) في علاقات مع الدول المجاورة، وعلى رأسها الصين وروسيا.

٤- دور القوى العالمية في الإقليم: أي علاقة الإقليم بالقوى العالمية، خاصة الكبرى، يعني تفاعله مع بِنَى الأمن العالمية والإقليمية، وتأتي الولايات المتحدة على رأس تلك القوى، وكذلك الصين القوة الصاعدة سلميًّا إلى الآن.

المستوى الداخلي: أفغانستان بعد الاحتلال.. الدولة الفاشلة والمقاومة الفعالة

نركز في هذا المحور على الاستراتيجية التي تبنَّتها حركة طالبان في التعامل مع الأوضاع التي سادت بعد تنحيتها عن الحكم؟ وكيف تعاملت مع قوات التحالف الدولي؟ وكيف استثمرت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتظلَّ متواجدةً بقوة في المشهد الأفغاني.

استثمرت الحركة الفساد الذي اتَّسمت به الحكومة الأفغانية، ونقص الخدمات الأساسية، علاوة على تبنِّي الحركة لخطاب يدعو إلى جهاد الغزاة، وقد نجحت في استغلال ثلاث مشكلات عانت منها أفغانستان في أعقاب الغزو الأمريكي، وتواجد التحالف الدولي في البلاد، وهي كما يلي:

١- التمييز العرقي[١٩]: كما ذكرنا فقد تمَّ تهميش البشتون الذين يمثلون حوالي ٤٠٪ من الشعب الأفغاني، ويتواجدون بكثافة في جنوب البلاد، ونتيجة للأوضاع السياسية الجديدة ساد اعتقاد لدى البشتون أن الحكومة المركزية لا تهتم بهم، وعلى الرغم من أن حامد قرضاي الرئيس الأفغاني ينتمي للبشتون إلَّا أن الانطباعات السائدة عنه أن خاضع لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اعتمدت طالبان على هذا التهميش في مقاومتها للقوات الدولية.

من ناحية أخرى فقد سعت طالبان لجعل جميع أنحاء البلاد ساحة للمقاومة ضد الاحتلال، ولما كان البشتون أقلية شمال البلاد فقد لجأت طالبان إلى التجنيد الفكري والأيديولوجي لضم عناصر لها من غير البشتون، كما فعلت في ضم عناصر تتارية في إقليم سامانجان، وعناصر تركمانية وأوزبكية في الناحية الشمالية من البلاد.

٢- استثمار السخط الشعبي من التحالف الدولي: فقد ساد سخط شعبي في أنحاء أفغانستان بعد سنوات من الاحتلال الأمريكي، وأبرز المشكلات التي تسبَّبت في هذا السخط هي انفصال المدنيّين المتغربين وتميُّزهم بنمط حياة مناقض تمامًا لأوضاع المعيشة في أفغانستان، فهم يقيمون في أماكن منعزلة عن السكان المحليّين، وتخضع هذه الأماكن لحراسات مشدَّدة، ولا يمكن الاقتراب منها، ويتقاضى هؤلاء مرتبات باهظة.

المشكلة الثانية هي سقوط العديد من الضحايا المدنيّين جرَّاء ضربات وجَّهتها قوات التحالف الدولي، بالإضافة إلى الاعتقالات التعسُّفية وعمليات التعذيب التي يتعرَّض لها المعتقلون، وأخيرًا غياب النزاهة والشفافية في عمليات توزيع المساعدات الدولية، فكثير من المساعدات لا تصل إلى أصحابها، وفي المقابل صار هناك تراكم للثورة لدى النخب الأفغانية الجديدة التي مكَّنها الاحتلال من البلاد، وقد استغلَّت حركة طالبان هذا السخط، وقامت بتوزيع مساعدات، وهو ما رفع من أسهم قبولها شعبيًّا.

٣- غياب السلطة في الكثير من المقاطعات: كان الرئيس حامد قرضاي يفتقد إلى قاعدة سياسية وشعبية، ولذلك سعى إلى تكوين نخب محلية جديدة تدين له بالولاء، مقابل القضاء على النخب القديمة، وعين حكَّامًا متحالفين معه، وقد أدَّى هذا إلى نتيجة عكسية وهي زيادة

(19) Gilles Dorronsoro, The Taliban's Winning Strategy in Afghanistan, Carnegie Endowment for International Peace, 29 June 2009, available at: http://bit.ly/3b3auuL

الانقسامات داخل المجتمع الأفغاني، كذلك لم يكن الجيش الأفغاني ولا القوات الدولية قادريْن على الانتشار في كافَّة أرجاء البلاد، وقد حاولت طالبان ملأ هذه الفراغات، وقامت بتوجيه ضرباتها في تلك المناطق.

إذن فإن الأوضاع التي وصلت إليها طالبان هي نتيجة استراتيجية متماسكة نجحت في تحقيق أهدافها على مدار سنوات، إلى أن أيقنت الولايات المتحدة أنها لا تمتلك القدرة على القضاء على الحركة بالكلية، واقتناع القيادة الرسمية الأفغانية جاء تبعًا لها، كانت استراتيجية طالبان تقوم على استمرار العمليات المسلَّحة ضدَّ كلٍّ من قوات التحالف وعلى رأسها القوات الأمريكية والقوات الحكومية الأفغانية، حتى وصل عدد الجنود التي فقدتها الولايات المتحدة ٢٤٠٠ جندي منذ بداية الغزو في نهاية عام ٢٠٠١، بالإضافة إلى تكلفة الحرب العالية التي وصلت إلى تريليون دولار أمريكي[٢٠]، وفي الأخير جلست طالبان على طاولة المفاوضات كطرف سياسي لا يمكن تنحيته عن العملية السياسية.

مستوى العلاقات البيني بين دول الإقليم

ننتقل هنا للحديث عن دور أهم الدول التي تشترك مع أفغانستان في الحدود، وهي باكستان والهند وإيران:

■ **باكستان:**

● تشترك باكستان مع أفغانستان في حدود يبلغ طولها ٢,٤٦٠ كم، ويطلق عليها "خط دورند"، وهذا الخط الحدودي هو محل خلافات لا تتوقَّف، وعُدَّت أفغانستان الدولة الوحيدة التي عارضت انضمام جارتها باكستان إلى الأمم المتحدة عندما تقدَّمت بطلب للحصول على عضويتها في عام ١٩٤٧.

● تُعد باكستان فاعلًا رئيسيًّا في الداخل الأفغاني منذ عقود، فقد ساعدت مد المقاومة الأفغانية للغزو السوفيتي[٢١]، وهي أحد ثلاث دول أعلنت اعترافها بحكومة طالبان عام ١٩٩٦، وهي آخر دولة قطعت علاقاتها الدبلوماسية بالحركة، ويُرجَّح أن الأفغان الذين انضمُّوا إلى طالبان قد تلقوا تعاليمهم في المعاهد الدينية بباكستان، والتي صارت مأوى للعديد من قادة الحركة الذين لجأوا إليها بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠١ ليعيدوا تنظيم صفوفهم من جديد.

● كان الرئيس الأمريكي ترامب قد هاجم باكستان بسبب ما سمَّاه "الأكاذيب والخداع"، فقال: "لقد منحت الولايات المتحدة بحماقة باكستان أكثر من ٣٣ مليار دولار كمساعدات خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة، ولم تعطنا أيَّ شيء سوى الأكاذيب والخداع، متصوِّرة أن قادتنا حمقى"[٢٢]، وقام ترامب بقطع المساعدات الأمنية لها في أوائل عام ٢٠١٨، وشعرت باكستان بالقلق بعدما عيَّنت الولايات المتحدة زلماي خليل زادة مبعوثًا لها لإحلال السلام في أفغانستان، لكون الأخير كان سفير الولايات المتحدة في أفغانستان من قبل وكان معروفًا بتشكُّكه الدائم في باكستان.

● بمرور الوقت تعدَّدت زيارات خليل زادة إلى باكستان، وصارت اللاعب الثالث الرئيسي في محادثات السلام بين الولايات المتحدة وأفغانستان، وكتب ترامب إلى نظيره الباكستاني يطلب منه المساعدة في عملية السلام، وتحسَّنت العلاقات والتقيا في يوليو ٢٠١٩[٢٣]، وأضحت

---

(٢٠) رامي أبو زبيدة، حركة طالبان: تكتيكات القتال والتفاوض، مرجع سابق، ص ٨.

(٢١) أحمد دياب، مستقبل الصراع الإقليمي على أفغانستان بعد الانسحاب الأمريكي، مركز الإمارات للسياسات، ٢٧ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3baOcHD

(٢٢) ترامب يتهم باكستان بـ"خداع" الولايات المتحدة في أول تغريدة له هذا العام، بي بي سي، ٢ يناير ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: http://bbc.in/38afBaF

(23) Madiha Afzal, Will the Afghan peace process be Pakistan's road to redemption?, Brookings Institute, 25 June 2020, available at: http://brook.gs/2X5PbAn

باكستان شريكًا أساسيًّا في عملية التسوية السياسية في أفغانستان، إلى أن حضر وزير الخارجية الباكستاني شاه محمود قريشي في اتفاق السلام الذي تم توقيعه في الدوحة في ٢٩ فبراير، وهو مكسب سياسي واستراتيجي لها يساعدها في تحقيق مصالحها.

- تتبلور مصالح باكستان في أفغانستان في إيجاد حكومة موالية لها، أو بمعنى أدق حكومة تكون أكثر ولاءً لباكستان منها إلى الهند، لتقويض نفوذ الأخيرة والذي تنامى في أفغانستان في سنوات الاحتلال الأمريكي، ومن ثم فأفغانستان هي ساحة للصراع الهندي الباكستاني القديم، وكلاهما يتنافس على تحقيق نفوذه داخل الإقليم.

- تؤيد باكستان الانسحاب الأمريكي، لكنها في الوقت نفسه لا تريد أن يحدث هذا بشكل مفاجىء، قبل أن تستقر الأوضاع نسبيًّا، وعلى الرغم من أن باكستان تعتبر طالبان شريكًا موثوقًا فيه مقارنة بالقيادة الأفغانية الرسمية، إلا أنها لا تريد أن تتكرَّر تجربة التسعينيات عندما حكمت الحركة أفغانستان، لأن هذا تسبَّب في حالة من عدم الاستقرار على الحدود بين البلدين، وتعرَّضت باكستان للتهديدات المتكرِّرة.

■ **الهند:**

تُعد الهند ثاني أكبر مانح للمساعدات الخارجية لأفغانستان في عملية إعادة الإعمار التي وصل إنفاقها إلى أكثر من ٣ مليارات دولار، وقد طمأن ترامب خلال زيارته الأخيرة الهند بخصوص سعي الولايات المتحدة لعقد تسوية سياسية مع طالبان، لكن هذه التطمينات لم تلقَ قبولًا لدى الإدارة الهندية، لاعتقادهم أن هذه التسوية لن تعود إلَّا بالضرر على مصالحها في أفغانستان.

القراءة الهندية لعملية التسوية السياسية في أفغانستان ترى فيها ثلاثة مخاطر(٢٤): الأول يتعلَّق بالإرهاب، فبينما تنص الاتفاقية على أن طالبان ستمنع الجماعات الإرهابية من العمل على الأراضي الأفغانية، لا يوجد وضوح كبير حول كيفية التحقُّق من الاتفاقية وتنفيذها. ويتعلق الخطر الثاني باحتمالية زيادة النفوذ الباكستاني التي تشترك في علاقة لا يمكن إنكارها مع طالبان، ولا سيما جماعة حقاني التي سبق وأن قصفت السفارة الهندية في كابل عام ٢٠٠٨ وقتلت أكثر من ٥٠ شخصًا(٢٥)، أما الخطر الثالث فيتصل بمصالح الهند طويلة المدى في أفغانستان بتزايد عدم الاستقرار السياسي في كابل، وانحسار الدور التنموي الذي لعبته الهند في فترة الاحتلال الأمريكي.

■ **إيران**(٢٦):

- دعمت إيران القوى المناهضة لحكم طالبان في الفترة التي سيطرت فيها على الحكم، وكانت البلدان على شفا الدخول في حرب في أواخر التسعينيات عندما قتلت طالبان في سبتمبر ١٩٩٨ عددًا من الدبلوماسيّين الإيرانيّين في مدينة مزار شريف شمال أفغانستان، وتوعَّدت إيران بالانتقام ونشروا آلاف الجنود في المنطقة الحدودية، إلَّا أن حربًا لم تقع وقتها(٢٧).

---

(24) Rudra Chaudhuri and Shreyas Shende, Dealing With the Taliban: India's Strategy in Afghanistan After U.S. Withdrawal, Carnegie India, 2 June 2020, available at: http://bit.ly/387N0To

(٢٥) براكريتي غوبتا، الهند... والحيرة من التورط في المستنقع الأفغاني: تخشى أن تصبح الخاسر الرئيسي في صفقة تعزز من وضعي باكستان و«طالبان»، الشرق الأوسط، ٢٥ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2X6oH1J

(26) Colin P. Clarke and Ariane M. Tabatabai, What Iran Wants in Afghanistan, Foreign Affairs, 8 July 2020, available at: http://fam.ag/3pDbLg6

(٢٧) راديو.. طالبان تهاجم المركز الثقافي الإيراني في مزار شريف وتقتل شخصا، موقع وكالة الأنباء الكويتية (كونا)، ١٤ سبتمبر ١٩٩٤، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/355MoMe

● أيّدت إيران جهود الولايات المتحدة في أعقاب غزو الأخيرة لأفغانستان في أواخر عام ٢٠٠١، وساعدت في بناء التحالف الذي سيحلُّ محل طالبان في كابل، وأصرَّ المسؤولون الإيرانيون آنذاك على أهمية إجراء انتخابات ديمقراطية.

● تعتبر الحرب بالوكالة سمة أساسية للسياسة الخارجية الإيرانية، إلا أنها لم تستطع التدخل في أفغانستان لتحقيق مصالحها، كما فعلت في الدول العربية، مثل سوريا والعراق ولبنان واليمن، وعلى الرغم من استهداف ولاية خراسان لأهداف شيعية داخل أفغانستان، إلا أنها نأت بنفسها عن التدخُّل العسكري، ولعل التواجد العسكري للولايات المتحدة وحلفائها سبب مقنع لعدم انخراطها في أفغانستان.

● الجدير بالذكر أن إيران قد سعت في السنوات الأخيرة لإقامة علاقات مع حركة طالبان، فكلاهما يعادي الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن إيران ارتأت أهمية التعاون مع طالبان لمواجهة ولاية خراسان التي أعلنت ولاءها لتنظيم الدولة، فقدَّم الحرس الثوري الإيراني دعمًا ماليًّا وعسكريًّا كبيرًا إلى الحركة، بما في ذلك التدريب العسكري، وذكر تقرير للبنتاغون عام ٢٠١٤ أن الحرس الثوري الإيراني كان يساعد طالبان منذ عام ٢٠٠٧ على الأقل[٢٨].

● هناك أيضًا بعد برجماتي في سعي إيران لتقوية علاقاتها مع طالبان، فمع مرور سنوات الاحتلال الأمريكي لاح في الأفق عجز الولايات المتحدة وحلفائها عن استئصال الحركة، وتطوَّرت الأوضاع فيما بعد لجلوس الطرفين –أمريكا وطالبان– على طاولة المفاوضات، وهو ما يعني أن طالبان ستظلُّ فاعلًا مؤثرًا في الساحة الأفغانية، وبناء عليه فقد مالت إيران لتوطيد علاقاتها مع طالبان.

● يتيح الانسحاب الأمريكي من أفغانستان الفرصة لإيران لتوسيع نفوذها، فضلًا عن أن استقرار الداخل الأفغاني سينعكس إيجابيًّا على إيران، فالأخيرة قد عانت من نزوح مئات الآلاف من المهاجرين الأفغان الذي فرُّوا من ويلات الحرب.

● تتمثل المصالح الكبرى لإيران في أفغانستان في الحفاظ على الاستقرار على الشريط الحدودي بين البلدين، وإيصال البضائع الإيرانية داخل السوق الأفغانية.

● أخيرًا فإذا ما قرَّرت إيران أن تندمج أكثر في الشؤون الداخلية الأفغانية في حالة الانسحاب التام للولايات المتحدة، فستكون حاضرة بأدواتها الفعَّالة، فالقائد الجديد لفيلق القدس التابع للحرس الثوري هو العميد إسماعيل قاآني، ولديه خبرة عريضة في أفغانستان، حيث سبق وأن لعب دورًا عملياتيًّا في تجنيد الأفغان للقتال لصالح إيران إبان الحرب الإيرانية العراقية في ثمانينيات القرن الماضي.

المستوى الثالث (إقليم جنوب آسيا وجيرانها)

نتناول في هذا الجزء الدور الذي تلعبه كل من القوَّتين الكبريَيْن روسيا والصين في أفغانستان، إحدى الدول المكونة لإقليم جنوب آسيا

١– الصين:

● شكَّل التواجد العسكري الأمريكي في أفغانستان منذ عام ٢٠٠١ تهديدًا بالنسبة إلى الصين، باعتبار أن أفغانستان تقع في الفناء الخلفي لها، إلا أنه من ناحية أخرى كان مهمًّا لتحقيق نوع من الاستقرار، للقضاء على البؤر الإرهابية التي تهدِّد الأمن الداخلي للصين[٢٩].

● في البداية تجنَّبت الصين كافَّة أشكال التدخُّل العسكري في أفغانستان، وسعتْ إلى تطوير علاقات عسكرية مع الحكومة الأفغانية على استحياء، وتعهَّدت

(٢٨) أكرم عمروف، إيران وطالبان: أصدقاء أم أعداء؟، موقع عين أوروبية على التطرف، ١٧ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3b5b9f2

(29) Yun Sun, China's Strategic Assessment of Afghanistan, War on the rocks, 8 April 2020, available at: http://bit.ly/3pKK3OC

بتقديم مبلغ ٧٠ مليون دولار لدعم الجهود الحكومية لمكافحة الإرهاب في عام ٢٠١٦.

- سعت الصين إلى توسيع وجودها العسكري في أفغانستان من خلال نشر القوات الصينية في ممر واخان في مقاطعة بدخشان، وهي قطعة من الأرض تمتد حتى الحدود الصينية، وعرضت إرسال مرشدين ومدربين لقوات الأمن الأفغانية خلال إدارة الرئيس أشرف غني(٣٠).

- سعت الصين كذلك إلى بناء قاعدة عسكرية في مقاطعة بدخشان ونشرت لواءً عسكريًّا تابعًا للجيش الصيني رغم إنكارها الرسمي، وأصرَّت على نشر أنظمة الإنترنت والملاحة الصينية التي تنافس نظام تحديد المواقع العالمي المصمَّم أمريكيًّا (GPS)، إلا أن الحكومة الأفغانية رفضت، ومن ثم انتقلت الصين لتعزيز نفوذها إلى باكستان ودفعت بتلك المساعدات (الاستخبارات والملاحة والمعدات العسكرية) إليها، ضمن مشروع الحزام والطريق، وهو ما فسَّرته الحكومة الأفغانية على أنه انتقام لرفضها قبول التوسُّلات العسكرية الصينية.

- بشكل عام تسعى بكين إلى تعزيز مكانتها كلاعب اقتصادي مهيمن في إقليم آسيا الوسطى(٣١)، وضم أفغانستان إلى مبادرة الحزام والطريق يوفِّر لها سوقًا ضخمًا للاستثمارات لا سيما في حالة تحقيق استقرار أمني.

- من المصالح الأمنية التي تبحث عنها الصين في أفغانستان منع أي دعم أو تمويل للإيجور(٣٢)، وإيقاف أي نوع من "الأسلمة"، وبالتالي فهي تسعى إلى التأكيد على أن الدول المجاورة وعلى -رأسها أفغانستان- لا تقدِّم أيَّ دعم روحي أو دفاع سياسي أو دعم مادي لمجتمع الإيجور وجناحه المسلح.

- بخصوص طالبان لم تشارك الصين في العمليات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة منذ عام ٢٠٠١، إلا أنه بعد مرور عشر سنوات بدا أن التحالف الدولي لن ينجح في القضاء على الحركة، ومن ثم بدأت الصين في تقديم الدعم خوفًا من مساعدة طالبان للإيجور.

- في السنوات الخمس الأخيرة دعت بكين عددًا من مسؤولي طالبان وعملت على تحسين العلاقات معها، ودفع عملية التسوية السياسية في أفغانستان، وهو ما اعتبرته الحكومة الأفغانية تعدِّيًا على دورها، لا سيما أن الصين لم تكن تُطلع الأخيرة على نتائج المحادثات.

- أما عن المفاوضات بين الولايات المتحدة والحركة فقد اتَّخذت الصين موقفًا وسطًا، فلم تسعَ لإفشال المفاوضات، كما أنها لم ترغب في التدخُّل بشكل مباشر وطرح الأهداف التي تسعى لتحقيقها، رغم أن المبعوث الأمريكي زلماي خليل زادة كان يطلع الصين على كافة المستجدات أولًا بأول(٣٣).

- رحَّبت الصين بالاتفاقية التي وُقِّعت في فبراير ٢٠٢٠، لكنها في الوقت نفسه أكَّدت على أن "القوات الأجنبية في أفغانستان يجب أن تنسحب بطريقة منظَّمة ومسؤولة لضمان انتقال سلس وتجنُّب الفراغ الأمني خاصة

(30) Vanda Felbab-Brown, A BRI(dge) too far: The unfulfilled promise and limitations of China's involvement in Afghanistan, Brookings Insitute, June 2020, available at: http://brook.gs/3nasG87

(٣١) محمد فايز فرحات، الصراع القادم على أفغانستان، موقع العين الإخبارية، ٩ مايو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3pOfOpI

(32) Vanda Felbab-Brown, A BRI(dge) too far: The unfulfilled promise and limitations of China's involvement in Afghanistan, Op. cit.

(33) Ibid.

لمنع الجماعات الإرهابية من أن تصبح أقوى في أفغانستان"[٣٤].

٢– روسيا:

● لأفغانستان أهمية جيوستراتيجية بالنسبة لروسيا، ومن ثم ففي ظل صعود روسيا البوتينية فقد أولت اهتمامًا لأفغانستان وتعلَّمت من درس الإخفاق السوفيتي قبل انهياره، فانتهجت سياسات برجماتية، وسعت لتحقيق مصالحها بعيدًا عن هوية من يحقق لها ذلك، بخلاف الاتحاد السوفيتي الذي كان يسعى لتجنيد حلفاء أيديولوجيِّين.

● أيَّدت روسيا انسحاب كل من الولايات المتحدة وحلف الناتو، ففي مايو ٢٠١٩ دعت روسيا كلًّا من الحكومة وحركة طالبان للاحتفال بما سمَّته "مئة عام من الصداقة الروسية الأفغانية"، واستغلَّ وزير الخارجية الروسي لافروف هذه المناسبة ليدعو إلى الانسحاب الكامل للقوات الأجنبية.

● عاودت روسيا التأكيد على موقفها، فعقب تعثُّر المفاوضات بين الولايات المتحدة وطالبان في سبتمبر ٢٠١٩، دعت روسيا عددًا من أعضاء طالبان إلى اجتماع بالعاصمة الروسية، وصرَّحت المتحدِّثة باسم وزارة الخارجية الروسية بالقول: "نحن مقتنعون بأن الإنهاء الكامل للوجود العسكري الأجنبي هو شرط غير قابل للتفاوض لتحقيق سلام دائم في أفغانستان".

● وجَّهت الولايات المتحدة اتهامات إلى روسيا بأنها قدَّمت مكافآت مالية لطالبان لدفعهم إلى قتل عسكريّين أمريكيّين أو حلف الناتو[٣٥]، كذلك تقديم الدعم لطالبان عبر تمويل وتسليح الحركة، لا سيما وقد وُجدت بنادق للقنص الليلي مُصنعة في روسيا في أيادي مقاتلي طالبان، كما أشارت تقارير لسعي روسيا مع إيران لإنشاء معسكرات تدريب لمقاتلي طالبان في إيران.

● بدلًا من تكوين حلفاء داخل أفغانستان –كما كان في التدخُّل السوفيتي– تسعى روسيا لتحقيق مصالحها بعيدًا عن هُوية الفاعلين، وعلى هذا الأساس تواصلت مع حركة طالبان، في العلن من أجل مواجهة ولاية خراسان ذراع داعش في أفغانستان، ومن أجل دعم المصالحة بين الحركة والحكومة، وفي السر تمدُّ الحركة بالأسلحة والدعم اللوجيستي كما أشارت تقارير أمريكية.

● في الأخير يمكن فهم الدور الذي تطمع روسيا للقيام به في أفغانستان ضمن استراتيجيتها الكبرى لمجابهة الولايات المتحدة الأمريكية، واستعادة المجد السوفيتي الضائع، وطموح بوتين لإعادة تشكيل النظام العالمي وتحويله للنمط متعدِّد الأقطاب.

المستوى العالمي

لا زالت الولايات المتحدة الأمريكية مصنفة إلى الآن القوة العظمى في النظام الدولي، وهي أكثر الدول انخراطًا في أفغانستان منذ عام ٢٠٠١، سنحاول أن نتفهَّم الأهداف التي تسعى إليها الولايات المتحدة في الفترة المقبلة، بعدما أخفقت في القضاء على طالبان، وصارت أفغانستان إحدى الدول الفاشلة.

الاستراتيجية الأمريكية في أفغانستان

أضحت لأفغانستان مكانة بارزة باعتبارها مصدر قلق كبير في السياسة الخارجية للولايات المتحدة عبر العقدين الماضيين، وفقدت حوالي ٢٤٠٠ جندي في أفغانستان، وخصَّص الكونجرس خلال هذه الفترة حوالي ١٤١ مليار دولار لإعادة الإعمار ونشر الاستقرار الأمني هناك.

(34) Ibid.

(٣٥) واشنطن تتهم موسكو بتقديم مكافآت مالية لطالبان لقتل جنود أمريكيين، موقع جريدة الشروق، ٢٧ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/38ccOxM

وفقًا للتقرير الصادر عن وزارة الدفاع الأمريكي فالمصلحة الحيوية الأهم للولايات المتحدة في أفغانستان تتمثل في ضمان عدم استخدام أراضيها كملاذ آمن لما سمَّتهم "الإرهابيِّين" لتهديد الولايات المتحدة أو حلفائها أو مصالحها في أي بقعة على الأرض(٣٦)، وبناء عليه فالهدف الذي تسعى الولايات المتحدة لتنفيذه هو إقامة تسوية سياسية من خلال إجراءات عمليات تفاوضية تنهي الصراع في أفغانستان وتمنع الإرهابيِّين من استخدام أفغانستان لتهديد أمن الولايات المتحدة أو حلفائها(٣٧).

تسعى الإدارة الأمريكية في أفغانستان لتطبيق استراتيجيتها الخاصة بجنوب آسيا، والتي يُرمز إليها بـ" R4+S"وهي الأحرف الأولى من الكلمات الخمس: Reinforce, Realign, Regionalize, Reconcile, Sustain، بمعنى تعزيز وإعادة تنظيم وإضفاء الطابع الإقليمي والمصالحة والاستدامة، وهي كما يلي:

- **تعزيز** القدرات القتالية للقوات الخاصة الوطنية الأفغانية ANDSF، من أجل دعم وحماية شرعية الحكومة الأفغانية.
- **إعادة تنظيم** المساعدات العسكرية والمدنية التي تقدِّمها للولايات المتحدة لتستهدف المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة الأفغانية، بغرض تدعيم الأمن في هذه المناطق.
- **إضفاء الطابع الإقليمي** بمعنى توسيع نطاق تقاسُم الأعباء بين الشركاء الإقليميِّين –وعلى رأسهم باكستان– لدعم التسوية السياسية داخل أفغانستان، وإنشاء إجماع دولي من أجل تحقيق السلام.
- **المصالحة:** فالهدف الأساسي لاستراتيجية الولايات المتحدة في جنوب آسيا فيما يتعلق بأفغانستان هو إقامة تسوية سياسية دائمة وشاملة لإنهاء الحرب، وعلى هذا الأساس وقع المسؤولون الأمريكيُّون اتفاق الدوحة مع طالبان والذي مهَّد للاتفاق بين طالبان والحكومة الأفغانية فيما بعد.
- **الاستدامة:** أي تحقيق الاستراتيجية الأمريكية أهدافها بتكاليف معقولة، مع تعظيم عائد الاستثمارات المالية والعسكرية والسياسية.

هنا يتَّضح أن الولايات المتحدة بعدما فشلت في إقامة دولة مستقرَّة كما وعدت في أعقاب الغزو الذي مضى عليه أكثر من ١٩ عامًا، وكذلك بعدما أخفقت في استئصال حركة طالبان أو كسر شوكتها؛ انخفضت طموحاتها، ورأت أن تكاليف الحرب والانخراط في أفغانستان أكبر من المكاسب المتوقَّعة، ومن ثم تضاءَلت أهدافها، وصارت تبحث عن إقامة تسوية سياسية بين الأطراف المتنازعة، ومنها طالبان، وأن تستقر أفغانستان أمنيًّا كي لا تكون مصدرًا للتهديد.

أخيرًا فقد أثيرت شكوك في دوائر السياسة الأمريكية حول جدوى قرار الانسحاب الذي أعلنه ترامب ومضى قدمًا في تنفيذه، وكذلك في مصداقية طالبان في الوفاء بما جاء في اتفاقية التسوية، لا سيما أنه لا توجد ضمانات حول وفائها بالشروط، وهنا يأتي التساؤل الذي سيجيب عنه المستقبل القريب، فها هي ولاية ترامب تنتهي وسيأتي رئيس جديد على رأس أولوياته إصلاح ما أفسده ترامب، وليس من المستبعد أن يعيد بايدن النظر في الاتفاق وجدواه، ويؤخِّر الانسحاب الأمريكي الكامل من أفغانستان منتظرًا ما ستُسفر عنه المفاوضات بين الحكومة وطالبان.

---

(36) Semi-Annual Report: Enhancing Security and Stability in Afghanistan, Department of Defense of USA,1 July 2020, p. 1, available at: http://bit.ly/3pFuCqE

(37) Ibid, p. 5.

خلاصة هذا المحور أنه لا يمكن فهم تطورات الأوضاع في أفغانستان بعيدًا عن الدور التي تلعبه القوى الإقليمية والدولية فيها، فكل الأطراف التي تسعى لتحقيق مصالحها الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية داخل أفغانستان، أقرَّتْ بشرعية وجود حركة طالبان كفاعل سياسي في الساحة الأفغانية، بعدما فشلت الولايات المتحدة في القضاء عليها، ومعظم هذه الأطراف مؤيّدة للانسحاب الأمريكي من أفغانستان، باستثناء الهند، وإن كان الجميع يتمنَّى ألَّا يتمَّ الانسحاب إلَّا بعد تحقيق استقرار أمني وسياسي في البلاد.

خلاصة ونتائج

- بعد سنوات ممَّا سمَّته الولايات المتحدة "الحرب على الإرهاب" أخفقت الولايات المتحدة وحلفاؤها في تحقيق الأهداف الأساسية التي رفعتها، فلا هي قضت على طالبان، ولا هي نجحت في جعل أفغانستان بلدًا مستقرًّا أو حتى شبه مستقر.

- لا يقتصر الأمر على الإخفاق في القضاء على طالبان، بل والإقرار الواقعي بها كطرف فاعل في المستقبل الأفغاني، فلا سلام سيتحقَّق بغير أمن، ولا أمن كائن بدون اعتبار حركة طالبان والتعامل معها، ومن ناحيتها فقد نجحت الحركة في انتهاج استراتيجة موفَّقة، جمعت فيها بين حمل السلاح والمقاومة، وبين الجلوس على طاولة المفاوضات وإملاء شروطها على الأطراف الأخرى.

- من الناحية الواقعية لا يُتوقَّع أن يحدث استقرار أمني وسياسي في المستقبل القريب، في ظلِّ عدم توافر الحد الأدنى من الظروف التي تهيّئ ذلك، من التزام الأطراف ببنود الاتفاقية، وقدرتهم على فرض إرادتهم وتنفيذها بالفعل على أرض الواقع.

- من الأمور التي قد تقلب الأوضاع رأسًا على عقب هو تغيُّر الموقف الأمريكي والتراجع عن الانسحاب الكامل من أفغانستان، وهو ما قد يُعيد الأوضاع إلى نقطة الصفر.

- في حالة الانسحاب الكامل للولايات المتحدة الأمريكية فسوف تُتاح الفرص لعدد من الدول والقوى الإقليمية للتدخُّل بشكل أوسع وبأدوات أقوى في أفغانستان، وهو أمر لا يبشِّر بإمكانية حدوث استقرار، بل ربما تصير أفغانستان ساحة للحرب مرة أخرى، ولكن بين أطراف إقليمية هذه المرة.

- في الأخير فقبل قرابة عشرين سنة كانت أفغانستان محل أنظار الملايين من العالم العربي مع إعلان الولايات المتحدة وحلفائها الحرب على أفغانستان، إلا أنه في السنوات الأخيرة انحسرت المتابعة العربية لهذه البقعة من الأرض، بعدما اشتعلت الأوضاع في أعقاب الربيع العربي، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هناك امتدادًا تاريخيًّا وحضاريًّا لا ينقطع بين العرب وأفغانستان، فهو أحد الثغور الاستراتيجية للعالم الإسلامي، وهو مهدٌ لعدد كبير من العلماء الذين خلَّدت الحضارة الإسلامية ذكرهم إلى الآن.

*****



الانقلاب العسكري في مالي: بين الداخل والخارج

سارة إبراهيم أبو العزم داود(*)

مقدمة:

شهدت مالي انقلابا عسكريا في الثامن عشر من أغسطس عام ٢٠٢٠ بعد إرهاصات عدة تخللتها احتجاجات ومواجهات عنيفة من قبل أجهزة الدولة للمحتجين ومحاولات للتوسط من قوى إقليمية، غير أنها باءت بالفشل، وانتهى الأمر بالرئيس السابق إلى الاستقالة ثم الاحتجاز بعدها.

تباينت ردود الأفعال حيال هذا الانقلاب، ففي مقابل الداخل المؤيِّد للانقلاب نجد أن ردود الفعل الإقليمية والدولية يغلب عليها الرفض أو القلق والترقُّب حيال هذا الانقلاب ولا يستثنى من ذلك إلا الموقف الروسي، ويمكن تفسير ذلك بأن مالي ملتقى لشبكة معقَّدة من المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية لأطراف عدَّة.

وفيما يلي نحاول الوقوف على هذا الانقلاب من خلال دراسة أهم أحداثه وتطوراته، والقيادات التي تصدرت زعامته، والأسباب الكامنة التي ساعدت على حشد الداخل لتأييده ونبذ الحكومة السالفة والقبول بالإطاحة بها بأي سبيل حتى لو كان انقلابًا عسكريًّا، وفي مقابل هذا التأييد الداخلي نحاول البحث عن المصالح الحاكمة للقوى الخارجية في مالي ونبحث كذلك في المواقف التي اتَّخذتها أو أعلنت عنها.

(*) باحثة في العلوم السياسية.

أولًا– وقوع الانقلاب

شهدت مالي انقلابًا عسكريًّا في الثامن عشر من أغسطس عام ٢٠٢٠ بدأ بإطلاق نار مكثَّف في قاعدة كاتي العسكرية بالقرب من العاصمة باماكو(١)، وهي ذات القاعدة التي انطلق منها انقلاب عام ٢٠١٢ الذي أتى بالرئيس إبراهيم كيتا الذي تمَّ الانقلاب عليه، ويُعَدُّ هذا الانقلاب الرابع من نوعه في مالي، حيث سبقه ثلاثة انقلابات أخرى في الأعوام ١٩٦٨ و١٩٩١ و٢٠١٢، وسبقته إرهاصات عدَّة وختمت بتبادل إطلاق النار وتمرُّد عسكري داخل القصر الجمهوري.

بمجرد إذاعة بيان الانقلاب أعلن كيتا استقالة حكومته وحل البرلمان والتخلِّي عن جميع صلاحياته، وكان السمت الأبرز لهذا الانقلاب أن تكلفته دمويًّا كانت أقل ما يمكن، إذ تنازل كيتا فورًا وأعلن في بيان استقالته رغبته في عدم سفك الدماء(٢).

انتهى الانقلاب باعتقال الرئيس إبراهيم بوبكر كيتا بعد إجباره على تقديم استقالته واعتقل أيضًا رئيس وزرائه بوبو سيسيه ووزير الخارجية تيبيلي درامي ووزير المالية عبد الله دافيه ووزير الدفاع اللواء إبراهيم ضاهرو ديمبيلي ثمَّ تمَّ اقتيادهم بعدها إلى وحدة عسكرية تبعد عن باماكو حوالي ١٥ كم تقريبا(٣).

(١) الانقلاب في مالي.. تحركات دولية على وقع أصوات الرصاص، العين الإخبارية، ١٩ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://al-ain.com/article/mali-cop-africa

(٢) من مقر احتجازه.. رئيس مالي معلنا استقالته: لا أريد إراقة الدماء لإبقائي، مصراوي، ١٩ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3r5Fpw4

(3) Martial paul, After the putsch: What future for Mali?, Europe Solidaire Sans Frontières, 19 July 2020, accessed: 1

وقد حاول الانقلابيون إضفاء الشرعية على انقلابهم بشتَّى السُّبل، حيث أعلنوا تشكيل "لجنة وطنية لإنقاذ الشعب" برئاسة العقيد "جويتا" على أن تكون متنوعة وممثلة لكافَّة الماليّين، إذ إنها تضم مختلف التشكيلات العسكرية والأمنية، كما أعلنوا اعتزامهم تشكيل حكومة انتقالية متنوِّعة تمثِّل كافَّة الماليّين بما في ذلك الأحزاب الداعمة للرئيس السابق كيتا، وبالفعل عقدوا لقاءات مع قادة المعارضة بمن فيهم قادة الطرق الصوفية وتحديدًا الإمام محمود ديكو والذي تزعَّم الاحتجاجات خلال الشهرين السابقين على الانقلاب، لكنه قرَّر الانسحاب من المشهد السياسي بعد الانقلاب(٤)، كما أعلن الانقلابيون أن اللجنة المشَكَّلة ستقود فترة انتقالية للبلاد لمدة ثلاثة أعوام، لكن هذا الإعلان لاقى معارضة داخلية شديدة وإدانة دولية(٥).

كما حرص قادة الانقلاب على بثِّ رسائل الطمأنينة للداخل والخارج، حيث قاموا بدعوة الموظفين إلى أعمالهم، كما أعلنوا فتح الحدود البرية والجوية للبلاد، كما أكَّدوا على التزامهم بجميع الاتفاقيات الدولية بما في ذلك المتعلِّقة بالحرب على الإرهاب(٦).

- **قيادة الانقلاب**

وقع الانقلاب بقيادة ثلاثة قادة عسكريِّين هم العقيد عاصم غويتي أحد القادة البارزين في الجيش المالي رئيس اللجنة الوطنية لإنقاذ الشعب والذي ذاع صيته في الحرب ضد المتمرِّدين في الشمال، إذ كان يرأس كتيبة مستقلة من القوات الخاصة وقاتل الجماعات الجهادية في الشمال خلال الفترة بين عامي٢٠٠٢–٢٠٠٨، والعقيد مالك دياو نائب قائد كتيبة كاتي التي تبعد عن العاصمة حوالي ١٥ كم والتي نفذت الانقلاب، وبها يتم احتجاز الرئيس وباقي الوزراء والقادة السياسيِّين، بالإضافة إلى قائد ثالث يدعى إسماعيل واغي نائب رئيس أركان القوات الجوية والمتحدث باسم اللجنة الوطنية لإنقاذ الشعب(٧).

- **أهم أحداث الانقلاب**

أعلنت مجموعة تمرُّدها داخل إحدى ثكنات العاصمة، أعلن بموجبه الرئيس إبراهيم كيتا استقالته عبر بيان تليفزيوني وذلك في ٨ أغسطس ٢٠٢٠، ثم قدَّم العقيد آسيمي غويتا نفسه على أنه يرأس اللجنة الوطنية لإنقاذ الشعب، وعقدت هذه اللجنة مؤتمرًا يوم الأربعاء أعلنت فيه تسييرها لمرحلة انتقالية سياسية وانتخابات عامة في مدَّة معقولة(٨).

تضمَّنت خارطة الطريق التي أعلن عنها المجلس العسكري عدَّة نقاط هامَّة تتضمَّن تشكيل عدد من المؤسسات والهيئات، وهي: مجلس انتقالي مكوَّن من ٢٤ عضوًا بينهم ٦ عسكريِّين و١٨ مدنيًّا يتم اختيارهم من قادة الأحزاب السياسية والمجتمع المدني والمنظمات النسائية، ويتم إلزام هؤلاء الأعضاء بالإعلان عن ممتلكاتهم قبل تولِّي مناصبهم وبعدها، واختيار رئيس وزراء من قبل المجلس، بالإضافة إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية من ١٥ وزيرًا،

December 2020, available at: https://bit.ly/3nsXHoC

(٤) سيناريوهات المشهد السياسي في مالي بعد الانقلاب العسكري، وكالة أنباء الشرق الأوسط، ٢٤ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3gW2JYr

(5) The Legacy of Military Governance in Mali, Africa center for strategic studies, 25 September 2020, accessed: 9 December 2020, available at: http://bit.ly/3gWCH7a

(٦) سيناريوهات المشهد السياسي في مالي بعد الانقلاب العسكري، مرجع سابق.

(7) Martial paul, After the putsch: What future for Mali?, Op. cit.

(٨) عبد الله ممين، خفايا الانقلاب في مالي، Independent عربية، ٢١ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3rbAE48

وكذلك لجنة وطنية لمراجعة الدستور، كما تضمَّنت كذلك تطوير خارطة الطريق الانتقالية، وتنظيم منتدى وطني للسلام، والإفراج الفوري عن القادة السياسيّين والعسكريّين المعتقلين وفي مقدِّمتهم سوميلا سيسي(٩).

كما كان الانقلابيون حريصين على إشراك القوى الإقليمية في مجريات الأمور، حيث بدأ المجلس العسكري فورًا محادثات مع الإيكواس، كما طلب من كل من فرنسا والأمم المتحدة بما لديها من ١٥ ألف جندي لحفظ السلام في مالي أن تبقيا ولا ترحلا، كما أكَّد الانقلاب تمسُّكه باتفاق السِّلم الذي تمَّ توقيعه في الجزائر عام ٢٠١٥ بين باماكو والمجموعات المسلَّحة في شمال البلاد(١٠).

وعلى النقيض من الوعود التي قطعها المجلس العسكري للإيكواس عيَّن المجلس العسكري باه ندوا أحد العقداء المتقاعدين رئيسًا للبلاد في ٢٢ سبتمبر ٢٠٢٠، وقد شغل سابقًا عدَّة مناصب، منها وزير الدفاع في عهد الرئيس السابق كيتا خلال عامي ٢٠١٤-٢٠١٥، كما عين عاصمي غويتا رئيس المجلس العسكري نائبًا للرئيس، ويتولَّى نائبُ الرئيس مهامَّ الإشراف على القوات المسلحة ومؤسسات الأمن الوطني، ثم تولى كلا منهما منصبه في الحكومة الانتقالية في الحكومة التي شكلها المجلس العسكري(١١).

ثانيًا- الانقلاب بعيون الداخل والخارج

أ) دوافع الانقلاب في الداخل المالي

تتعدَّد أسباب الانقلاب بين أسباب عميقة تتعلَّق بطبيعة السياق الإفريقي، وتقف خلف العديد من الانقلابات في العديد من الدول وليس فقط في مالي، وتتلخَّص هذه الأسباب في دور المؤسسات العسكرية في الأنظمة الأفريقية من حيث قوة الروابط مع الدول الاستعمارية وكونها القوة الأكثر تنظيمًا في النظم الأفريقية، فضلًا عن ميل قادتها للعب أدوار سياسية خلاف أدوارهم العسكرية، أما العامل الثاني فيتعلَّق بوهن الحياة السياسية الحقيقية والتي تتجلَّى في عدم وجود مؤسسات حزبية أو تبادل سلمي للسلطة أو مؤسسات عامة حاكمة فعلًا لمجريات الأمور أو فاعلين سياسيِّين يحسنون توجيه القدرات نحو تحقيق الصالح العام، أما السبب الثالث فيكمن في انتشار الفساد الإداري وتدهور الأوضاع الاقتصادية والذي فاقم بعض المشكلات كالجوع والفقر، وتؤدِّي هذه العوامل مجتمعة إلى فتح ثغرات للتدخُّل الخارجي من أجل النفوذ أو المصالح الاقتصادية(١٢).

بجانب هذه الأسباب العامة، فقد كانت هناك أسباب خاصة تقف خلف هذا الانقلاب تحديدًا، وفي مقدمتها الفشل السياسي لحكومة إبراهيم كيتا، حيث وعدت بالرفاهية في مستهل حكمها لكن في نهايته واجهت تهمًا بانتشار الفساد وثراء العسكريّين مقابل فقر الشعب، فضلًا عن انهيار الأمن، كما فشلت الحكومة في تحقيق الشرعية وبدأت الاتهامات لها مع الانتخابات الرئاسية في ١٦ من أغسطس ٢٠١٨ والتي انتُخِب فيها كيتا رئيسًا للمرة الثانية بينما اتهمه منافسه بالتزوير(١٣)، ولم ينجح كيتا بعد رئاسته في كسب قبول الأطياف المجتمعية المختلفة ومنها الطرق الصوفية بزعامة فرق تدعى الحموية والسلفية

---

(٩) المرجع السابق.

(١٠) مالي: انقلاب عسكري يعد بالاستقرار ويتبنّى "الحرب على الإرهاب"، العربي الجديد، ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2LSGEyF

(11) The Legacy of Military Governance in Mali, Op. cit.

(١٢) فاروق حسين، تأثير الانقلابات العسكرية في مالي على حالة الاستقرار السياسي: دراسة مكثفة لانقلاب أغسطس ٢٠٢٠، قراءات أفريقية، ٣ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3nBpOC4

(13) Eric Pichon, Mali: The coup and its consequences, EPRS| European Parliamentary Research Service, September 2020, available at: https://bit.ly/37tdApE

السنية السلمية واللتين انضم قادتهما إلى الاحتجاجات ضدَّ الرئيس كيتا.

كانت الانتخابات البرلمانية التجلِّي الأبرز للفشل السياسي لنظام إبراهيم كيتا، حيث قرَّرت المحكمة الدستورية تعديل نتائج الانتخابات البرلمانية في ثلاثين دائرة لصالح مرشحي النظام، كما شهدت الجولة الأولى من هذه الانتخابات نسبة امتناع وصلت إلى ٥٧% تقريبًا، أما في الجولة الثانية فقد تخطَّت نسبة الامتناع ٦٥%، مما يدلُّ على خسارة حكومة إبراهيم كيتا شرعيَّتها لممارسة السلطة[١٤].

كما تجلَّى الفشل السياسي في فشل الحوار الوطني الذي نظَّمه الرئيس كيتا يوم ٢٢ ديسمبر ٢٠١٩ في أعقاب مجزرة أوغوساغو مباشرة، حيث كان هذا الحوار بمثابة محاولة لحل الأزمة وتعهَّد فيه بإجراء انتخابات برلمانية جديدة وصياغة دستور جديد كذلك[١٥]، لكن معظم أحزاب المعارضة قاطعت الحوار، كما أعقب ذلك اختطاف زعيم المعارضة سميلا سيسي على يد جماعات مسلَّحة متطرِّفة حين كان يقوم بحملته السياسية وسط البلاد[١٦].

أمَّا السبب الثاني لقيام الانقلاب فيعود إلى الفشل الأمني في مواجهة الحركات المسلَّحة، وتجلَّى ذلك في وسط البلاد وشمالها سواء على يد مسلَّحي الطوارق أو المسلَّحين التابعين للحركات المسلَّحة في البلاد ما أسفر عن فقد أرواح ٥٠ جنديًّا، فاشتعلت الاحتجاجات ضدَّ الحكومة في شهر نوفمبر ٢٠١٩، حيث تظاهرت نساء الجنود الماليِّين في كلٍّ من باماكو وسيفاراي للمطالبة بتوفير التجهيزات العسكرية للجنود في ساحات المواجهة، وتزامن ذلك مع اتهامات متصاعدة لقادة الجيش بنهب مقدَّرات الجيش لصالحهم بدلًا من تحسين قدرة الجيش بها، والتزمت الرئاسة الماليَّة الصمت على ذلك، وهو ما ترك انطباعًا بالغ السوء لدى الرأي العام المالي[١٧].

كما تجلَّى الفشل الأمني في تملُّص القيادات العسكرية والأمنية في حكومة كيتا من اتفاقيات السلام في الجزائر ورفع الحماية عن بعض المناطق رغم انتشار التهديدات باحتمالية تعرُّضها لبطش الحركات المسلَّحة مثلما حدث في قرية أوغوساغو التي انسحب منها الجيش المالي فتعرَّضت لهجوم تفاوتت تقديرات ضحاياه بين ٧٠ و ١٥٠ ضحية فضلًا عن ١٩ مفقودًا[١٨].

كما فاقمت حالة الركود الاقتصادي التي اجتاحت البلاد السخط العام، خاصَّة مع توجيه اتهامات بالفساد للرئيس وحكومته، ففي بلد بلغت نسبة من يعيشون فيه تحت خط الفقر ٤١% تقريبًا عام ٢٠١٩ وتترجَّح زيادة هذا العدد بمقدار ٨٠٠ ألف شخص في عام ٢٠٢٠ كان الحري بالحكومة أن تتَّخذ سياسات لمكافحة هذا الفقر، لكن ما حدث هو أن الحياة السياسية غرقت بتهم الفساد، حيث اتُّهِم الرئيس بالفساد في شراء الطائرات الرئاسية وسيارات الدفع الرباعي الفاخرة كما طالت الاتهامات ابن الرئيس كريم كيتا، وهو ما زاد الحنق الشعبي ضد الرئيس[١٩].

وفي خضم تراجع شرعية الحكومة ائتلفت القوى المعارضة لنظام كيتا في إطار ما عرف بحركة "٥ يونيو –

---

(14) Martial paul, After the putsch: What future for Mali?, Op. cit.

(١٥) حكومة مالي تطلق نقاشا وطنيا للخروج من الأزمة، مونت كارلو الدولية، ١٤ ديسمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3mxx28T

(١٦) اختطاف زعيم المعارضة في مالي بعد نشاط انتخابي، Sputnik عربية، ٢٦ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2WwGhvm

(١٧) عبد الله ممين، خفايا الانقلاب في مالي، مرجع سابق.

(١٨) مالي: رئيس الوزراء يزور موقع المجزرة التي أودت بحياة نحو ١٠٠ شخص، فرنسا ٢٤، ١١ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2Wq5pnE

(19) Martial paul, After the putsch: What future for Mali?, Op. cit.

تجمع القوى المعارضة"، وقاد حركة المعارضة زعيم قوي استطاع تحقيق الوحدة بين الأطياف المختلفة من مسلمين ومسيحيين وغيرهما، كما تمكن من جمع كلمة الأحزاب والحركات ومؤسسات المجتمع المدني ضد الحكومة[٢٠]، وشهد شهر يونيو أيضًا احتجاجات عدَّة مناهضة لكلٍّ من الحكومة والرئيس مطالبة الأخير بالرحيل[٢١].

وفي مواجهة هذه الاحتجاجات وكذلك العصيان المدني الذي دعت له حركة ٥ يونيو لم تلجأ الحكومة لسياسات استيعابية بل واجهتها بالعنف الشديد، ما أسفر عن عدد من الضحايا بلغ حوالي ١١ قتيلا وعدد من الجرحى فاق مئة جريح[٢٢]، وأعلنت حركة ٥ يونيو المطالب الشعبية وفي مقدِّمتها رحيل الرئيس كيتا، فأقدم كيتا على حلِّ المحكمة الدستورية، لكنه بقي في الحكم وواجه المتظاهرين بالعنف حتى في المظاهرات التي سبقت قيام الانقلاب بأسبوع في ١١ أغسطس ٢٠٢٠[٢٣].

ويمكن عزو الانقلاب أيضًا إلى فشل جهود الوساطة الخارجية لاستيعاب الأزمة المالية، حيث تدخلت بعثة تابعة للإيكواس ووصلت إلى مالي بعيد اندلاع الاحتجاجات وتحديدًا في ١٥ يوليو ٢٠٢٠ مُحَاوِلةً حلَّ الأزمة، وطالبت بتشكيل حكومة وحدة وطنية وتعيين محكمة دستورية جديدة، لكن المتظاهرين رفضوا أي مقترح وواصلوا مسيراتهم الكبيرة مطالبين بتنحِّي الرئيس، كما أعلن الإيكواس في ٣١ يوليو وجوب تطبيق مقترح يقضي باستقالة ٣١ نائبًا برلمانيًّا اعتبرت المعارضة أنهم زوَّروا الانتخابات، وهدَّد التجمُّع بأنه سيتَّخذ تدابير عقابية ضدَّ أيِّ طرف يرفض تطبيق المقترح لكن فشلت جهود الإيكواس هي الأخرى[٢٤]، ولعلَّ هذه الأسباب مجتمعة تفسِّر سبب تشجيع الداخل المالي لتغيير الحكومة حتى لو كانت بسبيل الانقلاب.

ب) مصالح القوى الكبرى في مالي

على الرغم من القبول الشعبي للانقلاب، إلَّا أن الخارج لم يقابل الانقلاب بذات الحفاوة، حيث يتعدَّد الفاعلون في مالي وتتعدَّد مصالحهم كذلك؛ ما يجعل قراراتهم ومواقفهم من أي سلطة رهينة بمدى تحقق مصالح هؤلاء الفاعلين في ظلِّ هذه السلطة، وسنفصِّل فيما يلي:

المصالح الأمنية: النظام المالي مدعوم في قتاله ضد الحركات الجهادية المسلَّحة بخمسة بعثات دولية، فقد أوفدت الأمم المتحدة بعثة MINUSMA وعددها ١٣ ألف جندي، كما أوفد الاتحاد الأوروبي بعثتين إحداهما بعثة تدريب تدعى EUTM وعددها ٥٠٠ جندي، والأخرى هي بعثة الاتحاد الأوروبي المدنية لبناء القدرات في مالي، وبعثة القوات الخاصة للاتحاد الأوروبي والساحل إلى تاكوبا وتقدر بحوالي ٣٠٠ جندي، أما البعثة الثالثة فقد أوفدتها فرنسا وعرفت باسم (برخان) وعددها ٥١٠٠ جندي، وأما الرابعة فهي قوات دول الساحل الخمس وعددها ٥٠٠٠ جندي، وهذا كله فضلا عن مهام أكثر محدودية تؤدِّيها قوات تابعة لكل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا[٢٥].

---

(20) Miriam O'Donkor, Mali: Five factors that made the coup more likely, BBC, 20 August 2020, accessed: 1 December 2020, available at: http://bbc.in/3p4W8O7

(21) Eric Pichon, Mali: The coup and its consequences, Op. cit.

(22) Jędrzej Czerep, Coup d'état in Mali, The Polish institute of international affairs, 20 August 2020, accessed: 1 December 2020, available at: https://pism.pl/publications/Coup_detat_in_Mali

(٢٣) فاروق حسين، تأثير الانقلابات العسكرية في مالي على حالة الاستقرار السياسي، مرجع سابق.

(24) Eric Pichon, Mali: The coup and its consequences, Op. cit.

(25) Michael Cserkits, The coup d'état in Mali – Synchronizing African Facts with European Conceptions, Austria Institut für

يثير الانقلاب في مالي مخاوف عدم الاستقرار وما لذلك من انعكاسات على هذه البعثات، ورغم وعود السلطات الجديدة بالتعاون مع هذه البعثات لكن لا يزال هناك بعض التحفُّظ على السلطات الجديدة، ومع إخفاق الجهود الرامية إلى بناء جيش محايد سياسيًّا وعرقيًّا خاصة مع الانقسام في الجيش تنخفض القدرات القتالية للجيش.

المصالح السياسية: تتمثل أهم المصالح السياسية في توجُّس القوى الغربية من تمدُّد نفوذ قيادات إسلامية في مالي، حيث لعب الإمام محمود ديكو دورًا قياديًّا بارزًا في الاحتجاجات ضد الرئيس كيتا، يتمتَّع ديكو بنفوذ قوي في الحياة السياسية المالية، فقد سبق له أن عارض تعديلات على قانون الأسرة تنطوي على تعديلات متعلِّقة بالمرأة، كما يتمتَّع بعلاقات قوية ونفوذ مع العديد من الحركات والتنسيقات في الداخل المالي وبعضها كان له دور بارز في بعض أنظمة الحكم في مالي، ومن ثم فإن القوى الغربية تجد أن الفاعلين الأقوياء على الساحة لهم إمَّا خلفيات عسكرية أو خلفيات إسلامية، فلا تجد التيارات المدنية لها متسعًا كبيرًا وهو ما يثير قلق الدول الأوروبية[٢٦]، كما يتعاظم نفوذ الشيخ ديكو في أوساط الحركات ذات التوجُّهات الإسلامية وتتخوَّف القوى الكبرى من تداعيات ذلك على محاولاتها التفاوض مع المسلَّحين[٢٧].

كما تتضمَّن هذه المصالح حرص القوى الإقليمية على الحفاظ على الاستقرار السياسي في المنطقة، فالدول والمنظمات الإقليمية تتخوَّف من أن يؤدِّي الوضع في مالي إلى زعزعة الاستقرار الإقليمي spill-over effect لا سيما مع مجاورتها لسبعة دول هي الجزائر وموريتانيا والنيجر، وكذلك السنغال وبوركينا فاسو وساحل العاج وغينيا، كما أنها إحدى دول الساحل الأفريقي الخمس.

لا يقتصر الأمر على انتشار عدم الاستقرار إلى هذه الدول، بل إن عدم الاستقرار قد يكبد هذه الدول تكاليف أخرى تتعلق بمواجهة الأزمات الإنسانية مثل أزمات الهجرة والنزوح وانتشار الجماعات المسلحة في مالي إلى دول الجوار ولعل هذا أحد أكبر هواجس الجزائر التي تخشى التواصل والتنسيق بين مجموعات الأزواد والطوارق مما قد يثقل عليها العبء الأمني لمواجهة هذه الجماعات.

وبالنظر إلى تأثير الانقلاب نجد أنه فاقم كارثة النزوح بالفعل، إذ ارتفع عدد المشرَّدين داخليًّا في مالي خلال مارس من ٢١٨٠٠٠ إلى ٢٣٩٤٨٤ مشرَّدًا، هذا بخلاف الصراعات الدائرة في وسط مالي وجنوبها بسبب الصراع على الموارد المائية والرعوية بين الفولاني ومجموعات أخرى، فضلًا عن الصراعات الدائرة في الشمال على يد المجموعات المسلحة المختلفة.

وكان الوضع الاقتصادي متدهورًا قبل الانقلاب على إثر جائحة كورونا، حيث أغلقت ١٢٦١ مدرسة، كما طال انعدام الأمن الغذائي حوالي ٣،٥ مليون شخص أكدت الأمم المتحدة أن ٧٥٧ ألف منهم في وضع خطير[٢٨].

كما عادت القرصنة للظهور مرة أخرى بعد أن تراجعت حدَّتها مع تراجع هجمات القراصنة الصوماليِّين، غير أن ارتفاع معدلات الفقر وانتشار الجماعات المسلحة قد يدفع إلى معاودة القرصنة مرة أخرى[٢٩].

كذلك تعدُّ مالي ساحة صراع على النفوذ السياسي بين القوى الدولية وتحديدًا بين فرنسا وأمريكا وتعتمد هذه

Europa und Sicherheitspolitik (AIES), November 2020, accessed: 1 December 2020, available at: https://bit.ly/3nxLsHF

(26) Martial paul, After the putsch: What future for Mali?, Op. cit.

(27) Jędrzej Czerep, Coup d'état in Mali, Op. cit.

(28) Martial paul, After the putsch: What future for Mali?, Op. cit.

(٢٩) فاروق حسين، تأثير الانقلابات العسكرية في مالي على حالة الاستقرار السياسي، مرجع سابق.

الدول على الملفَّات العسكرية كأحد أدوات البحث عن نفوذ، ففرنسا تسعى للحفاظ على نفوذها السياسي والاقتصادي والعسكري في مالي باعتبارها مستعمرة سابقة لها، حيث تحاول بهذا النفوذ الهروب من الحصار المفروض على قاعدتها في جيبوتي، وتتبع عدَّة سُبل لتحقيق أهدافها منها إقامة الروابط بينها وبين مالي ومنها الرابطة الفرانكفونية، كما تسعى فرنسا لإنشاء قاعدة عسكرية لها في مالي(٣٠).

في مقابل السعي الفرنسي للنفوذ تسعى الولايات المتحدة لتأمين مصالحها الأمنية والاقتصادية والعسكرية في مالي، ولذا تجتهد في إقامة المبادرات والتحالفات مع الدول الأفريقية، ومن أهم هذه المبادرات "مبادرة الساحل الأفريقي Pan-Sahel Initiative" التي انطلقت عام ٢٠٠٢، ومبادرة "مكافحة الإرهاب عبر الصحراء "The Trans-Saharan Counter Terrorism Initiative وانطلقت عام ٢٠٠٤، ثم تأسَّست قيادة أمريكية موحَّدة للقارة الأفريقية وأطلق عليها "أفريكوم" عام ٢٠٠٧، وأدَّى كلُّ ذلك إلى تكثيف الوجود الأمريكي وتوسيع نفوذ الولايات المتحدة، وهو ما أزعج فرنسا لأنها تنافسها في مصالحها في مالي وخاصة المصالح العسكرية والاقتصادية(٣١).

تسعى تركيا لإثبات وجودها في القارة الأفريقية، حيث أبرمت العديد من الاتفاقيات مع تشاد والنيجر في الفترة الأخيرة على إثر زيارة وزير الخارجية التركي إلى المنطقة، بالإضافة إلى الاتفاقات مع السنغال خلال زيارة وزير الدفاع التركي لها، وتؤكد هذه التحركات على تمدُّد النفوذ التركي تدريجيًّا في أفريقيا(٣٢).

وتسعى روسيا أيضًا لإيجاد نفوذ لها في مالي من خلال التأثير على القيادات السياسية، أشار أحد المواقع المحلية المالية، ويُدعى إيه باماكو دوت كوم aBamaco.com إلى تدريبات تلقَّاها الانقلابيون في روسيا قبل الانقلاب برعاية القوات المسلحة الروسية، كما أن العقول المدبِّرة للانقلاب العقيدان مالك دياو وساديو كامارا سبق لهما قضاء عام في الكلية العسكرية بروسيا، كما يحاول الروسيون تعزيز التعاون العسكري بين روسيا ومالي نظرًا لضعفه الشديد، إذ لا توجد بين البلدين صفقات عسكرية كبرى سوى واحدة عام ٢٠١٦ لشراء أربع طائرات هليكوبتر، كما سلم الكرملين طائرتين هليكوبتر قتاليَّتين إلى مالي بين عامي ٢٠١٦ و٢٠١٩، وإذا كانت روسيا تسعى بحق إلى خلق مساحة في إفريقيا فإنها ستعتمد على كل من القوة العسكرية والاقتصاد جنبًا إلى جنب.

المصالح الاقتصادية: حيث تتمتَّع مالي بموارد اقتصادية تستمدُّها من ثرواتها، فهي ثالث دول القارة إنتاجًا للذهب كما تحتوي أراضيها على اليورانيوم، وتستمد مواردها الاقتصادية من موقعها الاستراتيجي والذي يعطيها أهمية كبرى للتجارة والأمن.

وبالنظر إلى كافَّة هذه المعطيات؛ تتبنَّى الدول والمنظمات الإقليمية والعالمية موقفها من الانقلاب الجديد، وسنحاول رصد أبرز ردود الفعل الإقليمية والعالمية، وذلك على النحو التالي:

١- الولايات المتحدة الأمريكية: تحاول الولايات المتحدة الأمريكية التأثير على مالي أيضًا من خلال التأثير

---

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) باسم عدلي، التنافس العسكري الفرنسي-الأمريكي بالساحل الأفريقي.. أسباب وأهداف، العين الإخبارية ، ١٨ سبتمبر ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://al-ain.com/article/africa-terrorism22

(٣٢) علي ياحي، انقلاب مالي معركة "لي ذراع" بين باريس وأنقرة... والجزائر تعيد حساباتها، Independent عربية، ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3aCeORB

على القادة العسكريّين عن طريق التدريبات العسكرية، وقد سبق لقادة الانقلاب في مالي الحصول على تدريبات في كلٍّ من أمريكا وألمانيا وفقًا للقيادة الأمريكية في أفريقيا "أفريكوم".

وتنطلق الولايات المتحدة في موقفها من الانقلاب من التوجُّس من احتمالات تعمُّق النُّفوذ الروسي في مالي، كما تتخوَّف من تداعيات الانقلاب على المساعدات العسكرية الأمريكية لمالي، وقد أكَّد المبعوث الأمريكي للساحل الأفريقي بيتر فام منع الولايات المتحدة أي تدريبات أو إمدادات للقوات العسكرية المالية بشكل مؤقَّت[٣٣]، ولذا حرص المسؤولون الأمريكيون على التواصل مع "اللجنة الوطنية لإنقاذ الشعب" دون أن يعني ذلك بالضرورة اعتراف واشنطن بالانقلاب، لكن الولايات المتحدة حريصة كل الحرص على عدم تكرار التجربة الأفغانية، ونظرًا لأن مصالحها في مالي تهدَّدت عقب انقلاب عام ٢٠١٢ الذي أدَّى إلى انتشار الجماعات المسلَّحة وسيطرتها على أجزاء كبيرة في شمال البلاد وتمدُّدها إلى الوسط، نسَّقت الولايات المتحدة مع القوى والمنظمات الدولية والإقليمية لبناء قدرة الجيش المالي في حربه ضد الجماعات المسلَّحة والجهادية[٣٤]، ومن ثم فإن هذا يدلِّل على أن وجود القوات الدولية مصدر طمأنينة للولايات المتحدة لأنها تمنع تمدُّد الجماعات المسلَّحة الجهادية في الشمال.

٢- روسيا:

كان السفير الروسي في مالي أول سفير يلتقي به زعماء الانقلاب، كما رفعت الأعلام الروسية خلال التظاهرات المؤيِّدة للانقلاب[٣٥]، ولعلَّ ذلك قد يفسَّر بأحد أمرين: دعم سياسي أو عسكري أو أي دعم آخر تلقَّاه قادة الانقلاب في روسيا، أو سخط شعبي مالي على التواجد الفرنسي في مالي الذي يبدو بلا جدوى في نظر الماليّين.

ويمكن فهم هذه الخطوات في إطار سعي روسي للنفوذ في غرب أفريقيا لكسب نقاط جديدة في تنافسها مع الغرب وخلق نقاط ضغط تنفعها مع الضغط عليها وفرض العقوبات، خاصة أن الرئيس المالي كيتا الذي تولَّى الرئاسة منذ عام ٢٠١٣ حتى تمَّ الانقلاب عليه كان يميل إلى فرنسا، بدليل وجود بعثة حفظ سلام فرنسية في مالي، فالدعم الروسي للانقلاب الجديد قد يشير ضمنًا إلى المحاولات الروسية للتمتُّع بموضع قدم في الغرب الأفريقي لمنافسة الوجود الغربي عامة والفرنسي خاصة[٣٦].

٣- فرنسا

صرَّح الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون بضرورة إعادة السلطة للمدنيّين وإطلاق سراح الرئيس والوزير الأول، وأكَّد على وجود تعاون بين كل من فرنسا والاتحاد الأوروبي والإيكواس لإيجاد مخرج للأزمة في مالي[٣٧].

كما أعلنت فرنسا استمرار القوات العسكرية في مالي للقيام بمهامِّها ضدَّ الحركات المسلَّحة، وأعلنت فلورنس بارلي وزيرة الجيوش الفرنسية أن فرنسا تتابع بشكل دائم اجتماعات القادة العسكريّين لدول الساحل الخمس، كما

---

(٣٣) فريد موفونيي، هل يحمل الانقلاب بصمات الكرملين، دويتشه فيله DW، ٢٨ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٦ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://p.dw.com/p/3hboI

(٣٤) محمد صفوت، "فورين بوليسي": مخطط انقلاب مالي تلقوا تدريبات عسكرية في أمريكا، مصراوي، ٢٢ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع ١٩ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3rcBEop

(٣٥) سيناريوهات المشهد السياسي في مالي بعد الانقلاب العسكري، مرجع سابق.

(٣٦) فريد موفونيي، هل يحمل الانقلاب بصمات الكرملين، مرجع سابق.

(٣٧) ماكرون يطالب بإعادة السلطة إلى «المدنيين» في مالي، الشرق الأوسط، ١٩ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3aqtRO8

أعلنت أن عملية برخان –التي انطلقت في ٢٠١٤ لمواجهة الحركات المسلَّحة في الشمال– ماضية قُدُمًا دون توقُّف[٣٨].

٤– الأمم المتحدة ومجلس الأمن

أعلن الأمين العام للأمم المتحدة إدانته الكاملة للإطاحة بالرئيس كيتا وطالب بإطلاق سراحه ووزراء الحكومة كذلك، كما دعا لعقد جلسة عاجلة يوم ٩ أغسطس لبحث تطورات الأوضاع في مالي، بينما طالب مجلس الأمن الجنود المشتركين في الانقلاب بضرورة العودة إلى ثكناتهم، وإطلاق سراح كل القادة السياسيِّين الموقوفين[٣٩].

٥– الاتحاد الأوروبي

أعلن الاتحاد على لسان ممثله الأعلى للشؤون الخارجية إدانته للتمرُّد المستمرِّ في الداخل المالي، ودعا الممثِّل الاتحاد الأوروبي لجلسات حوار من شأنها التوصُّل إلى حلول لمساعدة الدولة المالية وشعبها، كما أعلن دعم الوساطة التي تقوم بها الإيكواس.

٦– الاتحاد الأفريقي

طالب الاتحاد الأفريقي بإطلاق سراح الرئيس ومسؤولي الحكومة والقادة الموقوفين، كما علَّق عضوية مالي حتى عودة النظام الدستوري، وأدان المحاولات التي تسعى إلى تغيير الدستور، وطالب المتمردين بوقف كافَّة أشكال العنف واحترام مؤسسات الدولة، كما أدان مجلسُ السلم والأمن التابع للاتحاد الانقلاب في اليوم التالي له[٤٠].

٧– المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا (الإيكواس)

حذت المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا (الإيكواس) حذو الاتحاد الأفريقي في تعليق عضوية مالي، وعلَّقت كافَّة أشكال التبادل التجاري والاقتصادي والمالي معها، كما أغلقت الدول الأعضاء حدودها مع مالي[٤١]، لكنها مع ذلك أوفدت مجموعة للسفر إلى باماكو وترأَّسها الرئيس النيجيري السابق جوناثان، والتقى بقادة اللجنة الوطنية التي شكَّلها الانقلاب، وقالت بعض التقارير إنه التقى بالرئيس المعزول كيتا.

خاتمة

تعاني مالي من أزمة حقيقية في القيادات ولا يقتصر ذلك فقط على القيادات السياسية، بل تفتقر إلى القيادات السياسية والعسكرية والاقتصادية والمجتمعية، لكن الوجه الأبرز لذلك يتجلَّى في المجال السياسي حيث لم تنجح أي قيادة في تجاوز الأزمات العميقة التي تعاني منها مالي، ويستوي في ذلك القيادات ذات الخلفية المدنية ونظيرتها ذات الخلفية العسكرية، وبالتالي ستظل الأزمات قائمة حتى لو كانت مالي تتمتَّع بأثمن الثروات المادية والبشرية، ففي النهاية لا يوجد من يوجِّه هذه الثروات لتحقيق أهدافها.

كما تعاني مالي من الضعف النسبي للفصائل المالية وغياب فصيل قوي ومستقل عن تأثيرات القوى الخارجية وقادر على التأثير في مجريات الأمور فيها، بحيث يستطيع هذا الفصيل تحمل مسؤولية مالي، سواء مسؤولية التعامل

---

(٣٨) فرنسا تعلن استمرار عملية "برخان" رغم انقلاب مالي، العين الإخبارية، ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/2LGXLDc

(٣٩) مروان شلالا، إجماع دولي على إدانة الانقلاب في مالي، إيلاف، ١٩ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: http://bit.ly/3aniZjN

(٤٠) الاتحاد الأفريقي يعلق عضوية مالي ويدعو لإطلاق سراح الرئيس، اليوم السابع، ١٩ أغسطس ٢٠٢٠، تم الاطلاع عليه بتاريخ ١ ديسمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2Wu8dQU

(٤١) سيناريوهات المشهد السياسي في مالي بعد الانقلاب العسكري، مرجع سابق.

مع الوضع القائم وما يفرضه من تحديات، أو مسؤولية صياغة رؤية وطنية تستطيع أن تجمع الفرقاء الماليّين، فالجيش مثلًا يتمتَّع بقوة نسبية لكنه غير مستقل عن التدخُّلات الخارجية، فلا يستطيع أن يصيغ رؤية وطنية جامعة، وحسبه أن تبرز فيه قيادات تحاول لعب نفوذ سياسي وتستعين بقوى خارجية لتحقيق ذلك.

ويتعلَّق بذلك نقطة أخرى هي أن الجيوش في أفريقيا تتمتع بنفوذ قوي، وقد شهدت أفريقيا صعود العديد من الرؤساء العسكريّين الذين استطاعوا تحقيق تنمية ونهوض لبلادهم مثل توماس سانكارا، لكن الأزمة في مالي أن تحوُّل العسكريّين نحو ممارسة الحياة السياسية ليس إلا رغبة في النُّفوذ والسلطة، ولا يَنُمُّ عن رغبة في تحقيق نهوض أو تنمية لبلادهم، والدليل أن أيًّا من الانقلابات التي مرَّت بمالي لم تسْفر عن تغيير حقيقي على مستوى الدولة والمجتمع، وإن كان الوضع الحالي ليس سهلا التنبُّؤ بما سيُسفر عنه.

وتفاقم التدخُّلات الأجنبية الوضع سوءًا، إذ توجد قوى مختلفة بمصالح مختلفة وتحالفات مختلفة، فينتج عن ذلك تشرذم المجتمع المالي وتباين وجهات العاملين فيه، وبالتالي لا تعود المصلحة الوطنية المالية أولوية أولى.

****